





سيرة مدينة

و

نسيج حياة

} في سيرة مدينة، لا بد لنا أن نستحضر الإنسان والمكان والزمان والأشياء والبيئة والطبيعة والعلاقات والتفاعل بينها ومعها. وحينما نجمع كل هذا في لفظة مدينة فإننا نجعل الحياة بالكل مع الجزء وبالجزء داخل هذا الكل.

آية هارمونيا وتناغم سيتحققان في هذا السرد الذي سيكون نسجا لخيطوط حياة ووجدان وسلوك ومسالك ومحطات التقاء وتفاعل مؤثر ومتأثر؟

قد يحضر الحنين وتحضر النوستالجيا كمفهومين متكاملين بين دلالة الأول البسيطة والسطحية في التعريف اللغوي، ودلالة الثاني التي استفادت من تطور العلوم الإنسانية في الإغناء والتعمق في التوظيف. وهنا يكون الوعي مشكلاً من هذا التركيب.

هذه المدينة مثل باقي المدن التي عرفت الحياة والحضور في التاريخ. ربما له الحق في أن تعترف بنفسها وتستانس بحكي يخلد الحياة التي احتضنتها. ما درجات الفرح والفرح؟ كيف ستكون فوق خشبة الحياة ومسرح أحداثها الواقعة؟ تلك محطات مختارة كجزء من كل منفلت. سيكون للمكان حقه في التعريف النسبي به وفي وصفه ارتباطاً بنفسية المتعلق به سواء كان سارداً أو شخصية محكي عنها أو رواية منقولة في ارتباط به. هكذا سيكون الحديث عن الجبل، عن الكهف، عن النهر والوادي، عن مسبح الحمامة وغيره من المسابح الطبيعية، عن الأسواق والفنادق، عن هندسة المنازل وفضاء البساتين...

هكذا سيكون الانتصار لوجدان الإنسان وطريقة حضوره في هذا المكان، والتي ستكون هي الثقافة المترجمة لتاريخ وفلسفة العيش.

ولا يجب أن ننسى مكون اللغة واللهجة المحلية: سر الحقيقة في التعبير والتوظيف والحياة. فبدونها لا يمكننا أن نلمس الشعور والعلاقة الجامعة بين الذات والموضوع أكان هذا الموضوع شيئاً مادياً وأداة أو مكاناً أو فضاء ومجالاً... }

شارب الذهب



...

المصلى جبل صخري مكون من مصفحات ملساء كبيرة. تتخللها منبسطةً أماكن رطبة متربة للدرس، حيث تستعمل في الصيف لدرس القمح.

ذاكرة هذا المكان حاضرة في ذهن علال وعمر، حينما قررا صعود هذا الجبل. فبعد انتهائهما من مشاهدة تصوير الفيلم السينمائي اتفقا على الصعود إلى جبل المصلى. لأول مرة في حياة البلدة يشاهد السكان حدثا مثل هذا. من بين ما سترويه الساكنة للأجيال القادمة لاحقا:

هذا المستعمر (فرنسيس)، بقدر حقدنا عليه ككافر ومحتل وبقدر مقاومتنا له، تجدنا مندهشين، فاتحين أفواهنا لهذا الزخم من المنتوجات الجديدة والآلات (ماكينات) التي يحضرها أمام أعيننا.

ليس الأمر متعلقا بالأسلحة التي هددنا بها، ولا بلباسه العسكري الذي يميز جنوده. ها هي آلات تصوير لفيلم سينمائي !

. سينما؟! ما معناها؟

. صور يستحوذ عليها الشيطان لكي يمتلك عقولنا ويضلها! أولاد الحرام...

. ربي سيهلكهم كاملين، إن شاء الله. البارحة قرأت اللطيف في الجامع الكبير، ورفعنا الدعاء لجميع المسلمين، وطلبنا الله أن يرفع عنا الظلم والاستعمار.

. انظر، لقد أخذت نظارات شمسية، وزعها علينا ذاك النصراني.

. لماذا لم يعط للجميع؟ أنا لم آخذ شيئاً.

. آصاحبي، الذين وقفوا أمام المصورة هم الذين أخذوا النظارات.

. أليست الصور من كيد الشيطان وفعله؟ حتى أنت أصبحت معهم!؟

. أنا، أخذت النظارات والسلام. لم أفكر في حاجة أخرى. في الحقيقة النظر بها يغير رؤيتك لكل شيء. أتمنى أن أكون مع أصحاب الفيلم دائماً. لم لا، أسافر معهم أينما ذهبوا. عالمهم غريب وفريد.

سجّل عمر انطباعه وهو واضع للنظارات السوداء ومتأمل لمنظر ساحة خير وهما صاعدان مبتعدان عنها اتجاه جبل المصلى:

. تعال الآن، نصعد جبل المصلى ومن هناك نزل على ممر (هارون).*

*- قنطرة هارون لها نكهة في تسميتها. في حقيقتها أنها قنطرة يعبر فوقها ممر قناة الماء الصالح للشرب و الذي يأتي من عمق جبال زرهون ومن عين شاناش بالأساس. بنيت القنطرة في عهد المولى عبدالعزيز(مدة حكمه 1894 - 1908)، أحد الملوك العلويين. لا زالت الزليجة المؤرخة للحدث في أعلى القنطرة. لكن قليلا من الناس من يراها أو يعرفها. بينما تسمية هارون اتفاق شعبي على تلقيب هذا الفضاء الجميل، مفترق جبلين في الأصل كانا متحدتين. مخترق وإد يربط الوادي الميت بمجرى منحدر للمياه تجاه وادي الحامة، مازًا بمجموعة من العيون المائية التي تصب فيه،

...

المصلى كذلك، تسمية على مسمى. هي مكان الصلاة في الأعياد والمناسبات كصلاة الاستسقاء مثلا. يصعدها الناس فتجدهم كملائكة أو طيور بيضاء حطهم مركب فضائي، في تواصل مع العلياء، وطلب رحمة أو احتفال بالعيد الأصغر عيدالفطر، والعيد الأكبر عيد الأضحى.

هيبتها في امتدادها الصخري المسطح والمتخذ شكل لوحات صلبة متدرجة في انحدارها كطبقات أو ألواح مصفحة، تشد الأنفاس. لكن بمجرد وصولك إلى أعلى قممتها تجد منظرا رائعا يشد الحواس بجماليته. لا تحتاج إلى التعبير مع الطبيعة. يكفي أن تجعل حواسك تنسجم مع الصوت والصورة حتى تكون بدوق جديد ونفسية جديدة ورغبة مبتسمة في الحياة من جديد.

سارع الصديقان لصعود المصلى، وحدهم متفق على تدارك منظر ساحة خبير التي تركوها للتو، حتى يسجلوا في ذاكرتهم البصرية أجواء التصوير المستمرة، وتجمهر الناس حول أماكنه، و صفوف الجيش الفرنسي الحارسة والساهرة على سلامة المصورين، وكذلك من استخدموهم في الأمن المحلي،

والتي تأخذ تسمية مجالها ومجراها و المسافة التي تستقل بتملك ضحها بمائها الصافي والحو المذاق. وادي المييت يجف في الصيف غالبا لذلك يسميه أهل البلدة بالوادي المييت كما يسمون الممر والقنطرة ب(هارون). ولعل التسمية تجعل الهيبة للمكان وللثقافة المتفاعلة معه كما سنرى في تفاعل علال وعمر الصوتي مع لفظ هارون والصدى الراجع في النطق والصراخ به.

إلى جانب القايد والمقيم الفرنسي بالبلدة وبعض الشيوخ والمقدمين. هو جو احتفالي للمدينة، أنساها صراعها ضد المستعمر حتى حين.

. خبير يكون جميلا أيام الموسم.

. دابا . الآن . الموسم أقامته فرنسا. ههه. أنظر لطائفة الحمدوشية، مسموعة من هنا.

. سمعت القايد قال للشيخ أنهم سيرجعون في توقيت وتاريخ إقامة الموسم لكي يتمموا تصوير الفيلم.

.. بعد أن قاموا بتصويرهم الآن سيأخذون الصور لفرنسا، ثم يأتون في الصيف مع الموسم الكبير، صحيح؟

. بجالي بحالك. حتى نسأل العربي، راه فاهم هذا الشيء كامل.

*- لايد من توثيق محطة تصوير الفيلم والإشارة إلى البطاقة التقنية التي ترافق التعريف به، خصوصا وأنه بدأ تسجيله سنة 1929 تقريبا، ودون بالصورة والصوت احتفالات الموسم السنوي الذي يقام ببلدة مولاي إدريس زرهون. احتفالية تؤرخ لثقافة انثروبولوجية غنية بالرموز الفنية والحركية والسلوكية في اللباس كما في الرقص وغيرها. حاول الفيلم الاشتغال على قصة غرائبية ساحرة ودرامية لكنه سرعان ما تعلقت هذه الغرائبية اللاعنة بمناخ تصويره وعرضه كذلك حيث مرض البعض وفقد آخر زوجته واحترق شريط البث حين عرضه بمدينة نيويورك...

Les Cinq Gentlemen maudits est un film français réalisé par Julien Duvivier sorti en 1931.

. نزل من جهة (الروف*) أو نذهب حتى نبدأ من هارون؟

. تعالَ نجلس قليلا هنا قرب الروف.

والروف اسم لقرن صخري مطل من أعلى المدار الصخري الجبلي الذي يبدو كحصن للمصلى من تحت الوادي. فإذا كان المرء آتيا من منحرجات الحامة، يظن أنه يصعب عليه الوصول إلى أعلى القمة، في منظر رهيب يعطي الشعور بوجود مهاجمين خلف هذا الحائط الصخري.

لكن بالنسبة لسكان البلدة وشبابها، فالروف معروف بأنه أعلى سطح مغارة ضيقة وواقفة عموديا، تحتاج في الدخول إليها لحذر كبير من صخورها المتداخلة بجوانبها الحادة والصلبة. جداران صخريان تحتاج في تسلقهما لاستعمال يديك ورجليك، جميع الأطراف الأربعة، كلعبة تسلق الجبال. يجهبها الشباب عبر أجيالهم المتعاقبة، فيعلمها الكبار للصغار كرياضة تعطي حيوية وحركة دموية وشعورا بإنجاز انتصار على الطبيعة. في نفس الوقت، تشعر بمعانقة الطبيعة وتصالحك معها وأنت تنجح في تسلق صخور المغارة الصعبة حتى تصل إلى سطحها. إنه امتحان ينجح فيه المتمرن، كما يحتاج فيه المبتدئ

*- تسمية الروف لصخرة مسننة وبارزة كشرفة منفتحة من شفا جرف الجبل الصخري السامق في علوه. تبدو للعيان من زوايا متعددة متميزة ومهيبة كذلك. تبقى تسميتها بلفظ الروف كيف تمت خصوصا وان اللغة العربية لا نجد فيها ما هو قريب من الكلمة إلا ما نسجله من موقع بقرب مكة يسمى بالرواف أو بكلمة الرف. لكن في إطار الاقتراض اللغوي الذي يسجله الباحثون نتساءل حول علاقة الكلمة بالكلمة الإنجليزية: the roof، والتي تعني السقف، وكذلك بالفرنسية حيث تعني بناية فوق سطح مركب بحري مثلا...

إلى مساعدة برفع يده من طرف مساعد آخر أو جعل رجله بين كفي الآخر لكي يجتاز إحدى مراحل تسلقها الوعرة. لكنك، حينما تصل إلى أعلى، تشعر باكتشاف وامتلاك للمكان، لأنك مباشرة تتحول لمحيط بصري بين جبال متنوعة في ألوانها وصخورها وهندسة أشكالها. ترى الأرض كأنها قسمت جبلين وجعلت فتحة للوادي، وللطريق، كأنها جعلت ممرا للراجلين حتى يعبروا مسالكها، وللرعاة بغنمهم ومعزهم حتى يسيروا إلى أماكن رعيهم أو زريبتهم في غدوهم وروحتهم.

. تُرى كم من حيوانات ومخلوقات تسكن هذه الجبال وبين أشجارها وغصونها، وبين أحجارها ومغاراتها الصغيرة المتوزعة في شعابها وأدغالها؟

سؤال رده علال مع نفسه وهو يجول يبصره بين آفاق جبال زرهون من موقع الروف هذا العجيب، ويده اليسرى ممسكة بكفها لقرن شعره الذي تركه الحجام، حلاق المدينة الذي اعتاد أن يذهب مع أبيه عنده لكي يقوم بجلاقة رأسه وحجامة عنقه في هذا الفصل الشديد الحرارة. بينما أخذت اليد الأخرى قطعة الخبز التي كانت عنده في قرابه الصغير والذي يجعله على عنقه واستدارة جانبه الأيمن، كأنه تاجر بشكارتته ورأسمال حياته. كسرة خبز أو جزء منها، وكما يسميها الشباب في المدينة وأهلها ب(الفندور)، جزء كبير من الخبزة المستديرة في أصلها. كل مرة يأكل منه طرفا، يحلّيه بتين يابس جلبه

معه في قرابه. تريايق الأكل الجاف يستعين فيه بريقه لكي يجعل معه مسلكا لكل (دغمة) يقضمها، ويمضغها.

موقع الماء بعيد الآن. يلزمه هبوط المنحدر الجبلي بأكمله لكي يصل إلى المنبع القريب المتاح للماء العذب الذي تزخر به الجبال. حتى جنان التين والزيتون هي الآن بعيدة عنه لأنها في الجهة المقابلة من جبال وتلال زرهون. يحتاج إلى أكثر من ساعتين لكي يصل لها. وتلك مغامرة أخرى في التسلل إلى الجنان المحروسة من طرف (الحاضي) أو العساس. ربما تكون في رحلة هذا اليوم ومغامراته، وربما في يوم آخر.

...

من أعلى قمة الجبل المصلى، يبدو مسبح الحامة مليئا بالماء، بلون أخضر. بعض الرجال متفرقين في برك أو منابع الوادي الذي تجري فيه مياه الحامة، يستحمون فيها. الطريق الجديدة التي بناها المستعمر (فرنسيس)، تبدو منعرجات ملتوية ومنحدرة مع أسفل الجبل الذهاب في الانحدار حتى الوادي الذي يبدو عميقا وفارقا بين جبلين. الأول هو جبل المصلى، والثاني جبل الغابة، والذي يضم آثار مسكن قصر سيدي عبد الكريم بن الرضي، أحد الذين أقاموا بجوار المدينة بخيله وخدمه وأمواله وتجارته في قصر برج عالى، لا يمكن الوصول إليه إلا بصعود عقبة من الوادي، أو المرور من أعلى الجبل،

ما يترك لأمنه الخاص فرصة ترقب كل عادٍ وبادٍ، والاستعداد لكل أمر مفاجئ. لكنه اليوم بقي مجرد أطلال كأطلال الرومان أو الفراعنة.

الجبل المقابل للمصلى ينقسم بدوره إلى جهة مغطاة بشجر غابوي صنوبري، وجهة مليئة بأحجار مصفحة تشبه شكل جبل المصلى. أعلى الجبل تشاهد طبقة صلبة من الأحجار بيضاء اللون، والتي تحترقها ألوان بين الخضراء والسوداء بفعل عامل الرطوبة والاحتجاب عن أشعة الشمس. أما وسط الجبل فيبدو محضرا بأجمة الأشجار الملتفة من بعيد، كمسكن آمن لحيوانات غريبة وغير مرئية.

الشمس حارقة بعد الظهر وعلال وعمر يلتفتان من جديد جهة خير. يحولان نظرهما إلى أحياء المدينة. يبدو لهما حي القليعة والمنازل المعلقة فوقه. فعلا هو قلعة عالية:

. أنظر منحدر القليعة جهة الوادي. حائط يصعب تسلقه. لو أن الزراهنة دخلوا للقليعة وأغلقوا أبوابها، لامتنع على كل فرنسي أن يحكمهم.

. فكرة جيدة، ولكن الفلاحة والبساتين، من سيذهب إليها؟ يجب أن تفكر قبل أن تتكلم.

قال علال، محولا الكلام إلى منظر آخر ينسي ورطة تفكيره الخاطئ هذا:

. انظر لصومعة سيدي عبدالله الحجام. لا توجد فوقها راية اليوم.

. آ صاحبي راه الراية تكون يوم الجمعة وليس كل نهار. هل دوختك الشمس؟

. هيّا نذهب جهة هارون. نبدأ الجولة من هناك. ربما نجد سمكا في الوادي.

...

((و أنت في الوادي استمع إلى حمادشة، ورّدّ الذكر، تجد العلياء تُرجع
الصدى في الوجدان))

قبل قنطرة هارون، والتي لها نكهة في تسميتها. ذلك أن التسمية اتفاق شعبي على تلقيب هذا الفضاء الجميل، مفترق جبلين في الأصل كانا متحدين. مخترق وادٍ يربط الوادي الميت بمجرى منحدر للمياه تجاه وادي الحامة، مارًا بمجموعة من العيون المائية التي تصب فيه، والتي تأخذ تسمية مجالها ومجراها والمسافة التي تستقل بتملك ضخها بمائها الصافي حلو المذاق. تمر بالغدير الأول، ثم الغدير الثاني الأصغر منه والذي يسمى بالغديرة، تصغيرا له لحجمه الأصغر من الأول، وكلها مناطق للسباحة والعموم بالنسبة لشباب المدينة على الخصوص.

سيسلك الصديقان، (أولاد الخالة) في الأصل، كل هذه الأماكن البرمائية. وكلها مجال للاكتشاف والمغامرة والمتعة والالتحام مع الطبيعة.

...

المسيح الروماني، الحامة، كان في بداية القرن العشرين وحتى عهد قريب من زمن تصوير الفيلم الفرنسي مغطى بسقف مبني. تنزل إليه بسلم، وذلك حتى يبقى محميا من تساقطات فصل الشتاء، بما أن ماء معدني دافئ ومختلط بمادة الكبريت التي يخرقها في جوف الأرض التي يمر بها... سكان مدينة مولاي إدريس زرهون ينعمون بهذا المسبح الذي بني في عهد الرومان، على الأقل في القرن الثاني الميلادي، ما دام تواجد الرومان وقبلهم الموريين بالمنطقة يمتد الى ما قبل القرن الثاني قبل الميلاد.

لقد جعل عرف للاستحمام بمنبع ومسيح الحامة. هناك أوقات خاصة بالرجال، وأوقات خاصة بالنساء، ويسهر بعض الرجال على حراسة المسبح حين استعماله من طرف النساء. سخوته تلعب دورا في تدليك المفاصل وتليينها وتماسك الجسد من جديد بعد وعكة برد أو التواء عضلات... إنما الدور الأكبر لهذا الماء الكبريتي يكون مع بعض الأمراض الجلدية التي يتداوى أصحابها منها به.

لكن علال وعمر لم يكن حظهما من السباحة في الحامة متاحا في هذا اليوم وهذا التجوال وهما آتيان من هارون. وجدا فريقا من الفرنسيين يستعملانه تحت حراسة المخازنية، مما اضطرهما للبحث عن مكان ثانٍ للسباحة لم يكن بعيدا عن الحامة هو (الغدير). حوض عميق نسبيا لكنه يأخذ مجرى طوليا

عوض العرضي. توجد بمبتدئه من جهة الحامة صخرة عالية، يجعلها الماهرون في السباحة منطلقا للقفز بجميع الأنواع المتاحة، وحتى الصلاة على النبي تستعمل في هذا القفز بوضع القرفصاء الذي يجعل الرجلين مضمومتين إلى الصدر، محفوفتين باليدين، ما يسميه الزراهنة ب(الميزان)، تكون معه لعبة الغطس في الماء بدويّ مسموع، وتراش بالماء على أطراف وظيف الغدير بأكمله. وهذه متعة في السباحة كذلك عند علال وعمر.

رغم صغر سنه بثلاث سنوات عن عمر، إلا أن علال كان أكثر مهارة في السباحة من عمر، في إتقان القفز والغطس لمدة طويلة تحت الماء، وليس هنا في الغدير فقط، بل أكثر في مواقع منحدرية سيصلون إليها بعد حين مع مجرى الوادي. القنطرة الموجودة بجانب معصرة الزيتون، و(العديرة)، ثم (العزاني) أخطر المواقع في السباحة، حيث القفز إليه يكون عبر تموج الجسد مع حائط صخري صدري الشكل. كم من مرة يرتطم جسد القافز إليه بالصخر قبل الوصول إلى الماء. لذلك لم يكن ليذهب للسباحة فيه إلا الماهرون، وكذلك أقوياء البنية وممتلكي الشجاعة. فالتواجد بالوادي وبالغاب المجاور له، له منطوق غابة وقانون غاب، خارج عن منطوق وأدب التواصل بين الناس داخل المدينة. كم من تشاجر واعتداء وسرقة، قد يتم. فقط قانون الغالب والمغلوب.

حتى السباحة في هذه البرك، تخضع لقانون فتوة وتجبر من طرف المتحدّين في كل شجار وخصومة مصارعة، سرعان ما تستباح فيها كل الأسلحة من

أحجار أو سكاكين في بعض الأحيان. لهذا حينما يقصد الناس هذه الأماكن، يجتازون من كل مواجهة أو لصووية. أما بالنسبة لعلال وعمر، فبنيتهما الشبائية القوية، وكذلك امتدادهما الاجتماعي، كل هذا يغني عن كل مواجهة معهما أو الاعتداء عليهما. فالحي الذي يقطنان به، بني يازغة، يعتبر من أكثر الأحياء بسالة عند شبابه الذين يضرب لهم الحساب من طرف باقي شبان المدينة وأحيائها. كم من مرة تتم مواجهات دموية بين شبان الأحياء كأنها حروب أهلية بين طوائف أو قبائل. ودائماً، تسمع أن الأقوياء والمتصرين فيها هم من شبان سيدي محمد بن قاسم أو حي خبير، أو حي بني يازغة. وكلها أحياء زرهونية بامتياز.

هنا في الغدير، كان عليهما انتظار حوالي نصف ساعة قبل أن يحق لهما السباحة فيه. ما جعلهما يصعدان إلى الضفاف والعقبين المجانبتين للغدير بحثاً عن خروب أو تسللاً إلى بعض البساتين القريبة من الغدير في غفلة عن حارس أول جنان بالقرب من الغدير. لا بد من الاحتراس عند كل مغامرة، فضربة موجة بحجرة صماء من حارس بستان قد تردي الشخص قتيلاً أو جريحاً يُخلد حفرة غائرة في رأسه وجمجمته، تبقى أثراً كآثار وليلي التي بدأ الفرنسيون في إعادة ترميمها خلال فترة هذه السنوات التي يعيشها علال وعمر في عنفوان شباهما ومغامراتهما.

نصف ساعة كانت من حق الذين سبقوهم، وهم أربعة من شباب القليعة، الحمي الأعلى في مدينة زرهون. قاموا بإخراج من كان يسبح في الغدير، وجعلوا الماء يصفو حتى ظهر قاع وعمق الوادي بأحجاره المكونة له. يجلس من يريد السباحة دونهم منتظرا ومتأملا سطح الماء، ومكتشفا ما بأعماقه كأنه اكتشاف لكنز ورغبة في رؤية مجهول خارق للعادة بقاع الماء وقعره. وحينما دشن الأربعة قفزتهم البطولية، وسبحوا ذهابا وإيابا لدقائق، ولما صعدوا إلى صخرتين متجاورتين بجانب صخرة القفز العالية الرئيسية بالغدير، حينذاك حَقَّ للباقيين أن يقفروا ويسبحوا.

عمر وعلال كانا واقعيين، بحكم العدد أولا، ثم بحكم الأسبقية في الحضور إلى موقع السباحة. فكم من مرة مارسا نفس الدور لما تواجدا مع عدد من شباب حيهم. منطق الوادي ليس هو منطق المدينة إذن. متعارف عليه بين شبابه.

كان المؤذن قد أذن لصلاة العصر من بعيد، وكانت الشمس قد أصبحت شبه مائلة أفقيا، حيث بدأت تميل إلى الاحتجاب عن رأس الجبل الغربي من الغدير، وميزان التوقيت وقياسه يكون مع أشعة الشمس بين شروقها واستدارتها فوق الرؤوس، ثم بداية احتجابها وتراخي الظلال بشكل متدرج قبل نهاية النهار بساعات، بحكم التواجد في شعاب وأودية جبال زرهون.

في بعض الأحيان تغيب عنك الشمس من الرؤية، وإذا صعّدت إلى أعلى
الجبَل بدت لك كأنها إشراقَة يوم جديد، بينما هو ذاهب إلى زوال.

اشتد جوع عمر أكثر من علال، رغم ما تناوله من أطعمة فواكه وخروب
وعسلوج وخبز يابس وتين يابس. لذلك قررا الرجوع إلى المنزل بعد الانتهاء
من السباحة التي لم تأخذ منهما سوى تلبية رغبة الاستحمام والقفز في
الوادي. وهي رياضات ملتحمة مع الحركة والحياة.

...

قد تختار في طريقك من وادي الحامة والغدير إلى أبواب المدينة ووسطها مسلك شعاب الوادي التي تجعلك تعانق أحضان سفح الجبل الصخري صعوداً ونزولاً وعبر الوادي من خلال القفز فوق صخوره الملساء، أو إنك قد تختار الصعود إلى الطريق المعبدة والملتوية انحداراً، نزولاً حتى قنطرة ويلي، بالقرب من عين ويلي ذات المياه العذبة. وكأن الساكنة لا تريد أن تتخلى عن تسمية تاريخية عريقة لها. فموقع ويلي الأثري والذي تعرض لزلزال أسقط بنيانه الشامخ، وأفقد قابليته للسكن والعيش فيه منذ قرون، جعل تشاؤماً عند الناس من العودة له أو بجواره. لكن التسمية هي للتاريخ والذكرى، وأجداد الأسلاف التي نجهل جل ما قاموا به سوى ما تشهد به أطلالهم. فأجداد الأسلاف الآن هي في الكتب أكثر مما هي في الذاكرة.

قنطرة عين ويلي بنيت بطريقة تقليدية ومواد تقليدية، لا نجد لها مثيلاً فيما أتى بعدها من العصور. بناء اعتمد على الجير والأحجار والآجر الأحمر الرقيق وطبقات بأصفر البيض مختلطة بالقصب والجير، مع ذلك التراب على

سطحها وطلّي جوانبها بطبقات من الجير والجبص من جديد، وبعد كل هذا تُطلّي واجهاتها بالطين حتى يمنع تسرب الماء إلى بنائها حيث يصبح مادة ملساء صماء نسبياً. كلها مواد نُدّر مثل استخدامها فيما بعد.

ستبقى القنطرة مكان عبور الساكنة إلى جنان الزيتون وكرم التين وداليات العنب، وإلى الغابة لحمل الحطب للأفران والحمامات البلدية. القنطرة بوابة خروج قطع الغنم والماعز للرعي، وخروج الموتى إلى مثاهم الأخير بجوار عين بوسعيد وعين ابن سليمان، ب (فدان الجديدة)...

ما تزال بعض النساء منتشرات بمواقع من الوادي، يشتغلن على تصبين الزرابي والأغطية، وعلى غسل الصوف الذي يذهب إلى سلسلة إنتاجية محلية، إما في المنازل أو في أماكن ومحلات النسيج (الدرازات). وبما أن التوقيت هو ما بعد العصر، فإن جل المواد المنظفة بعين ويلي منشورة فوق أجمة أشجار الدفلى التي تساعد بوضعها المقرب على حسن تنشيف وتجفيف أنواع الغسيل. وكذلك الشأن هو بالنسبة للصخور الملساء المنتشرة هنا وهناك، إما في قلب مجرى الوادي أو في جوانبه، وجلّها متساقط عبر عقود، منجرّف من علياء ومنحدرات الجبال التي يعانق سفحها ويزاوج بين مكوناتها الوادي المخترق لها ابتداء من عين شاننش بالأساس حتى الوادي الميت، ثم الحامة، وعين ويلي، ثم العزاني فمسار وادي خومان. وحينما ينبسط الوادي في

مجراه ويصبح نُهرا، تستقر فيه الحياة لمجموعة من المخلوقات ولوظائف أخرى جديدة.

تنتهي رحلة الطبيعة لتبدأ رحلة المدينة، ومع أولى بشاراتها، أضرحة أولياء صالحين كأنهم يجرسون مداخلها من كل الجهات، ومطاحن الحبوب الموجودة في هذه الجهة الشرقية للمدينة المقابلة لقمم جبل زرهون وتعاليتها الحارس لسماء المنطقة.

...

عبور حي سيدي محمد بن قاسم، بتسمية الولي المدفون قرب عين وليلي، غير بعيد عنها، يصل بك عبر أزقة إلى مدخلين، الأول تمر به داخل نفق (صابة سريبو)، وهو سقف تحتي لبناءات ضريح المولى إدريس الأكبر، يوصلك مباشرة إلى حي بن يازغة مكان سكن علال وعمر. أما الممر الآخر فيكون عبر حي الحفرة والدرازات، بجانب دار الزاوية التي أصبحت خاصة باحتضان خيرى لנסاء الشرفاء الأدراسة الأرامل والمعوزات غالباً، يخرجك إلى باب الضريح الرئيسية وإلى الببيان (الأبواب)، حيث مفترق طرق المدينة خروجاً ودخولاً إلى السوق الداخلي ثم البراني، أو إلى مجموعة من الأحياء المتشعبة بأشكال ملتوية صعوداً إلى أعلى القمم السكنية على الربوات المبنية في المنطقة، فتجد حي بنحيشو وحي لالة يطو وغيرها من الأحياء العالية

التي تشدك عقبة الصعود إليها في أنفاسك، فتريد تنفس الصعداء عند كل مرحلة من درجها وعقبتها.

اختار الرفيقان أن يطبلا الطريق، رغبة في الدخول إلى المسجد والضريح، لأجل الاغتسال والوضوء وأداء الصلاة للظهر الذي فات وقته، وللعصر الذي بقي بينه وبين المغرب حوالي الساعة أو أقل. وكان الدخول إلى نافورة الضريح والمسجد.

...

بعد الانتهاء من وجبة الأكل، والتي تناولها في منزل علال، ابن (أمي فطيمة)

خالة عمر، ها قد أذن المؤذن لصلاة المغرب.

. لو أنكما صُمتما هذا اليوم، لكان أجرا لكما. علقنت أمي زهور عليهما

وهما يلتهمان آخر حبات الزيتون، بعد مسحهما لآخر ما تبقى من صحن

اللحم والخرشوف.

. وما مناسبة الصيام؟ تساءل علال.

. اليوم خميس، وغدا الجمعة. وأنتما لم تتناولوا غداءكما إلا نهاية النهار. ألم

تسمعا الأذان؟

التفت علال بعينه إلى إحدى نافذتي الغرفة المسيجتين بشباك حديدي ملون

بالأسود بينما كان إطاره الخشبي أخضر. صدر الجبل المقابل للنافذة أصبح

مائلا من خضرة إلى حمرة قائمة. برقت مساحاته المتربة بلون أشعة الشمس

المتوهجة في المساء والغائبة غروبا على آفاق سهل خومان. وبدا ظل كل

شيء ذاهبا إلى سواد شاحب خفيف، يحتفظ بآخر صور لوحة هذا الجبل،

من بياض المقابر البعيدة فيه، إلى تمدد ظل الأشجار المتباعدة عن بعضها،

إلى تكتف ألوان أوراق الأشجار الملتفة في أجمات تعطي سحرا في الرؤية، لا

تستطيع تلمسه والانجذاب إليه إلا مع هذا الوقت من الغروب حيث

البنفسجي والذهبي والأرجواني وغيرها من الألوان التي تختار وقت تشكلها وتظهرها كفستان مزركش يزين بنايات هذه الجبال.

يبدأ إشعال فتيل القناديل والمصاييح الزجاجية المنتصبة على أوعية غازية في المنزل قبل الأذان، ما دام المنزل يعرف استقبال الشروق الأول لأشعة الشمس منذ إطلالتها من فوق الجبل المقابل والوفي في حضوره وصمته، بين تلال باب الرميطة وتل مقام أطلال سيدي عبدالكريم بن الرضي الذي بقي برانيا فعلا وغريبا عن التعرف عليه حتى بعد ذهابه ومماته وحتى في نطقه من طرف البعض، فبدل ابن الرضي قد تسمع ذكره ب(البراني) أي الأجنبي و الخارجي. وما دام المنزل شرقيا في قبلته، فغروب الشمس يكون بالجهة المقابلة لمنحدره الذي يتربع على صحوره العالية بلمسته الطيفية الساحرة. منحدر يبدأ مع بوابة أصبحت متهدمة سوى ما بقي من جوانب بنائها وساريتها. تبدو من أسفل كبوابة قلعة على الطريق العابرة. يسود الظل على مفاتيح ضوء النهار بالمنزل في النوافذ وفي حلقة السطح المفتوحة والأبواب المشرعة. كما تصبح الشمس مقيمة لأكثر من ساعتين في الجهة المقابلة، وكأنها ضيف أجنبي عند الجبل المجاور أمام بني يازغة. إذا صعدت إلى سطح المنزل وتبعت المسار، تجد الأشعة تسطع على منتصف الجبل الأعلى، وهي ذاهبة في تقلص مجال ونفوذ، كأنها ترمش بعينها المضيفة من أسفل إلى أعلى، حتى تذهب إلى فضاء تزيد زرقته عتمة، فتتحول داكنة إلى لباس الليل الآتي على ما تبقى من انتظار ثريا النجوم التي تتألق بتأن في الفضاء والسماء محلقة بين آفاق جبال زرهون،

- . لا أدري لماذا يرددون وراء نداء هارون، خبزة ولّا طاجين؟ تساءل عمر.
- . هل هارون شخص ما يسكن القنطرة؟ هل هو إنس أم جن؟ استغرب علال.
- . دع المسألة حتى نسأل المعلم الفران أو الجدة (امي **الصفية**). هما أصحاب الحكايات الغريبة المتعلقة بالإنس والجن.
- بهذا الكلام أنهى عمر حوارته قبل أن ينهض لينصرف إلى بيت أسرته الموجود على بعد زقاقين من منزل علال:
- . سأرى إن كان الوالد سيذهب إلى الحمام هو الآخر. ولكنه غالباً، يذهب صباح يوم الجمعة، مع بداية المعلم الإسفنجي في قلبه للإسفنج.

...

عُرِف المدينة، عرف ثقافة إسلامية مغربية. فمدينة زرهون ضاربة في القدم لقرون وعهود متعاقبة. وجود الضريح شكّل لبنة الأساس التي رسمت لمدينة مولاي إدريس زرهون بناءها الهرمي الهندسي الذي أصبحت تلال الجبل تلبسه بمختلف الأشكال والأحجام والألوان الشاحبة رماديا أو الناصعة بياضا. ذلك أن جل جدران المنازل مصبوغة بالجير الأبيض إلا ما كان من أسوارها الكبيرة المحيطة بها والتي تغلق جل أبوابها ليلا، فهي محافظة على لون التراب الصافي بين حمرة وصفرة، وبين صمود جوانب وأبراج، وتساقط أتربة بعضها الآخر.

يشكل حي بني يازغة واجهة شرقية جنوبية للمدينة، مطلة على الوادي الذي تجاوز منطقة (العزاني) وبدأ في الانبساط ليعطي مجموعة بساتين للخضر على ضفافه ويسقيها بعذب مياهه الجارية، تحرسها بساتين وجنان أشجار البرقوق والإجاص والمزاح والتين والزيتون، وكل ما تشتهيه النفس من خضر وفواكه. أسفل حي بين يازغة، عبّدت طريق صغيرة تربط بين قنطرة ويلي وقنطرة سيدي صابر. وهذه الأخيرة معبر الطريق المؤدية إلى مدينة مكناس.

يقف الحي شامخا، عاليا أمام من يترجل بهذه الطريق الجديدة. صخور حائطية طبيعية، وِعرة التسلق، يتربع في أعلى قممها سكن أسرة علال، ومنازل الحي

والزقاق. تجد مسلكا ضيقا صاعدا يسمح لك باختراق بوابة الحي التي هي بلا باب الآن. سيتحدث الناس ويقولون:

. أقدم حي في زهون هو بني يازغة. هم سكان المدينة الأصليون. لما جاء مولاي ادريس إلى المغرب، حوالي سنة 172هـ أو قبلها بسنوات، بايعه الأوربيون ممن يقطن الحي ويقطن ويليي. وهو مدخل آمن للمدينة، محتبئ من سهل خومان و من قوافل التجارة والسفر أو قوافل المتربصين بالغنائم خارج أسوار كل مدينة أو قرية... لكن الروايات تتعدد وتوزع لحضور الناس في كل مواقع وآثار تواجدهم سواء بهذا الحي أو بمدينة ويليي التي أصبحت آثارا وأطلالا يعيد الفرنسيين ترميمها.

هو بوابة الوادي والبساتين والجبل. في الصباح تجد المعلم الفران يسوق دابتيه فارغتين من أي حمل إلا من لوازم الخطب، وفطور الصباح. وليست حاله وحده. فبحسب تجاه الجبل، يختار كل معلم فران وكل راعي غنم، وجهته... كما يكون أصحاب البساتين قارين في اختيار في وجهتهم، ما دامت فلاحتهم مستقرة في مكان واحد، إلا إذا تعددت أمكنتها بحسب درجة غنى الملاك. هناك مثلا السي (بالمديني) الذي يسكن الحي بقرب من السقاية، يمتلك بستانا بجوار مجرى ساقية عين القصر، ويتكلف ببستان عائلة السيد الغالي، التي تسكن قرب الحمام البالي. كما يتكلف بعرضة عائلة السي العلمي التي تتيتمت في معيلها وبقي الصغار محاجير، فكلف الفقيه العادل السيد الشاذلي (السي بالمديني) بصيانة العرضة وجني غلاتها على أساس ثلث

المحصول والثمار. وفي كل هذا ثقة اجتماعية وأخلاقية ودينية، لا تحتاج إلى وثائق مكتوبة، يكفي التزام الجميع بصلاة الجماعة الفجرية في الشتاء القارس وفي الصيف الحار. ألا يقول الحديث أن من رأيتموه يراود المساجد فاشهدوا له بالإيمان •. لكن المسألة كذلك مرتبطة بتجربة حياة هذه المدينة في علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

...

يكون خروج السي بالمديني هو الآخر، شبه رسمي بالتوقيت والوجهة، مع منحدر حي بني يازغة حتى يعبر الوادي، ثم المسرب المؤدي إلى البساتين بجوار عين القصر. ولا بد أن يمر في الذهاب والإياب بمنبع الماء والعين، لأنه اعتاد ألا يشرب إلا من مائها، وألا يستحم إلا بمائها. يمتلك دابتين، يجعل لهما مكانا سفليا مستقلا، تحت سكنه الفوقي، في اصطبل يسمى ب(الروى). فأكثر من ثلثي سكان المدينة اقتصادها فلاحى ويحتاج إلى أماكن للدواب قريبة من مساكنهم أو ملتصقة بها، خصوصا مع وعورة تضاريس الجبل المحتضن لبنايات معلقة فوقه.

• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَتَعَاهَدُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (إِنَّمَا يَغُورُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ) (الآيَةُ) رواه الترمذي.

السي بالمديني، إذا أصابته حمى أو أصابت ابنه المصطفى، يداويها بالاستحمام في عين القصر، ولو كان الفصل شتاء. علاجٌ، داومه واعتاده هو ومجموعة من سكان مدينة مولاي إدريس زرهون. حتى في أيام رمضان، كم من أسرة وبيت في حي بني يازغة يكون طامعا في ماء عين القصر الذي يأتي به بالمديني ويملأ به الخاوية خلف باب المنزل. رغم أن السقاية دائمة النبض، ورغم أن الفرنسيين وضعوا لها آلة ضخ تجعل فرملةً وتحكمًا في حرية صبها كل مرة، حيث هناك قبضة حديدية خلف التاج الرئيسي للسقاية والذي تضغط عليه لكي يفتح معه مصب الماء المنهمر، رغم كل هذا فإنك تجد بالمديني لا يشرب إلا من ماء عين القصر. فمياه العيون تنذوقها الساكنة كأشكال عصير فواكه متنوع. كل يوم يأتي الشباب حاملين لها في أوعية مختلفة: . هذا ماء عين جمجمة، وهذا ماء عين وليلي، وماء عين القصر، عين بوسعيد، عين ابن سليمان...

كأن طبيعة جبال زرهون تلاحم بين مكوناتها، بمناخها وسحبها وغيومها ورطوبتها وأنواع ترايها وصخورها ومعدنها وأوراق أشجارها وجدوع غرسها، لكي تعصر نبعًا مائيًا صافيا يهب الحياة: (وجعلنا من الماء كل شيء حي). يخترق الجسد بخلاياه التي تكون متعطشة ظمآنًا للارتواء، منتظرة كالعصافير الصغيرة في عشاها، فاتحة مناقيرها الرخوة، منادية بلسانها، أملَ غذائها من أمها التي تجوب الوديان والسهول والجبال في غدوة وروحة يومية مستمرة.

أ يكون هذا التناغم والالتحام الفطري هو الذي جعل طلب ماء العيون بشدة في شهر رمضان؟ أ يكون هذا الجسد معترفا بهذه الفلسفة الصوفية التي تتجلى في هذا العشق المائي الحي؟ أ هي درجة التناغم المادي التي تنتظر الارتقاء مع التناغم الروحي في الصلاة والذكر والخشوع؟ لعلها عناصر سعادة يعيشها الإنسان البسيط دون تعقيد ثقافة فكر أو فلسفة أو تصوف. ربما أجيال وأحفاد المدينة يدركون هذا، ويحافظون على هذا العشق المائي والبيئي.

على العموم، كان السي (بالمديني) صاحب هذا العرف. جعله كرمًا سخيا لأهل حيه، واقتدى به شباب الحي كما شباب المدينة في القيام به. فمنابع المياه هي مراكز التقاء وتجمع بشري واجتماعي، مثلما هو مركز السوق الأسبوعي في دوره الذي يوسع دائرة التواصل بين القرى المجاورة ومركز المدينة.

كان عبد العلي بن المدني صديقا وقرينا لعمر ابن خالة علال. يتشاركان مغامرات ويلتقيان في محطات حياة مختلفة. بين الطفولة ومرحلة الشباب كانت الأسرار تكبر كما الأحلام. لكنها أحلام قد تكون ممنوعة من البوح فما أدرهما بدرجات الجرأة على تحقيقها.

مرحلة التعلق والغرام، مغامرات لم يشارك فيها عمر ابن خالته، فكان عبدالعلي هو الحاضر فيها والفادر على الخوض في تجربتها. يبوح أحدهما

للآخر فتجده يشترك معه المشاعر أو يتعلق بشخصية الموصوفة والحلم بمعانقتها. ويبقى حلما مستباحا في التقاطع منفلتا من التملك الفردي.

في زاوية من مفترق الطرق بين دروب متشعبة دائما داخل هذا التشكيل الهندسي الموافق لمنعرجات المنحدرات التلال ومساعدتها التي قد ينظمها درج أو تخضع لوقع الأقدام على الأتربة أو صفائح الحجارة التي استطاعت أن تزين وتثبت خطواتها، كان جلوسهما شبه اليومي في لحظات معينة. طيف جسد مطل من نافذة أو خطو مصاحب لرائحة عطر أو مناسبة مرور لغرض نسائي أو عائلي. وكان التتبع لهذا المنشود في الرؤية أو الاكتشاف أو استراق نظرة وبريق عيون لامعة هي الأخرى لأجل غرض في نفسية فؤاد العشق الوجودي الإنساني المشترك بين الذكر والأنثى.

يراجعان أحداثا قريبة. هي حوارات ومواضيع تتخلل الصمت أو هذا الغرض الهامس في الوجدان. لحظة مشاركة عمر في تصوير الفيلم الفرنسي كان عبدالعلي متأملا لتجهيزات طاقم التصوير وآلاته في التنقل وعتاد الحرس العسكري الذي يقوم بتغطية أمن المهمة وسلامتها.

تمتلك عينا عبدالعلي ميزة لوئهما العسلي، وشعره الحجلي المناسب. كانت بنيتها دالة على جسم شاب قوي ممتلك من العضلات ما يؤهلها لتقوم بالمهام الكبيرة رياضة وعملا. وكانت الأحلام تجتر الطرفين، عمر وعبدالعلي، إلى

طلب الحياة والانطلاق في اكتشافاتها، مبتعدين عن طلب العلم الذي لم يرغباً في التركيز والاستمرار فيه.

في الوقت الذي حصل فيه عمر على نظارات شمسية مكافأة له على مشاركته في كومبارس الفيلم، حصل عبدالعلي على قبعة من أحد أبطاله الذي أهدها إياها وربت على كتفيه مبتسماً ومستحسناً لياقته وهياته دون أن يستطيع عبدالعلي فهم ما يقوله هذا الممثل الفرنسي. كانت عيناه متابعتان للترجمان، محاولتان التقاط ما سيجود به من كلمات بالدرجة المغربية. لم يحصل منه سوى على عبارة:

. قال لك موسيو مارك* (تبارك الله عليك).

وكانت جلستهما بين مفترق الطرق هذا خيلاء بالمكتسب، بين نظارتين وقبعة عصرية فرنسية. وكان المارة بين متعجب ومستغرب، وبين مقطب ومنبهر. لكن عمر وعبدالعلي كانا في سفر جديد فتحه هذا الإنجاز والاكتماب. استطاعت أحلامهما أن تشرع بأجنحتها أسفاراً في الخيال قد يعبران عنه أو قد يكتفيان بجدس الشعور بالمرغوب والمأمول فيه. حينما يلتقي علال ابن خالته من جديد قد يلومه على عدم إشراكه في رفقة ومصاحبة عبدالعلي ابن السي المدني. وحينما يعجز عن كسب وعد في الآتي يحوّل

*- الإشارة هنا إلى اسم الممثل الفرنسي مارك دانترز (1990/1903) الذي شارك في فيلم les cinq Gentelmen maudits.

الرغبة إلى كراهة فينتقد شخصية عبدالعلي بأنها متكبرة ولا ترض بالتواضع مع أبناء الحي أصلا.

هكذا تبقى الأمور كما هي. أوقات الرفقة مع هذا وذاك مفترق طرق حياتية في اليومي وفي الآتي كما في الأمكنة التي تجرؤ الأقدام على اقتحامها.

...

باب الحمام، مفتوحة من وقت أذان الصبح حتى بعد أذان صلاة العشاء. يخصص الصباح بأكمله للرجال حتى أذان صلاة الظهر. ويخصص بعد الزوال والمساء للنساء حتى أذان صلاة العشاء. هكذا يكون الأذان كذلك توقيتا لتقسيم أعمالٍ ومهام وأدوار خلال اليوم بأكمله إلى جانب دعوته للصلاة خمس مرات في اليوم.

بعد النزول أربع خطوات في درج المدخل، تنعطف يمينا، فتجعلك مهابة الظلمة تقشعر وتشعر بأنك داخل إلى مكان خاص بمخلوقات أخرى غير إنسية، تعيش في كل الأركان المظلمة المتواجدة بأرجاء الحمام. ثم تجد الباب الخشبي الذي تدفعه بجهد، لسمكه وثقله، لكي تدخل إلى فضاء ووسط الحمام حيث النافورة الرخامية، وحيث الماء منهمر طول الوقت، عذب المذاق

والمنظر، هو ماء عين خيبر التي تمد مرافق الأحباس والأوقاف من حمامات ومساجد وسقايات بما تحتاجه من ماء.

إلى يمينك بعد الدخول، تجد (الجلاس)، الشخص المكلف باستخلاص واجب الاستحمام وحراسة رزمات وقفف الملابس التي وضعها الزبناء في قاعتي الجلوس، الجلسة الكبيرة والجلسة الصغيرة، مثل تسمية غرف المنزل بالبيت الصغير والبيت الكبير.

يتذكر علال قبل سنوات، كيف أتى إلى الحمام، هو وابن خالته، كيف تحايلا على الجلاس، بما أنه لا يؤدي له ثمن الاستحمام غالبا إلا بعد الانتهاء منه، ولما خرجا من غرف الاستحمام إلى الجلسة، ووجدا جالسا ثانيا غير الأول، كيف تجرأ عمر على الكذب:

. لقد أدينا الثمن للجلاس قبلك. لم يعترض الجلاس على قولهما، ما داما معروفين بأسرهما. وحتى إذا فُضح أمرهما، فالمسألة ربما لن تصل إلى عقوبة كبيرة، ما دام أحد أبيهما سيؤدي الثمن النقدي، فيتغافل الكبار عن أخطاء الصغار، على أساس تصفية هذه السلوكات مع التربية ومع اليومي، حتى لا تتكرر مرة أخرى، وتصبح عادة سيئة.

لكن علال كان يشعر كلما دخل إلى الحمام بأنه افتضح أمره رغم مرور سنوات على المغامرة الصغيرة. شعور بالذنب، جنبه مجموعة من الممارسات

يدعوه أصدقاؤه إلى القيام بها في إطار مغامرات الشباب. كما يتذكر روايات وأساطير الجن والإنس الواقعة داخل الحمام. فكم من مرة يأتي إلى الحمام بمفرده، لكنه إذا لم يكن هناك أناس داخل غرف الاستحمام المظلمة، فإنه يبقى في الجلسة متابعاً حكايات الجلاس ومن معه حتى يدخل فردان أو ثلاثة من أجل الاستحمام. (مرة، دخل رجل بمفرده وجلس ينظف جلد جسده بالكيس. فجأة ظهر من خلفه شخص دعاه لكي يسمح له ظهره بالكيس. لما لاحظ اختلاف رجليه بكونهما مثل رجلي تيس وليسا آدميين، تحايل وقال له:

. اسمح لي نسيت المشط في الجلسة، سآتي به.

أجابه الآخر، الجني:

. اجلس ها هو مشط استعمله).

لا مفر إذا من ورطة التواجد مع جن. هي نكتة تستعمل بعض الأحيان كأنها حقيقة، خصوصا إذا وجد الراوي آذانا بعقول مستعدة للتسليم خوفاً والتصديق رواية.

كان علال ليلة هذا الخميس، قد جاء إلى الحمام بمفرده. فقد أمره أبوه بأن يذهب قبله حتى ينتهي من جلسته مع صاحبه الزريهيني بالدكان، وفي المسألة

تكليف بمهمة طبعاً من طرف الكبار للصغار وهي وضع الملابس في الجلسة الصغيرة لأنها ليست مقابلة لباب الدخول التي يخترقها بعض الأحيان هواء بارد تقشعر له أبدان المستحمين. قام بإعداد الدلاء اللازمة المصنوعة بإحكام من خشب سميك، باستدارتها وخاتمها الحديدي الذي يجمع أطرافها المرتبة عمودياً ودائرياً. على الشكل الذي لا يجعلها تسيل منها قطرة ماء. وكذا تنظيفها بالماء الساخن، ما دامت قد استعملت من قبل مستحمين آخرين. جعل فيها ماء ساخن مباشرة من (البُرْمَة*) ومن صنوبرها الساخن الذي يحتاج من مستخدميه كل الحذر حتى لا يحترق الجلد في لمسه. بعد ذلك خصص مكاناً للاستحمام في الغرفة الساخنة جداً والتي تحتوي على (برمة) في الوسط ساخنة وفوارة بخار حار، مداخل صغيرة جهة اليمين والشمال كغرف مفتوحة بدون أبواب في جوانبها، ثلاث غرف على اليمين وأخرى بمثل عددها على الشمال، تسودها ظلمة تساعد من يريد الاستحمام عرياناً أن يبقى بها حتى ينتهي من استحمامه.

الحمام ثلاث غرف. الأولى تسمى ب(السخون)، والثانية (الوسطاني)، والثالثة تسمى ب(البارد). وكما توجد برمة للسخون توجد في البارد برمة للماء البارد وسقاية تصب فيه، بجوار المراضين. هكذا يتدرج المستحم بين الغرف الثلاثة حتى يخرج إلى الجلسة لتجفيف بدنه وارتداء ملابسه مستحماً. (بالصحة والعافية) كما قد يجيبه الجلاس.

*- في المعجم البرمة بضمه فوق الباء هي القدر من الحجارة. تنطق بدون ضم في الدارجة.

عمرُ علال وعنفوان شبابه يساعده على الصمود مع المجهود الكبير الذي بذله هذا اليوم، بين الجولة في الوادي والجبال المجاورة والاستحمام لمدة طويلة وصلت إلى ساعتين تقريبا، مادام قد انتظر أباه حتى أتى وسهر على تقديم الخدمات له في غرف الاستحمام.

و غدا سيكون يوم جمعة. ترى ما هو برنامج الجمعة؟ هل سيكون مع ابن خالته أو إنه سيخصصه لأنشطة أخرى مستقلة؟

...

يسجل التاريخ طرائف اجتماعية تحتضن وقائع مهمة ترمز لنوعية العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها. قد يكون الفلاح الصغير في جنانه، منسجما مع وجوده الزمني والتاريخي الخاص به، فتراه يُدخل أحداثا كبرى، تجرّ لها خيوط كبيرة ومتشابكة، أو تراه وقد انفتح ذهنه لدائرة أوسع. تحتاج منه انتباها أكبر وتساؤلا أضخم. ترى عينيه جاحظتين، ونفسًا يتصاعد في السماء، يبحث عن تفسيرٍ هذا الانتقال المفاجئ.

علال، اختار الاهتمام بفلاحة وتجارة الأسرة. وارتباطه بطريق الحقول والجنان يجعله لا يُرى وسط المدينة لأيام وأيام. ما دام السكن على مشارف مخرج المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية، ومنزله يقف برجا صغيرا على تلة صخرية عالية.

طرحت وفاة والده أسئلة بدأت تكبر في ذهنه حول أسبابها وحقيقتها. مرة يستسلم لخطاب القدر لكي يعيش حياته هائنا مستريح البال، ومرة ترافقه الأسئلة في حالة التوتر والغضب والقلق من الآتي. قد تهدده الأيام بالمفاجئ المدمر، ما دامت شكوى الحال من الظلم قد كُبر الشعور بها في مجموعة من الحوارات العائلية، مع أخواته الثلاث، ومع أمه، وكذلك مع أقربائه الذين

بدل أن يُيلسموا الجراح قد يزيدونها اندمالا بالحك فوقها بحروف مسننة حادة قاسية.

كانت وفاة أبيه مفاجئة بعد جُمعته التي رافقه في ليلتها إلى حمام المدينة والتي حوّلته إلى رب الأسرة الأول رغم صغر سنه. بادرت العائلة إلى تزويجه. وبما أن حدث الوفاة ارتبط بما راج من صراع حول أرض اغتصبت غصبا من ملكية الأب، فإن التفكير في تزويجه أخذ بُعد الحياد والابتعاد عن نسيج المدينة، خصوصا وأن العائلة تربطها علاقات تجارية وفلاحية مع محيط المدينة وقرائها المجاورة. خصوصا كذلك وأن تقاطع الثقافة والتاريخ جعل هذا التقارب مع ساكنة القرى المنحدرة من الجهة الشمالية للبلاد.

علال ذو الأصول الأمازيغية الأوربية، وزوجته ذات الأصول الأمازيغية الريفية، كلاهما وجدا نفسيهما في حياة متشابهة، هادئة في ارتباطها بعالم المنزل والطبيعة المقابلة لنوافذه وسطحه. وحتى السفر الذي يكون نادرا، يكون بالانحدار من مخرج حي بني يازغة إلى طريق سيدي صابر، أو إلى طريق الحامة، حيث الاتجاه نحو قرية زوجته الريفية.

حتى الذهاب إلى المسجد يكون دخولا من الباب الخلفي له، حيث يؤدي الصلاة في الجامع الكبير، ومنه يخرج إلى ساحة السوق الداخلي أو الخارجي البراني. لا يجب المرور من درب اعتبره جحيما وعنق زجاجة خانقة، منذ

وعى مشاهد إهانة سمع بها ورأى بعضها، عاينها مع أناس بسطاء عاشوها، من طرف أعيان مستشيطين ترفا وغرورا واحتقارا، مفتخرين بشرف نسبي جعل لهم الامتيازات عند دار المخزن والقايد، وإدارة الاستعمار:

تجلس الجماعة في بهو (حيّ المريح)، ملتقى طرقات ودروب متشعبة، بين سيدي حجوب . ذلك الدرب الضيق والمخيف بظلمته في عز النهار، وكذا بقبر الضريح الصغير الموجود فيه والمؤدي إلى حي تازكة . ومنحدر الدرب المؤدي إلى مفترق آخر من الدروب، يمينا إلى البيبان حيث باب الضريح الإدريسي الرئيسي، وشمالا إلى تازكة من جديد، وقدّاما إلى حي درب أمجوط حيث التشكيل الاجتماعي لمدينة مولاي إدريس زهون يتنوع من جديد. كم مرة استغرب علال وتساءل حول هذه التسميات العربية والأمازيغية لهذه الدروب، وكل مرة يجد أجوبة تعني وتضيف أو تلغي وتزيح سابقاتها.

بعد صلاة العصر، تُفرش زريبة حمراء في جانب من الساحة الصغيرة لمفترق طرق درب المريح. يجلس الثلاثة أو الأربعة حول صينية شاي، وأطباق تتنوع بحسب ما أحضر من منزل أحدهم. البلية والإدمان حاضران عند البعض في تدخين الكيف أو النفع لمادة التبغ المدفوقة (التنفيحة) أو استعمال المعجون . وهو خليط بين مخدر الكيف وفواكه يابسة ممزوجة بالعسل الحر وبعض التوابل الغنية والمسخنة للجسم . وحتى موضحة شرب السجائر أخذت تظهر كثقافة جديدة في جلستهم.

. الله يعز الشرفا! الله ينفعا ببركتكم.

تكون تحية المارة للجمع مع الانحناء الدالة على التقدير للشرفاء الأدارسة.

. تبارك الله على المعطي، هل من جديد؟

. كل شيء هو لكم أسيادي. أولاد النبي. ها واحد الفرخ** ديال البرقوق
الاكل حتى نعم بدعاؤكم لنا به. ادعوا معنا بالتيسير، وبشفاعة جدكم
المصطفى صلى الله عليه وسلم.

. الله يقوي الخير. ما عندي ما نسالك (تبارك الله عليك). راك تاهلاً وصافي
(إنك تغدق علينا عطاء).

. تعال إلى هنا أيها الحمال. انزع النعال التي في قدميك لكي تمر قدام الشرفاء.
ألا تستحي، ما حشمتيش! مقامهم شريف، أولاد النبي وانت تخطو بنعالك
أمامهم؟

هكذا رأى علال المشهد المحتقر للحمال وهو يهان من طرف مسخر الجماعة
وخادمهم في الحلال والحرام ومع دار المخزن كذلك. هكذا تتبع خبر اقتياد

** الفرخ تسمية لسلة رقيقة وضيقة الحجم تستعمل للفواكه الطازجة حتى لا تتضرر بسبب هشاشتها.

الحمال إلى مقر الباشا وإهاتته وتهديده إن هو عاود قلة الأدب أمام الشرفاء وإلا يُنحَى من البلاد. يرجع للجبل الذي أتى منه.

لقد كانت المدينة تعتبر امتيازاً آمناً في السكن وتوفر حاجيات العيش، خصوصاً مع تتابع سنوات جفاف ومجاعة متفرقة، ووجود ظروف غير آمنة للعيش خارجها. مغاربة يعيشون ظروف فقر وتشريد. مجاعات هجرت جماعات، عقود أو قرون خلقت أماكن أمان وأماكن فوضى، حتى العبارات مرعبة: بلاد السبية وبلاد المخزن، ومستعمر تسبب في ترك قبائل وأسر لأماكن تواجدتها التاريخي وبحثها هجرة عن أماكن لجوء وعيش جديدين...

فجر المشهد دماللة الجرح الذي تقادم مع سنوات زواجه وإنجاب، وهو الآن أب لابن وبنت متقاربين في العمر، بينهما ثلاث سنوات. محمد في سن العاشرة، وخديجة في سن السابعة.

كأنه استشعر صدق الروايات التي حكيت حول وفاة أبيه. أترى هذا السلوك قادر على استباحة حق الآخرين وليس كرامتهم فقط؟ منطق عقله هو الذي كان يستخلص من تساؤلاته مجموعة من الاستنتاجات. على العموم، قرر منذ ذلك المشهد أن يتجنب المرور من مفترق الطرق هذا، أن يتحاشى ملاقة الجماعة أو مجاملتهم، حتى لا يشعر نفسه بالحاجة إلى تذلل أو استكانة لرغبتهم الاقتطاعية. يشعر أنهم يرون في مروره خاصتهم، حقاً جزية أو ضريبة،

أو نفل. يعلم معاملة الناس القابلة لمثل هذا التقديس لهم، وكيف يغدق عليهم سكان الدواوير وزوار الضريح بالعطايا، في قبول لدور الأسياد والعبيد.

ولكن، كيف امتلك علال هذا الموقف الحاد تجاه الجماعة بالخصوص؟ تختلط عليه الرؤى والتفسيرات حول محاولة الجواب عن تساؤله. يشعر بأن يُثممه حرماناً من أب كان ليغطي سمائه ويحقق له أمنه الوجودي في حياته. وها هو الآن يواجه هذه الحياة، طريقاً شائكاً ومتعباً، رغم نجاحه في السفر فيها واستمرار عيش العائلة الرغيد بفضل مجهوده في التجارة والفلاحة معاً، ومساعدات عمه* . أبو عمر. في كل هذه المحطات الصعبة. يتذكر أنه السيد في منزله، بماله ورزقه وخيره، وسيد الجبال التي عانقها منذ صغره والوديان التي اخترقها سباحة وعوماً منذ نعومة أظافره. هو الذي يقود دوابه وتجارته وغلته، وليس هو الذي يُقاد.

للغد، وبعد أن رأى ما رآه، وبعد أن شهد وتعب في حسرات تفكيره، ذهب إلى الفقيه الذي حفظ معه القرآن، السيد بنعيسى أو الفقيه بنعيسى الصحراوي، والذي كان مرابطاً بمسجد سيدي عبدالعزيز، بالجهة الجنوبية الغربية من مدخل المدينة الرئيسي. حاوره وهو الأب الروحي له ولساكنة المدينة التي وجدت فيه سرُّ ألفتها وتضامنها، خصوصاً الفقراء منهم، والشرائح

* - للإشارة فالمناداة بكلمة العم قد تكون لأخ الأب كما قد تكون لأي راشد يتم تقدير ندائه ودوره الاجتماعي في مقام أخ الأب احتراماً ووفاء ومحبة وأماناً. وهنا هو زوج الخالة والقريب في العلاقة لأب علال.

الجديدة الوافدة هجرةً إلى المدينة، ولو أنها قد استقرت منذ عقود وعقود، لكنها لا زالت تُعامل كالغريب الذي هو مهدد بالطرد من الديار، ووسط الدار.

الفقيه ابن عيسى، يقال أنه أتى من الشرق، من بلاد مكة. يسمى بالفقيه السيد بن عيسى الصحراوي، حافظ للقرآن، عالم بالتفسير والحديث وعلوم الفقه واللغة. استقر به المقام بمدينة مولاي إدريس زرهون، بجامع سيدي عبد العزيز. مسجد في حي شعبي جانبي، خارج مدار الضريح والسوق الداخلي والخارجي، قريب من باب الحجر وباب الزهر، منفذ المدينة إلى العالم الخارجي. حتى الحافلات والسيارات تتخذ هذا الباب مخرجاً ومدخلاً في الذهاب والإياب. وقد كانت في هذا العهد هي البوابة الرئيسية الخارجية للمدينة إلى جانب مدخل المدينة العلوي من جهة جبل الدكّانة. يطل الحي على وادي خومان وعلى بساتين عين القصر وما جاورها. ومن أفق سطح المسجد يبدو لك سهل بورياح، المجال الفلاحي الواسع للمدينة.

ما يزال التعليم تقليدياً في بداية الأربعينيات. خصوصاً في المدن الصغيرة والتقليدية، إلا ما كان من حركة التعليم الحر التي بدأتها الحركة الوطنية المقاومة للاستعمار الثقافي والسياسي. إنما هذا التعليم التقليدي، تنهل منه مدرسة القرويين ويعتبر رافدها الأساسي من مختلف بقاع المغرب وبحسب حظوظ الاستفادة. يقصدها الطلبة بعد حفظهم للقرآن وأوليات العلوم. يتفاعل

التكوين مع الحركة الثقافية التي ترقى بالخطاب إلى ربط واجب الأمة وخصوصا علمائها، في التوعية بالجهاد وتأطير الأمة سياسيا وثقافيا لمقاومة الاستعمار. خصوصا بعد كشف مخططاته في الظهير البربري وتقسيمه الحياة والمجتمع مجاليا ونفيعيا: نخبة عصرية مرتبطة بمصالح فرنسا، وأخرى متروكة لوتيرة قرونها الوسطى التي لم تخرج منها بعد.

الفقيه بنعيسى، إمام المسجد، عابد وذاكر. جعلت له الأوقاف دخلا بسيطا، يضاف إلى ما يأتي به طلبة حفظ القرآن من أجره بنقود أو مواد أساسية للعيش كالسكر والدقيق أو غيرها كل يوم أربعاء من كل أسبوع، أو ما يوجد به قلب وجيب كل مسلم من زاد وطعام ولباس...

اتخذ منزلا بسيطا للسكن مجاورا للمسجد. يشهد السكان لزوجته بالمهارة في الطبخ وإعداد الولائم. أما الساحة العلوية للمسجد، فتوجد فيها دولي عنب منتجة ولذيذة في مذاقها. يقوم الفقيه بجني عناقيدها في موسم كل سنة. يقوم بتقسيم الغلة على سكان الحي في سلات معدة لذلك. كل له نصيبه منها مقابل قدر من المال يعطونه للفقيه. كل حسب استطاعته.

يجمع الفقيه ذلك المال، ويشترى كبشا أو أضحية مناسبة حسب ما تيسر من نقود. يخبر الحي والطلبة بيوم الذبح والنحر لها، حيث يعيد توزيعه لحمها

على منازل الحي من جديد. تطبخ الوجبات وتبعث إلى المسجد، جامع سيدي عبد العزيز. كل منزل يعد قسعة كسكس أو طاجينا ووليمة.

يجعل الفقيه في ذلك اليوم دعوة إلى حفظة القرآن وطلبة العلم وسكان الحي... في ليلة خميس تكون فيها تلاوة القرآن وذكر الله وقراءة دلائل الخيرات، إلى جانب هذه الولايم المرافقة... أجواء روحانية يحضرها الصغار كما الكبار، والذكور والإناث. تربية جماعية وثقافة دينية، الكل متفاعل فيها. سنة سنوية واطب الفقيه بنعيسى على القيام بما حتى أصبحت عادة اجتماعية واقتصادية ودينية. ربما يراها الغريب في بدايتها عملية تجارية حين ملاحظة الفقيه يجمع النقود من غلة العنب.

. إنما هي تجارة ربانية، ربها أجرٌ وثوابٌ وحسناتٌ، وتربية اجتماعية على التآزر والمحبة. رأس مالها نعمٌ إلهية، واجبنا. كما يقول الفقيه بنعيسى - شكر الله عليها، جعلها صدقة جارية، بمحولة معنوية وروحية تخترق الأذهان، وتداوي الآلام، نفسية كانت أو اجتماعية. يقول تعالى في كتابه العزيز: (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور. ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، إنه غفور شكور)• صدق الله العظيم.

•- من سورة فاطر.

بين حي بني يازغة وحي سيدي عبد العزيز، تجد مسارا مختصرا للسير بينهما والوصول لإحدهما. تنزل منحدرًا يسارا من البوابة الصغيرة لحي سيدي عبد العزيز، أو تنزل منحدرًا من مدخل ومخرج حي بني يازغة متجهًا يمينًا. تتخذ طريقًا متربًا شُق في منتصف الجبل المطل على الوادي المؤدي إلى منبسط سهل خومان عبر المنعرجات المختلجة مع شعاب البساتين والجنان، والمزودة بسواقي العيون الموجودة في قلب أحضان الجبل المقابل للمدينة.

الطريق يجعلك مرهونًا بإطلالة الصخور الضخمة لقمّة التلة الكبرى التي تعلو رؤوسها منازل حي لالة يطو، وأنت في خط وسط بينها وبين الوادي الموجود في سفح المنحدر، وتمر بجانب اصطبلات وزريبات خاصة بقطعان ماشية وأبقار وماغز، حتى تصل إلى إحدى الحيين، في مسار شبه نصف دائري تقريبًا، بين الجنوب الغربي للمدينة والجنوب الشرقي لها. هذا المدار كذلك يحتضن مخازن الحبوب والقطاني التي يجعلها الناس في مطامر. حتى من بعض الفلاحين البعيدين عن المدينة يأتون بمحصولهم إلى هنا آمنًا وأمانًا وبركة. وكل هذا شكل تشعبات اجتماعية وثقافية جديدة طبعًا

ربع ساعة على الأكثر كافية لذهاب علال بين النقطتين. وحضوره عند الفقيه بنعيسى لن يكون بدون مبرر، خصوصًا وأنه منذ مدة لم يزره، لانشغاله بأعمال الفلاحة وجني الثمار وغلات الفواكه من البرقوق والإجاص والمشمش وغيرها مما تزخر وتشتهر به عراصي المدينة في الأسواق المجاورة، في هذا الفصل الربيعي الذي يعتبر موسم النزاهات والانبساط للعائلات.

توقيت الزيارة كان مناسباً، قبل صلاة المغرب بحوالي الساعة. تقريبا كل الانشغالات اليومية يكون الناس قد انتهوا منها، فيتطهرون ويستريحون ويتواصلون اجتماعيا وثقافيا لأجل معرفة الجديد وتبادلته، دينا ودنيا. وأفضل مكان لهذا التواصل، هو الذي يستطيع أحدهم أن ينعم به أجرا ونفعا، هو مدار ساحة مسجد أو سوق أو بهوهما.

وجد علال معلمه وفقهه جالسا في تسييح بزواية من مسجد سيدي عبد العزيز، في هدوء يحتاج منك لأن تنزع كل انشغال مشوش بالدنيا لكي تعانق جلسته، كأنك في قاعة انتظار عيادة طبيب، تزيح كل الأفكار الزائدة على المطلوب وتستعد للجواب على ما سيسألك عنه الطبيب، وتخاف ألا تنجح في ذلك، فتراجع احتمالات حوارك معه. إنما هذه زيارة لحكيم روعي وأب روعي واجتماعي للبلدة. من حقه أن تعبر عن غضبك وقلقك، أن تبكي وتصارع بنقاط ضعفك وقوتك، وأسرارك حتى تخرج مُعافي مع الزيارة.

كل هذه الأمور رافقت علال في مساره نحو فقهه. استحضر الآية من سورة لقمان (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)¹، فساعده ذلك على ترك الإسراع في الخطو وضبط جريان الدم وتحقيق توازن بين الحركة والتفكير، والتقليص من انفعاله الذي دفعه لزيارة الفقيه، واستحضار منطق العقل في استقبال نصائح الفقيه وتوجيهاته، وهو ابن الثلاثين سنة الآن، والمتزوج منذ عشر سنوات وزيادة، والأب لابن ستماء

1 - سورة لقمان الآية 19.

محمدنا ونبت سماها خديجة. كلها أحداث وأفكار مرت في ذهنه شريطاً حياة سريع ومتداخل. كم مرة تعبرنا الحياة في لحظة واحدة، وتتركنا للآتي، فنتساءل مع حرماننا من الماضي فيها: كيف سيكون غدنا؟ تلك تنهيدة امتزجت معها هذه الحسرات قبل أن يصعد طريق حي سيدي عبدالعزيز تجاه مسجده. ها هو الآن أمام فقيهه! من أين سيبدأ كلامه؟

كانت بداية الحرب العالمية الثانية منطلقا لمفارقات جديدة تفاعلت معها ساكنة جبل زرهون عموما. لم تستطع الأحداث التي فجرت أمن العالم أن تترك هذه المنطقة في سبات بعيد عن صخب المدافع والطائرات. كما لم تكن ذاكرة المقاومة التي انطلقت بالمنطقة قبل توقيع عقد الحماية الفرنسية قد جفت من التداول والانسباب مع ما يقع وما سيقع. هي ذاكرة تؤمن بالآتي أكثر، وتجعل الماضي وقودا وشرارة وقنبلة متفجرة في وجه المستعمر.

لكن هذه الصورة التي تلتحف بها حروف الوطن المأمول أمة وشعبا قد تعرف المد والجزر في الوعي والتحقق عند بعض الأفراد.

وقفت الشاحنة بجانب مدخل السوق وقوس بوابته الكبرى. نادى المنادي (البرّاح):

. من يريد من الشباب والرجال أن يشارك في الدفاع عن فرنسا والمغرب، في محاربة الألمان الكفار. مولانا السلطان يدعوكم لتلبية النداء.

يكبر الفضول عند المتلقين ويتطور رغبة في الاكتشاف. ومن غريب الصدف أن السيد عبدالعلي الذي أصبح رجلا الآن والسيد عمر ابن خالة السيد علال بن المهدي اليازغي ما يزالان يمتلكان من روح هذا الفضول والمغامرة ما يدفعهما للسؤال والتعرف على المطلوب. حلم البحر والطائرة والقبعة والنظارات وصور النساء المتبرجات. حلم القتال وحمل السلاح وامتلاك القوة.

جرح الواقع الذي حكم بالكدح على الطرفين في حياتهما نظرا لضيق عيش وفقر امتلاك لتجارة أو زراعة وفلاحة. لم يجبرا أهلهما. انطلقا في مغامرة الحرب وكان حظهما مختلفا من خلال المشاركة في صفوف جيوشها وفيالقتها. يوم جاء خبر ذهابهما ذرف السي علال بن المهدي دمعة تحسر على ابن خالته الذي لم يرد منه أن ينطلق في ما سافر لأجله. وعي المقاومة منتشر عند عدد كبير من الناس. معاداة فرنسيس ازدادت حينما علم هذا الجل بأن فرنسا احتلتها ألمانيا. ما تزال أذناه ترجعان صدى صوت صديقه الحاج إبراهيم² قبل ذهابه لأداء فريضته: أهذه هي فرنسا التي تعتبر نفسها حامية لبلاد المغرب؟ عجبا !

تذكر علال كل الماضي وما اشتركا فيه من مغامرات. لم يستطع علال أن يجد تفسيراً مناسباً يقنعه بسبب ذهابهما إلى ما هم مقبلون عليه من مجهول. كان زواج علال سببا لتباعد اللقاءات وتبادل الحوار حول مختلف القضايا الشخصية والأسرية وغيرها.

جلس علال في مفترق طرق الحي، قبالة الفران. نقش على حجر بأداة حادة وجدها مرمية بجانبه. تذكر عملية النقش ولعبة الأقواس التي يا ما غامر الثلاثة فيها مع أصدقاء الحي. كيف كان عمر يشكل فريقه من ثلاثة عناصر، وبالموازاة يقوم عبدالعلي بنفس التشكيل. كم من مرة كانت محطة جلوسه في مثل هذه اللحظة منطلق اللعب والجري والتحدي. وكم منها كان فيها علال

² - الحاج إبراهيم هو الشخصية الرئيسية في رواية باب القصبه حيث تتداخل زمن الحكيم والشخص مع رواية شارب الذهب.

هو الحكم الذي يتكلف بالمكوث مكانه هذا في انتظار المتسابقين والمتبارين. لا يدري كيف تطورت اللعبة من مجرد عدو بين مسارات المدينة إلى لعبة اكتشاف وتوقيع بصمة المرور واستحضار الشاهد المادي الذي يرمز لنقطة الفوز بحسب العدد المجموع.

هي مدينتهم جميعا التي ترسم أطلال وفتحات أقواسها في عينيه فيخترق بخياله مجهولها ومددهشها. وقد كان المدهش متجليا في القدرة على اختراق أحياء أخرى يصعب المرور منها فرادى نظرا لفتوة أصحابها ورفضهم للغريب عنها، خصوصا وأن صراعات كانت تنشب بين شباب الأحياء تعبيرا وتحديا وتوقيعا للشجاعة وشهرتها.

كانت أبواب المدينة الرئيسية التي يتم الاتفاق عليها منطلقا في الاتجاه المعاكس بين الفريقين. يمران من قوس إلى آخر ويكون الانتصار بسرعة الإنجاز للمهمة وعدد الشواهد المحصل عليها كدليل على المرور. في بعض الأحيان يتموقع بعض الأفراد من أبناء الحي أو ممن تم الاتفاق معهم من خارجه لكي يشاركوا في اللعبة. هكذا يمكن رسم خريطة المسابقة بين باب حي ابن يازغة الجنوبي وباب الحجر وباب ضريح مولاي إدريس (البيبان) وباب الرشاش وباب القصبة وباب الجديد وباب الوطاية وباب الخطاطبة وموقع ضريح سيدي محمد بن قاسم وممر سريو قبل الرجوع إلى نقطة الانطلاق.

قد تنوب أبواب المساجد ومواقع السقايات عن هذه الأقواس تغييرا لقوانين ومواقع...

متى سيعود ابن الحالة؟ ما الذي سيحكيه عن تجربته؟ يبقى مثل هذين السؤالين عالقا بين فضول وتذمر من كل فكرة حرب أو موت.

...

حيا علال معلمه وأباه الروحي الفقيه السيد ابن عيسى وقبّل رأسه. جلس فوق الحصير المنشور في هذه العشية الدافئة، والتي ستتحوّل إلى برد قشعيري، يناسب الدخول إلى المسجد للصلاة مع أذان المغرب والاحتماء منه بين جدرانها، في يوم الاثنين هذا الذي كان فيه الفقيه صائما منتظرا غروب الشمس.

. أين هذه الغيبة يا علال؟ وكيف هي أحوال العائلة؟

. الحمد له يا فقيه. نشكر الله على رزقه وعلى سلامة الصحة التي وهبنا. رد عليه علال.

. وعمّك أبو عمر كيف بقيت صحته؟

. لا يخرج إلا قليلا إلى المسجد ثم سرعان ما يعود إلى المنزل. نتمنى من الله أن يعافى مع دفء الربيع هذا، ومع زوال صقيع الشتاء ولياليها. منذ سافر ابنه عمر تراجعت صحته بشكل مخيف.

. هل من أخبار عن ابن خالتك عمر؟

. يقال أن الحرب انتهت. فعلا لقد عاد بعض من ذهبوا إليها. حتى من السيد عبدالعلي بن المدني ابن حومتنا قد عاد، متعجرفا أكثر ولا يكلم واحدا منا. ربما يدرك بأننا لا نكن ودا لهؤلاء. لماذا ذهبوا للمشاركة في الحرب مع من يستعمرنا؟ هناك وثيقة استقلال التي لم تجد تلبية من طرف فرنسيس.

. وعمر، هل من أخبار؟

. قرأت رسالة على خالتي وصلتها من ابنها عمر تفيد أنه ذهب إلى بلاد جديدة مع مجموعة من الجنود معه. يبدو أنه لم يكن مع مجموعة عبدالعلي بن المدني.

. اللهم ارزقنا الصحة والعافية، واسترنا في الدنيا والآخرة يا رب العالمين.

. جئتك يا فقيه لأجل أمر حيرني هذه الأيام، ولا أدري كيف أتصرف فيه.

. ما هو يا علال؟

. لا شك أنه وصلتك حكاية الحمّال الذي سيق إلى الباشا بذريعة أنه لم يخلع نعليه حين مروره أمام الجماعة الجالسة من الشرفاء.

. نعم، نعم. وما الأمر إذا؟

. لقد كنت حاضرا، وأغاظني ما رأيت من احتقار. حتى إنني لم أعد أحب المرور أمامهم ولا ملاقاتهم أو التحدث معهم. والمشكل أنني لم أعد أحب الدخول إلى المسجد إلا من الباب الخلفي لأداء الصلاة، تجنبنا لتشويش الذهن بروئيتهم... فهل أنا مخطئ في هذا التصرف؟ وهل الإسلام يقبل تصرفاتهم؟

. تعلم يا علال أن الإسلام ساوى بين جميع البشر، وأن هؤلاء مخطئون في تصرفهم، وفي الواقع هناك من الشرفاء من يستنكر مثل هذا السلوك، ولا تسمع له صوتا متفاخرا أو مستكبرا. هؤلاء ليسوا من العلم ولا من الأدب الإسلامي في شيء. هو مشكل تربية. وداخل أسرهم تجد من يرفض تصرفاتهم. كما تجد فيهم العلماء والمتعفين والزهاد. ولا تنس أن الله يبتلي عباده، كما ابتلى أنبياءه. فالرسول عليه الصلاة والسلام عانى من عشيرته أكثر مما عاناه من القبائل الأخرى. دورنا هو البرهنة على الصبر والثبات على السلوك الصحيح والتقوى. كل مرة تجد من يدخل دائرة الاستقامة ويرتاح

فيها. ولاتنس أن شبانا مثل هؤلاء إذا لم يشتغلوا بعلم ولا عمل، لا تنتظر منهم سلوكا مناسباً. نتمنى من الله أن يهديهم إلى الطريق المستقيم.

. اللهم آمين يا رب العالمين. هذه بركة من النقود اجعلها صدقة مستورة لفائدة الطلبة والفقراء. أرجو أن تكون مقبولة عند الله تعالى.

. اللهم آمين يا رب العالمين. اللهم ارحم والدينا وارحم من علمنا وارحم برحمتك جميع المسلمين والمسلمات وخلصنا من قبضة الكفار المستعمرين يا رب العالمين. اللهم أعنا على طاعتك والنجاح في ابتلائك وامتحانك، يا لطيف يا خير!

. آمين يا رب العالمين.

. سيدي الفقيه، كيف هو حال (الدالية) هذه السنة؟

. لقد اعتنينا بها جماعة. نتمنى من الله بركتها، فهي مفتاح رزق كبير على الناس. سر تألفهم وبرّ صدقاتهم. إنما قل لي: هل توأكب تلاوة القرآن الكريم؟

. أحاول ذلك ما استطعت. فالفلاحة تأخذ مني الوقت، ولكنني أتلو في لحظات سورا من كتاب الله.

. لا تنس أن ملازمة القرآن وقراءته في المصحف ضرورية لأجل ضبطه وعدم نسيانه.

. اللهم أعنا على ذلك الأمر الجليل.

. ولا تنس قراءة اللطيف مع الجماعة. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما يأكل الذئب من الغنم القصية). وحال المسلمين اليوم كما تراه، في تفرقهم وخصوماتهم. يجعلون معها الكافر حكما ونصيرا وحليفا ضد إخوانهم في الدين. وأرجو أن تلتمس لإخوتك في الدين عذرا. فمن أخطأ عليك أن تغفو عنه ما استطعت، وتدعو له بالهداية. وتشفي قلبك من كل ضغينة، لأنها حطب نار تنقد في دواخلنا فتحرق أحشاءنا وأنفاسنا. فالدنيا فانية، ومن طمع في قطعة منها ربما حرمته من الآخرة ونعيمها. اللهم ارحم جميع عبادك واغفر لهم وثب عليهم يا رب العالمين، يا أرحم الراحمين. ما رأيك أن ندخل إلى المسجد. فالساحة بدأت تبرد قليلا؟

. عليّ أن أتوضأ استعدادا لصلاة المغرب.

بعد صلاة المغرب، قصد علال ساحة السوق الداخلي. مرّ على السوق البراني، بجانب الفندق القديم، ثم ولج السوق الداخلي لأجل شراء بعض المستلزمات للبيت، ومنه إلى المسجد الكبير، حيث أدى تحية المسجد، تلا بعدها بعض السور القرآنية، ثم كانت صلاة الجماعة للعشاء. لما انتهى منها

مع التسليم يمينا وشمالا، وجد أحد الشبان الذين نفر من سلوكهم مع الحمال. سلّم عليه، ولم يجد قلبه خافقا أو حانقا. تذكر حواراه مع الفقيه، فلم يراجع محاسبتهم في ضميره، بل أكمل السلام مع باقي المصلين وانصرف من المسجد قاصدا المنزل، واضعا ما اشتراه من السوق داخل قب جلبابه . بعض توابل خاصة بالطبخ، أوصته أمه بشرائها ..

...

كل فصل له برنامجه، بل كل يوم له أشغاله. ففلاحة الأرض والأشجار تحتاج إلى معاينة يومية، والبَحيرة كذلك تحتاج إلى سقي وتنقيح وعناية. مر فصل الربيع، ومرّ فصل الصيف بحصاده وتينه. وها هو فصل الخريف وجني الزيتون وقطفه من جديد. أربع جنان مفرقة تحتاج منه إلى جهد وجعل أولوية في القيام بالمهام، بنقله إلى المنزل أو إلى المعصرة المائية الموجودة بطريق الحامة.

إنما هذه السنة فريدة من نوعها. خلقت تواصلا اجتماعيا بين أهل البلدة. كما لقيت مشكلة مهددة لهم ولرزقهم وطريقة تديره الاستزاق به. دخل معها الناس في حركة العالم الأكبر ووقائعه في الحرب العالمية الثانية. كما دخلوا مع السلطان في دوره وموقفه مما هم فيه. زيادة في تشكل وعي مقاوم للاستعمار يحمله طلبة العلم الذين يقصدون جامعة القرويين بفاس. كما يحملون أخبار المقاومة للمستعمر وأحوال المسلمين في العالم والجوار.

قام البراح في صباح باكر مرفوقا بعسكر بالإخبار:

. اسمعوا يا عباد الله. وما تسمعونه إلا أخبار الخير. هذا العام قال لكم المخزن أن غلة الزيتون كلها ستجمع وتسلم لإدارته. وتأخذون مقابلها نقدا بعد ذلك.

. اسمعوا يا عباد الله. كل من أدخل ولو كيلوغراما واحدا من الزيتون لمنزله يعاقب بسنة سجننا.

تغيرت الحركة في السوق كما في المسجد والبيوت. لم يع الناس بم ابتلوا في هذا الأمر المفاجئ الجديد.

الرجال جماعات في الساحة بجلابيهم واضعين غطاء الرأس الذي يقيهم حر شمس الحريف القاسية. وزادتهم قساوة هذا الأمر:

. ولكن، نحن نأكل من هذا الزيتون طول السنة، ونستعمل زيت الزيتون في الصباح والمساء. كيف لا نوفرها لمنازلنا ونعطيها لفرنسيس؟

. هؤلاء كفرة، يريدوننا أن نموت جوعا. لعنهم الله.

علق التاجر الفاسي السي عبد الغفور، في صف حوانيت أهل فاس الخاص ببيع الأثواب:

. أنا، فلان إذا لم آخذ منه الزيت والزيتون، لن أستخلص وأرد ما أخذه مني من أثواب. ما العمل؟

المعلم إبراهيم الخياط، صديق علال وصاحب دكان بالسوق الداخلي، وابن الحاج العربي صديق أبيه، يعلق على الخبر في المساء أمام علال:

. هذا العام أضفه هو الآخر لعام الهيفوف والجوع. جربوا فينا الحرمان من الخبز والآن أرادوا أن يجربوا فينا الحرمان من الزيت والزيتون. حتى برد الشتاء لن نجد بم سنقاومه. ما زلت لم تجمع الغلة بعدُ آلال؟

. ليس بعد، الزيتون لم ينضج بعد كفاية. يعلمون أنه سيكون طازجا بعد شهر أو على الأقل بعد عشرين يوما، بحسب المناطق.

صلاة المسجد كانت جامعة. وعدد الناس لافت للانتباه. قراءة اللطيف اتخذت شكلا غريبا. كانت كدوي النحل، استنفرت مسامع المخبرين الذين يوصلون المعلومات لإدارة المستعمر. تسمع بين الفينة والأخرى، استنجادا غيبيا:

. الله ينصر سيدنا السلطان!

كأنه استنجاد بعدالة لا بد أن تحل وتنقذ السكان من هذا التهديد الذي نزل عليهم كالصاعقة وأراد نزع رزقهم والفرار به إلى أعلى، كأنه صقر ضخم

غرس محالبه في شاة ضعيفة ورفعها دامية إلى السماء لكي يفترسها في مكان عال وبعيد لا يراه أحد.

رافق الاستنكارُ الاستغرابَ والتساؤلَ:

. ماذا سيفعلون بكل هذا الزيتون والزيت؟

لم يغمض لعلال جفن إلا ساعات قليلة. كانت زوجته ترافقه في التفكير، كما تسائله حول زيتون دُوارها. ما مصيره كذلك؟ ربما إذا لم يأخذ فرنسيس غلة أبيها، ستجلب بعضا منه ليساعدهم في مؤونة الشتاء والسنة. لكن لعلال، زاده توتر نفسيته المتراكم حاليا مع هموم الأرض المنزوعة، وهموم التصرفات التي تصدر من القايد وحاشيته. يستحضر روايات أب زوجته حول المقاومة التي سجلها شمال المغرب الريفي مع السبليّون الكفرة، والمعاناة التي اضطرت بعضهم إلى الهجرة جنوبا واستقرارهم بجبل زرهون. كبر المشكل في ذهنه وأصبح قضية سياسية:

. لا بد من حلّ نبحث عنه. ماذا عن سلطان البلاد؟ هل يرضى بهذا الظلم؟ لا بد من تزكية فكرة الذهاب عنده والشكاية له.

كانت الفكرة تختمر بسرعة قبل حلول موسم الجني المباشر لغلة الزيتون. جميع الألسن تبادلّت الاقتراح. وجميع البيوت والأسر كان حديثها حول طريقة حل

المشكل وكيف سيعالجه السلطان. تسلح الناس بالإطعام بالصدقات وقراءة اللطيف وطلب مشورة الفقهاء والعلماء.

...

في نفس أسبوع هذا الإعلان، أقيمت لقاءات مكثفة بين الفلاحين، وانضاف إليهم بعض الطلبة والتجار. كان فضاء المساجد كالمسجد الأكبر ومسجد سيدي عبد الله الحجام، وسيدي عبد العزيز، ومسجد مولاي اليزيد، كما كانت بعض التجمعات في المنازل، مجالات للتشاور والمناقشة. حضر فيها علال خلال ثلاثة أيام. كما استدعى لوجبة غداء في منزله ثمانية من أقاربه ومعارفه. اتفقوا في النهاية على رفع الشكوى لسلطان البلاد، لعله يرفع هذا الظلم عنهم. وبما أن ملاك أشجار الزيتون وفدادينها كانوا متفاوتين في امتلاكها، فقد تفاوت كذلك مقياس الموقف الذي يرى الذهاب للعاصمة لأجل الشكاية لجهات عليا.

تم الاتفاق على جعل حافلتين في الرحلة إلى العاصمة. الأولى أكثر أناقة وصيانة، اتفق كبار الملاكين على اتخاذها سفينة لرحلتهم كمجموعة تضم ستة عشر منهم. أما الثانية فمتوسطة الصيانة، وستكون لصغار الملاكين والذين كان عددهم الممثل لهم تسعة عشر فلاحا أو مالكا.

أحد كبار الملاكين اتفق مع صغار الملاكين ليذهب معهم في الحافلة. كان علال من بين كبار الملاكين، وكان مرافقا للحافلة الأولى التي ستنتقل للغد. جاء في الصباح الباكر، كما جاء باقي الفلاحين. لكن حافلة كبار الفلاحين لم يأت إليها إلا هو وفلاح آخر من حي خيبر. فقد وسوس خدام فرنسيس لكبار الملاكين:

(. لماذا سْتُعَبُونَ أنفسكم بالذهاب حتى الرباط؟ اتركوا هؤلاء الصغار يذهبون. إذا نفعتهم الشكاية، ستستفيدون أنتم كذلك، دون معاناة تعب السفر).

كان علال قد أعد حقيبة سفره، وارتدى جلبابه (المحريل) الصوفي الجديد، كذا بلغتته التي يستعملها للذهاب إلى صلاة الجمعة، والتي جعل لها كعبا مناسبة، يبدو فيها أكثر طولا، مادام هو ليس بالطويل ولا بالقصير. فطوله لا يزيد على المتر والستين سنتميترا. لكن مع هذا البلغة ومع الجلباب السميك واقف الأكتاف في فصالته، جعل مشيته تتخذ الصدر أماما والعنق مستقيما رافعا به رأسه إلى أعلى، بجلة الملاك الكبار.

شعر بالغدر حينما لم يجد من اتفق معهم على الذهاب إلى العاصمة. تداول باقي الملاكين الأمر بالمناقشة والاستنكار والاتهام بالخيانة لكل من لم يأت. ولم يكن من لم يأت سوى كبار الملاكين. لكن صغار الملاكين صمموا العزم على الذهاب، وليكن ما يكون! وليكن ما يكون!

اتخذ علال كرسية مع صغار الملاكين، وذهب معهم الى العاصمة.

وصلوا إلى جامع مولاي الحسن بالعاصمة. وقبل ذلك في الطريق، كان هناك من يقرأ اللطيف، ومن يتلو القرآن. تلاحظ كل مرة الأكف مرفوعة بالدعاء إلى العلي القدير. كما أن البعض الآخر كانت هذه أولى رحلاته راكبا حافلة إلى العاصمة. وحتى الذهاب قبل ذلك إلى مكناس كان يستعمل فيه دابته، أو يمشي على رجليه. اختلط عنده الفرح باستعمال وسائل المواصلات الحديثة ورؤية تضاريس وطبيعة متنوعة والمرور بساكنة مدن وقرى متعددة، كل هذا اختلط عليه بالقلق من المجهول في هذه الرحلة:

. ماذا لو واجههم فرنسيس بالسلاح وصقّوهم في الطريق؟

. ماذا لو أنهم لن يفلحوا في مسعاهم بالرباط.

أسئلة كثيرة، لا يشفع في تهدئة توتراتها سوى هذه الرفقة الجماعية، هذا التضامن الذي يعطي الشرعية للتفكير في المقاومة التي يتخذ منها بعضهم بعدا سياسيا وعمليا لأجل محاربة المستعمر.

كان القلق باديا على علال منذ بداية الرحلة. رغم معرفته بجل ركبها، إلا أن تخلف الجماعة التي كانت ستأتي في الحافلة الأخرى جعله يطرح أسئلة الانتماء:

. لو لم يكن هؤلاء الملاك الصغار، ما مصير الاحتجاج وطلب الحق؟ من سيرجع لهم غلتهم التي هدد الاستعمار بمصادرتها هذه السنة؟

تفكر رواية زوجته وأهلها من سكان الريف الذين نزحوا إلى جبل زرهون، من بني ورياغل وبني وكيل. كيف تركوا ممتلكاتهم؟ وكيف اضطهدوا وأبيدوا بأسلحة غريبة خلقت تشوهات وأشكال موت فظيعة لم يروا لها وصفا في الحكايات ولا في أهوال قيامة القرآن الكريم.

تفكر كذلك، رواية السيد المعطي الجيلالي الغرباوي التي كان كل حين يسمعها منه، سواء في لقائه به في السوق الداخلي أو في منبع عين القصر، حيث يأتي لتوريد البهائم التي يشتغل على قيادتها لمقاع الرمال والغابة:

. عائلتنا لها أراض خصبة أفضل من هذه في سهل بورياح أسفل جبل زرهون. نحن من بني حسن، قرييون من البحر والرباط. صادروا أراضينا وأقاموا فيها ضيعاتهم التي أصبح يسيرها فرنسيون. ما يزال عندي رسم وعقد الملكية للأرض. إنما لمن سأرفع شكائتي ومن سيرجع لي حقي؟ ها أنذا أصبحت أعمل عند الآخرين، بعد أن كنت سيد نفسي.

وتتسلسل الحكاية حتى تصبح مملة في بعض الأحيان، فتجد الجماعة تعوض له حسرتة بسخرية أو نكتة أو مداعبة كلامية تجعل روح الأخوة الدينية والمحبة الاجتماعية بديلا له عما ضاع له ماديا في جهة الغرب وسهوله المغتصبة.

. ماذا لو صادروا جناننا وفداديننا؟ هكذا تساءل علال محاورا الراكب بجانبه.

. أليست الضيعات التي يقيم فيها جريماندي* والجوبير* الفرنسيين مثلا، ملكية في الأصل لمغاربة؟ ألم يستحوذوا عليها؟ ماذا لو أصبحنا مثل المعطي الغرباوي بدون ملك؟

فكر في ولديه وأمه وزوجته. ماذا إذا لم يعد من رحلته هذه؟ ما مصيرهم جميعا؟ حسرة الخيانة أكبر مرارة من سفرهم المخيف بمجهوله هذا.

هو ذا إذن جامع مولاي الحسن. اتخذت الجماعة الزهونية مقاما للانتظار بجواره. يأتي الملك للصلاة فيه، فيلاحظ الجماعة هناك. يسألهم خدام القصر كل مرة:

. ما خطبكم؟

يجيبونهم بواقع الحال والخوف من المآل.

بقوا على هذا الحال في الاعتصام واللجوء الاحتكامي (المزاوكة) عشرة أيام. وهُم كل يوم يزيد عزيمهم على مواصلة الاعتصام حتى تحقيق الهدف:

. رفع الشكوى للسلطان وطلب الحق منه.

ناداهم الملك للاستماع إليهم في نهاية المطاف. وفي تلك المدة من اعتصامهم كانت مدينة مولاي ادريس زرهون تعيش محتضرة على مصير الجماعة المسافرة، متسائلة عن نتائج مهمتها، معددة الاحتمالات الطيبة أو غير المحمودة كذلك. ساد الأسر جوّ حزن وبكاء، وتهديد بفقدان المعيل والابن والحبيب. تشكل موقف معادٍ للذين تخاذلوا وخانوا الالتزام بالذهاب.

دخل سكان المدينة للمساجد. كل فقيه أدخل المحاضرة" الذين يحفظون القرآن، وبقوا معتصمين في داخل المساجد في قراءة كتاب الله واللطف، يأكلون وينامون حتى يرجع الذاهبون للشكاية من الرباط.

سجل كاتب الملك أسماء الحاضرين للشكاية أمام السلطان.

. ما مشكلتكم؟

. آمولاي السلطان نحن جننا طالين حماك وعدلك. حقنا ضاع مع فرنسيس. لقد أرادوا أخذ رزقنا وقالوا لنا من أدخل ولو كيلوغراما من الزيتون لمنزله، مصيره عام من السجن. ونحن آ سيدنا، عندنا ثلاث صفات في الرزق بما نعيش وإلا سنموت:

. الزيوتات (الزيتون)، والزَّرْبَعَة (الزرع)، والعوينبات (العنب).

سألهم السلطان:

. وما لكباركم وأعيانكم لم يأتوا معكم؟

. آسيدي كنا سنأتي في حافلتين، واحدة لهم وواحدة لنا. في الصباح، حافلتهم بقيت فارغة وتحلفوا عن المجيء ونحن قلنا نمشي عند مولاي السلطان الله يطول في عمره، ونطلب الحق والعدل منه.

طلب السلطان من كاتبه أن يسجل الأسماء وعدد أشجار الزيتون التي يمتلكها كل واحد منهم وبدأ يدون كل اسم وعدد الأشجار التي يمتلكها من الزيتون. كان أول المسؤولين عن عدد ممتلكاته من الزيتون قد ضاعف العدد مرات وجعله كبيرا في جواب كاتب الملك:

. عندي آ مولاي مائة زيتونة! رغم أنه لا يمتلك سوى عشرين.

زاد الناس في عدد ورقم الأشجار التي يمتلكونها. سجل لهم كاتب الملك صك أمان على ممتلكاتهم ووقعه السلطان. رجعوا فرحين إلى بلدهم زهون. وموسم الجني قد حل أسبوعه.

عمت الفرحة البلدة، واعتبروها نصرا في مقاومة المستعمر. أُلِّفَ الطلبة حفظة القرآن نشيدا بالمناسبة، واتخذه أفراد الكشفية والمقاومة نشيدا رسميا لهم في التحريض ضد المستعمر وضد الخونة كذلك، حتى إنه خلق مشاحنات

وملاسنات بين الملاكين الذين ذهبوا للرباط والذين تخلفوا عن الذهاب. كما خلق توترا مع حركة المقاومة:

. هل نعتبرهم خونة أم خوافة أم ماذا؟

لكن، حينما يمر عدد من شباب الكشفية مرددا الأبيات تحت نافذة منزل أحد الأعيان المتخلفين، تجد ردود فعل مستنكرة وشاكية ومبررة. فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية متداخلة ومتشابكة، لا يمكن معها إقصاء البعض عن الآخر، رغم أن محطة هذا الامتحان كانت مصيرية.

يمر شبان الكشفية (شباب المقاومة) مرددين الأبيات:

اليوم هيووا للحروب هيووا *** ونرجع للبلاد ظافرين

أفانلا سل التاريخ يُمل *** لأننا نحن خير الفاتحين

أنبيننا تدر البشرى قد *** حلت للنصر ونحن فرحين

فطبي نفسا وقرى عينا *** لنجاتك من القوم الظالمين

كم شيدنا من قصور وبناء *** وانقلبوا خاسرين خائنين

اليوم الراية الحمراء تسمو *** وترفرف على الفائزين

فهنيئاً لنا فزنا جميعاً*** والحمد لله رب العالمين

فلعنة الله على الخائنين*** ورحمة الله على المخلصين

هذه الرحمة تجلت في قلوب الناس. إذ حضر الحديث الشريف الذي علّمه الفقهاء لهم (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). كما حضر مفهوم العفو والأخوة الدينية في قلوب الملاكين الصغار الذين أخذوا يجنون غلات زيتون الملاكين الكبار الذين تخلّفوا عن رحلة العاصمة، ويدخلونها إلى بيوتهم باسمهم، أو إلى معصرات الزيتون باسمهم هم أصحاب التوقيع الملكي في عدم أخذ فرنسيس لشيء من غلاتهم.

عاد علال إلى فلاحته مطمئناً وشاعراً بالانتصار ومدخلاً البهجة والاعتزاز إلى أسرته، رغم أنه تراجع وتردد واستغنى عن الفكرة التي راودته في تقديم شكاية للسلطان حول الأرض التي سلبت منه. لكن هذا التراجع خلق في دواخله إمكانية البحث عن حل لاسترجاع أرضه المسلووبة. لا بد له أن يفكر في طريقة لمقابلة السلطان، أو من سيكون قريباً من قرار السلطان. إنما هذه المرة ستكون الشكوى ليس ضد فرنسيس بل ضد أحد أعيان المدينة وأصحاب النفوذ فيها.

...

يتزامن يوم السوق الأسبوعي مع يوم السبت بالمدينة. يتهيأ علال، كما يتهيأ باقي السكان للخروج للسوق والالتقاء بالفلاحين والتجار الذين يأتون من المدن والقرى المجاورة. منذ نعومة أظافره، كان الخروج إلى احتفالية السوق الأسبوعي حدثاً متميزاً وفرصة لشراء أشياء جديدة لم يرها من قبل بحسب ما توفر لديه من نقود. وكان ما يبيعه غالباً من مواد فلاحية كالزيتون والتين والقمح والشعير وبعض الفواكه والخضر بحسب الفصول، يجعل بعض ربحه لاقتناء ملابس أو أوانٍ له ولأسرته. وهي عادة جل السكان بهذه المدينة ذات الطابع الديني كتنظيم سلوكي، والفلاحي كمعيش اقتصادي.

إنما هذا اليوم من السوق، عاد علال بمرآة كبيرة الحجم، ذات إطار خشبي بديع ومصقول ومزخرف، كأنها لوحة منقاة ومحفوظة. أثارت المرآة فضول معارفه وفضول المارة كذلك. خلقت حوارات أدفأت اللقاءات، ونوعت مواضيع مختلفة مع هذه المرآة.

التقى في الطريق امرأة من سكان الحي، معروفة بمزاحها وانفتاحها ودعابتها في الكلام. طابعها المنشرح يعرفه سكان المدينة. حدود تواصلها لا تزعج المتحاور معها. فهي أرملة تعدت الخمسين من عمرها، وليس لها مفاتن

تغري بها. والناس يعلمون أنها ليست بالمرأة المقلقة في سلوكها. اعتادوا على الكلام معها خلال أيام الأسبوع، خصوصا وأنها تبيع وتشتري في ساحة السوق الداخلي، في الصوف والثياب المنسوجة والمحلية، وكذلك في منتجات الدواجن من البيض والدجاج .

. إيوا آ سي علال، بالصحة المرايا. اشتريتها لامرأتك؟

. اشتريتها لنفسك آ لالة مهدية.

. إيوا لاواه. ما فيها باس إيلا تهلتي في امراتك.

. وأنا ما نتهلا في راسي؟ بغيت نشوف راسي في المرايا.

. اللهم تشوف راسك في المرايا مزيان أو يشوفوك راسك في المرايا.

. الله يهديك آ مهدية.

. آ بالصحة والراحة. غير نبسط معك وصافي.

يجلس علال ليستريح بجانب صديقه المعلم الخياط. يضع المرآة بجانب باب الدكان .

. ما ذاك الشيء آ سي علال؟

. هذه مرآة.

. بالصحة والراحة. الناس الكبار آخويا. تبرّغ مع راسك آبا علال.

. الله يعطيك الصحة. مهدية مولاة الصوف قالت:

. اللهم انشوف راسي في المرايا والا يشوفوه لي هم.

. ههه. عندها الصح. هذه جابتها روام. عنداك غير بوتليس • يجيك بالليل.

. الله يهديك حتى أنت. يا الله. السلام عليكم، سأمشي حتى المنزل أوصل

المرآة وأرجع للجامع لصلاة الظهر.

. الله يعاونك، واعتنِ بالمرآة.

في الطريق، كان لقاءه مع الفقيه إمام مسجد مولاي اليزيد. وبعد تبادل نفس

الحوار المتساؤل حول هذه المرآة كان تعليق الفقيه بغرابته واستغرابه ووقعه:

. المرآة في القلب وليس في الأشياء مثل هذه.

*- شلل النوم والأرق المرتبط به، كما الحكايات والأساطير التي نسجت حوله فربطته بالجن والشياطين. تبقى علاقة المرأة بهذه الظاهرة محط تساؤل عام وتساؤل خاص مرتبط بشخصية علال بن المهدي والاحداث التي ستقع...
(وجابتها روام) أي انها أصابت الرأي بحسب سياق الكلام.

لم يفهم المعلمُ علال معنى كلام الفقيه جيدا. ولكنه شعر بقشعريرة في مسامه
وئغصة خاطفة و تدفق سريع في نبضه.

لعل جل الناس الذين خرجوا للسوق هذا اليوم أصبحوا على علم بقصة المرأة
الكبيرة التي اشتراها علال. أثارت فضول البعض وأكثروا من تعليقات لا تخلو
من مزاح. إنما الغرابة وجدت حضورها في المنزل. لما أدخل علال المرأة تجمهر
عليه كل أفراد الأسرة. كانت حدثا جديدا. كأنها الشاشة التي سمعوا بها أو
رأوها مع قافلة السينما التي جاءت للبلاد في السنة الماضية.

جعل السي علال لمرآته حيزا مكانيا في وسط ساحة المنزل. يقف أمامها قبل
الخروج. يتمعن في قامته وجلبابه. بعد يومين من ذلك، جعل المرأة في غرفة
نومه. جرب ألبسته ونعاله أمامها. في بعض الأحيان تجلس زوجته متابعة
مشهده وهو واقف أمام المرأة، مستغربة من حديثه مع نفسه أمامها. إنما ما
استغربت له أكثر وحدثت عنه حماتها هو اهتمامه بشاربه أكثر. حيث جعل
له مشطا رقيقا خاصا. كما أطال جانبيه.

كل هذه المتغيرات سببت خوفا صامتا في دواخلها. لم تعاود مكاملة حماتها
خوفا من خلق شكوك حول سلامة زوجها العقلية. كان هذا ما دفعها إلى
القيام بزيارة ضريح المولى إدريس، ثم ضريح سيدي محمد بن قاسم، حيث

أشعلت شمعات هنا وهناك، وتصدقت ببعض ما توفر لها، ودعت بجوار
شباك الضريح من تحت الغطاء الثوبي الذي يتدثر به.

...

. إذا لم يكن الشارب • من ذهب، فها هو حيّ بطوله لاصق بأعلى الشفتين.
المهم أنه موجود !

لم تفهم الزوجة طلاس هذا الكلام. شكّت في المرأة أنّ تكون مسكونة بجن.
كلما دخل علال، وجد المرأة مغطاة برداء. يقوم بنزعه والوقوف أمامها عند
كل دخول وخروج. بعض الأحيان يبتسم، ومرات أخرى يتكلم رافعا كتفيه
وجلبابه، وأخرى يتصلب أمامها جامدا دون حركة، ثم يسرع في الخروج
بالتفاتة قوية تتلاعب معها تلايبب الخامية(الستار) التي تغطي باب غرفة
النوم.

تجلس في زاوية من الغرفة، ونظراتها حادة بدون رمش، وللحظات قد تطول.
تفكر في جزئيات اليومي، وتبحث عن أسباب معقولة لهذه التغيرات التي
أحدثتها المرأة في حياة زوجها. قد تأخذ طفلها في حضنها للاحتماء به من

• - يعني به الأرض الفلاحية التي أُخذت من أبيه.

حزنها، ولمنع دموعها من التغلب على حدودها، فتهيم في همهمات ناغمة لتنويمه، وفي نفس الآن لتضميد جراح فؤادها.

. يمكن ذلك هو بوتليس الذي تسببه المرأة في المنزل. تُعقّب جارتها بصوت خافت في حوارها حتى لا تسمعها أم علال، فرّما تستشيط غضبا غيرة على ولدها.

...

متى كانت المرأة طيفٍ شبحٍ مخيف؟ كاتمة لأسرار، ومحدثة لاهتزازات نفسية وسلوكية؟ الحالة الصحية التي آل إليها وضع علال، في فقدان الشهية وغثيان ودوخة تُسقطه كعمود صبار مائل، راضخٍ ولاطم الأرض من جانبه وتحتته، جعلت الأسباب مرتبطة بالمرأة. جعلت نصح الفقهاء والأقارب ووصيتهم بإبعاد هذه المرأة المشتراة من بهو المنزل أو غرفه. ربطت السبب والنتيجة، فأضافت الحكايات الغريبة المفسرة، وتعددت الشروحات مستحضرة هذه الحكايات المروية. وعلى العموم، أصبح في المشهد ضيوف جدّد (أهل المكان) أو (أصحاب الحال)، عالم الجن الذي يسكن في دواخلنا كما يسكن في أطلالنا وشعابنا.

كان آخر تحيّ غامر معه علال، وهو في وضعه الصحي والنفسي المتدهور، وقلة النوم وسهاده، جعلت محجري عينيه سوداوين غائرين، مثوله أمام المرأة

طول الليل، وسط الظلام الذي تخترقه شمعة يتيمة بضوئها المتموج مع فتيلها ووجهة تدحرج دمعها الصمغي الذائب. لعبة ظلّ ونور وظلام وأشكال أشياء وجسد وسكون وأطياف. عناصر تراقصت في مسرحية صامتة، تفاعلت فيها شخصيتان في درجات انعكاسية متطورة ومُعطية لحوار وجداني بين المرأة والإنسان.

هل ستكون المرأة مسكونة بالجن؟ لا يبدو من داخلها ما سيؤثر على الواقع أمامها، فيدفعه إلى حالات نفسية قد يغلب عليها الارتعاب والارتعاش والارتعاد، قد يغلب فيها هذيان الحركة والسلوك، حيث تضعف القوى ولا تساعد في الحفاظ على توازن، على الاستمرار في سجية وتماسك، فينهار الواحد ويسقط جثة هامدة فوق الأرض، لا تبالي بنفْسٍ مهدد وقلب منفجر ودماع هارب في غيبوبة. ينتصر في كل هذا شبح الخوف الذي ترسمه المرأة، ويرسمه ظلام الليل، وظله، وربما ظل الهَرّ الذي قد يعبر فضاء الغرفة أو البهو مسرعا في الهروب من مشهد خارج عن المألوف الحياتي للمخلوقات، من مسرح رعب يخوضه هذا الإنسان الغريب.

هل يكون تعلق الإنسان بالمرأة في مرحلة عمرية تعويضا عن جوانب نفسية أو استدراكا لمراحل عمرية كان عليه اكتشاف أنه وذاته أمامها؟ ساءل نفسه أمام المرأة:

. من أنا؟ هل هذا الجسد الواقف أمامها هو أنا؟ أين هي نفسي وعقليتي
ومشاعري وحقائقي وتاريخي وحياتي داخلها؟

تداخل الشعور مع هذا الانعكاس بين الحب والخوف، بين الحسن والقبح،
بين الاعتزاز والاحتقار، الشعور بالأمان وتهديدات الزمان، الكسب
والفقدان؟

. من أنا ؟ من أنا ؟؟؟؟

تشظت المرأة في كيانه، ولم يتشظ في مرآها وصفحتها الزجاجية اللامعة
بدرجات الضوء المنعكس عليها.

. من أنا ؟ هل عالمي وراء المرأة ؟ هل هناك حياة وراءها؟

استعاذ بالله، واستغفر الله مرات ومرات. طنين الرأس يعاود السؤال، والأسئلة
تتداخل مع صداد عصبي تُدمره داخلها.

. من أنا؟ تُرى لو كسرتها بملء يدي، أو بقبضة مهباز*، هل سأحترق أسرارها؟
أو تكون هي قد سرقت أسراري وحقائقي وما أقدر على استرجاع حقي به،
فأفشته لعدوّي؟ وكم من عدو لي؟ أخاف عليها من الانكسار، لأنه سيكون

* - يراد به المهراس أو الهاون المرفق بمدقته. يتحول حرف السين إلى زاي في نطق الكلمة،
وتدخل هنا خصائص جد معقدة في دراسة القلب الذي تتعرض له الكلمات والتي تميز المدينة كما
بأقي المناطق في هذا الاستعمال. كل ذلك مجال للدراسات اللسانية وتشعباتها العلمية...

انكسارا لنفسي. لكنني أصبحت أخاف منها كذلك. وهل أخاف من نفسي؟

انهار الكيان أمام المرأة، وتم تغليف المرأة ببطانية داكنة الثوب واللون. كما تم طمرها في طارمة ظلماء، لا يدخلها نور، وراء أمتعة مهملة لم تعد مستعملة ولا حاجة بها عندهم مع الزمن.

احتجب النور عن المرأة، فكان قتلٌ لوظيفتها، وإلا فما وظيفة مرآة محجوبة عن النور؟ لن تكونها بدون نور ولا ضياء، بانعكاس أشكال وأجساد وأشياء، وبحواريات وحركات بتعايد ميمية تجعلها كائنا ثقافيا حيا، يمارس وقعه ودوره في حياة الجماعة الحية العامة. هل بقيت المرأة مسجلة لحقبتها الزمنية والتاريخية والثقافية، خازنة لذاكرتها، رغم أنها طمرت واقفة في ظلام دامس، في غياهب سجن قاتل لوظيفتها؟ أترى، هل هي مسكونة إلى هذه الدرجة؟ وهل لها تاريخ آخر قبل أن يشتريها علال من السوق؟ ذلك التاريخ هو سرها الذي حاول مجتمع علال تفسيره بما أوتي من جهل وعلم، وخرافة وأسطورة وحدث.

صينية شاي نساء المنزل والحي، جلسة الصباح لحكي أحلام الليل ومحاولة تفسيرها. وجلسة الأصيل، توسيع لدائرة الحوار الثقافي والاجتماعي مع الجيران ومع من أتوا للاطمئنان على صحة علال خلال مرحلة مرضه الغريب،

وتدهور صحته التي جهل الكل أسباب ذهابها إلى دمار وتدمير، إلا هذا السبب المباشر المرتبط بهذه المرأة المشتراة، وربما ذلك الشارب الطويل الذي أصبح يسم وجهه علال، حتى إنه أصبح مثل مقود دراجة فوق خديه اللذين أخذنا في الضمور والنحول. شارب كان موجودا قبل سفره إلى الرباط في موضوع جني الزيتون ولقاء ملك البلاد. لكنه تضاعف الاهتمام به وبروزه بعد شراء هذه المرأة.

تعددت الجلسات المناقشة والمفسرة لمرض علال وأسبابه. تبادلت النساء الزيارات والخبرات والمعلومات في لقاءاتهن بين بيوت الحي، وتفرعت الأفكار والإضافات بين كل يوم وليلة.

. شوفي، راه (المراية) أخت الشيطان لعنه الله. إذا بقيت أمامها دوختك. تخلق الوسوس. أنت جميلة بدونها وسرعان ما تصبحين قبيحة أمام المرايا.

. إيه، تسبب المسخ لبني آدم. العياذ بالله. عندي مرآة صغيرة تكفيني في الاستعمال. مرة مرة نشوف فيها. بالزربة. أما اذا جلست أمام مرآة كبيرة، نولي نشوف عيوي ويدخلني الوسوس. لالالالالالا. ما عندي ما ندير بها. آ لطيف، آ لطيف...

. ولد الحرام هذا الشيطان يجعلك في تواصل مع المرايا حتى تُحرق الطنجرة أو يفيض الحليب فوق النار.

. الشيطان يجعلك لا ترين أي شيء في الظلام، ولو أن الأشياء تبدو بظلمتها.
يعمي لك العينين.

. إيو الله يلطف بنا... الواحدة منا تمشي كل مرة عند الفقيه يكتب لها
حجاب يحميها من العين والمرايا. حتى علال مسكين، أظن أنه دخلت
العين والحسد لداره مع دخول المرأة. وها هي مرّضته.

. والله العظيم. عندك الصبح في كلامك. إنه نائم الآن مسكين، لقد دخل
الفقيه عنده قبل قليل، قرأ القرآن ودعا له. شوي ارتاخ.

قلب الأم جبل صخري صامد، ذاب عنه جليده، لكن جوفه بركان مشتعل
بالخيرة والخوف على صحة ابنها. يساعد صمتها المستمر على تخييء دمع
نووي لو انفجرت قطرة منه لتشتت الكيان ودُمّر هذا الجسد. يتضرع بالصلاة
والدعاء، ويستعين بالغذاء الثقافي الاجتماعي، وبما يساعد عليه من أشكال
التدخل العلاجي المادي والمعنوي، وبالقضاء والقدر.

وخوف الزوجة ارتماءً لاحتضان أطفالها الذين أخذوا في الكبر، أو قبض
بأظافر الأصابع وقضم لها وفي تفرغ عنف على تلايب القفطان أو المنصورية
أو الفراش المتخذ للجلوس وللهرب من قدر مخيف، قد يكون خلف الباب
أو في ظلمات هذه الطارمة المحتوية للمرأة اللعينة، أو قدر مخيف كذلك

يعتصب روحا في الهواء، فتستنشق نفسا عميقا تغورق معه العينان بالدموع الساخنة بدون صراخ أو بكاء.

يتابع أطفال المنزل ما يقع. هذا المرض وهذا التفسير الذي يجعله الكبار. تدق قلوبهم خوفا وارتجافا. يحاولون الاستعانة بالروايات المحكية وسحرها ومعجزاتها. كيف سيستطيعون توظيفها واستحضارها لأجل إنقاذ أبيهم أو خالهم أو عمهم. ما يتداوله الكبار حين اجتماعهم لم يعط حلا مرتبها بها. وحين رؤيتهم للفقير وقد دخل وتلا ما تيسر من الذكر الحكيم وآيات بينات منتقاة في ختم التلاوة بالدعاء، يرون مع ذلك باب السماء وقد ابتمت لدعائهم هم الصغار الأبرياء. لكن الصباح سرعان ما يعيد لهم هذا الأمل مرفوضا كقربان. لا يملكون سوى قلوب صغيرة لا تقدر على أحزان كبيرة. تتسع للعب والحلم أكثر مما ستتسع للمفاجئ المرعب والمخيف.

كل ما ارتبط بالمرأة وقد تعرفوا عليه في لحظات مرض سيد المنزل السي علال بن المهدي اليازغي. جعلوا مساحة ذهنية لاكتشاف هذا الغول الخفي الذي يمتلك صاحبه والذي هو الجني القادر على الإصابة ببوتليس أو بوغطاط³. قد يمتلكك بواسطة حيوان ما أو مكان خاص به راودته دون تسليم على أصحاب الحال ودون استعادة بالله من شر الخلق وما خلق. لكنه هنا وقد

³ - تسميات لاغراض امراض منشرة، قد تكون نفسية عصبية.

امتلك روح علال ونفسيته بواسطة مرآة، فقد ترك استغرابا حول روحانية الأشياء، وأي سرّ دفين تخفيه هذه المرآة.

كان السيد علال كلما تعافى نسبيا من تعب الذي أنهك صحته وتركه بدون نوم ليال عدة، يرافع دفاعا عن المرآة. كونها ليست السبب. السبب في هذا الخلق من الإنس الذين يعيش معهم في بلاد الله. الإنس سبب الظلم والعدوان والجراح. لم تكن المرآة إلا كما قالت له تلك السيدة في ساحة السوق الداخلي، أُمي المهديّة، سوى ما سيجعلك ترى وجهك الحقيقي.

. لماذا نهرب ونفر من الحقيقة؟ جعلتني أتعرف على ذاتي وحقيقتي وتاريخ أسرتي. من قتل الأب؟ من اغتصب الأرض؟ من يستغل الحاضر لصالحه على حسابنا؟

سرعان ما يهن ويضعف صوته ويتحقرّ جفناه في ضمور من إشراق عرضي. يشعر بالحاجة للراحة وللسكون والنوم. يدعو لإطفاء كل نور ولحجب أشعة الشمس من محاولة اختراق. حينما زاره الفقيه السي بنعيسى باح له بأسرار معاناته:

. تصوّر أنني أراهم يسخرون مني في المرآة يضحكون بغرض الاستهزاء من غبائي وجبني. ليس مني ، بل حتى من المرحوم أبي. يلوّحون بأغضان الزيتون وكأنني أراها منتسبة لأشجار جناني. يقولون جماعة: هذه لن تعود لك.

أي لعنة سيدي الفقيه أصابني؟

ينهمر بالبكاء الصامت حتى لا يسمعه من هم خارج الغرفة وخلف الستار. يعلم بجدسه أن زوجته تتطلع لكل حرف ينطق به، تبحث عن كل خيط يوصلها إلى إيجاد حل وشفاء. يتذكر ولديه. تأتيه غصة حارقة يوخزها بشاربه الكث والغليظ والذي أصبحت شعيراته كسهام شوك يحارب بها قسمات وجهه المشاكسة لتقطيباته.

حينما زاره الحاج إبراهيم العلمي⁴ صاحب رياض باب القصة ورائد فرقة الملحون المداومة على إنشاده وطربه، تقاسم معه السي علال الشعور والألم، عبّر له عن ذلك. ذكّره بقضية منع فرنسيس من جني غلات الزيتون. سافر وجدانيا مع محنة التفكير في أرضه الزراعية ببساط خومان والتي كادت تذهب مع مشروع تمديد السكك الحديدية فوقها.

أما السيد الغرباوي الذي رافقه في الزيارة، فلم يردّ أن يعمّق جراح السي علال، خصوصا وأنه يعيشها حقيقة مستمرة وتهجيرا اضطراريا وكدحا في العيش يعانیه كل إنسان سُلبت أرضه وفضاء وجدانه وعيشه. قد يتأمله السي علال في صمت دون أن يعبّر عن شيء. قد يرى فيه مآل كل ضحية

4 - هو شخصية رواية باب القصة.

استغلال ونهب وغضب. درجات السقوط في فم غول يلتهم لحم ضحاياه
أحياء وأموات.

لا يعلم أحد سبب بقاء المرأة في هذه الطارمة. لماذا لم يتم تكسيرها؟ أليست
هي سبب هذه المحنة؟ كانت أم السي علال أكبر المتألمين والمتألمات. هي
من حافظت على السر، ومن أمر بعدم لمسها. من أفتى بهذا الاجتهاد؟ ذلك
سرّ حملته معها بعد زيارتها لفقيه في بلاد مجاورة:

. إذا كسرتموها حكمتم عليه بالموت. اللعنة على من أتى بها لهذه البلاد وعلى
من باعها لابني علال. لا أطلب سوى رحمة رب العالمين !

...

وبقي للزمن أن يقوم بدوره القدري. كلما تباعد التواصل مع المرأة كلما
تحسنت ظروف السي علال الصحية. لازمه في العيادة اليومية أو الأسبوعية
جل المقربين عنده معزة وتقديرا وأخوة.

كان الفقيه السي بنعيسى يأتي بعد صلاة كل عصر. كان من بين الذين
زاروه والذين عاضدوه وداوموا أنسه وقراءة القرآن بجانبه في لحظات استرخاء
ورغبة في صوت رباني. وكان يلح أكثر على صديقه الحاج إبراهيم في تجديد
زيارته وعيادته له:

. قصيدة وملحون آ الحاج إبراهيم.

و كأن سي علال في حاجة إلى قرآن للشفاء، و إلى غناء للتبلسم من الجراح. في حاجة إلى من يخرج هذه الروح التي اختبأت كغلالة داخل صدفتها. حينما أراد الكلام ومشاركة الجالسين معه في الحديث والحوار، نطق بحكمة استعان بها لكي يتغلب على نفسه الجريجة:

. أعلم أن الله تعالى يرفض هذا النوع من المرض. وما أخافه هو أن يكون سببه ماديا أو طمعا في المادة. أشعر بأن نفسي تلتصق بشيء فقدته. هل ستكون روح أبي أم ما كان سببا في فقدان روح أبي؟ الفقيه بنعيسى تكلم عن الابتلاء. و ربما هذا ابتلائي الذي يجب أن أمر به وأتطهر من خلاله قبل اتخاذ الطريق إلى الخالق سبحانه.

. الحمد لله، ربي أنعم عليك من خيراته الكثيرة. لا يخلصك شيء آخر. نعمة الصحة والمال والعائلة والأولاد.

. أعلم آ سي بنعيسى كل هذا. لكنني وقعت في مصيدة لا إرادية. قاومت محطات صعبة. أما هذه فلم تكن بالحسبان. اخترقت أحشائي مثل روح شريرة. ربما لعنة التسمية: شارب الذهب. وهذا الشارب الذي ينقش الوجه بحروفه. لا أدري. الحمد لله أن ذكر الله وحضوره كصوت بدواخلي جعلني أراجع موقفني وحالتي. كان العقل يلوم النفس بصوت جهوري داخلي، لوم العاقل للمجنون. كانت حمرة نار متقدة تكبر وتكبر وتتدرج مع أنفاسي حارقة لوجداني وصدري. حينما باشرت المرأة كأنني استعرت شمسا لاهبة لأتنفس بسعيرها. العياذ بالله تعالى.

. الحمد لله على سلامتكم الآن آسي علال. لازم ترجع للفلاحة والتجارة
وتنافسنا فيها لكي تزيدنا بركة واجتهادا.
هكذا شاكسه الحاج إبراهيم قبل أن يستأذن وينصرف.

كان خروج علال هذا الصباح من فصل الربيع باكرا، وكانت وجهته مهمة اليوم هو البستان (العرصة) الممتد بجانب ساقية الماء الآتية من عين جمجمة. يحتاج في طريقه عبور قنطرة وادي خومان التي هي في نفس الآن الطريق المؤدية إلى مدينة مكناس.

بدا الحمار الأصهب مستعدا نشطا في هذه الرحلة. يعلم وجهته إلى أين ستقوده. أكيد أن ذاكرته قوية لدرجة أبهرت السيد علال وأهله خلال الخمس سنوات التي قضاها في رفقتهم وخدمتهم كذلك. فلو كانت الوجهة تجاه الجبل لتأني في خطوه مدركا بحدسه مشاقّ عقبة ومسالك المرتفعات التي تنتظره. لكن عبور القنطرة طريق مألوف عنده، وفراغٌ مَتَبِه من كل أثقال إلا ما كان من أداة نقش وحفر وأكياس مطوية وسُلْتين وحاويتين فارغتين، كل هذا دل على أن يومه سيكون داخل فضاء العرصة الكبيرة.

كان الفصل ربيعيا إذن، وكانت الخضرة باعثة لنضارة السهل وامتدادات الربوات التي اخترقها مسار رحلة هذا الصباح، وقبلها اخترقها سديمٌ ندي ورطب تصاعد من عمق الوادي لكي ينتشر متشربا ومتسربا مع الأشجار والنباتات على طول ضفافه المنحدرة أو المنبسطة. كأن الطبيعة جسد يفرز عناصر استيقاظه وتنفسه وحيويته. يشعر بأنه يتشاقق ويتعاقى جيدا من الحسن إلى أحسن خلال هذا الفصل. منذ بداية شهر أبريل ومع نهايات شهر ماي هذا، لاحظ التحولات الجميلة في لوحة الأشجار الموزعة بين البساتين

والربوات والصفاف. ألوان زخرفتها الطبيعة لكي توحى للسيد علال بوصف جديد للذهب وتأويل جديد لقيمتة:

. يقولون الإفاقة باكرا تشتري بقيمة الذهب. يبدو أن هذا الذهب هو هذا الجمال الرباني. سبحان الله، تمتلك أعلى عناصر السعادة في الوجود ونغفل عنها في حياتنا.

يردد كلمة التسبيح مجددا، ولمرات عديدة، أنسته العبارات التي تفلسف بها ولم يدر أنها فلسفة. قد يخاف من أفكار غريبة مثل هذه. لا سقف يساعده على فهمها. يرفع رأسه وبصره تجاه قمة الجبل، يبدو له طيف أحياء صاعدين. ربما معلّم فران قصد الغابة لأجل جلب الحطب. يستم ويرتاح لمثل هذا الاستنتاج. طبعاً، ستكون جنانه في أمان من كل تجنّ على أغصان أشجارها باعتبار هذا الاستنتاج.

لابد له أن يترصد أفران المدينة عند رجوعه من البستان. رقابة حذرة بين الحطابة والفلاحين. حراسة عن بعد تكلف الغالي إذا غفل عنها صاحبها ولم يدرك ما قد يجلبه أصحاب الحطب لأفرائهم وحماتهم التي تلتهم بيوت نارها كل أنواع الحشب والأشجار. يستعيد بالله ويتابع طريقه مدننا لحماره الأصهب حتى ينصاع ولا يفاجئه بحركة متعثرة. يعلم أن السقوط من فوق ظهر حمار أخطر من كل سقوط من فوق ظهر بغل أو حصان.

كانت الطيور بمختلف أنواعها قد سبقتهما لحركة الحياة الجديدة. طائر البلشون وقد صحا مقبلا على حركة الأحياء المائية. أسرابه التي تذهب في

غدوتها تجاه السهول المنبسطة والحقول التي تحتزن غذاءها. أصوات أخرى دالة على أجناس مخلوقاتهما. كان الأصهب كل مرة يبدي استجابة معينة. إنما استغناؤه عن نهيِّقٍ ما دال على عدم تفرّغه بعد لمهمة محتملة هذا الصباح. قد يحتاج لتوقيع حضوره وجنسه بعد حين.

لم يلتفت الأصهب أو يتعرقل بعشب على جنبات هذه الطريق، فما ينتظره أشهى وأفضل كلاً وراحة وظلا. ففي ركن من العرصة حظيرة رطبة في أرضيتها، هي مجاله الخاص. هو يومه الخاص كذلك والمفضل، مثلما هو يوم خاص عند علال لجني الفواكه الطازجة والاعتناء بالأشجار التي تعد بغلاتها وثمارها خلال هذه الأسابيع التي ستلي. يوم خاص كذلك جعل زوجته تشتهي في وحمها السفرجل صغير الحجم (اللقيم) بلغة أهل البلدة. وسيعمل على إحضاره من البستان خلال عودته منه. يتمنى أن يوفّق في مهمته خصوصا وأن أسابيع قليلة يحتاجها لكي يكون مستساغا طبخا وتدوقاً.

عبور القنطرة يجعل المسار بجوار الطريق المعبد بين مدينتي مكناس ومولاي إدريس. الجوانب بساتين كذلك، لكن الطريق تزحف نحو الجبل ملتوية كأفعى صامتة وممتدة بالموازاة مع المنعرجات الوعرة فوق منبع العين وحتى مشارف عين كرامة حيث مفترق الطرق بين هذه القرية التي توجد بها محطة القطار (عين كرامة - مولاي إدريس) وطريق مدينة مكناس.

خضرة هذه العراصي الأولى فيبي الطريق عطاء سقاية ماء عين القصر التي تركها السي علال على الشّمال من وجهته. وحينما صعدا الربوة الأولى بدا

لهما الحوض الممتد بين تلتين ومنبع ماء عين جمجمة في جوف سفح الجبل أسفل الطريق المعبّدة، وأفق البستان على يمينها. بين طريقين برّيين مترين سيكون اختيار وجهة الماء أو وجهة البساتين والحقول المجاورة لها. وكانت حركة العنان المحكمة مع اللجام والتي جعلت الوجهة شمالا دالة على الابتعاد عن طريق العرصة. استقامت حينئذ أذنا الحمار الأصهب اثبائها وتباطأت سيقانه في تعديل الاتجاه. سمع من السي علال أمره:

. هيا ! نأخذ حاجتنا من الماء من عين جمجمة في الحاويتين الصغيرتين ونذهب بعد ذلك إلى العرصة.

كان صوت الأصهب المنبعث من جحفلتيه العريضتين نائبا في الجواب بتزكية الاقتراح، ارتخت عضلات كتفيه وعنقه، ما جعل علال يلين من شدة قبضه على العنان وعلى عذرة عنقه. يتذكر أنه في المرة السابقة تعنت وأبى السير حتى البستان. كيف كان لنهيق أتان منبعث من داخل سياج محمية (دار النصراني). عبارة عن مركز فلاحي يستغله معمر فرنسي ويتخذ من أعلى الربوة المطلّة على عين جمجمة شمالا، وعلى جبل زرهون يمنة، ومنحدر الأراضي والبساتين أمامه، موقعا استراتيجيا يتحكم في الماء والتراب والأفق الذي يريده في توسيع فلاحته وزراعته.

حدة سمع الأصهب جعلته يستين شخصية هذه الأتان. ما لم يستسغه سي علال هو تفكير هذا المخلوق الذي ينال أشنع النعوت يوميا، في أتانه ونسيانه

واجباته اليومية التي تنتظره. حرّك الأصهب عنقه الطويل ململة وتابع سيره المعبر عن تدمير.

...

فجأة، كانت صافرة حافلة ركاب. وكأنها تنادي على علال الذي انتصف في الطريق إلى منبع الماء، والذي لم ينعم سوى بأصوات الطبيعة وخلاتفها وهدوء جمالها في هذا الصباح الباكر. استدار رافعا نظره تجاه الطريق التي بدت أعلى من موقع سيره وركبه، فلاحظ توقف الحافلة التي نزل منها مساعد السائق أولا من الباب الخلفي لها، والذي صعد سلم سطحها فأنزل منه حقيبة سوداء لامعة، بينما نزل من الباب الأمامي رجل مستقيم في قامته ونظرته، يضع نظارتين شمسيّتين وفي يده حقيبة يدوية محمولة. حيا هذا النازل مساعدَ السائق ولوّح بيده الفارغة للركاب الذين حملتهم الحافلة تجاه مدينة مولاي إدريس زرهون آتية من مدينة مكناس.

لقد استبان سي علال بعد أن نزع هذا الآتي من سفرٍ نظارتيه، من هو هذا المترجل من الحافلة. هكذا صرخ علال بأعلى صوته مقربا المسافة بينهما بين استغراب وتساؤل وشوق ترحاب:

. عمر !؟

. أين أنت ذاهب يا علال؟

. العرصة يا عمر.

لم يردّ عليه بكلمة بل جعل ما يريد انخرطاً في برنامج علال خلال هذا النهار.

سارع للتقارب والعناق والربت والتبادل للترحاب. كانت استدارة الأصبه في نصف حركة برأسه وعنقه الطويل. لمح هيئة وصوت هذا المنادي والمسلم على علال. شمّ بحاسته ومخطميه التراب وبعثره قليلا ملصقا جحفلته العليا برطوبته. وكأنه التراب الذي يجمع ويضم الخلائق ويلاقيها.

لاحظ عمر أن جفني سي علال الأسفلين قد تهدّلا وأن عينه اليسرى قد غضنت. تساءل حول فعل السنين: أيكون أمدّها كافيا لوقوع هذا الوهن في بنية وصحة ابن خالته؟

في حين تأمل علال وجه عمر، فلاحظ نحافة وتجاويد صغيرة قد نحتتها الأيام. لكن قسمات وجهه كانت دقيقة وجامدة. فهل التجنيد عاصفة تحتاج لصدود الشجرة ضد تيارها؟ أسعفته بيئته وحرفته في الغوص في مثل هذا التشبيه.

بعد تشاور واستفسار قرر عمر قضاء هذا الصباح مع علال في بستانه الذي لا يبعد سوى بأربع مائة مترا تقريبا عن وقفتهما هذه. الشوق والحنين سيبدآن مع الصديق الحميم. عيناه انتصبتا تعلقا بالمباني المعلقة للمدينة والظاهرة من موقع لقاتهما. نبض داخلي بدأ يغير المشاعر والأحاسيس. شعر برغبة كبيرة في احتضان كل شيء من الطبيعة والعمران والخلائق والبشر. رفر الإحساس كرسالة غيبية بعثها مع هبوب نسيم الصباح العليل. تم تسريح الأصبه

ليذهب بمفرده تجاه بوابة البستان. تكلف الصديقان بحمل الحاويتين المملوءتين بماء العين وقصدا العرصة. وتبدأ الحكاية من أولها من جديد.

...

بداية أبريل من سنة 1956 تم تسريح وإرجاع العناصر المشككة للطابور الثالث من جيش (القوم les goumiers). كانت مراحل الانتقال السياسي بالمغرب تبشر بعهد جديد. لكن هذا التبشير ارتأى معه التسير العسكري الفرنسي الإسراع في حل فيالق (القوم) والطواير المجمع لها، خصوصا من المغاربة الذين شاركوا في الدفاع عن المصالح الفرنسية في مختلف بقاع العالم والذين بقوا على ارتباط بأسرهم وبلدهم ودينهم. كانت آخر مهمة قام بها الطابور الثالث بالجزائر تحت إمرة الجنرال (برلانج) في منطقة الأوراس... وطبعاً لم يكن للمستعمر أن يضيع أطره التي كوّنّها والتي ارتقت بدرجات أعلى في صفوف الجيش. فكان انخراطها في تشكيل الجيش المغربي فيما بعد.

تعرف علال خلال هذا الصباح على قصة الانخراط في الجيش الفرنسي من طرف المغاربة. فقد تعلم عمر ابن خالته اللغة الفرنسية وتكون في تقنية تفكيك السلاح وإعداد الشحنات والرصاص والبارود، تقنية تفكيك العبوات الناسفة. تعرف على أسماء بلدان ومدن جديدة. بقي تفصيل الحكيم مؤجلاً لمناسبات حوارية مقبلة. يومها عانق عمر أشجار البستان وتذوق من طيب

فواكه الطازجة وعبّ من ماء جبل زهون وعين جمجمة العميقة في دفن أسرار هذا الجبل.

كان الإعلان عن استقلال المغرب وحل عقد الحماية في شهر مارس الذي سبق نهاية شهر ماي هذا. مرحلة جديدة استشعر معها الطرفان ضرورة التفكير في احتمالاتها. ماذا عن الذين شاركوا مع فرنسا في جيشها وحروبها؟ وماذا عن الذين اغتصبت حقوقهم خلال عهد الحماية؟ كل واحد منهما كانت له هواجسه التي عبر عنها مع الآخر. وكل واحد منهما آمن بأن سير الأيام وأحداثها يجبرهما بالجديد. إنما، لماذا لم يسرع عمر شوقا في لقاء أفراد أسرته؟ ذلك سر آثر كلاهما عدم النباش في قعر حقيقته.

سأل علال عن السي عبدالعلي بن المدني. آخر مرة رآه فيها في زيارة خاطفة قبل سنوات التقى فيها مع أهله. ها هو عمر الذي غاب منذ بداية انخراطه التي دامت لأكثر من اثني عشر سنة قد عاد، لكن الذي جاء إلى البلدة قبله وسافر من جديد لم يعد. عبدالعلي بن المدني، الذي سأل عنه عمر المكتب المكلف، كان قد لقي حتفه سنة 1954 حيث شارك مع الطابور الثامن ومات في حرب شرق آسيا ضمن 730 كومي و41 ضابط صف و16 ضابط من المغاربة الذين ضحوا بحياتهم في سبيل مصالح فرنسا وسياستها العسكرية في العالم. على الأقل تم التصريح بهذه الأرقام. لم يدر بخلد كليهما التفكير في عدد الضحايا والمجروحين في هذه الحروب. فقط أن تاريخها الذي أرادته إدارتها سجّل ما أراد.

الأخبار التي جمع بعض معلومتها من ابن خالته علال كانت كافية ليجعل مقارنة جديدة بين من ذهب للدفاع عن مصالح فرنسيس ومن عمل على مقاومة وجودها واحتلالها لبلد المغرب. وجهان متناقضان رغم أن السياسة تجمع بينهما مشاكل وحلولاً. علم بقصة الحاج إبراهيم صديق السي علال وصاحب رياض باب القصة الذي نفى إلى مدينة طنجة. أُخبر بالذين استشهدوا في حركة المقاومة من البلدة وجوارها. رفع السيد عمر عينيه تجاه مرتفعات الجبل وأجمة أشجاره الغابوية. حوّل بصره تجاه الجبل الصخري العاري الذي يضم كهف الحمام. وكأنه استشعر عيوناً مخبئة ترقبهما وتتابع حوارهما وربما نتائج هذا الحوار. وكأنه نخر داخلها ووجدانيا. حفرت تساؤلات جديدة وجدانه: لو أنه كان حاضراً ومشاركاً في المقاومة؟ لو أن تجربته في الحرب العالمية الثانية والحرب الهندو صينية قد وظفها في خدمة المقاومة وطلب الحرية؟ مزقته الأسئلة. أخرج علبة سجائره التي اندهش لها علال، وأخذ يشرب واحدة منها. رائحة التبغ غيرت من صفاء هذا الصباح. لكن الطبيعة أقوى في الاحتضان وفي تطهير بيئتها وخلاتها، رغم أن أسئلته هذه كانت افتراضية لم يجد لها أجوبة خصوصاً مع تداخل الأزمنة وتباعدها مع الممكنة. وضع معقد لم يسعفه في الخروج منه سوى حوار مع ابن خالته وسؤاله عن الأسرتين والأقارب.

. ليس لديّ الوقت الكافي خلال هذه الزيارة. تعلم أنني لم أتزوج منذ طلاقي الأول. سأفكر في ذلك بعد عملية التسجيل في الجيش المغربي الذي سيعلن عنه رسميا خلال شهر يونيو المقبل، وسأكون ضابطا داخله. لكن قبل كل هذا، أحتاج فعلا لاستراحة محارب، للحكي الذي جرى وكيف جرى. ستساعدني على تفريغ أشجائي الكثيرة والغريبة. أظنك تتذكر حكايات الجدات. كنت كل مرة أراجع متنها وروايتها، أقارنها مع الذي أخوضه. مرة كنت مدركا لما يجري، ومرات كانت أصوات الرصاص والبارود ودوي الطائرات مثل الرعود هي الحقيقة الوحيدة التي أملك. لكن امتلاكها بين حدّين متناقضين، بين الحياة والموت، الألم والخوف، النجاة والسقوط جريحا أو جثة هامدة.

من الصعب أن تجد نفسك مرحبا بك في دائرة الموت. كل هذا كان دافعا لكي نقاتل بكل ما أوتينا بصراخنا وتكبيرنا، بدموعنا وتعرقنا الذي يجعلنا في غفلة من وعينا نضغط على الزناد ونخطو إلى الأمام. كم مرة كانت خطواتي بعينين مغمضتين. قد أشتهي الموت وأنا لا أرى شيئا. لكن حينما تتعدد طلقات البندقية كأنني أستفيق من حلم أو كابوس.

. لم أكن زرهونيا، ولا مغربيا. كنت رقما في صف وطابور. بين جنود متنوعين رغم وجود بعض المغاربة معي. كان البعض منا لا يتكلم العربية، ومن المغاربة كذلك. لغته الأمازيغية تجعل له غرابة في الحضور معي. كما أن لغتي العربية تبعدني عن دائرة اطمئنانه بوجودي معه. لكن تكبيرنا وصلاتنا بعض الأحيان

تجعل التقارب والشعور بالأمان. لذلك كنا نتعاون على القتال وعلى تبادل التحذير والحذر، على المؤونة وعلى جرعات الماء، وعلى الألبسة التي قد نحصل عليها من جثث وضحايا المعارك. كنا نتعاون حتى على مواجهة طقس الجبال الذي كان باردا وقارسا. وكأنا في مسابقة. لكنها ليست بنفس متعة مسابقتنا بين الأحياء. أتتذكر؟ كنت حگمنا في غالبها، وكنا نحن في تحدي اختراق الأحياء. إنما ما الحد الأقصى من مغامراتها؟ رشق بحجارة؟ دعوة إلى مبارزة؟ سماع سب وتهديد لشباب آخرين؟

. ياه ! وكأنها كانت تدريباتنا التي تعدنا لجحيم الحروب. آخر بلاد كنا فيها هي الجزائر. وقبلها كانت بلدان أخرى: إيطاليا وصقلية وبلاد الفيينتام... كجندي، لا يمكنك أن تكتشف اللعبة لأنك بيدق. والبيدق يتحرك بأمر من هو أعلى منه رتبة. قد لا تسأل لماذا أو أين. يكفيك أن تكون مستعدا. لكن الأمور بخواتمها ونتائجها. أدركنا اللعبة حين اقترب نهاياتها وبالخصوص حين اقتادونا للجزائر واقتادوا غيرنا لتونس. مسلم ضد مسلم. غريب جدا. كيف تخلق العداوة مع من ليسوا بأعدائك الحقيقيين. حاربنا الألمان نعم. لكنهم كانوا نصارى يريدون القضاء على بلداننا. هكذا قيل لنا وبهذا فسر المغاربة العارفون بالسياسة الأمر لنا. عايّنّا ذلك فعلا. رأينا قساوتهم وعدم رحمتهم. وكنا أكثر قساوة في مواجهتهم.

. لا أخفيك اقتحمنا مدنا وقرى. منا من اغتصب نساء ومنا من أنجب أو تركها حاملا. بعد هزيمة الألمان واليطاليان، مكثنا في قرية إيطالية لمدة. أقمت علاقة مع سيدة هناك. كدت أمكث للأبد ولا أرجع.

. هل أنجبت معها؟

. لا أدري ما وقع بعدي. تعرف اسمي وبلدي وبلدي وأعرفها باسمها الإيطالي (أميليا).

. لو تعلم. لا أستطيع العودة إلى هناك. شبح حياة لم أرغبها. شبح موت أهابه دائما. إنني في ولادة جديدة الآن. لهذا وجدنتني أترّث قبل أن أنزل من الحافلة. فعلا كنت في حاجة إلى أن أتكلم قبل أن ألع مدينتي زرهون. تخلص من كل هذا الذي سمعته ومما لم تسمعه بعد. والآن حدّثني عن الأهل والمدينة. يضحك علال فرحا واستغرابا وانشراحا في آن. هو ابن خالته الذي عايش معه الطفولة والشباب. لكنه يتحسّر داخليا ويأخذ له زفيرا يدرجه إلى صمت قصير. يتساءل داخليا: من أين سيبدأ؟ من وضعيته الصحية التي بالكاد أصبحت مستقرة ومتوازنة أو من جديد الحي والمدينة وأخبار الأهل؟ ثم ما الذي يريده عمر بالضبط كأخبار؟

ملحقات سردية

في وصف عملية الدرس:

فبعد حصاد الزرع في موسم الصيف بالمنجل يجعل في كعب تسمى بالغمرة أو بجمعها (الغمار)، وهي كبة سنابل بحسب ضربة المنجل في حشها. فتكون إما بضربة واحدة أو ضربتين. تجد الحصادين محاطين بالميزارة التي تسمى (التبابتة)، ويدهم ماسكة لجعبة قصبية تقيهم من مصل المنجل الذي قد يجرحها أو يفصلها عن أطرافها. يوضع الغمار في شبكة ترفع على ظهر البغل من الحصيدة إلى البيدر (الكاعة). أكوام سنابل توضع هرميا كقبة صفراء.

تجد (الدرس)• يبدأ بالغال، وغالبا يكون ما يكون البغل وسط الكاعة أو بدله تتم الاستعانة بجميرين لنفس الغرض والمهمة، حيث توضع صفائح للحوافر تساعد على حش التبن وسحقه قطعات صغيرة. بعض الأحيان تكون (التويزة)، حيث يتناوب الفلاحون في الدرس باستعارة الدواب للمهمة. في شكل استدارة تصبح دوامة عمل شاق. تتم (التدرية)، حيث يقومون بتدرية التبن وهزه إلى أعلى حينما تكون الرياح غربية وليست شرقية.

*- تستعمل الكلمة هنا بترقيق نطق الدال والراء تمييزا لها عن الدرس الذي يلقن في التعلم. وفي معجم المعاني الجامع نجد ما يفيد الاشتقاقات المستعملة في الدارجة المغربية على الأقل: دَرَسَ الدَّارِسُ سَنَابِلَ القَمْحِ : دَاسَهَا بِمِذْرَاقِهِ أَوْ بِدَرَّاسَةٍ.

فقوة الرياح تساعد على نشر مادة الدرس بحسب استدارة المكان من ستة إلى ثمانية أمتار فتجعل التبن الثقيل في الجانب من الدائرة ويبقى الحب مختلطاً نسبياً خفيفاً وسطها... تستعمل في هذه المرحلة (المدرّة). يستعملها ثلاثة أو أربعة من الدُّراس... فلاحون أو مياومون يعملون على نثر السنابل وفرز بذور القمح من التبن. يتم الجز بالمدرّة وهي مثل فرشاة كبيرة بقطبان حديدية مسنونة ثلاثية أو رباعية، يرفعون بها السنابل في أعلى، تتداخل وتتلاطم فيما بينها في رقصة مختلطة بين أشعة الشمس الحارة وغبار مكان الدرس، وألوان السنابل المتحولة مع سنا الشمس وحمرة التراب المتطاير وأنفاس الفلاحين. بعدها يستعملون المطارح (المطرح) الذي يصفي الحب من التبن. وهو لوح خشبي بعضاً طويلة مثل الذي يستعمل في الأفران. يوضع التبن بعد جمعه في (القربوص)، حيث يغطى بالطين، حتى إذا سقطت الشتاء انتفخ الطين وأصبح محكم الطلاء لا يخترقه الماء ولا تبلل الأتبان... أما الزرع فيوضع في المطمورة أو السلة، وتبلط هي كذلك بالطين.

الحمام البالي:

تتوفر المدينة على عمران تاريخي يميز شخصيتها الثقافية والحضارية. والحديث عن الحمام العمومي، حديث عن معلمة بنيت لغرض صحي وبيئي وثقافي وديني تعبدي. ف وراء الحائط الخارجي للحمام لا تجد منازل بقدر ما تجد جدران حوانيت مطلة على السوق الداخلي، وجدران قاعة الزيت التي توجد بوابتها أسفل (باب الرشاش) ذلك الممر الطرقي والتجاري المؤدي إلى حي الحفرة شمالاً، والأحياء المتعالية من باب القصبه، ودار الجديدة يمينا، والتي يقطنها شرفاء علميون وبلغيشيون، إلى حي خيبر والذي يضم قمة الأهرام السكنية بزرهون. وتتحدث هنا عن حي الخطاطبة المتميز بحصنه المحاط بأسوار وأبواب موصدة تغلق للأمن ليلاً، وبعلوه على رأس قمة الجبل المطل على الأحياء المحيطة بالضريح وعلى الهرم التسكاني الذي يضم بني يازغة والمريح وتازكة ولالة يطو، وبنحيشو، ودرج مجوط. أعلى الخطاطبة هناك القليعة المطلة شرقاً على جبل باب الرميطة وعين القصر وعين ويلي، وبين الحيين تجد جامع الزهر، أقدم مسجد في المغرب بحسب الروايات المحلية. مسجد صغير، لكن أهميته تؤرخ لعراقة التعليم والعبادة بالمدينة.

هناك سور سميك يعتبر حزام المدينة من الجهة الغربية التي لا تتوفر على حصون صخرية طبيعية. وهناك أبواب كبيرة تدخل منها إلى المدينة وعبرها، ابتداء من باب الزهر وباب الحجر إلى باب القصبه. أسفل السور الممتد غربا، تنتشر عراصي (الساحل) الغنية بما تحتاجه المدينة من خضر وفواكه وبأحواض النعناع والكزبرة والمقدونس والفجل والقنارية (الخرشوف).

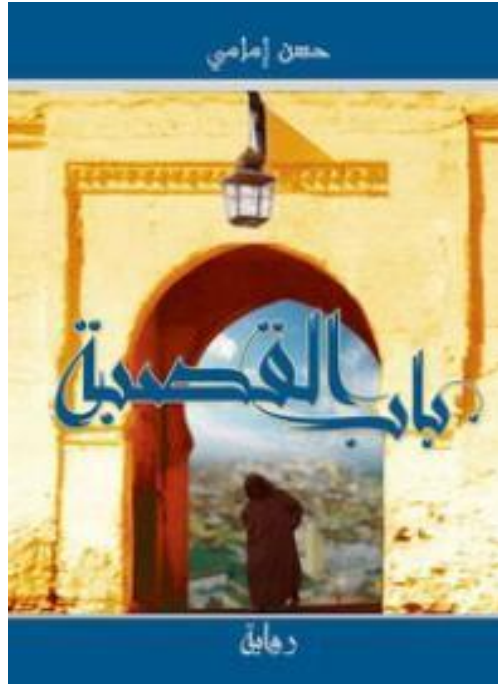
من هذا الحوض الذهاب في التشعب انحدارا حتى قنطرة سيدي صابر، تطل بناية الحمام بقبتها البيضاء والمحكمة البناء مهندسة جميلة تجعلها كمعلمة ضريح لا تنقصها إلا الصومعة في وصفها الخارجي. هكذا يكون مجرى مياهه يطل ويصب مباشرة في المجاري المتشعبة لحوض الساحل، ذاك الشريط البري خارج البنايات والأحياء، فلا يتضرر منه سكن أو بيت...

اعتادت الساكنة على طقس الاستحمام، وربطت حياتها اليومية بطقسه التطهري والثقافي عموما. وقبل أن تصل إلى باب الحمام، تلاحظ بيت (الفرناتشي)*، الرجل الذي يسهر على فرن بيت النار ويعمل فيه. تتراكم أكوام الحطب وجذوع الأشجار اليابسة بجانب جدار الحمام وكذا بداخل بيت النار الذي تبدو ألسنة لهيها اللافعة من داخله، تهيج بجرارتها على ملامح وخدود كل مطل أو مازّ بالزنقة. هي النار التي تجعل حسرة نفسية كردة فعل على قوتها، فتسمع دعاءً مثل : اللهم نجنا من عذاب جهنم يا

* le fournier... العامل الذي يسهر على تشغيل الفرن وإيقاد ناره.

رب العالمين. هي النار التي تكون مطلوبة من طرف السكان للتدفئة بها أيام الشتاء والبرد القارس، فتجد الأفراد يستلطفون (الفرناتشي) لكي يمددهم بها، فيحملونها في مجامر خاصة أو دلو حديدي حتى المنزل. هي النار التي يستعمل جمرها المتحول رمادا حاميا إلى مطبخ للطنجية التي تُحضّر للولائم الخاصة، المملوءة بالبرقوق والتمر والسمن.







الإهداء:

إلى أمة رسمت بالأمل أفق المستقبل
إلى مدينة أكتمل الحلم في اجتماعها
و الفن في طربها
و البهجة في مقامها
مدينة مولاي إدريس زرهون
جبل تعطر بعبق التاريخ
في انتظار ربيع جديد لنزهة ملحون وصفاء قلوب متجددين.

رواية



باب القصة



عزيز علي الحاج إبراهيم رواية التاريخ. عزيز عليه أن يحكي لضيوفه الذين يجلسون على مدار صينية الشاي وأطباق الفاكهة الجافة والحلويات المستديرة التي تأتي بها الصحون الحديدية المربعة والمجوفة من أسفلها حتى تتخذ الحلوى المسماة (غرّبية) شكلها النصف كروي المنسم بحبات النافع والزنجلان المدقوق والزيت التي تعطىها بنية فنية وشهية في قضمها وهضمها.

عزيز علي الحاج مجلسه هذا وهو يحكي تاريخ العلميين جاعلا له علاقة بتاريخ السلطان مولاي الزيد. بجلبايه المتداخلين في قبيلهما وأكمامهما ولونيهما، غالبا ما يكون الجلباب الأزرق أو الرمادي أو البني المفتوح هو الفوقي، تميزا له عن الجلباب الأبيض الذي يبقى مغشيا وتحتيا حماية له من الأوساخ العارضة أو الغبار المتطاير وهو في خرجته إلى المسجد أو السوق البراني في الصباح، أو السوق الداخلي فيما بعد صلاة العصر.

في كل مناسبة، يدكر بشخصية مولاي الزيد كأمير ثم كسلطان:

لم لقد تصدعت العاصمة العلمية فاس وتناثرت شظايا جراحها جراء الصراع بين الأخوين الأمير عبد الرحمن والأمير اليزيد. الأمر الذي أثار غضبة السلطان، فأتى إلى مدينة مكناس. وبعد أن ردع قوة الأمير عبد الرحمن، بقي ملف اليزيد مؤجلاً إلى حين، خصوصاً بعد أن استحرم بضريح مولاي إدريس الأكبر، وطلب حمى حرمه المقدس الذي يستظل بوارف الهيبة النبوية المشعة في وجدان الأمة المغربية، وفي مدار عرش السلاطين العلويين الذين يطلبون شرعية تاريخية ودينية مع الشرعية السياسية وأجلها. ذلك أن كل سلطان مُقَدِّد وتمت مبايعته، يبدأ توليته بأول زيارة وطلب مبايعة، فتكون هذه الطقوس بزيارة ضريح المولى إدريس الأكبر.

كانت هذه إحدى المرات التي شفعت الأقدار فيها للأمير مولاي اليزيد. بعثه بعدها أبوه السلطان محمد الثالث حاجاً إلى الديار المقدسة، لكنه سرعان ما أثار غضبه من جديد بعد أن استولى على الأموال المبعوثة من طرفه إلى الحرم الشريف بمكة.

بقامته الطويلة ونحافته وحيته التي يُكثر العناية باستدارتها ويتمسح بجنباتها بكفه الأيمن ومدار سبابته وإبهامه، يتقن الحاج إبراهيم نظرتة إلى جالسه أو الآتي في مقدمه والملتقي به في طريقه. كما يتقن بهذه الأوصاف جعل الفواصل في حكيه الذي تفنن فيه وجعله حلقات يستقطب به المعارف

والأصدقاء والمقربين، كما معارف معارفه الطامعين في جلسته التي تكون ربيعا ثقافيا ودينيا وفنيا مستمرا، رغم تبدل الفصول وتغير طقسها:

لحياة الأمير لم تكن سهلة. لكن علاقته مع مدينة مولاي إدريس وجبل العلم، كانت متينة جدا. حبا ووفاءً.

...

لما استفحلت الخلافات بين الشرفاء الأدارسة والشرفاء العلميين الذين قدموا بطلب من الأمير إلى المدينة. كانت الأراضي الفلاحية المقتطعة محط نزاع. وكان إرضاء الطرفين أمرا صعبا، خصوصا وأنهما من شجرة الأنساب الكبيرة الواحدة وسليبي الأعتاب الشريفة. مقامهم بدرجة التقدير والتقدير الذي يوليه السلاطين والعلماء لأحفاد النبي العدنان وأهل البيت الكرام. فمنذ عهد المرينيين، أصبح التنافس على نيل بركة ورضى واسترضاء مريدي ومنحدري أولياء الله الصالحين، ما بالنا بأحفاد شجرة الدر وشمس الإيمان ونور الإسلام، حفدة الرسول صلى الله عليه وسلم.

الأحياء القديمة المحيطة بضريح المولى إدريس، هي مجال الاستقرار السكني للشرفاء الأدارسة وعائلاتهم، حي الحفرة وتازغة والمريخ خصوصا.

أما الشرفاء العلميون الذين جاؤوا في هجرتهم الأولى، فقد اتخذوا من مدار الإقامة الأميرية بما يسمى ليومنا هذا (الدار الجديدة)، سكننا لهم.

انشغالات الأمير متعددة، واستقراره السياسي من استقراره الشخصي. لذلك كان شغله الشاغل هو توطيد حضور الموالين له الذين قدموا من مقام مولاي عبد السلام بن مشيش العلمي من شمال المغرب، وحل مشاكلهم مع الشرفاء الأدارسة لا بد له من نافذين ومؤثرين. ولذلك كانت الهجرة الثانية والتي تضمنت شرفاء آخرين، والتي تتضمن فقهاء وقضاة متمكنين من أخلاق وعلوم. وكان حل تلك المشاكل بطريقة أميرية حكيمة تشرع للعمل الوظيفي والمؤسس، ويبقى احترام شخص الأمير بترفع عن كل نقص في الاعتبار وعن كل سوء نية أو اتهام بالتحيز لطائفة دون الأخرى.



اختار الحاج إبراهيم بناء منزل جديد على ربوة صخرية ملتصقة بسور حي باب القصبه الذي يمتلك مدخلين وبوابتين، تغلقان مع الانتهاء من صلاة العشاء في الغالب، في الأيام الآمنة العادية. البابان: قوس كبير رئيسي، يأتي مواجهها بعد منحدره للطريق المؤدية عبر ممر الرشاش إلى مدخل السوق البراني، كما يأتي مشرفاً ومطالاً على الباب والقوس الكبير للمدينة من جهة الشمال الغربي لها والطريق المؤدية إلى موقع ويلي المتهدم بفعل الزلزال، والثاني قوس أصغر منه وجانبي يؤدي إلى عين الرجال في أسفل سفح الجبلين، جبل المدينة وجبل الدكانة. سفح يجمع بين مجاري سواقي مياه عين السمن وعوبنة فكرة وعين الرجال. المنابع الثلاثة المحيطة بباب القصبه الذي هو حي البلغيشيين قبل أن يسكنه بعض العلميين كذلك.

في ولوجك لمنزل الحاج إبراهيم مقامات في التجوال. ستكون في نزهة داخل رياض طبعا وليس داخل منزل فقط. فإقامة السكن العائلي الخاص بأسرة الحاج إبراهيم منفصلة تماما عن الجناح المخصص لجلسات نزهته وحكاياته وأمسياته. تندش لمجرى الماء الذي يتخذ مساره الخاص داخل قناة مبنية وملتوية بعناية ودقة، تمر بين جميع مرافق سكنه ورياضه، ويكون حظ الجلسة

خريير مياه تجتمع في حوض تتوسطه نافورة من رخام أبيض مائل إلى صفرة، ومن شجرة فاكهة المزاح التي ترخي بظلال أوراقها العريضة على ساحة الجلسة وسقيفتها ذات الأبواب المزينة بمربعات خشبية صغيرة تؤثنتها لوحات زجاجية سميقة ومتعددة الألوان بين صفرة وحمرة وزرقة وبياض. لا يمكن للضيوف معرفة سر رونقها الحقيقي ما دامت مفتوحة بجناحيها. قَبَلَتْهَا أفق ممتد في فتحة بين حدّي جبلين بعيدين هما منحدر جبل الدكانة الذي تعمّره قرية فرطاسة جهة الشمال الغربي، المستضيف لكهف الحمام والمؤدي إلى الأراضي الفلاحية التي امتلكها العلميون حسباً ووقفاً بظهير سلطاني، ومنحدر الجبل البعيد الذي يحجب عن المدينة رؤية امتداد مجال مدينة مكناس وقبلها مقام ضريح الولي الصوفي سيدي علي بن حمدوش.

ذاك الغروب المتراقص عبر فصول السنة بين مواقع هذا الأفق المنفتح والممتد بين سفحيّ جبلين، سحرٌ يومي يضاف لسحر الرياض وأبوابه الزجاجية المنعكسة نشوة وقصيدة ملحون غامرة بحب الحياة ونعمها وحكيها وشعرها وغنائها عند الحاج إبراهيم.

في مكتمل عقده الخامس، ما زالت خفته وحيويته مثيرتين، حتى إنهما ازدادتتا بعد قيامه بحجته للديار المقدسة قبل ثلاث سنوات من جلسته هاته التي استحضرت ألوانها وحمرة شفقتها نشوة مسكرة للوجدان ومطربة للروح. حتى إنه قد اتخذ زوجة ثانية بعد رجوعه من المناسك. هي شابة في الثانية والعشرين

من عمرها، من أسرة تشرف على ممتلكاته الفلاحية التي اتسعت رقعتها وتنوعت بين حقول وبساتين وجنان قمح وشعير وقطاني وخضرة وفاكهة وحطب، هي عُدّة السنة التي لا يخلو منزله الفسيح منها، والتي تترك لأشجار رياضه فرصة البقاء للزينة المنزخرفة بألوان فاكهتها التي لا تجنى، إنما تقطف مع كل اشتهاء كأنها فواكه الجنة الدانية، الخالدة بسعادة إيمانية.



باب القصبه هي المدخل الرئيسي للحي الصغير المنحدر. ربوة أسفل حي (الدار الجديدة). ونظرا للتضاريس الوعرة والمتشعبة، وللصخور التي تأتي الانحاء من وجود وتشكل مستمر، فإن مجموعة من المواقع اعترشتها بنايات وأسوار. حتى ما كان من الدكان التجاري الذي يمتلكه الحاج إبراهيم في ممر الشارع الصاعد إلى قوس وباب عونية فُكرة وباب الجديد، فحائطه الغائر في قعره طول الدكان عبارة عن صخرة وهبت صلابتها كجدار سميكة من الداخل، بُنيت عليه حدود مربعة لسقف وأرضية وحائطين اثنين، هو عبارة عن كهف يخرج من فوهة جبل. ولطول فضاء الدكان الشاسع، كان الحاج إبراهيم يستعمل فقط واجهته الأمامية. أما داخله فهو سلع متنوعة محبّبة ومُخزّنة وبالخصوص ما احتاج منها لبرودة وظل مستمرين، مثل زيت الزيتون التي تبقى محافظة على جودتها عند الحاج إبراهيم، ويكون هذا من أسرار تفقوه على آخرين في بيعها باستمرار.

حتى الودائع فهي موجودة بداخله. قد يستغرب السامع لحكاياتها، لكنها صورة لواقع الحال ووضع الأمن في بلاد المغرب. لا أمان إلا داخل الأسوار مع إغلاق الأبواب. أما خارجها فالأمن نسبي. أما السفر فهو قطعة من جهنم كما جاء في الحديث والأثر. قد يتعرض المرء لهجوم العصابات وقطاع

الطرق، أو لمرض يسببه الطقس وامتطاء الدواب في الحر والقر، أو لهجوم حيوانات مفترسة ضارية.

ما جاء خلال وبعد سنة 1945، كان منذرا بالحدس، خصوصا عند التجار الذين حتى إذا لم يسافروا فإن بضاعتهم ذهابا ومجيئا تحمل الأخبار والأسرار، وترجم بلغتها الأحداث وتفسر الغامض منها. حتى المراسلات كانت ترافقها بين أرجاء البلاد، وبين الشرق الإسلامي وغربه. يحتفظ الحاج إبراهيم بمجموعة من الصكوك والعقود، ويحرص على جمع الكتب التي استحضرتها من أهم المدن الإسلامية بما فيها أقربها، مدينة فاس. أكيد أنه يحرص على زيارة وعبادة فقهاء وعلماء مدينة مولاي إدريس زرهون، وهو الذي تلقى تعليمه الأولي وحفظه للمصحف الشريف وتأهيله للعلوم الشرعية لكي يؤمل منه مواصلة تعلمها بجامعة القرويين. لكن ذهابه لجامعة القرويين بفاس لم يدم سوى ثلاثة أشهر. أخذ منه وقت اكتشاف المدينة وصنائعها ومعاملها وحرفها ووسع تجارتها الكثير.

في الشهر الأول من مقامه في غرفة خاصة بطلبة العلم، حيث كان برفقته طالب من مدينته الزرهونية ومن أبسط عائلاتها، كادا في ليلة أن يلقيا حتفهما بسبب مجمر الفخار الذي غزت رائحة فحمه الغرفة المغلقة والصغيرة، فكادا أن يخنقوا ولم ينجوا إلا بأعجوبة ولطف أقدار. من ساعتها خفق قلبه بجناحيه

لعالم الحياة وخجلت رموشه من هيبة الجلوس لحلقات الدرس بين زوايا المسجد الكبير لجامع القرويين.

كان كل مرة يكتشف فيها فضاء جديدا للتجارة والصناعة، يستحضر إمكانياته العائلية في ترجمتها لمثل هذه الحيوية الاقتصادية، خصوصا وأن له أصدقاء ومعارف في مدينة مولاي إدريس زرهون من أهل فاس. أسر فاسية هاجرت إلى المدينة واستقرت بها واتخذت دكاكين بارزة في السوق الداخلي لبيع الأثواب والحريز ومستلزمات اللباس. تجارة لا تبور، وذهب من خيط ونسيج. أما سكنها فقد جعلته في الجهة القريبة من السوق والمشرفة على ساحاته وفنادقه، سواء ما كان من السوق الداخلي أو السوق البراني، من الفندق القديم أو الفندق الجديد. كأنها مراقبة لسوق التجارة من شرفات ونوافذ منازلها في حي سُكناها الذي سمي بدرج أمجوط. وأمجوط بالأمازيغية هو الأقرع. وقد التصق اللقب بهذه الأسر الفاسية. يبقى سؤالها حول تعدد الأسماء الأمازيغية في المدينة: تازڭة، أمجوط، أسراڭ، لآلة يطو... وكلها أسماء لأحياء وساحات وأماكن...

قد يمازح الحاج إبراهيم صديقه في صف أهل فاس التجاري بالسوق الداخلي بقوله:

.أي سر في هذه الأسماء؟

يرد عليه السيد عبدالغفور :

. اسألني عن أنواع الثياب وما يصلح لك منها. أما الأسماء فهي مهمتكم أيها الشرفاء حاملي العلم. منكم تتعلم.

يضحك كل مرة الحاج إبراهيم لمثل هذه الأجوبة الذكية. ويستبين أسرار الناس وألوياتها عندهم. يسرح بنظره في توقيت ما بعد صلاة العصر يوم الخميس هذا، على طول الممر المؤدي بين الباب الرئيسي لساحة السوق الداخلي والباب . المدخل لضريح المولى إدريس الأكبر ولولوجيات الأحياء المحيطة به (البيبان أو الأبواب). يلاحظ حركة تجارية وحضورا متنوع الأجناس للمجتمع الزرهوني.

. آ الحاج إبراهيم، إذا أعجبتك تجارتنا، اعملن لك محلا لها وتوكل على الله. يثيره السيد عبد الغفور بتعليقه.

. آ سي غفور، أنا الحاج إبراهيم كما تعرفه، من كل فن طرف. التجارة والفلاحة وطلب العلم، وحتى الفن.

. نسيت العشق آ سي إبراهيم.

. العشق الحلال آ سي غفور. نحن نعرف حدود الله: (تلك حدود الله فلا تعتدوها). صدق الله العظيم.

. ما قلنا عيبا آ الحاج إبراهيم. أنت عالم وحاج وشريف علمي. ولكنك (مَهْوَر)، لا تبالي (لذواير الزمان).

. أنا قلبي عامر بحب رسول الله، ورجائي في الله دائم. الدنيا فائتة، إذا أخذت مني هذا الخوف لن أعيشها مستريحا. رجائي في الله.

. قصايد الملاحون غامرك وعمارة بك آ الحاج إبراهيم. تبارك الله عليك.

. غدا الجمعة إن شاء الله. مرحبا بك عندي في الرياض. الملاحون حاضر والزردة حاضرة هي الأخرى.

. والتجارة آ الحاج إبراهيم؟ إذا أغلقت الدكان أكل رأسماله من لباسي. بصحتكم القسارة.



ليلة الخميس أو ليلة الجمعة، كل واحد في المدينة يربطها بخيوط حدثها وزمنها. فليلة الخميس سيعنون بها التحضير لمساء يوم الخميس. قد يكون عشاء أو وليمة يدعو ويعزم لها الأحابب والأقرباء، أو هي ليلة الذهاب إلى الحمام الساخن والقريب من حي السكنى، أو ليلة مناسبة تكون مع نهاية الأسبوع تبركا بيوم الغد الذي هو الجمعة... أما ليلة الجمعة، فإن الإشارة ستكون إلى ما هو مرتبط بالمستقبل والغد القريب وما نحضره ليلتها ونستعد به ليوم هو عيد المؤمنين الأسبوعي، والذي له طقوسه وشعائره، ترتبط بما هو اجتماعي وشخصي وديني تعبدي، طقوس تنظم الديني مع الدنيوي...

في شهر جمادى الأولى لهذه السنة 1368 هـ الموافق لشهر مارس 1949م، وحيث إن النهار بدأ يطول والجو يميل إلى دفءٍ يعدُّ بفصل ربيع مزهر، بعد فصل شتاء وأربعينيته القارسة والممطرة، امتدَّت لوحة على منبسط سهل خومان كصفحة خضراء ناضرة مزركشة بالبراعم والسنابل والأزهار، فأُها سنة فلاحية واعدة، بعدما مرت سنوات عجاف عانت منها البلاد من جفاف ومجاعات وأوبئة، حتى إن النفوس لم تبرأ من جراحها وهلعها وآلامها وحزنها على مفقوديتها.

كما أن أشجار البساتين الممتدة على جنبات ضفتي وادي خومان، أخذت ألوانها من دهشة الارتواء صورة نضرة، وانعدمت آثار اصفرار أو بياض فيها. في حين بدأ تأمل المشهد يتغذى ببعض الإزهار والتلون الذي يؤثث هذا السهل الأخضر، حتى إنه يشكل خطا للبساتين كحزام مزركش يشد جسد سهل بورياح مع صدر المدينة التي يغلب على رأسها شكل بياض مستحتم بقبة سماء زرقاء، مصباحها شمس مالت إلى حمرة ناعمة كأنها تستجمع تلايب أشعتها مع كل غروب.

هي إطلالة الحاج إبراهيم مع شفق هذا اليوم في انتظار أذان صلاة المغرب بجامع البلغيثيين من أعلى الربوة الفاصلة بين قوس باب القصبية وقوس باب عين الرجال المحادي للقصابين الذين ركنوا عُذتهم وبضاعتهم ومنتوجها في أماكنها المخصصة لها.

عيناه تراقبان كذلك رجوع الفلاحين من حقولهم وبساتينهم. دواب متعبة بجهد النهار، لكنها أكيد استراحت لما بعد الزوال حتى تستعد لعودتها إلى المدينة. يتساءل حول ما سيجود به بستانه الذي يطل عليه في حوض الساحل المرابط لحزام السور الكبير الذي يحمي المدينة من جهة الغرب، والذي تغلق أبوابه مباشرة بعد صلاة المغرب، فلا تفتح إلا على الاستثناء للأشخاص المعروفين والمألوفين أو المغادرين المضطرين.

تسرح عينا الحاج إبراهيم بعيدا صوب باب الحجر، ثم تصعد في خط واحد حتى باب الزهر، وتراجع الرؤية إلى باب القوس التحتي أسفل باب القصة. ربما هذا المساء لن يشتري شيئا يذكر من الفلاحين العائدين. وربما يكون مستخدمه والمشرف على بستانه (السي علال العسبي)، وصهره كذلك، قد بعث بما جادت به الطبيعة عليهما من خيرات فصلية وموسمية تم قطفها أو جنيها.

يفكر مليا في آخر ما رواه لجماعته حول قصة المولى اليزيد كأمر وكملك. يتذكر يوم جلوسه مع إمام المسجد والعالم الكبير الذي عايش الروايات الأولى وشهاداتها حول الأحداث، والذي يمتلك هو الآخر مخطوطات رسائل ومدونات لتاريخ المدينة وفتاوى فقهاؤها ومؤلفات بعض علمائها. كيف عارض الإمام رواية الحاج إبراهيم واعتبرها تخلط بين الأحداث والمراحل. في جزء منها قد تكون صحيحة ومهمة، أما في جزء آخر فهي ضعيفة ومعلولة، لا تستند إلى توثيق صحيح.

يتنفس بعمقٍ يحوّل معه نظرتَه من استرخاءٍ قسمات الوجه إلى جديةٍ تجحظ معها العينان ويساعدهما في ذلك غياب قرص الشمس القرمزي وأفوله في الأفق البعيد.

يتساءل مع المجال والفضاء:

. أي حكي هو صحيح؟ أ هو الذي أرويه لجماعات أصدقائي وأهلي، أم هو الذي لم أسمع به بعد من الإمام، إمام المسجد الأكبر بالمدينة؟

ينتظر الأذان الذي سيخلصه من ورطته الذهنية، والذي سيغسل به نيته التي لوثها التساؤل. ربما ضعفها من ضعف تعلمه الذي لم يثابر عليه. فما بعد حفظ القرآن وأوليات العلوم، محور للمعرفة والتفقه، لم يستطع الاستمرار فيها. كان لابد له أن يبني شخصيته الدنيوية والاجتماعية والثقافية. ها هو اليوم سيد نفسه وعائلته. مستقل برياضه الفسيح وتجارته وممتلكاته. متزوج بشرع الله وعدله من امرأتين. مشرف لرمزية مقامه الاجتماعي والنسبي، رغم أن نظرات البعض تحد من كل هذا الطموح والنجاح الذي حققه، تقزم من هالة حجه وخمسينيته التي أشرف عليها، تحاول محاكمته رمزيا ولو بالإشارات، بما قصر فيه خلال حياته. وما قصر فيه لم يكن سوى مهمة للشرفاء العلميين وجيرانهم البلغيثيين، مهمة العلم والقضاء والحسبة.

لذلك قدم هؤلاء إلى مدينة مولاي إدريس زهون، فكان رأسماهم لأخذ شرعية الانتماء وقوة الحضور. رأسماهم الذي يسجل به التاريخ عظمتهم. وما هم من مقام مولاي عبدالسلام بن مشيش، ولا من علو جبل العلم الذي أتوا منه كعلميين، وتشرفوا بالنسب إليه والانتماء له، إن هم لم يخلصوا في المهمة القدرية والسياسية والاجتماعية والدينية وغيرها.

حسرة عابرة وضاغطة، يطفئ لهيها أذان الصلاة الآتي من صوت سيدي عبدالسلام العلمي مؤذن مسجد الدار الجديدة، قبل أن يتبعه أذان صوامع أخرى مجاورة.

خلال سجوده من الركعة الثانية، وهو يسبح ربه الأعلى (سبحان ربي الأعلى)، تحيّل جلوسه مع حضرة إمام المسجد بالجامع الكبير لتوقيت ما بعد صلاة العصر. تراءت له ألوان سلطانية مُزخرفةً ألبسةً صدرية تلقي بظلالها، وريح عليلة تهب بنسيم اختلط بين ماء الزهر الذي ما يزال يعطر جلبابه وعنقه، وريح الحصير الذي يضع جبهته ومارن أنفه فوقه. أهي رؤيا أم حلم يقظة؟

بعد الفراغ من الصلاة ونوافلها ودعائها، وبعد الانتهاء من قراءة القرآن الجماعية التي جمعت ستة أشخاص هو سابعهم بهذا المسجد الصغير، ركنَ إلى زاوية منه، وقرر انتظار أذان صلاة العشاء في خشوع وتأمل واسترجاع. حاول كل مرة تفسير الألوان والظلال والمكان. أكيد ستكون له جلسة خاصة مع حضرة الإمام.

تري، كيف سيفسر له ما رآه؟

استنفر بعزيمة التاجر وسليل المقام والحي وسيد المكان، فقرر إعادة الوضوء لصلاة العشاء. وكذلك كان.

هناك مشكل آخر طرق ذهنه، وهدد نومه. وديعة قديمة بقيت في قعر الدكان. وضع عليها صناديق خشبية فارغة. هي الأخرى حقبية خشبية مزخرفة أودعها عنده صديق قديم. ترك المدينة بعد أن توفيت زوجته وقبلها أخته. قرر الخروج من المدينة والسفر لمدة لم يحددها. لو كان (السي العوفي) قد قصد الديار المقدسة، لوجده الحاج إبراهيم خلال ذهابه حاجًا لها ومعتمرا، قبل ثلاث سنوات. لكنّ من التقاهم الحاج إبراهيم لم يثبت عندهم تذكُّر ملامحه. خصوصا وأن السي العوفي يحمل شامة سوداء صغيرة على جانب خده الأيسر، ويجدودب ظهره حين إقدامه على الكلام.

أي وجهة اتخذها؟ لا جواب. مرت الآن ثمان سنوات. ما مصير الوديعة؟ وكيف السبيل إلى صاحبها؟

الحاج إبراهيم يحفظ الحديث النبوي الشريف عن ظهر قلب: { لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له }.

قام لنافلة جديدة بعد أن جفف أطرافه ووجهه من بلل ماء الوضوء بمنديله الجديد الذي صنعته وزخرفته له زوجته الثانية (لالة الصافية) بطرز فاسي رقيق. يشتاقتها كلما عطرّ به ومسح به. تجعل رائحته من رائحتها التي تسحره والخلائق نيام وفي غفلة عن الأنام. هذا نداؤها الجديد الآن. صاحبة الصنعة والطبخ الراقي، بنت سي علال العسي. كل فصل تحضر له سبعة مناديل مطرزة بزخرفة جديدة. يأخذ الحاج إبراهيم معه واحدا كل يوم، ينفعه في

الوضوء كما في استعمالات أخرى. ومرآة المرأة وشخصيتها في مجتمع تقليدي مغلق هي صنعتها التي تبدي آثارها عند الناس وتثير إعجابهم. تعبير رمزي صامت يشهد لها بالتميز وتستحق معه كل تنويه. وكل النساء تتنافسن على مثل هذا المقام. لكن البعض منهن فقط، وبحسب الإمكانيات والنشأة، تستطعن بلوغه وتوجيه كتعبير ثقافي مشرف.

ازداد اهتمام الحاج إبراهيم بأناقته ولباسه الذي يتميز به كتاجر وابن أسرة شريفة. وهو الآن جذع لفروع مستنبتة، هي شجرته الوارفة، تضاهي شجرة (المزاح) أو الزعرور التي استرخت بالظلال والنضارة والبهاء. زوجته الأولى، ابنة عمه التي عشقها وتصابى معها وألف حضورها. (لالة الياقوت) بنت السيد الفضيل العلمي. يكبرها بسنة واحدة. لذلك كانت مراحل نموها متقاربة ومتشابهة. وحينما وهج الحب الطفولي على خدودهما ورداً محمراً، كان ربيعه الفائح زواجا ميمونا ومباركا.

أنجب الحاج إبراهيم مع لالة الياقوت ثلاثة أولاد. ابنان وبنت واحدة. إدريس، محمد، وفاطمة. أسماء من شجرة النسب، ثريا روحيهما. إدريس، سماه تبركا باسم أبيه المرحوم الحاج إدريس. لذلك يناديه الكل، وهو البكر، الحاج إدريس. ومحمد، يصغره بستتين. تفاديا للمغايرة والغيرة بينهما يؤكد الحاج إبراهيم على مناداته هو الآخر بالحاج محمد. أما فاطمة، فإنه حينما يريد لها في جلسته العائلية بجانبه وكؤوس الشاي مصبوبة برغوتها، فائحة ببتللات

الزهور المعطرة لها، مرفقة بجلوى (غربية) الزيتية العزيزة عليه، فإنه ينادي على أميرته : فاطمة الزهراء، تعالي يا أميرة أبيها وملاكه.

قد تغار لالة الياقوت من هذا الدلال والغنج الذي يكبر عند فتاتها. ما يدفعها للتزين والتحضر كل يوم لمقام الجلسة والخلوة، خصوصا وأن خادمتين تقيمان مع الأسرة بشكل دائم تشرفان على خدمات المنزل وسخرته، ما يجعلها السيدة والآمرة، والمنظمة لأمر البيت، متفرغة لأنافتها ولبسة العائلة والضيوف بالوقت الكافي.

لكن الحاج إبراهيم الآن، في وضع زوجتين، تتقاسمان المهام والحضور. قد يجتمعان خلال النهار، وقد تحضران جلسة الصينية المعطرة بماء الزهر. وذلك الدلع الذي رافق تربيته وحبه لابنته لالة فاطمة الزهراء أخذه الفارس الذي خطف قلبها شرعا، وحمله على جناحيه سحابة حاملة، وحطّ رحاله فوق عش بيتها الجديد، بيت زوجيتها الذي أصبحت معه سيدة وزوجة (السيد أحمد العلمي) المحقق.

الابنان هما الآخران استقلا بنفسهما. الحاج إدريس اتخذ منزل جده سكنا له مع عائلته، بعد أن غادره أبوه الحاج إبراهيم ليستقر بالرياض بباب القصة. الحاج محمد، هو الآخر أنشأ منزلا قريبا من حي الرشاش والحمام الجديد واستقر فيه مع أسرته الناشئة.



اختار الحاج إبراهيم الجلوس بجانب الخراب بعد انتهائه من صلاة العصر بالمسجد الأكبر للمدينة. وحيث لا نوافل بعد صلاة العصر، فقد فاتح إمام المسجد حول روايات التاريخ المحلي والعام للبلاد. آثر الإمام مرافقة الحاج إبراهيم له خلال خروجهما من المسجد.

. لم لا نتناول كأس شاي عند الحاج العبادي في دكانه؟ عزيز عليه سماع مثل هذه المناقشات. وهي فرصة لرؤية السوق الداخلي وما يروج فيه.
. كما تريد آ الحاج العربي.

كان المنتصف الأخير من عقد الأربعينيات من القرن العشرين مشتعلا بالأحداث، وضع المستعمر على نار هادئة، كما وضع المستعمر كذلك عليها. والحاج العربي إمام الجمعة محط أنظار وأعين الفرنسيين. يدركون أن أكبر خطر عليهم يأتي من العلماء المتسيسين. وأن اعتمادهم على دراسات العلماء في استعمار البلدان هو خير معيار يجعلهم يهابون وعي علماء هذه البلدان، خصوصا مادة التاريخ التي إذا ما أعادت تفسير الأحداث، فإن الحقائق ستطفو على سطح البحيرة الراكدة لعقول الناس المشغلة باليومي وكده وتعبه.

الحاج العربي، يعلم أن فرانسيس لعبت على قولبة عقول المغاربة وجعل الشرخ في لحمها بالظهير البربري. يعلم كذلك قيمة وثيقة المطالبة بالاستقلال. هو خريج جامعة القرويين، وصوته حاضر وظله مساهم في تشكيل مواقفها وقراءتها لوضع البلد عموماً.

إنما هذا العشي من شهر جمادى الأولى الموافق لشهر مارس، والذي هلّ ربيعته باكراً، كان مهيناً لموضوعٍ شهيٍّ أثارته روايات الحاج إبراهيم التي انتشر وعمّ صداها الأرجاء والآذان.

كانت رواية الإمام الحاج العربي مغايرة تماماً لما حكاه الحاج إبراهيم، حول من شفع للأمير مولاي البيزيد: الشرفاء الأدارسة أم الشرفاء العلميون الذين احتسب بحرمات ديارهم وضريحهم، ومن هم الذين جاؤوا لحضرة السلطان يطلبون عفوه عن ابنه؟ وبعد الانتهاء من روايته، طالبه الحاج العربي قائلاً:

. اسمع آ الحاج إبراهيم، أحضر المخطوط الموجود عندك لتتأكد منه. ثم هناك مسألة مهمة أقولها لك: لا روايتك ولا روايتي تهم أصحاب السلطة والمملك. إذا لم تزقهم رفضوها. لذلك لا يحبون أن يحكى شيء لا يوافقون عليه. ربما يريدون محو تلك الأحداث من التاريخ، ومحو أخطائهم. وأنت وأنا، حينما نحكي هذه الروايات فإننا نخلق بلبله وفتنة. رغم أنها تعود لقرن ونصف، إلا أنها تبقى متقدمة، وإذا وصل شريطها لحاضرنا، من يدري، تشعل نارا يصعب إخماد حريقها. أترى تلك الكومة من الصوف التي يضعها سي علال المومني

في ساحة السوق الداخلي، عودٌ كبيريت كافٍ لكي جعلها دخانا منثورا. ولا تنس أن البلاد تمر من مراحل صعبة. لذلك لا يجب أن نملأ عقول الناس بالمتناقضات.

. آ الحاج العربي، كما تعلم، فإنني عاشق للتاريخ وتاريخ جبل العلم والعلميين.
أيُّ كتاب توجهني لقراءته الآن؟

. سأعطيك ما عندي لتقرأه. ولكن، لا تتسرع في رواية ما فيه للناس. فكل واحد ينقل ما يشاء مما يسمعه ويحكي المخالف.

. حاضر آ الحاج العربي. ولو أنني هذه الليلة أستضيف بعضهم في الرياض.
. بالصحة الجلسة. ولكن لا تطيلوا في كلامها، فالأعين متوجسة وفرانسييس غير مرتاحين. عينك ميزانك آ الحاج إبراهيم.



آ سيادنا، هذه الليلة ما كاين لا حكي ولا قصة. نبقى مع الغناء. راه
الحجاية رجعت سياسة.

كانت جلسة الحاج إبراهيم المسائية مع جماعته التي تضم سبعة أفراد. أربعة
من أصدقائه المقربين، وثلاثة من رواد الملحون بالمدينة.

صينية الشاي و(اغريّة). أطباق من الفضة مغطاة بمنديل مطرز بالطرز
الفاصي. يكون المعلم عمر النجار دائما هو المكلف بإعداد براد الشاي
بالنعناع. ينزع المنديل وأغطية الأطباق الفضية. مع طقوس خاصة بين إبريقي
الماء الساخن والشاي، يُشرب الكأس بلونه الأصفر ورغوته البيضاء المعطرة.
ينبهه الحاج إبراهيم :

. لا تقوّ من السكر وتلك المادة. نريدها ليلة هادئة وسالمة.

. لا تخف آ الحاج إبراهيم. هذه المرة أحضرت الزميمة والصامت، مرقدين في العسل الحرة والنويني ديال الكيف.

. كل واحد يعقل على طريق داره. يُعلّق أبّا علال الخياط.

. أية قصيدة نبدأ بها الليلة؟ يسأل السي محمد الخراز، صاحب (السويسن). تلك الآلة الرقيقة من أسرة الوتريات، تشبه العود في الوظيفة، لكنها تكتفي بثلاثة خيوط وتريّة وتعطي الإيقاع بنغمها الوتري الخاص ..

. العود الرقيق شحال مجبّد وباغي يفيق. يعلق ساخرا الحاج إبراهيم. بحالو بحال مولاه، يابسين.

تضحك الجماعة ويقهقه البعض في جو يخلق مرح الليلة.

. ذلك العود هو الذي يوسّع لكم الضيق آ صحابنا. يعلق السي محمد الخراز.

. يوسّع غير وُتاره باراكا عليه... يرد ضاحكا أبّا علال.

. نترك العشق هو الأخير. يقترح الحاج إبراهيم.

. تلك الساعة، كل خليل يقصد خليله. تبدو نواجذ أبّا علال ظاهرة في رده.

. إذا فتحوا لكم البيان، أحيوا علّقوا رجلي في ميزان الكيلو. يرد عليهم السي محمد الخراز.

. ساووا الميزان على قصيدة (الكاميو د طاق طاق يلا فاق). يقترح المعلم عمر بعد تناوله للقمّة من الزميتة المعسلة.

تسافر الحواس مع ما اعتادت عليه من طرب وإيقاع وصور فنية وجمالية. وفي كل مناسبة تقتحم الأبيات المنظومة جملٌ جديدة تسجل مستجدات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية. وتكون في شكل خطاب مدون للجديد، ومُحاورٍ ومنتقد للواقع والناس، بطريقة فنية تفك قيود النفس لتقبّل انتقاد العقل وملاحظاته.

حينما يستفيق الذهن من نشوته بعد هدوء عاصفة طرب ونغم ورشفة، يتشكل ذكاء ووعي جديدان. ذلك سحر ليالي الملحون. جماهٌ نازٌ يهاجها الفقيه وكل خائف على ورعه. يغامر فيها الفنان والعاشق والمجترح والمغامر للتداوي والتحدي أو للاحتراق والخمود.

...

قد تحضر بعض هذه الأفكار في ذهن الحاج إبراهيم وهو محتلٍ بعد جلسة ملحون وسمر فني. إنما هذه الليلة، شعرٌ بيقظة ذهن رغم اشتعال الحركات بفعل مادة الزميتة و(الصامت). لا يدري كيف يُرجع لحكيه عن تاريخ السلطان مولاي اليزيد وقصته مع الشرفاء العلميين وهَجَّهما ونبضهما المناسبين. تنبيه إمام الجمعة له، الحاج العربي، أخذه بعين الاعتبار. فالإمام قد أتم تعليمه بالقرويين، وأخذ العالمية وتخرّج منها. وهو أكثر دراية بالفقه

والتاريخ والسياسة، خصوصا وأنه شارك الحركة الوطنية وحركة الطلبة بفاس، وتشبع بروحها. لكنه يقيس موازين الخطاب والقوى في منصبه ومسؤوليته وقدراته. مثلما أجب به الحاج إبراهيم في مناسبة وبطريقة غير مباشرة: أنا مسؤول على سلامة وطمأنينة أرواح المومنين أولا.

يلمس الحاج إبراهيم كل هذا. وطبعاً، الغيرة على الوطن يترجمها كل واحد بطريقته. لكن مقام العالم يحترم. خصوصا وأنه إمام. والإمام قبعة ستر وبركة، يترك بها كل مؤمن طبعاً.

لالة الياقوت، تبيت هذه الليلة عند أختها لالة زهور. استفحل مرضها، وهي أرملة وأم لأربعة أبناء ذكور. تسهر على حالها هذه الليلة بالتناوب مع كنيها ما أمكن. لذلك فليلتها التي تخصصها في تناوب مع الزوجة الثانية تزامنت مع لحظات الشحن التي فتحها (خلوة المنزه)، تسمية جلسة الطرب هاته. هذه السقيفة التي تحولت إلى تحفة في كل شيء. من أبوابها إلى أثاثها وأدوات وآلات طربها.

في جوف الليل، حيث السكون يعم المجال، وحيث الأصوات المسموعة نادرة وآتية من بعيد، ديب حركة محترقة للوادي الضيق الذي تجري فيه مياه عين السمن وعويونة فكرة، يتقطع كلما علا صوت نباح في الأرجاء. آذان الخلائق تتبادل رسائل التنبيه، والنائمون من الأنام، كل مرة يلقون دبدبات السمع محترقة الأسوار. لذلك كانت حركات الخطى متأنية. حصى يطرق باب

السقيفة بعد كل حين، أيقظت ذهن الحاج إبراهيم الذي بالكاد غفا ملتحفا فوق فراش سمرة بغطاء صوفي عريض وثقيل، مدثرا رأسه بقُبِّي جلابتيه معا.

واصل الحصى المتقطع في رشقه وطرق مسامعه، وعيناه مغمضتان بين حلم ويقظة، خصوصا وأن فعل الصامت والزميتة (الحشيشة) أثقل حواسه بقدر ما أدفأ جسمه. بالكاد انتبه إلى حركة خارجية مستأذنة بهذه الحصى. وبما أن الليلة مقمرة نسبيا، فقد استطاع رؤية ظلّ أسفل سور الرياض الذي يفصله عن منحدر الوادي المتشعب.

بسم فتحة الباب، ونحج مرتين. جاءه الردّ بصوت طائر (الحسون). أخرج بهدوء السلم الخشبي الذي يضعه تحت طاولة الفراش المرفوعة بقوائم خشبية من على سطح أرضية السقيفة. نادى بصوت خافتٍ : من؟... علال؟

أكد متسائلا ومناولا سلم المصعد وقد تلقى ردّا هامسا عرف بهوية هذا الآتي في عز الليل.

علال. تسمية مختصرة بدون (السي)، ولا (المعلم)، ولا (ابّا). شاب قوي البنية بطول قامته وطموحه الكبير في إثبات شجاعته. ينحدر من قرية (القوار) الموجودة في ظهر جبل الدكّانة المقابل لحي باب الجديدة وباب القصبة. سروال قصير ونعلين جلديين تلتوي خيوطهما في حزمهما حتى ركبتيه. جلابب قصير بفصائله الجبلية، يصل إلى حدود منتصف الساقين، وبالكاد يتجاوز المرفقين في كميته. هكذا تبقى أطرافه بارزة وحيوية في حركتها.

هو لباس أهل الجبل عموما الذي يساعد على الخطو السريع والصعود مع المرتفعات والنزول مع منحدراتها.

نزل علال الشاب من منحدر الجبل المقابل، متخفيا بين أشجار الزيتون. تفادى الطريق المألوف الآتي من فجوة قمة الجبل (باب الفرجات).

حافظُ لتضاريس المنحدر وأشجاره وأماكن الاختباء فيه، وكذا تحركات الأرناب البرية والزواحف المختفية. عالم بحركات فرانسيس، المستعمر الذي بدد أحلام المغاربة وجرح وجدانهم وقاس لهم حياة الذل والخضوع، والجشع على الخيانة والجحود.

يندهش الحاج إبراهيم لقوة وشجاعة علال، ويقف عند حدود احترام وتقدير لدوره الكبير الذي يؤديه. يبقى سؤاله عن كيفية دخوله في حركة وطنية جديدة مطروحا. غالبا ما كان المشهورون فيها يتمركزون داخل المدن والبلدات بعد أن قمع المستعمر حركات المقاومة المسلحة التي قادتها القبائل المغربية وأخذها نسبيا حتى حدود سنة 1934. ومدينة مولاي إدريس زرهون تعرف خصوصية تشكيلها الاجتماعي، وولائها التاريخي للسلطين، كذا غيرتها على الدين وعلى راية الإسلام التي تُشرف بألوانها البيضاء والخضراء فوق الصوامع كل جمعة، يوم الفرح والاحتفال الديني والاجتماعي. كما تعرف المدينة وعيا تعليميا وثقافيا، وهي التي راكمت إرسال أبنائها للتعليم، وكذلك تكوينهم وتأهيلهم له بفضل علمائها وفقهائها.

مرت سنتان تقريبا على خطاب السلطان محمد بن يوسف والذي ألقاه بطنجة في 19 جمادى الأولى 1366، 9 أبريل 1947. وقد تغيرت ظروف البلاد مع تغير الجنرال المقيم على شؤون المستعمر، وتطور عمل الحركة الوطنية خصوصا مع توقيعها على وثيقة المطالبة بالاستقلال التاريخية سنة 1944 وتنسيقها مع القصر السلطاني.

راكم الحاج إبراهيم وعيا مرتبطا بالحركة الوطنية والأحداث السياسية. وازب على تتبع أخبار الجرائد الصادرة، والمنشورات السرية المطبوعة والموزعة. ساعده موقعه السكني الجديد على الانفلات من رقابة عيون سلطات الاحتلال، خصوصا وأن تحركاته النهارية تجارة واجتماع وعبادة وفن ملحون. الأمر الذي طمأن المتوجسين الخادمين والمسترزقين مع فرانسييس. والذي طمأن كذلك بعض أعضاء الحركة الوطنية المنحدرين من المدينة، ومن مدن مكناس وفاس على الخصوص. ويكفيه شرفا أنه درس لمدة في جامعة القرويين، رغم أنه لم يتممها دراسةً، لكي ينال ثقة الحركة الوطنية المتجددة، ولكي يكلف بمهام تنسيقية محددة.

جلسة علال والحاج إبراهيم جمعت بين جيلين وثقافتين. فعلال ابن البادية الذي شهد على ظروف قاسية مرّ منها الناس في المجاعة التي عمت البلاد. مات إخوته بسبب أوبئة، وعانى من استغلالٍ في العمل الفلاحي لصالح

المعمرين في ضيعات جووير* وجرماندي* وغيرها. شاهد كيف كابدت أسرته المحن وأداء ضرائب الحصاد. لاحظ كيف كانت أسر المعمرين تنعم بالأرزاق والمساعدات من طرف سلطات الاحتلال. يوم قرر مغادرة البلدة، بحثَ عمّن يشتري منه إحدى الشياه التي تمتلكها الأسرة، والتي اقتنتها مؤخرًا بعد انتهاء آثار عام المجاعة لسنة 1945، التقى بإحدى أسواق البوادي بمن وجّهه للبقاء بجانب أسرته وتبّه لخطة المستعمر في التخلص ممن بقي بأرضه لكي يحتلها ويستغلها المعمرّون. هكذا تصبح الأسر المغربية فقيرة ومهاجرة، ويصبح المعمر غنيا برأسمال وإقطاع وانغراس في المكان، هوية الوجود والاستمرار.

لم يبيع الشاة. عاد لتوّه لأرض أبيه. بدأ الاعتناء بها أكثر. جلب لها الماء من بعيد لسقي البستان. حوّض أشجار الزيتون وحرص على حماية كرمتها وأشجار تينها من كل قطع عابر. وخلال ذلك، تجددت لقاءاته بذلك الشخص الذي كان يتفادى إعطائه اسمه الحقيقي إلى أن ائتمنه وأصبح في كل لقاء علاّل الفلاح هو الذي يتكلم وينتقد ويلاحظ ويتساءل ويندد... حينها تعرّف على شخصية محاوره بلغتيه ولهجته، الريفية والعربية الدارجة. السي عبدالكريم. هكذا سمّاه أبوه تيمنا بقائد وزعيم ثورة الريف ضد المستعمر

* - أسماء للمعمرين الذين كانوا يستغلون الضيعات الفلاحية الخصبة على ضفاف وادي وسهل خومان.

الإسباني: عبدالكريم بن محمد الخطابي. جلاباب بُني ولحية رقيقة على مدار صفحة وجهه.

حفظ القرآن واستمع لمجالس أبيه. ساعدته البيئة البدوية على تيقظ حواسه وتذكر تعلماته وشحنات حماس المناقشات التي قامت في بيته. استمر في التواصل مع أصحاب أبيه بعد وفاته ويفاعته، وطوّر وعيه بجدلية الحرية والاستقلال من جهة، والعبودية والاحتلال من جهة أخرى. مهَرَ في ركوب الخيل وتدريب على فنون القتال بما أوتي من ممكن لذلك. حينما قرر اتخاذ وتنفيذ مهمة ورسالة لفك خيوط المعادلة المتناقضة، كان لتكوينه الديني أثر في اجتهاده واختياره. قرر استغلال اتصالاته في الأسواق. بثقافته الواسعة كان يستغل ما درسه في السيرة النبوية لكي يبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ بدعوته في مواسم الحج وتجمعات الأسواق. الأمر الذي أعطى الشرعية لخطابه وتواصله، والذي حَبَّب للآخرين الاستماع لحكيه واستشهاداته، وشوقهم لملاقاته من جديد.

تجده يحكي عن ثورة الريف وجرائم الإسبان، خصوصا وأن جذور القرى المتوزعة بجهة جبل زهون الشمالية، منحدره من جبال الريف. فهي أسر كثيرة قد نزحت في مراحل متفرقة لظروف عيش أو احتلال. احتضنها جبل زهون مثلما احتضن الآتين من سهول الغرب أو الصحراء أو غيرها من أرجاء المغرب، حتى إن الجبل أصبح فسيفساء للنسيج المجتمعي المغربي، وحتى

إن المدينة اشتهرت بأحياء تميز هذا الطيف المتشكل على لوحة عمرائها، إضافة إلى كرامات أوليائها وأضرحتها: مولاي إدريس، سيدي علي بن حمدوش، سيدي أحمد الدغوشي، سيدي عبدالله الخياط، وغيرها كثير من الأسماء، مجال للجوء وتفريغ الشجون وآلام العيش وأوجاع النفس. مجال للاحتماء من شرور الأقدار وملاحقات السياسة والقهر.

هكذا كان السي عبدالكريم هو الملهم والمؤطر للسي علال. النداء الذي حرص على تقدير علال به. فرغم يفاعه شبابه أراه السي عبدالكريم بدرجة احترام وتقدير للمسؤولية. لذلك كان يناديه السي علال ويذكره بسر ذلك، كما يذكره بالآية الكريمة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). ينبهه إلى أن أهل المدينة مغرورون نوعا ما، مرتبطون بشجرات الأنساب وسجل الحكيم الذي يعطيهم القيمة الوجودية معها. محذرا إياه من السقوط في فخ التناقضات مع أهل المدينة. فالهم هو محاربة من تسبب في الطاعون والتيفوس والمجاعات. من ألقى السموم بطائراته وزرع السم في سياساته. المهتم محاربة المستعمر الفرنسي والإسباني.

. ما أنا فاعله إذن؟ يأتي السؤال من السي علال بعد تروّ واقتناع بخطاب السي عبدالكريم.

. مارس حياتك بشكل عادي. ستكون مهمات متأنية، وستقوم بما أنت قادر عليه دون زيادة ولا نقصان. المرحلة تحتاج إلى تنظيم وتأطير أكبر وعدم تسرع في خطوات تأتي بالفشل.



خلال النهار، يتواصل السي عبدالكريم مع الحاج إبراهيم في التجارة. أما شؤون المقاومة والسياسة فقد آثرا جعلها غير مباشرة، إلا ما دعت إليه الضرورة. منشورات، دعوات للتواصل والتنسيق، معلومات جديدة، أخبار وطنية ودولية... كلها مهمة لحشد الهمم والحفاظ على رباطة الجأش والأهبة واليقظة والنباهة في مثل هذا المشوار الجلل والخطير.

بين جهة الوادي ومدخل المدينة من البوابة المطلة على العراسي وعلى عين الرجال، يتمركز ورش القصابين الذين يزودون المدينة بما تحتاجه من صنائعهم المتنوعة والمهمة. يبتسم الحاج إبراهيم حينما يتذكر سؤال ابنه الأصغر في صباه حول تسمية الحي باب القصة. هل تسميتها تعود لوجود مكان القصابين بجوارهم أم ماذا؟ يفتح قوسا داخل ذهنه ويتركه يكبر بالتحليل كل حين. يعيد السؤال على نفسه مجدداً له بأجوبة جديدة:

. باب القصة؟

يومها كان عمُّ ابنه محمد عشر سنوات. كان في حيوية كبيرة يمتلكها في لعبه ومرحه. بجلبابه الصغير الجبلي المناسب لحركته وسرواله المفصل بالطريقة العصرية آنذاك. يحرص أبوه الحاج إبراهيم على متابعتة لدراسته مع حفظه

للقرآن الكريم. لم يكن يريد له انقطاعاً عن هذه الدراسة. ربما كتعويض لما كان نقصاً عند أبيه. لكن، للأسف، تأتي الرياح بما لا تشتهي سفينة أمنيات الإنسان. تحالفت الظروف الأمنية غير المستقرة مع مرحلة شباب الابن الذي أغرم منذ صغره مثل أبيه. أثر التجارة والزواج المبكر على تحقيق حلم الدراسة. يوم قرار زواجه وعدم بعثه للدراسة كان صعباً على العائلة وعلى مزاج الحاج إبراهيم الذي كان له نقاش مع أمه لالة الياقوت ومع جد ابنه المرحوم (السي أحمد العلمي). جملة المرحوم: *حرفة أبيك حتى لا يغلبونك (حرفة بوك لا يغلبوك)*، بقيت راسخة كقاعدة اجتماعية وتربوية في أذهان مجلس العائلة.

هو حين متحسر على الماضي الآن. ها هي مكانة الحاج إبراهيم الاجتماعية رغم تألقها ونجاحها، بقيت تشعره بخصائص اللقب الموجود عند العلماء الذين تعمقوا في دراساتهم.

ربما خلخلة إمام المسجد لحكاياته التاريخية أفرغته من خوف الجهل وأكله لعقله ومعرفته. وهو المستنير بالأفكار الجديدة وطريقة الحياة العصرية. ربما أنه لا يبدي كل هذا أمام الإمام وأمام الناس. لكن متابعتة لقراءة الجرائد الوطنية والسؤال عن قوة الاستعمار الفرنسي وإنجازته الحضاري والمادي، ساعده على فتح عقله على مستقبل الأجيال الجديدة.

يستحضر الحاج إبراهيم كيف كان ابنه محمد يأتي من التمدرس ويتهبأ للعب في رحاب المنزل ويشيد عالم خياله الواسع ويفجر القوة الجامحة في حيوية

جسده الفتي كصبي يافع. لذلك ابتسم الحاج إبراهيم ذات صباح من يوم جمعة وهو يسمع سؤال ابنه حول تسمية باب القصبية، القوس والباب والحي. ابتسم حينها لاتخاذ سي محمد قصبية شذبا وصقلها وجعلها حصانا يعدو فوقه ذهابا ومجيئا. اتخذ من العبارات والحركات آخر ما رآه من الموسم المقام بمدينة مولاي إدريس زرهون، مسلكا له في احتفاليته ولعبه. ذلك أنه ذهب مع أبيه وجدّه في مقدمة الشرفاء العلميين، كما رافقه في مشاهداته الاحتفالية خلال كل أسابيع وأيام الموسم المتنوع الذي يعكس ثقافات وفنون وعادات الاحتفال عند مختلف مناطق المغرب وقبائله الحاجّة إلى جبل زرهون والمعتمرة لتلاله بخيامها وولائمها وخيلها وحركاتها في الفروسية والتبوريدة، نسبة للبارود المستعمل في رقصة الخيل وسباقه واستعراضاته.

يستحضر مشاهد الموسم إذن في لعب ابنه بعود القصب:

. آرى • العود. آرى البارود. حرّك المكاحل آسيدي حرّك.

تتعدد الأجوبة الذهنية المرتبطة بالقصبية. طبعا تسمى بقصبية البلغيثيين. وهو الحي الذي يسكنه الشرفاء البلغيثيون العلويون، والذين أتوا في هجرة لعائلات وافدة من تافيلالت وغيرها من المناطق. وما دام الحي قد بني بعد حي دار

• هات الحصان ! هات البنادق ! هيا للمعارك ! ويبقى تأويل الصيغة متعددا بحسب مقام الاحتفال من غيره!

الجديدة، يبقى شك الحاج إبراهيم حول من سبق له: هل البلغيثيون أم العلميون، رغم شهرته بقصبة البلغيثيين؟

لكن سؤال ابنه محمد بقي مشروعا منذ ذلك الوقت. فما دام ورش حرفة القصابين يوجد محاذيا لتلة باب القصبة، بجوار القوس الرئيسي ومخرج المدينة من جهة عين الرجال البساتين الممتدة في المنحدر حتى ضفاف وادي خومان، فهل التسمية تنطبق على الحرفة أم على القلعة والقصبة؟ ما دامت القصبة في الأصل حصنا وقلعة بأسوارها وأبوابها، أية قوة بقيت لها، بما أن الاحتلال الفرنسي قد اخترق الجسد المغربي في قعر دروبه وأبواب مساجده؟

فهل ستلتصق التسمية بالحرفة أكثر الآن، وينسى الجيل الجديد قيمة القصبة كقلعة حامية ومحصنة للسكان؟ في رؤية مسترجعة للعب السي محمد في صغره، تثير القصبة كما أقدامه النقع. يتعالى غبار وصراخ متلون مع أشعة الشمس، يتداعى منقرضا ومحميا من سجل ذاكرة سالفة مع زرقة السماء التي يكسو بها ذاك الصباح فضاء زرهون .

يمر دوي طائرة محلقة من بعيد، يذوب كل تماسك لهذه الذاكرة والاسترجاع، وكذا لدلالة القصبة في ذهن الحاج إبراهيم. كما ينقله من الزمن الماضي الذي يسكن النفس إلى الزمن الحاضر الذي تفرعه الطائرة الدالة عليه. يعلق مع نفسه:

. أية حصانة ودفاع للقصبة الممانعة والخيل الجامحة مع هذا الطائر الحديدي الحربي الجديد؟

(كفة القوة تميل إلى فرنسيس دائما. واهتمامهم بعقولهم أقوى وأكبر مما هو عندنا. والأناقة واللباس وطريقة العيش... كبشّر، هم أفضل، ولكن كأناس فهم مستعمرون. لتبق القصبة للقصابين إذن. ما عادت الباب ولا السور كافرين لها كقلعة وبرج محصن).

ترجى الله في لحظة مناجاة أن يبارك له في زواجه الجديد، ويرزقه ذرية صالحة. ربما أراد مع زوجته (لالة الصافية) تعويض تعليم أولاده الذي سرقته منهم التجارة وحرفة أبيهم وجدهم رحمه الله.



كان لقاء الحاج إبراهيم بسي علال سرّاً بيني لخُطى متفرعة في العلاقات بين أفراد غيورين على قضية وطنهم. عملية ليلية تتفادى عيون المخبرين والجواسيس (البيّاعين) بلغة البلدة. فقد استطاعت سلطات الاحتلال أن تجعل لها ملتقطي أخبار التحركات المشبوهة والخارجة عن مألوف الاجتماع والاقتصاد. فكل تواصل جديد بين شخصين ولأول مرة، قد يثير الشكوك ويفتح الاستفهام، كما تتدلى وتطول معه الآذان.

سَلَّمه السي علال الأمانة بدون تلفظ محتوياتها. زوّده الحاج إبراهيم بآخر أخبار البلدة، وبالمخبر الذي أصبح هو القايد الجديد لها. أخبره بما قرأه في الجريدة التي اقتناها هذا الأسبوع. أكرمه بقرى الضيافة وزوّده ببعضها. لم يتجاوز اللقاء الساعة من الزمن، تفاديا لتجدد حركة ما قبل الفجر وأذانه. حينها تسلل سي علال بين منحدرات ربوة الرياض، واتخذ طريقه بين شعابٍ موصلةٍ إلى المسلك الجبلي البعيد عن الطريق المعتاد. ذاب الطيف ومعه الحركة. لكن الحاج إبراهيم ذهب عنه النوم رغم حاجته له.

أقفل باب المنزه وولج باب المنزل الكبير للوضوء والصلاة. كانت غرفة لالة الياقوت هي محجّه الأمن الآن. (الصالة الكبيرة) كما يسميها في الطابق الأول. أما أبواب الصالة الصغيرة المجاورة فقد بقيت مغلقة، حيث تنام زوجته

الثانية لالة الصافية مع ابنتها رقية في حضنها. ولادة ميمونة أفرحت الزوجين وخلقت دفعا جديدا في الحنين والحب. فترة الحيض جعلت الحاج إبراهيم لا يفكر خلال هذه الليلة في رؤيتها، خصوصا وأنها ليلة زوجته الأولى مناوبة وعدلا. (ولن تستطيعوا أن تعدلوا ولو حرصتم). هكذا يردد مع نفسه مضمون الآية القرآنية حول تعدد الزوجات. وحينما يلحق خياله بجناحيه خارج سرب الصائتَيْن والزوجتين، يردد الآية جهرا مع نفسه. فجموح الشهوة وصور قصائد الملحن عامرة وفاتنة، وهل تكتمل في ملاك واحد أم في متعدد منها؟ حينها يلجأ الحاج إبراهيم إلى جلساته المسافرة مع الطرب والخيال. يغني قصائد الملحن أمام صينية شايه وبعض الفواكه اليابسة. قصائد الخلخال والدمليج وغويطة وفاطمة والشمعة... أدبٌ بوح النفس ورقصتها مع لحن الحياة الذي ينسج الأفتدة داخل قطار الملحن. لا يحتاج الحاج إبراهيم إلى فرقته وجمعها. هي نشوة الروح بدون مقدمة (السرابة*)، ولا لحرية، ولا اللازمة التي يؤديها الشداشة* أو جماعة المرذدين والعازفين. يردد مباشرة الأبيات المغناة (الأقسام)، والتي يستهلها بشرط الاستهلال أو الدخول، كما يستغني عن الإيقاع السريع الذي يكون في ختام القصيدة والمسمى بالدرديكة*.

يعتمد الحاج إبراهيم في ضبط الإيقاع على يده والذي يسمى عند أهل هذا الفن بالتوساد*. تجد المجاورين جلسته مستمتعين بطرب غنائهم وترديده. هي

*- مصطلحات خاصة بفن الملحن بين مقامات ودوار غنائية وموسيقية.

لحظات تكون مقطعة يوميا من تواصلات ومحادثات الآخرين للروح وللنفس. لا يعيشها الحاج إبراهيم إلا مع من ارتاحت له نفسه واطمأن له قلبه.

حينما يغمض عينيه في حلم يقظة، تمر سحابة الخيال راقصة بطرب تتغذى به سماؤها. يكون فضاءها هو عالم جفونه التي أغلق ستارها لكي تبدأ رحلة فنية تغتسل في مائها الودي روح الحاج إبراهيم. وكل الصور تحل ضيفة في عالم سحابة خياله. حتى من القرآن الكريم، تأتي أجمالها مستحضرة الآتي من جناحها. الكوثر، حور العين، الغلمان، الاستبرق، السندس، الرحيق المختوم...

و بما أن الحياة واعدة، فمن الممكن قطف متع الحياة في التجمعات المنفتحة للبلدة، خصوصا أيام سوقها الأسبوعي، وأيام مواسمها الاحتفالية، وضيوفه الذين يملون خلالها برياضه، وبعض المرات التي ينفلت فيها الزمن وسياقه التاريخي والاجتماعي لكي يأتي بزهرة خلد مطربة ومتحفة جلسة ملحون خاصة بدائرة روادها. قد يبني أيام الموسم خيمة كبيرة لضيوفه أمام باب المنزه والسقيفة، حتى تتسع الجلسة والمقام لأكثر عدد ممكن من الضيوف.

يخرجه من رحلة سحابته كل أذان جديد مع مواقيت الصلاة، أو طارئ تواصلتي مع سكان البلدة. همهمة خفيفة كحسرة على إيقاف متعة النفس داخل عالم الملحون، تنقله إلى عري من سحاب. يستحضر حينها قوله تعالى:

(و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن
كما أحسن الله إليك).



يوم السبت، هو يوم السوق الأسبوعي الذي اعتادته المدينة عليه من أجل الانفتاح على مبادلات تجارية متنوعة. تبدأ الحركة والمواصلات بين استعمال الدواب أو المشي على الأقدام وبين استعمال الآلات الجديدة المتحركة وركوبها كحافلات وسيارات. وتنفث معها أبواب المدينة من الجهة الشمالية على الوافدين وعلى السلع الجديدة، كما تخرج خزائنها وصنائعها ومنتوجاتها، لكي تعرض للبيع عبر ممراتها وأمام دكاكينها وساحاتها. سحر المدينة كأنها نزلت تحفة من السماء على أضلع تلال منسكبة حتى سفوحها، أو كأن هذا الضريح نقطة نبع وماء فتفت جنباتها وبنيت لحوضها وأسماكها أسوارا وأقواسا وأبوابا، كل مرة تنفتح ملء سواقٍ على جنباتها منمهرة بالحياة وبذورها في الزراعة والرعي والتجارة وطلب العلم وإقامة العلاقات اللاتقة بعروسة الجبل المتوجة بإكليل أشجار الزيتون والتين والرمان، والمخللة بأعراس التفاح والإجاص والبرقوق، بأحلى طعوم وأشهى مذاق الفصول. عطرها من عيونها الزاخرة والمتنوعة، بدءًا بعين شانش وعين خبير، ثم عويئة فكرة وعين الرجال... وهذه كلها تسقي شرايين المدينة الحيوية والناضجة.

ثم هناك العيون المترققة من جوف الجبال والتي تحتزن المذاق وأشكال الشفاء، كما تحتزن الحكايات وأسرار التاريخ والأساطير. أليست عين القصر هي أول ما وطأها رجلا إدريس بن عبدالله الكامل، حالاً بجبال زهون كما في الحكايات؟ ألم يضرب بسيفه الصخر فأنهمر؟ وعين القصر عين ماء في الطريق الجبلي المؤدي بعد عبور وادي خومان المنحدر من عين الحامة، إلى مقام وضريح سيدي علي بن حمدوش صاحب الطريقة الصوفية الحمدوشية في الجذب، وإلى ضريح سيدي أحمد الدغوشي. الفواكه التي تسقى بمائها جواهر في أحلى مذاق. تجلب عشاقها من داخل المدينة وخارجها، وتنافس قريناتها من المدن الأخرى في مكناس وفاس ووزان وغيرها. صيتها عرضته بقوة جمالها على الأخريات. فكان التاريخ الطبيعي والجمالي الخاص. أما الاستحمام فيها فيعطي تماسكا لبنية الجسد ويشفي من الحمى. لذلك استطاعت أن تجعل الزوار يختلقون لها الطقوس، ويتناوبون بين ذكور وإناث، ويبنون لها عرش الحكايات لمدن خيال لا يسكنها إلا عالم الجن وماوراء حدود العقل. قوة وقدرة ما لا تتحمله المدينة داخل أسوارها.

أما عين بوسعيد وعين بنسليمان، فهما المتجاورتان في الطريق إلى الغابة وفي سفح الجبل الضخم الذي يستنبت شجر الخروب والزيتون في مقدمة استهلاله. قد تخيف أدغالهما الجديد والغريب الوافد عليهما. ماوراء الأحياء بالمدينة، وماوراء المقابر في الطريق إليهما، وحيث تُجَب عن النظر عوالم كل عمران لِمَا دُكر، تحضرك روح الطبيعة وهولها في دواخلك النفسية. ربما هي

رحلة تزكية النفس الطبيعية. وقد لا يجرؤ على الذهاب إلى هذه المدينة إلا المحتاج لتنفيس الضغط الذي تسببه حياة الأنام المجتمع في ازدحام واختناق أوداج الروح داخل العمران.

أرض زهون، ثريا منابع في ديمومة تقبيل مشتاق لزرقة السماء وخدودها من غيم وسحاب تتنزل رذاذا وطلا وخيوطا من ماء.

هذه الروح التي تسكن فؤاد الحاج إبراهيم وتزرع الحياة في بؤبؤي عينيه، استكشفتها في صباه وشبابه ورجولته. نظم لها زهاته مع أصدقائه وعائلته، كما نظم لها طربه ونغمه. خلق سمفونيات العشق واللحن والغناء والرقص والحب والحمد، الذي يوهجك خمرة حلم مستمر. ولذلك كانت تجارة الحاج إبراهيم دررا من محارات حوض زهون، يعرضها بابتساماته المليئة بالثقة والجودة والأمان والاشتياق. حتى إن سعره برأسمال كلماته وأبياته المنظومة والمنتقاة والمقفاة في المحاورة والمساومة. يأتيه المشتري يتزود بالكلام قبل السلعة. (قصائد الزردة) وأشعار جبل زهون، وآيات التين والزيتون، وأوصاف الجنة، كلها مضمّنة في حلقة المبحوح بجمال الغناء والطرب، وقرى التذوق قبل الشراء تضمن له أفضل الأثمان وأضمن التجار والمشتريين.

الدكان عيّنات بضاعة، وإذا طلبت كميات أكبر، وجدت التلبية بعد حين. فمرافق ممتلكاته خزائن تأوي خيرات زهون. حتى المصنّع من السلع يمر على يد الحاج إبراهيم لكي يسلم للمشتريين والراغبين. لذلك كان كل الصنّاع

أصدقاءه. يزورهم كلهم ويجلس لمحاورتهم ومتاجرهم ولعب الضامة مع بعضهم. حتى صنائع النساء يكون حظها أوفر على يديه. وما جلسته أمام دكان صديقه السي عبدالغفور بالسوق الداخلي إلا مراقبة وتواصل في التسليم والتسلم مع حائكات الصوف وغازلاته وناسجاته، ومع بائعات البيض والسمن وغيرها من منتوجات المنازل.

(في التجارة تسعة أعشار الرزق). هكذا يكون هذا الحديث النبوي الشريف ملهمه في الحياة، فتكون الحياة ناهضة بلسانه وكلامه وعينيه البارقتين.



"كان السرير مدثرا بإزار أبيض يقيه كستار مربع مما قد ينفلت من حشرات صغيرة بين شقوق الباب الكبير للغرفة. بينما كان البان الصغيران اللذان يتوسطان الكبير محكمان في الإغلاق. قد تستعمل إحدى البوابتين فقط أيام الطقس البارد أو خلال الليل فقط، في حين قد يشرع الكبير خلال الصيف أو الأيام المشمسة على العموم.

لكن صريرا قويا بدا آتيا من شجيرات الرياض وتماديا في وقعه. وبينما غرقت لالة الصافية في نومتها المعتادة والعميقة، بقي الحاج إبراهيم مشوشا بالأصوات الخارجية. حتى إذا ما غفا أثنه ظلال سميكة حجبت عنه سقف حلمه، وغطته بصوت جديد وجليظ. لقد شعر بتعرق داخل الغطاء الذي كسته رائحة الصوف الأبيض الفائحة من (الحنبل) الذي جعله فوق الإزار الحريري. استشعر حافرا يدق الأرض وصهيلا يقتلع أنفاسه من مكانها وصدرها:

. أنت في حضرة السلطان الذي تبحث في سيرته آ الحاج إبراهيم. لماذا توقفت عن الحكمي والبحث في شأنه؟

. لا أجد حكاية واحدة، وترا. هي حكاياتٌ حيرتني وجعلتني أقف متكئاً على جدار الزمن أنصت لخيوطه التي تهب بها رياح الحقيقة.

. وهذه الظلال التي تراها آ الحاج إبراهيم، ألا تلاحظ أنها من السلطان؟

. أمر مولاي مطاع. وحكيه حيّ في صحفي وذاكرتي ومجالس ودي. إنما ما أخافه هو غضب أبيك من سيرتك ومن ذكرها. ما أخافه هو فتنة الناس في صراع الأمراء. لذلك تجديني أترثت فيما أروي ولمن أروي.

. اعلم آ الحاج إبراهيم أنني إنسان له مشاعر وعواطف. له جروح وانكسارات مثلما له مجالس أنس وسمر. التناقضات تكبر في شخصيتنا وتركب حياتنا بأقدار عائلية واجتماعية وسياسية.

. واعلم آ الحاج إبراهيم أنني من أم رومية. ونفسي كبرت بين نظرة احترام وخوف ونظرة ازدراء وشك. المحيطون شكلوا صورتي وجعلوني بما يليق بأدوارهم ومصالحهم. نفسي مقسمة بين عالمين ودانين، الأول للأُم والثاني للآخرين.

. أسألك مولاي حول سرّ اختيارك لمدينة مولاي إدريس زهون مقاما وعناية؟

. اعلم آ الحاج إبراهيم أن بلاد زهون تمتلك سحرا تاريخيا يمتد في جذور الزمن. بلاد مباركة يقف لها السلاطين إجلالا. هذه البلاد التي آوتني وشفعت لي في مقام والدي رحمه الله. بلاد عرفت زلزلة عظيمة ومات فيها خلق كثير. لكنها استطاعت أن تبعث الحياة في الباقيين، وجمت أنا من بعد جدي المولى

إسماعيل أرسم لها عمراننا، وأعمّرها بشجرتكم من جبل العلميين. ذلك الجبل الذي حماني ونصري وتوجني سلطانا وملكا. لا تذكر فتنة الابن. ولا تُشِر إلى عقوق أو سخط أو تبرؤ. تلك حكايا الأسر، لا يخلو منها بيت، ولو كانت بيوت ملوك وأمراء أو لصوص أو فقراء. لا يمكنك تصور تربية بين دزينة أبناء وتعدد أمهات. كيف ستربص أعين المصالح بتحقيقها من خلال خيوط الأمراء. وكيف سيوجهون أهدافهم سهامنا في لعبنا وسمرنا وتعليمنا. وكيف ستكون اللعبة مجرد مزحة فتتقلب إلى لون أحمر بدل راية بيضاء.

مدينة مولاي إدريس زرهون، لها ثقلها التاريخي الذي يخطط هندسة أحيائها وأسوارها وأبوابها. موقعها الجبلي يعطيها الهيبة والاعتبار، والغيرة من شموخها عالية فوق الكتل السامقة والصخور المنيعة. حتى المنافذ لها بنيت بها أسوار سميكة ممتدة على طول مشارف بساتين منحدره إلى وادي خومان، وصاعدة مع شعاب عين السمن وقبلها عين الرجال، منابع مياه حيوية وعذبة. أما حي الخطاطبة، فقد امتد أعلى جبل خيبر منيعا هو الآخر بأسواره التي تقف حاجزا من الجهة الشمالية الشرقية. ما تبقى حيطان صخرية طبيعية ومنحدرات صعبة تختلجها أشواك الصبار والتين البري والأشواك السدرية البرية كذلك.

. أراك مولاي السلطان ملما بالمدينة وأحيائها وطبيعتها! كيف أستطيع امتلاكها وجعلها في صفك؟

. لامتلاك مدينة مثل هذه، لا بد أن يمتلك الإنسان قلوب سكانها. تلك سياسة ناجحة وناجعة نُهجتها فيها.

...

استفاق الحاج إبراهيم في عز الليل على جهش بنته الصغيرة النائمة في زاوية قريبة من سريره. هي الأخرى شاكسها حلم وخلط صوتها مع صوته:
. لالة الصافية، قومي للبت. إنها منزعجة في نومها. طبطي عليها حتى تستكين.

قامت لالة الصافية بفطرتها لحضن بنتها، بينما بقي الحاج إبراهيم فاتحاً عينيه أمام حاجز أبيض من الثوب منسدل من أعلى. تمثل الحوار كما تمثل الشخص. استغفر الله مائة مرة. لجأ للعاذ بالله من شياطين الإنس والجن. تحوّل السهاد إلى صحو بائن وتفكير واضح. راوده سؤال، لا يدري من أين حضر في ذهنه:

. كيف تسكن الأرواح فؤاد الإنسان؟

قرعت هواجسه مطرقات أخرى: الزلزلة. العلج. الغيرة. السخط...

كان لجوء الحاج إبراهيم إلى النهوض والاستحمام استعدادا لصلاة الفجر
خير حل يقيه وسوسة ووشوشة هذا الثلث الغريب من الليل. لكنه يعلم بأن
فضوله التجاري سيجره للبحث والحوار حول الموضوع.



بعد صلاة العصر ليوم الأربعاء من الأسبوع الموالي، كانت جلسة الحاج إبراهيم بديكان المعلم عبدالعزيز الحجام. وهو المفضل عند الحاج إبراهيم في حلقة شعره وتوضيب لحيته وشاربيه. خصوصا وأن المعلم عبدالعزيز يتصف بأنافته ونظامه. حتى دكانه، فهو تحفة فنية لمرحلة نهاية الأربعينيات من القرن العشرين. فألات الملحون معلقة بشكل مزخرف في جدار خاص بها. أما الجدار الثاني على الجهة اليمنى من دخولك إلى الدكان، فقد ملأه بصورة للسلطان محمد بن يوسف وبلوحة خشبية هي ذكره من حفظ القرآن الكريم بكتاب المزارة بسيدي راشد عند الفقيه (السلاسي). وحيث تحصيل القرآن وحفظه شرف أولي لكل شخصية مسلم، ومفخرة لأمه وأبيه وذويه، فقد كان رأسمال المعلم عبدالعزيز هو هذه الذكرى التي تكون خيطا رابطا للزمن كل حين. كلما سنحت الفرصة للحكي واستحضر الطفولة وتاريخ المدينة وعلمائها.

أنيق في كل شيء، بلباس رومي وشاربين كثين أسودين سواد شعره اللامع والذي يزداد لمعانا مع المواد الذهنية التي يتوفر عليها كحلاق في دكانه. تجده مداوما لحظات الفراغ على تنظيف كل شيء داخل الدكان أو خارجه بكنس رصيفه ورشه بالماء، وسقي غرسه. حتى أيام الشتاء، يقوم بذلك. وهي عملية

تدخل في حكي الجلسات ومزاحها أو (التقشاب) بلغة البلدة كثقافة تفرغ وترويح على النفس بين الناس، في استغراب من رش الرصيف وقطرات الشتاء تسقط فوقه.

أما المرأة، فقد اعتنى بها وبدأ بتزيينها بما جادت به شجيرة (اللواية) التي وضعها في أصيص خابية على الجهة اليسرى من مدخل الدكان.

. كاین شی ملحون هذه الجمعة الآتية، آ الحاج إبراهيم؟

. الله یرحمنا آ المعلم. تفریق الجنازة سيكون في اليوم الثالث بعد الوفاة. أنت أعلم بهذا. فقط، توقظ البلية بالسؤال.

. الله یرحم الجميع. والله یرحم لالة زهور مسكينة. امرأة شريفة وربانية. بنت الدار الكبيرة. الله یصبر ذویها وأهلها.

. آمین آ سي عبدالعزيز.

. أين وصل مولاي الیزید؟ ما حکیت لنا سيرته منذ مدة.

. منذ فترة وأنا منهمك في قراءة كتاب أعطاني إياه الحاج العربي إمام المسجد الكبير. في الحقيقة، دوّخني هذا الكتاب، وبثّ خائفا من كل زيادة أو نقصان، وحتى من الحكي. لكن حلّما راودني أمس واستحضر روح مولاي

اليزيد، شجّعني على الاستمرار في البحث والحكي. الله يستر والسلام.
أصبحت الأرواح ساكنة في دواخلنا.

. وبالخصوص أرواح السلاطين، صعبة جدا. يعلق السيد عبدالعزيز مازحا.

أخذ تنهيدة عميقة واستغفر معها الله. رفع عينيه إلى جهة آلات الملحنون في
نظرة حنين إلى قصيدة تطرب روحه وتؤنس وجدانه. لكن سؤال سي عبد
العزیز الجديد أعاده ليمّ التاريخ من جديد:

. ما علاقة مولاي اليزيد بالشرفاء العلميين؟

. الشكوى بك لله آ المعلم. دعني أرتاح. أنت عارف إرهاب اليوم. جنازة لالة
زهور وذبيحة الوزيرة. سؤالك يحتاج إلى عرض السينما على جدار أو إزار
كما شاهدناه بساحة خبير. الأحداث معقدة جدا. وما سأحكيه لك، لا
تخبر به أحدا أو تقل هذا ما قاله الحاج إبراهيم. أعلم أنكم أنتم الحجابة
كثيرو الكلام فوق رؤوس المحلّقين. لا توقفكم سوى رواية (طاحت الصومعة
علّقوا الحجام).

. عليك الأمان آ الحاج إبراهيم. يطمئن المعلم عبدالعزيز وضحكته تملأ زوايا
وأركان الدكان.

• طاحت الصومعة علّقوا الحجام مثل ما زالت تتداوله الألسنة للدلالة على إصاق عمل سيء لشخص بريء:

. نادِ على براد شاي قبل الحكوي.

. هو الأول آ الحاج إبراهيم.

لم يكد البراد يحضر من المقهى القريب حتى كان الحاج إبراهيم مسترسلا في حكيه الجديد، رغم أنه احتار في البداية من أين يبدأ. هل من علاقة مدينة مولاي إدريس زهون بالأمر ثم السلطان؟ أم من علاقة مولاي اليزيد بجبل العلم وضريح مولاي عبدالسلام بن مشيش، جد الحاج إبراهيم ووليه؟ أم من صراعات مولاي اليزيد مع أبيه السلطان محمد بن عبدالله؟ أو مع إخوته حول الإمارة والخلافة والسلطنة؟ أسئلة محيرة ارتبطت بتعدد المعلومات وجديدها الذي قرأه طبعاً.

. حاجة بحاجة آ الحاج إبراهيم.

. الله يعطيك حجة من عنده آ السي عبدالعزيز ونتوحشوك معها.

. من فمك لله العلي القدير آ سي الحاج. يا رب آمين: يحكى فيما يرويه الناصري عن صاحب البستان، والعهد على الإمام، أن السلطان مولاي اليزيد جاء من ديار المشرق، فجعل عياله وأصحابه في عهدته أخته حبيبة بفاس، وذهب هو مستحروماً بضريح سيدي عبدالسلام بن مشيش. كان

* - هو طلب لجوء أو حماية أو شفاعة تتوسط مع طرف آخر وبالخصوص إذا كان سلطة لكي يحقق عفواً أو ضمناً لنفسه وأمانه... تتم في حرمة مكان يمتلك قداسة ما. ومنذ القديم مثلاً كان الفرد يستحرم عند شخص له نفوذ أو قيمة اجتماعية أو سياسية...

ذلك سنة 1203هـ. لكن عياله كانت إقامتهم بعد ذلك مع أم السلطان محمد بدل الأميرة لالة حبيبة بدار الدبيغ بفاس. في سنة 1204هـ، في شهر رجب منها، توفي السلطان محمد بن عبد الله.

. اسمح لي آ الحاج إبراهيم، لماذا ذهب إلى جبل العلم؟

. علمي علمك آ المعلم عبد العزيز. كثرة السؤال توقظ الغول من النوم. اسمع واسكت. إنما الذي أعلمه، أنها ليست المرة الأولى التي يستحرم فيها الأمير مولاي اليزيد بمقام أو ضريح. فلقد سبق أن استحرم بضريح مولاي إدريس، هنا بزرهون. ثم استحرم بضريح أبي العباس السبتي بمراكش. كما استحرم بمقام الزاوية الدلائية بآيت إسحاق. وكل لجوء إلى هذه الأماكن المقدرة له سبب خاص. مشاكل الملوك كبيرة علينا آ سي عبد العزيز..

. اشرب أتاي قبل ما يبرد آ الحاج إبراهيم. أذان المغرب ما زال بعيدا، وأنا ما تزال عندي أسئلة. ماذا نُقدِّم؟ حلاقتك أم الأسئلة؟

. دائما أقول لك لا تسألني حينما أكون تحت رحمة الموسيقى بين يديك. أنت الذي تحكي حينها. اتفقنا؟ أو إنك تريد أن تعلق الحجام بدل الصومعة؟

. كلامك هو الأول آ الحاج إبراهيم. قل لي: السلطان محمد بن عبد الله، كم كان عنده من ابن؟

.مم... كاين آ سيدي يلا ما خفت نكذب: مولاي علي . مولاي المامون .
مولاي هشام . مولاي عبدالسلام . مولاي عبدالرحمن . وكاين: مولاي اليزيد،
مولاي مسلمة، مولاي الحسن، مولاي عمر، مولاي عبدالواحد، مولاي
عبدالله، ومولاي إبراهيم.

. هؤلاء اثنا عشر تبارك الله. أراك ذكرت الجميع أظن؟

. ما قرأته في الكتاب. شغلي الشاغل هذه الأيام.

. أصبحت تعيش مع الأرواح آ الحاج إبراهيم.

. الله يسلط عليك عفاريت سيدنا سليمان. قل آمين آ سي عبدالعزيز...
لنترك حكاية التاريخ الآن. إذا أردت التاريخ اقرأه في كتبه واسكت. لا تسأل.
اتفقنا؟



. تبارك الله على الشريف ولد المقام.

هكذا يحيي المعلم محمد الخراز الحاج إبراهيم.

. أنت الوحيد الذي يتجرأ على هذه الطريقة والسخرية. يا لطيف من الشيطان الذي يتملكك.

يرد عليه الحاج إبراهيم وهو يتخذ مقعده فوق كرسي خشبي صغير مدّه له المعلم محمد الخراز في ممر الشارع الذي يؤدي إلى المدينة من باب السوق البراني من الجهة الغربية الآتية من باب الزهر. وحيث تتخذ الحرف اصطفافها في بداية الشارع بين الحدادين والخرازين وبعض الحرف المتفرقة بجانب مدخل الفندق الجديد الذي به مأوى البهائم في دوره الأرضي ومرافق وغرف للسكن في طبقته العلوية، يكون دكان المعلم الخراز برج مراقبة متوزعة على جل الحركة والنشاط المتواجدين فيه .

يختار الحاج إبراهيم من أيام الأسبوع ما يناسب من الأوقات لزيارة صديق طفولته ورفيق مجموعة الملحون، وحافظ أسراره وشجونه. ذلك أن علاقتهما

تُكسر مجموعة من الثوابت. يشتركان في تناول مادة الصامت المشكلة من مادة الكيف. جربًا فيما مضى تدخين الكيف واكتشفا معا سيجارة فرانسيس وأشياء أخرى طواها الزمن والنسيان.

هكذا يجعلان حدودا للحكي حتى لا ينفلت اللسان.

. أدع لنا آ الشريف ولد النبي، راه عندك البركة ديال سيدي عبدالسلام بن مشيش، الله ينقنا ببركته، وديال السلطان مولاي الزيد الله يرحمه، صاحبك في الأمسيات والحجايات.

. آ المعلم محمد، ارخف عليّ من التقشاب والمزاح ديالك. أنا جيت نجلس هنا لكي أرتاح من هموم الدنيا. كلمة شريف مسؤولية وعبء ثقيل. لازمك تحرص عليها وتصبر لدورها. الآن، أنا الحاج إبراهيم الذي يجلس بجانبك. فقط. أو قل إبراهيم، كافية. حتى الحاج مسؤولية أخرى. إبراهيم والسلام. أو السي إبراهيم إذا أردت أن تعطينا قيمة وتكف من سخريتك.

. من أين نبدأ الحديث آ سي إبراهيم؟ أولاً، واحد كأس قهوة بالعشوب. بلدي. ينفعك في الهضم، وفي مقام زوجتين للمعاشرة. الله يكون في عونك. أنا زوجة واحدة وقهرتني. كلما دخلت للمنزل تنقض عليّ بشهوتهما.

. هي التي تعرف لك طريق الحد من شيطنتك و(تحرمياتك). دقة المطرقة عندك بالمعاني والنقايم، ودقتها ب(المأخ مأخ)... ههه. زوينة هذه (مأخ مأخ). تليق في قصيدة ملحون.

. إذا نظمناها يحوّيوننا البلاد آ سي إبراهيم. ولو أنك أنت شريف ما يلمسوك بشعرة. أنا الذي سألام. أظن إذا اقترحناها على المعلم بنسليمان تكون واجدة في ليلتها. اعطه فقط كويقة نوبي وبرد شاي منعنع وتفرج.

. أنت قادر على كل شيء آ (مطرّق لمسامر). مَنْ نظم وغنى قصيدة (بَطْ بَطْ)؟ أنت. ولكن أفضل. لقد ولّى زمانها. أوووووف.

. ما بك آ السي إبراهيم ؟

. أشعر بالتعب. بعض الأحيان، أحتاج إلى خلود راحة كاملة. أكون فيها إبراهيم فقط.

. الموت هي التي فيها الراحة. أما أنت فما مثلك أحد. مرة كن إبراهيم. ومرة كن الحاج. وأخرى الشريف. ومرة كن الحسين السلاوي. ههه...

. لمن تلك البلغة التي ترقع؟

. ديال المعلم مصطفى الفران. زوجته ترميها في الزنقة مقطعة وممزقة، وهو يأتي بها ليرتقها. كل واحد وغرائبه.

. وأنت، ما هي غرائبك آ المعلم محمد؟

ينشده المعلم الخراز قصيدة من وحي اللحظة:

إيبيه.

غرايبي قصة الناس.

حكاييا جرحها الباس

غرايبي لمة تجمع لحباب

و لمة تجمع لصحاب

لكن الريح اللي تسوط من هذه الباب

تشقق الشنايف

و تيبس الشوق وتهرس الكاس

شكون فينا اللي ما ضره وجع الراس؟

ياك الفولة في السبيب مصيدة

شكون فينا اللي بقى يقول

كل شيء لا باس؟

سيرة مدينة ونسيج حياة

كل شيء لا بأس

جناح الطير تغرّب بين الجبال

وأنا جناحي بين حيوط وحيطان

طرّقوا عليه

زادوا المسامر على الاغلال

ياك ما كاين باس

ياك ما كاين باس؟

هذا خاطري

سؤلوا جاري على خاطرو

ما يكون باس

ما يكون باس

. تبارك الله على المعلم محمد. قصيدة من قاع البئر. أو من قاع كأس القهوة؟

يمكن شي نوييني فيها؟

. الغمام الذي يأتي آ سي إبراهيم، يحمل معه أكثر من الكيف ودوخته. واش
نعمرُ لك شي سبسي؟

. الله يجيب العفو آ المعلم. الله يعاونك. سأذهب لأصلي المغرب في جامع
مولاي اليزيد. سأمر على تازكة من جهة باب الزهر.

. ستصلي عند صاحبك. لاحظت أنك مسكون به. واش جِنِّيته حاضرة
معك؟

. الدماغ راه عامر آ المعلم محمد. اهتم بشغلك والله يعاونك. ولا تنس. ردّ
الوهلة للسانك. راه الريح يشقق الشنايف ويشرج الجوف. السلام عليكم.

بقي المعلم محمد مع استدارة بلغة المعلم مصطفى الفران. يسرجها من جوانبها،
عالقا في جملة الحاج إبراهيم، مرددا لها مع نفسه، في حوار مسموع مع الذات،
يظنه المارّ أنه يكلم أحدا، بينما هو لا يكلم إلا نفسه. اعتاد الجل على هذه
الصورة. وظن البعض على أنها هتر. حتى إن مقربين من أصحابه يخاطبونه:

. مالك تهتر؟

قد يجيب بعضهم:

. أنا أهتر على أيامكم. قبلتم الكفر وسكنكم الخوف. لجامه طوق لكم
وكمامة.

و من يكون قادرا في الرد على لسانه اللاذع، يتجرأ بالسؤال:

. أنت خراز أو برادعي؟ ثم ينتظر مستملح الكلام في مسرح حياة يومي يختبر فيه اللسان أظافره لكي يخرق ثوب النفس الشفاف فيزيح عنها اختناقها داخل دواء الضحك والمرح والسخرية.

و بدأ المعلم محمد دقاته المتتممة لتسوية بلغة المعلم مصطفى. تأتيه من بعيد دقات بعض الحدادة في الرصيف المقابل، في إيقاع ارتبط بعمل متأخر، ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب. زواج الدقات الثلاثية التي يطرق بها الحدادة صفيحة بهيمة بالمطرقة والسندان والنار المتقدة، مع دقاته المتسارعة بمطرقته على البلغة.

بحث داخل ذلك الطَّرْق والطنن عن دندنة يسافر بها خارج الزمن وبعيدا عن المكان، داخل وجدانه مع الكلمات التي تجاورت إيقاعا وطربا في ذهنه. سلاح ضد الرتابة والتعب والفراغ والمجهول الذي يقف غولا وظلا أمام الذات:

لمية يا لمة

تجمع الاصحاب

و تخاف على القلب من الغمّة

سيرة مدينة ونسيج حياة

تشعل له قنديل في ذيك الظلمة

لمة يا لمة

أنا نسرج الاقدام

نثبت لها السير في الزحمة

توصل لباب الطير

و الطير يلا بغى يسكن في السما

يهز عينيه من تراب ناشف

و يستقي حلمه من عين غمامه

حاملة بالما

لمة يا لمة

أنا ذاك الطير

بدقة الخير

يصنع الحكمة

آه يا جمعة

سيرة مدينة ونسيج حياة

إيه يا إما

ضاقت بي هذه الغمة.



حينما اختار الحاج إبراهيم بناء منتزهه وسقيفته قبالة غروب الشمس فوق ربوة ومنحدر باب القصبة الغربي، فتح لحظات الشجن وطرب الروح. لكن ذلك الطرب الحسي الملون بينفسجية أزهار ناعمة ومسكرة للبصر قد لا يكون كافياً. ذلك أن لحظات الخلود للذات ومناجاة الروح المسافرة يومياً، عروجا إلى السماء، تحتاج منه لكي يجعل الخلوة التعبدية كل حين. شأنه شأن مسلمي مجتمعه.

التحق بمسجد (مولاي اليزيد) الذي لم يدم مُلك من بناه سوى سنتين، مات خلالها ونهايتها برصاصة طائشة وغادرة نقلته من انتصار في معركة إلى احتضار ووفاة ودفن في مقابر مراكش وفضائها. صراع الأمراء حول الملك، وحركات التطوع للقبائل وتجديد ولائها بما يكون متماشيا مع موازين القوى والمصالح.

ازداد نبض الحاج إبراهيم وتصيب خداهُ بعرق خفيف، فاختلط التنفس مع التفكير، وتسارعت الأفكار المهملة في الذهن ارتيابا وتساؤلا واستغرابا وتخिला.

طواع فورة الدم في الشرايين واستمر في التساؤل بين جدران ممر حي تازكة، قبل أن يصل إلى مفترق الأزقة الذي يسمى بحركيته التجارية ودكاكينه الصغيرة (الحويطات)، تصغيرا للحنوت والحوانيت.

. لماذا كان مولاي اليزيد بذلك العنفوان وهو أمير، وتلك الرغبة في السلطة المتسرعة والغاضبة، وذلك الشره للمال والنفوذ؟ ما الذي يميزه عن باقي إخوته حتى يصير إلى جحود ولاءٍ لأبيه ومملكه؟ إلى درجة أن يتبرأ منه أبوه بمنشير يعلقها في عواصم العالم الإسلامي وأماكن الاستحرام والإحرام؟ غريب هذا الأمر. أيكون صراعا مرتبطا بأصل أمه العلجة؟ وهل يمكن أن يكون صراعا بين نسوة وزوجات السلطان يترجمه الأبناء الإثنا عشر في السلطة والمال والولاء للملك من دونه؟ أم هي "تبوريدة" الأمراء يحق لهم أن يعيشوها بنشوتهم ونزوتهم؟

قطب حاجبيه، ونفث نفسا محموما وهو يمر بين الحوانيت المؤدية إلى الزنقة الصاعدة إلى جامع مولاي اليزيد، مكتفيا بتقديم السلام العابر كتحية دون مكالمة الناس الذين يمر بجانبهم وأمامهم.

أسرع في الدخول إلى المسجد وتحديد الضوء والبحث عن خلوة للروح حتى يستكين بركانها المشتعل بحطب العقل والنفس والسؤال والاستغراب. جلس في الركن الأيمن متكئا على سارية ومدثرا رأسه بقيي جلباييه. وذهب في الاستغفار وطلب التوبة والحرمة. وحيث لا نوافل قبل أذان صلاة المغرب،

كانت المناجاة الفردية سفرا جديدا للروح في دواخلها. لكن هذا الانتقال كان صعبا حتى يحقق له الخشوع والتفرغ للمناجاة.

رائحة الجير الطرية التي حذقت بها تطهيرا جوانب ومداخل وأعمدة المسجد البيضاء، وتلك الحصر التي اختلطت روائحها المتراكمة مع أشعة يوم مشمس، استفادت وانتعشت بما قبل طرحها من جديد عبر مصاف باحة المسجد وأركانها، قد تكون متزاحمة مع هذه الأفكار التي تعبر ذهن الحاج إبراهيم، ملتحفة بألسنة الاستفهام النارية. قد تركبه شخصية أخرى وهو في شبه هذيان انعزالي يردد أصوات شخصياته المفترضة بدواخله. حتى الحواس ربما تحالفت مع الذاكرة ومع الذهن لكي يخلق الجميع هذا العالم الافتراضي الذي تخيله وجاراه الحاج إبراهيم.

استطاع أن يذوّب للحظات شخصية مولاي اليزيد السياسية، وبقي مقام البناية حاضرا باسمه وبركة التعبد بها. كما استطاع التخلص بعد ذلك من أقواس العقل وتساؤلاتها لكي يتشكل ذهنه مع أقواس البناية وهدهوها. واستعاد سكينه النفس وطمانينة الروح حتى اخترق الأذان مسمعيه حاملا معه خطوات الآتين لصلاة المغرب.

قد تجمع الصلاة في المسجد بعض الشرفاء العلميين. وهنا إذا ما جمعتهم، تم تبادل التراحم، وكان حظ المرحوم مولاي اليزيد منه وافرا كذلك، ما دام بناية وتاريخا وبركة سياسية واقتصادية.

حينما خطا الحاج إبراهيم جاعلا قدميه في زوجي بلغته خارج عتبة المسجد، حمد الله واستغفر وكبر وتعوذ. اتخذ طريقه بين الدروب المنحدرة مروراً بباب منزل القايد عمر، وسقاية الببيان المزخرفة، ثم باب مقام ضريح المولى إدريس، فحى الحفرة، حتى خرج من باب الرشاش مروراً على بوابتي الحمامين حيث توقف عند العامل في بيت النار الخاص بالحمام الجديد والذي سلمه طنجية كان قد بعثها له مع مستخدم المعلم الجزار السي علي، الذي يعتبر الحاج إبراهيم أحد زبائنه.

وجبة عشاء هذا المساء، استعد لها أفراد العائلة طلباً وفرحاً. وشعرت معه نسوحتها بنشوة كبيرة وراحة نسبية تُقتطع من أعمال المنزل لحظة اشتها لوجبة أكل خارجية. هي عادة زهونية بامتياز. لكنها منتشرة كذلك في باقي المدن المغربية كفاس ومكناس وسلا ومراكش...

. نُطِيبُ خاطر لالة الياقوت. المرحومة لالة زهور عزيزة عليها. الله يرحمها.

هكذا همس في أذن زوجته الثانية لالة الصافية، والتي كانت ليلتها في المواعدة والخلوة الشرعية طبعاً. تزينت لها بخلاخلها واستحمامها وتعطرها. وجعلت شدة الرأس بوشاح مزين وتمدلاً وراء قفاها على منحدر بين كتفها تدثر به شعرها الذي تركته منسدلاً.

لالة الصافية، طويلة القامة، بياض ناصع ووجه لامع. عيناها، كما يحلو للحاج إبراهيم أن يتغزلّ بهما بمقامات الملحون : الزين البلاّ.

بينما جمال لالة الياقوت فطري وعاقد القسمات التي تحفظ للوجه واليدين
نضارة حسن كمرأة ظاهرة دون تجاعيد.

لملمس فطري يحلو للحاج إبراهيم أن يبدأ به كلام عشقه لها في كل مسامرة:
. اللحم تحاوى وأصبح بقلب واحد نسكن فيه أنا وأنتِ يا الياقوت الصافي.
أنت درة في محارة تسكنين في صدري.

...

حينما دخل إلى الرياض بباب القصة، كانت صينية الشاي معدة، وسبولة
المقراج خارجة وعقله طائر بسخونة الماء . بتعبير أهل زرهون. كأنه ينتظر
احتفالية الإعداد لبراد الشاي ووليمة الطنجية. كل من في المنزل استعد لهذه
الشهوية كما يحلو للحاج إبراهيم أن يؤكد عليها.

. الصينية والبئر، والماء جاري، لالة لالة !

هكذا يتغنى مزهوا وخالقا جو الفرح والمرح مع الجميع. مقام الطرب الذي
يخترق به مداعبته لزوجتيه وأولاده. ورغم ذلك يبقى في مجاورته مقام النظرة
الأمرة والمخضعة. الحاج إبراهيم ظريف. لكنه قاسٍ وصلب، كما وصفته
بذلك شوافة في أحد مواسم المدينة، في جلسة باب دكان صاحبه السي
عبدالغفور.

فقد اختلط الكلام بين مزاح في البيع والشراء واستباق فضولي لكشف شخصية الآخر، وغرائبية اللحظة التي تعيش احتفالات متنوعة وعجبية. توجهت حينها الشوافة لالة عيشة بعينها المكحلتين وابتسامتها الستينية التي لا تفارقها في هذه المرحلة من العمر، وقسماتها التي كستها تجاعيد رقيقة وحادة، ربما فعل تدخين الكيف هو الذي شحّب نضارتها، وغرست سهام عينيها في مخاطبتها للحاج إبراهيم :

. الشريف مول المقامات. الخير بين يديك والوجود يخلّي الرزق كرامات. قلب حنين وقاسح، مثل الماء يفلق الحجر ويسقي باللمع النجمات.

يضحك السي غفور ويغتمط لما سمع. يتكرم على الشوافة ويعطيها ثوبا أخضر مجانا، يناسب ويمائل لون لبستها المزينة واللامعة.

الحاج إبراهيم كذلك. يجعل يده في جيبه ويخرج بركة من المال ويطلب السلامة والخير.

كانت الملاحظة في الصميم: حنين وقاسح. داخل جو المرح يصدر صوته الناهي والأمر. ثم يستمر بعده في مرحه.

تعودت لالة الياقوت ولالة الصافية بعدها على طبعه. وكان عاملا يخلق التوازن في النظرات والابتسامات ودرجات الكلام والضحكات والحوار بين أفراد الأسرة. وخصوصا بين الزوجتين اللتين كان لا بد أن تُخلق مناوشات بين

ضرتين في غيرة أو حسد أو تنافس أو تفاخر. عالم النساء الذي يجعل الحاج إبراهيم يهجم عليه لإخماد نار ذكائه وتدابير سياسته بما يحفظه من سيدي عبدالرحمن المجدوب:

. سوق النساء سوق مطيار...

حتى ابنه إدريس الذي أصبح رجلا مستقلا في حياته الجديدة بمنزله بدار الجديدة، اعتاد على طبع أبيه وورثه منه. ولو أنه لا يتقنه بعفويته مع أمه وأخته، لكنه يصدر منه في العلاقات بين الناس، ويسمع تعليقاتهم الذي يطابق بين الأب والابن.

مولاي إدريس بن الحاج إبراهيم. يعيش مفتخرا باسمه. لا يتكلم كثيرا مثل أبيه. لكن نظرته يغمرها ذلك الافتخار بالنفس وتلك الشجرة التي يستحضرها داخل عمران المدينة وبين طبقات المجتمع. كما تلك الصحيفة التي خطّ فيها أبوه الحاج إبراهيم في يوم ما انحداره السلالي مكبرا اسم إدريس فيه واسم جد إدريس، الحاج أحمد، ثم اسم مولاي عبدالسلام بن مشيش، حتى علي كرم الله وجهه وفاطمة. حينما ينظر إلى شجرة سامقة في رياض أبيه، أو في شجرة توت متفرعة، ينتشي بنفس عميق وشعور عبق بظلال التاريخ ونعومة حرير السماء.

اختار إدريس التجارة مع أبيه. لكن ذلك كان في دكان مستقل بالرشاش، الممر التجاري بين حي باب القصبية ومدخل السوق البراني وحي الحفرة.

شارع يصل زهون السفلي بزهون العلوي. واجهة دكاكين منفتحة أبوابها على أفق سهل بورياح وجنان الساحل أسفل السور والذي يقف جدارا مانعا عمّا انحدر من الحافة.

لقد راكم الحاج إبراهيم علاقات وتجارب، ونوع تجارته وتحكم فيها. وها هو ابنه الآن يبيع في دكانه سلعا مختلفة. كما يضع عينات لأخرى. كأن الدكان منبر إعلامي وإشهاري لدكان أبيه. سمن مرقد، وزيتون مشرمل، وتين ميس في صندوق خشبي أو معلق في شريط. زيت زيتون وعسل حر... إلى جانب ذلك تجد في جناح الدكان أطراف ثوب وجلايب منسوجة بالصوف في أماكن الدرازة، وصوف محبلة أو مسبوكة رقيقة... وفي باب الدكان كرسي جلوسه الذي يخرج لمشاهدة سهل بورياح وعراسي الساحل المنحدرة حتى وادي خومان. كما يخرج كذلك ليقعده للعب (الضامة) مع خيرة البارعين فيها. تراهم في القيلولة أو في وقت صلاة العصر محتبئين من أشعة الشمس التي تغرب غربا أو تسير إلى غروب، تحت السور الطويل الذي يصل القوسين، قوس باب الرشاش وقوس عين الرجال، يمتد حتى يصل إلى باب الحجر حيث منفذ الخروج من المدينة. ولو أن بعض الدكاكين قد انبلجت في حضنه هي وأبواب الفندق القديم والفندق الجديد.



قوس دائري ذي مفصلين يحجبان عموديه اللذين يدعمان باب القصبه وقوسه الواسع. مقرنصات صغيرة في خط أفقي أعلى القوس. وكعادة القلاع والمدن المسيجة بأسوار وأبواب، تتخذ أقفال الرتاج درعا خشبيا يغلقها كقفل ويقوي جداريتها المنبوعة ضد كل محاولة فتح بالقوة. تداوير تخلق الأمان لساكني الحي ونسائه وأطفاله على الخصوص.

غرفتان صغيرتان للعسس أو لوضع لوازم تديرية لإصلاح ما، تؤثتان معمار كل قوس في الغالب. فتحتان عموديتان صغيرتان تساعدان على تبصر كل طارق أو مائر أمام باب القصبه. مدخل بطول ثلاثة أمتار ونصف يفصل بين القوس الأول والثاني، فيما الثلاثة أمتار تكفي وتتسع لدخول العريض من الأشياء.

يتأمل الحاج إبراهيم هذه الهندسة القائمة، يستشعر عشقه لها ولجماليتها. قد يقارنها بعض المرات بباقي أقواس المدينة أو بغيرها مما استحضرتة الذاكرة من زيارته أو من رحلة حجه، وتلك المدن التي عبرها وتعرف على عمرانها وبشرها. على الأقل استطاع أن يجعل لمداخل غرفه العريضة داخل الرياض أقواس بجمالية مبهجة تعشقها عين الناظر. مقرنصات مزينة بعقودها، وأخرى

مركبة وشبيهة بخلايا النحل، ولا تلك الدلائل النازلة في شكل مثنى تسهل وتزين بناء القنب كما الأقواس.

يوم بنى رياضه، شارك زوجته لالة الياقوت في مشاورات التصميم والتزيين. كانت اقتراحاته حوارا شيقا أغنى ثقافته وزوجته بالفن المعماري وزادها ابتهاجا بكون زوجها خبير في هذا الميدان كذلك. لذلك انفتحت أساريرها وهي تجالسه بصينية الشاي و(غريّة)، مستمعة إلى ما يعرضه عليها من اقتراحات.

بين الرقش العربي أو الأرابيسك، والتزيين بالخط العربي، كانت لالة الياقوت تحب أن تكون الكتابة بالخط على أبواب الغرف والأقواس دون دواخلها. هي البركة التي تطلبها لهناء أسرتها وسعادتها وحمايتها من كل الشرور والآثام. هو ذلك الحدس الذي يجعل الاستحياء من جعل كلام الله بداخل الغرف التي قد تحوي خلوة اللبس والعشق وما تلاهما حالالا.

ما يعجبه في باب القصة، وما عبّر عنه مرارا، هو بساطة تركيبها، وتعبيرها عن نخوة الطبيعة وشجاعة الإقدام. يسأله أحدهم عن مضمون كل هذا، وقد يجيب:

. قوس ثنائي المفصل، بتتويج مغطى، عقد بمفتاح وخصرين ثابتين، ورجلين قائمين، مدخل مداري في شكل حدوة حصان، كل ذلك دال على شموخ القوس والباب. حينما ترى هذه الرحابة في المدخل تتبين لك الشجاعة

والأمان الحاضرين عند ساكنتها. رحم الله من بناها. حينما أُدْخِلُ البغل أو الحصان، أشعر بنخوة باب القصبه وبهاثها. والبساطة للشجعان طبعاً.

باب القصبه، وقفة أخرى شامخة بافتخارها. تنتصب على أعلى الربوة في شُكِّ عريض وأبواب متينة، تلك التي حينما تغلّق تجعلها قلعة مستقلة بجوار مدينة نائمة. كأن باب القصبه هو البرج الذي يحمي أحياء المدينة من جهة جبل الدكانة وشعاب المنحدرات الآتية من الجهة الشمالية الغربية.

حينما يدخل الفرد أو الجماعة من جهة عين الرجال، فيخترق القوس والباب الأول للمدينة ثم يرفع عينيه، ها هو أمام طريق مترب وصخري في نفس الآن، صاعد كحائط مائل يقف على حدّ أفقه ونظرته باب القصبه المتجذر في التاريخ. هل أكملت البناية المعلمة القرنين من الزمن؟ يتساءل الحاج إبراهيم كل مرة. كلما حاور أطلالها وسقايتها التي بجانبها. ويغرق في السؤال وقوس الاستفهام من جديد. تسمية السقاية هي الغالبة في النطق على لسان الزراهنة، ناس الزاوية كما يلقبهم سكان الجبل والمحيط من الأحياء. لكن نساء حيّه من العلميات، تستعملن لفظاً قريباً ومندمجاً ومدغماً معه. إنه لفظ الصقالة والسبالة. مثلما تلك التسمية التي سمعها ببلاد مصر: الحنفيه. لا يدري لماذا سميت بتلك التسمية.

ينتفض على أسئلته، فيقفز عليها عبوراً وهو متجهٌ إلى رياضه بجانب قصبه البلغيثيين مهد تسمية باب القصبه. وهم الذين أتوا هجرة وإقامة بها في عهد

السلطان مولاي عبدالرحمن، بحسب ما قرأه مؤخرا في كتاب (الاستقصا) التاريخي لصاحبه الناصري. يخلخل ثوابت حكيه حينما يقارن بين فترة وجود مولاي اليزيد (1750.1792) من فترة حكم مولاي عبدالرحمن (1789.1859). يبدو له مجيء العلميين أسبق من البلغيشيين.



الحاج إبراهيم، حاج الأمانات. هكذا سرى اللقب بين نفسيات وقلوبٍ
نمّشها شبح مركب ومتحالف مع القدر ومع التاريخ.

صندوق سي العوفي، الغائب الأكبر مع أسراره ومفاتيح أخباره، شاهد على
الوفاء. في كل مرة، يُجالس الحاج إبراهيم معارفه وبني عمومته وأخواله. هي
عائلات هجرها الزمن إلى بلاد وجبل زرهون. أخذ المستعمر أرضها
الفلاحية، وحوّلها إلى المعتمّرين الذين نصبوا أعينهم على سهل الغرب المعروف
بخصوبة تربته. عائلات علّمها الزمن الصمت والجلوس أمام أشعة الشمس
الوردية الفاتحة والآيلة إلى الغروب. أشعة لفحت صفحات وجوههم، بينما
تعمّدوا، هم، احتراق احتراقها. لا يدرون أي احتراق هو أقوى وأقسى،
احتراق الداخل أم احتراق الخارج؟ ولا أي غروب هو حقيقي؟ أ هو غروب
الشمس أم غروب الروح التي تحن إلى خلاصها من القفص الصدري المجهد
الذي رقق أصوات رجالها، وغلّظ صيحات نساءها؟

لكن الشمس التي تغيب، تُعاود الشروق بوهج جديد. أما نفسية الغرباوي،
فقد احترقت مع الأفق الذي نمّشها بذكريات وحنين، وكسّر شوكتها بغضب
أراضيه وأمه الخضراء.

. أترى سي العوفي قد ذهب لينام في حضنها الأخضر ويرضع من صدرها فيرتوي ويخلد في أعماقها، خلاصا ونهاية كخلاص الحيتان على شواطئ مهجورة؟

لم تزد مساءلة الحاج إبراهيم الأسر الغرباوية إلا شقاء وعي بمصائر خلق. لم تزده إلا ألما وحسرة جارحة بما تسببه مكائد فرنسيس التي تسمى سياسة وحماية. ها هي مدينة مولاي إدريس زرهون تؤوي ضحايا القدر والتاريخ وتضم جسدا مجروحا عبر خريطة بلاد مغربية ممتدة شمالا وجنوبا وشرقا وغربا. من عصفت به السياسات، ومن عصفت به المجاعات... لكن بالمقابل، هناك من أنعمت عليه بين هذه وتلك. وهناك من استقرت به منذ قرون وكان لبركة الضريح أو الانتساب لمقامه ولمقام الشرفاء، غطاء رحمة من كل محنة:

. أنا الحاج إبراهيم مثلا، ألم أستفد من بركة السلاطين وظل شجرة الأنساب وسيدي مولاي عبدالسلام بن مشيش في الجود والقدر والتاريخ؟

. الله يهديك آ الحاج إبراهيم. ما يلزمك ذكر هذا ولا القول به.

تنبهه زوجته لالة الياقوت، داعية له لكي يقوم لصلاة النافلة وحمد الله وشكره وطلب ستره.

. آ لالة الياقوت. راني في امتحان صعب. تعلمين أن الذي يطل على الأمانة يطل على جهنم. والنبي العدنان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال : لا إيمان لمن لا أمانة له، ولادين لمن لا عهد له. الناس مرعوبة في هذا الزمان. والأمانات التي تركوها عندي هي أرواحهم التي خافوا عليها. تركوها ومشوا. هل ماتوا؟ أم عاشوا؟ هل شكّوا في بقائها أم ان الحاج إبراهيم خانها؟ تحرقني هذه الأسئلة. هذا الهمّ كبير. كلما بحثت عن أسبابه وجدت الاستعمار سببه... كما ترين، المجاعة في البلاد وفرنسيس تأخذ القمح وترسله إلى أوروبا وإلى بلادها ! أخذوا رجالنا وماتوا في حرب ليست حربنا. وكل ما حلّق مغربي بجناحيه وقال أنا حرّ، طارت رصاصه ومزقته في السماء والأعشاش في قرحها باكية على الذي ذهب ولم يعد.

ذاك المعلم الفضيل، أتاني بأوراق مطوية. رسوم بلاده الفلاحية جهة وادي سبو. ما زال عنده الأمل في استرجاعها من فرانسيس. ها هي عندي في الحانوت مطمورة. قلت له: انتظر خروج الاستعمار من أرضنا، وتلك الساعة اذهب لأرضك بلا أوراق.

آش رأيك آ لالة الياقوت؟

. التي ستأتي من عند ربي هي المزيانة آ الحاج. صلّ ركيعات، واطلب من الله الفرج.

تعلم لالة الياقوت أن شفاء نفس الحاج هي الصلاة وذكر الله. وذلك بالخشوع الذي يسافر به تجاه القبلة. تعلم أن الحاج إبراهيم لا يفتح صدره إلا في حضرتهما. يقول كل شيء. يفرغ كل هم جديد ألم به.

. لا أعلم، آ لالة الياقوت، هل العلم نور وشعلة أم حريق يأتي على كل شيء؟ يمكن ربي، لما قال لنا لا تطلّعوا على الأمانة، أنه أردنا ألا نشغل بالنا بأسباب وجودها وإيداعها، حتى لا نزيد الحياة مشاكل، هي مؤجلة في حلها. يمكن ربي ترك السي العوفي يبحث عن حلول بعيدا عن زرهون. وحينما يعود ستذهب تلك المشاكل. إنما إذا ظهر من سيوقد النار في الغابة، ظهر السبب في المحن التي يعيشها الناس. المجاعة، زادها تهريب قوتنا ضعفا لنا. الحروب أكلت الرجال في البلاد البعيدة والتي لا علاقة لنا بها. الأراضي أخذوها من أصحابها وصيروهم معوزين ومستخدمين. من يدري، يوم يأتي الدور على الحاج إبراهيم؟ ربما على الشرفاء العلميين أو الإدريسيين أو العلويين؟ يومها، آش المعمول؟ الاستعمار غول لا يشبع. ينام بجانبك. تظنه في سلام، آمنا مأمونا. يوم يجوع يلتهمك. الاستقلال هو الحل آ لالة الياقوت. قرأت عليك آ لالة الياقوت تلك المرة وثيقة المطالبة بالاستقلال ووثيقة القوميين*. لازم الكل يستفيق ويقوم ويقاوم حتى نطرد فرنسيس.

* الوثيقة الأولى مشهورة وتخلد بها ولها عطلة ويوم وطنيين، بينما الثانية لا تتال حظها كثير في الذكر، صدرت سنة 1944 كذلك. علما أنه قد سبقتهما وثيقتان على الأقل، الأولى سنة 1931 (وثيقة مطالب الأمة المغربية)، والأخرى سنة 1943 'وثيقة الجبهة القومية للشمال'. بحسب ما ذكره الباحث عبدالعزيز كنوني في جريدة الشمال الالكترونية.



حينما يتحول المنتزه إلى خلوة، تكون الرحلة قد بدأت إلى أعماق وأسرار. يسافر الحاج إبراهيم مرتبا بضاعة النفس التي لا تباع ولا تشتري، لكنها تحتاج إلى عجين وخلطة جديدة كل حين.

في جلسة ملحون ما بعد صلاة العصر ليوم خميس، من أيام شهر أبريل، من سنة 1949، وحيث تفتقت الطبيعة بعطرها الفاتح، فكانت رائحة الورد البلدي الزهوني تخلق بحاسة الشم إلى سماوات العشق، كما كانت رائحة الزهر تعم الرياض من الشجرات الثلاث، واحدة للبرتقال واثنين للنانج، حضر الجلسة كل من سي عبدالكريم بن سليمان ومحمد الخراز. بينما غاب سي عبدالعزيز الحجام.

جلسة طرب تغنى فيها الجمع بالربيع، بقصيدة نظمها سي محمد الخراز. وما كان تركه لداكان حرفته وقوت يومه وعياله سوى تلبية لمادته التي يدمن عليها تدخينها وقصيدته وآلة عوده الرقيقة ذات الأوتار الثلاثة (السويسن):

(الربيع بسط تلايب قلبي)

سيرة مدينة ونسيج حياة

سقى من جبال بلادي حيي

و أنا هايم، هايم

الزهر.. فتّح شنايف روحي

يطالب الريح : يا قبلة، فوحي

يا قبلةً روحي

راني شتا وخريف

و انا صايم، صايم

بلا حرّيف

قُبلة... بوسة.. على خدود الورد

نوضع صورة حبيبي

يا رمانه بوحي

بالاحمر

خُمْرُ العُمْر

و انا في حوضه عايم... عايم

سيرة مدينة ونسيج حياة

هاذ الربيع

زهاوا غزلانو

في رياض القصبه غناوا ريجانو

حرق قلبي

اشقى روحي

على حدود الورد

انا طالب والقيت سلامو

يا ربح خرق شقايق مصمومة

انا نخب سلامو

نعوم ناسك فحد مقامو

(...).

. هذه القصيدة بديعة آ سي محمد. تبارك الله عليك.

. أحبيك آ السي، بقصيدة (اللمة) التي تجمع الاصحاب. خذ التعريجة واتبع

المقام والميزان.

انتهت جلسة الطرب قبيل أذان صلاة المغرب. كانت حُمرَة قرص الشمس الساحرة كمنبه لأفول وقت الغناء والملحون كذلك، إلى جانب أفول شمس هذا الربيع التي راقصت برونقها ألوان الوجدان وجدران المنازل والأشجار المواجهة لقبلة غروبها.

اقتصر الثلاثي على القصيدتين الجديدتين للمعلم محمد الخراز. طبعاً، ستكون مواعيد مقبلة لمزيد استمتاع بهما. افرنقع الجمع وبقي الحاج إبراهيم جالسا أمام بوابة منزله وسقيفته. سيؤدي صلاة المغرب فردا في رياضه. كان الأذان فاصلا بين عالمين وصورتين. نقله من حركية حواس وصورة ونغم إلى سكون عالم داخلي محبوب. فتحت نفسه لبوحها أبواب الهمس وقرعت حصن القلب الذي يكون في صموده وقوته هشاً في صمته:

. عيون الذئاب !

انتبه الحاج إبراهيم إلى الأصوات التي كانت تحذره كل حين. فجأة، جاءت بأكملها في لحظة واحدة إلى خاطره الذي صحا من خمرة الملحون وسكرته. الحذر من حكيه لتاريخ السلطان مولاي اليزيد. الحذر من "بياعة" فرنسا ومخبريهم. الحذر من القايد الذي بدأت شوكته تستقوي، ونبشه عن أخبار حركة المقاومة بزرهون المدينة والجبل، والتي بدأت رائحة أحاديثها الساخنة تحترق آذانا ساجحة في المجال. هو نبش بدأ يكبر ويحفر ما لا يجب الوصول إليه، لأنه مقدس: الحرية والشهادة. مقدس حمامة بجناحين مع: الحرية

والشهادة. شعار وصورة قرأهما في إحدى الجرائد الوطنية التي يحتفظ ببعض نسخها رغم تقادمها. لكنها خيط رابط للذاكرة والوعي. التاريخ الراهن، والواقع الحالي، والمستقبل المطلوب. مرت عناوينها كصور متسارعة.

ربما رفرةٌ ذكّر حمامٍ أمامه مع هديله هي التي أهدمت الباطن لكي ييوح بالصور والعناوين. (عمل الشعب) للوزاني • التي كانت تصدر باللغة الفرنسية، والتي رغم عدم إتقان الحاج إبراهيم لها كلغة كان يحتفظ ببعض أعدادها التي حصل عليها ويعتمد على من يستطيع القراءة والترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. وحيث تكون للغة والقراءة قد استُهما يكون هول تفجير الحقائق في كون الوعي كل حين. (جريدة العلم) لأحمد بلافريج.

سها الحاج إبراهيم حتى عمّ اللون اللازوردي سقف السماء، مضاءً بيدر اكتمل مع منتصف شهر جمادى الثاني من سنة 1368هـ. بينما أخذ فضاء المنزه والرياض يغرق في بنفسجية داكنة متحوّلة إلى سواد.

استغفر الله وقام إلى طست يتوضأ بمائه على جانب الساقية الجارية. أدى صلاة المغرب ودخل إلى منزل الأسرة وزوجتيه وأولاده، والجملة الباقية والقارعة والمنبهة: عيون الذئاب.

• - تعتبر شخصيتنا كل من محمد بن الحسن الوزاني (1910-1978) واحمد بلافريج (1908-1990) من مكونات النخبة المثقفة والسياسية البارزة في تاريخ المغرب المعاصر...



باب القصبه ! جوهرة عقد بين تلتين وكتلتين عظيمتين، تنسدل كواسطة فريدة تتقدم صدر هذا الجبل المتصاعد شموخا.

باب القصبه، هل هي من مقام الزاوية محتضنة الضريح أم من مقام حي خبير محتضنُ المرحوم سيدي عبدالله الحجام؟ هل تحسب على المنطقة السفلية للمدينة أم على جهتها العلوية خبير؟ والتسمية الأخيرة: خبير؟ كلنا يعرف تسمية المنطقة المجاورة للمدينة المنورة خبير. كانت تسكنها طائفة من اليهود. وقبلها سكنها في القديم العماليق ثم بعدهم جاء الملك نابونيد ومعه بعض اليهود منذ ما قبل التأريخ الميلادي بستة قرون، قبل أن تأتي طائفة منهم خلال الغزو الروماني للشام، وذلك قبل الإسلام بعشرة قرون.

لكن هذه الاحتمالات لم تسعف الحاج إبراهيم كمعلومات استطاع الحصول عليها خلال رحلتي العمرة والحج. شبّه مقامها بالمكان المرتفع الذي يلجأ إليه الناس في السكنى كقلعة أو برج أو تلة محصنة. وكذلك هي خبير في بلاد زرهون.

غالبا ما كان يقف الحاج إبراهيم بباب دكانه الصاعد إلى عوينة فكرة وباب الجديد الموجودة بها، أو يقف أعلى منحدر باب القصبه الأمامي حيث

ينتشي بصدرها الأعظم في مقابلة الآتين تجاهها أو المازين تحت سلطة بصرها، وهو الباب المفتوح والمقوس الذي يغلق ليلاً فيغمض عينيه كأنه الأم الحاضنة لعيون الأنام المحتضنة لأجسامهم وحواسهم، بعد صخب نهار يتراقص تحت سدائل نور الشمس المشعة والمشتعلة. في كل حين يستدير بكامل جسده ووقفته من مشهد التل الأمامي من المدينة المفترش لأحياء بنحيشو وتازكة ودرب أمجوط المقابلة لباب القصة والمفصولة عنها من زاوية وقفته ورؤؤيته بسور السوق البراني وأحواض وبساتين الساحل الفاصل بينهما في تشعبه والمنحدر إلى الوادي العميق بسيدي صابر، ويركز بصره على المشهد الصاعد تجاه العوينة أو عوينة فكرة بحسب اختصار التسمية من دونه. يكتشف نفسه مع كل استدارة، ويشعر كأنه يكتشف باب القصة لأول مرة، فينتهج لها كقصة وتبتهج له. كيف لا، وهي الحاضنة لممر أشواقه وأسراره ووجدانه، لولوج باب رياضه. ذلك أن رياض الحاج إبراهيم له ثلاثة أبواب، ما لم نذكر باب المقاومة الذي لا يدونه معجم الأبواب الرسمي. فهو دائماً سري وخاص به وخفي.

قد يشعر بباب القصة وهو يتسم له مثلما يتسم له، أو تأتيه بريح علية تُقبّل صفحة وجهه المكشوفة بين استدارة قب جلابته التحتية ووسطها. حينها يجعل كأس الصبابة والسكر كلاماً يشاكس الأبواب ويذيب الصخور ويلين ما تحجّر من العقول. هو فن الكلام الذي ينقذ الأنام من كل غرائبية نفس أو استيحاش روح. يجعلها متحضرة ألفة ومكسرة للفواصل الجدارية

الوهمية التي ما اعترف بها سطر من القرآن، ولا حتى المقاومة التي بدأت تنتظم في جبل زرهون.

بين خيبر والزاوية قصص وحكايات. فخيبر هو الجزء العلوي من المدينة والخلفي لها. والزاوية هي الجزء السفلي لها والمنفتح على بوابة السهل والمنحدر والمحزم بشريط الوادي والعراصي والبساتين. في كل مرة تأتيه المقارنة، وكانها تذكير مجالي بتضاريس ضروري في كل معالجة وتحليل. بينما الرحلة هنا بحث عن الذات التي علقت في الأرض ولم تخلق في السماء لكي تتحرر من شباك المكان والزمان والتاريخ.

يقطن بخيبر كل من الحجاجمة والخطاطبة على الغالب. من أسر الحجامي تجد الكثير تبارك الله. كما كان يعلق الحاج إبراهيم في حكيه الناسج للمواضيع في طابع ثقافي لمتعلم بالقرويين ودارس للكتب وحاصد لمعانيها ومكنونها. ومن أسر الخطاطبة أهل العلم والخطابة والإمامة.

ودون الحجاجمة والخطاطبة سكان آخرون. ففي القليعة نجد مهاجرين آخرين استقروا بالمدينة في برج منيع وعال يطل على وادي الحامة وعين وليلي. أما الزاوية، فمقام الضريح وبركته. يحيط به شرفاؤه أو المشرفون عليه. ويتمركز قبائله سوق تجاري وملتقى اجتماعي وقطب المدينة العمراني. وتتنوع الأحياء بجوانبه وعلى منبسطات تلاله المحيطة وحافات الوعرة. بين الحدود الطبيعية

والأسوار المانعة، يبقى حي خيبر شامخاً ومطلاً من أعلى على مقام الضريح والزاوية والأحياء الأخرى أسفله.

يعلق الحاج إبراهيم على صديقه في المستملحات، والذي يمر مسرعاً أمام دكانه دون أن يلتفت للسلام أو ينتبه له:

. سعدي، سعدي، فرحي بخيبر ولى زاوية !

. آ تبارك الله على الحاج إبراهيم. السلام عليكم. البشر مقام القبر وقلوب الحجر يا لطيف، وليس خيبر. خيبر مقام الصخر وقلوب الشجر.

. اللهم لئن قلوبنا. ياك المحبة تذوب الصخر والضحكة تصوب آ سي عبدالرحمن؟

. كائنة آ الحاج إبراهيم. راني مستعجل الآن. حتى الغد إن شاء الله. السلام عليكم.

في عيني الحاج إبراهيم ارتسم ظل خيال. ذلك أن ظل السي عبدالرحمن سبقه أمامه وهو في مشيته الصاعدة. وما تبقى من قرص الشمس البرتقالي الداكن، يكسوه مع خطوه.

أما ظل الخيال فهو الذي شدّ انتباه الحاج إبراهيم. ردّد معه في دواخله سرّاً أسماء رواد المقاومة ورجالها الساكنين في حي خيبر والقرى المجاورة له، حيث المسالك الجبلية وعرة وملتوية بين الشعاب والوديان العميقة بسفوحها الشديدة الانحدار، والأشجار التي تكسو القمم والمنحدرات. جبال بوجنة وظهر النسور والمركاب وسهب الحدادا وبوقنفود*. جبال تمتلك كتلا صخرية ضخمة.

أسماء مثل المرزوقي، القواري، وغيرهما، هي لحمة جديدة تجمع الحاج إبراهيم. لباس جديد أصبح حلّته. قَبّعة جديدة حطّت فوق رأسه بدل هذا القب الجلابي الذي لا يستقيم.

ظل الخيال ذاك، استحضر في اللازمان واللامكان مدرسة القرويين. متابعتة لجديدها. ما يحمله طلبتها كذلك وخرّيجوها. صحف مجلات ومنشورات مشرقية ومغربية. شعارات ونداءات حرية واستقلال.

نزع قدمه اليمنى من بلغته، وفرك أصابعها، وعدّها كأنه يكتشفها لأول مرة. أدار انتباهه لصفحة يده غسلها بما تبقى في الإناء الطيني بجانبه. نظفها بمنديل لالة الصافية ثم مسح بها لحيته. هندس للمدينة أسوار خيال. هو

* هذه تسميات جبال فوق كتلة زرهون.

نفسه لا يدري أين ستقوده تخميناته. سور بالداخل وسور بالخارج. أبواب محكمة ومراقبة. أنفاس صاعدة وصاخبة.

فجأة نظر وتأمل منحدر تلة باب القصبة الأمامي:

صخور موزعة ومتجذرة. مسالك ترابية. أنامٌ في حركة. كدّ من أجل لقمة العيش، هو للفلاحين والحمالّة والتجار والقصابين. أقدام بنعالها الجلدية، وأخرى حافية، متشققة بعامل الكدح والارتطام مع صلابة الأرض الموطوءة. رؤوس بين الحليقة أو التي جعلت ضفيرة منسدلة أو التي غطت رأسها بقب جلابيها. نساء تعبرن في (الحايك) الأبيض واللثام المثلث على الطريقة الشمالية. بهائم تنقل الحقائب الخشبية أو المنتوجات الزراعية...

فجأة تراءت له عين ذئب زاحفة على السكون. تمشح المجال جوا وأرضاً. تشم الكلام وتجس نبض الهمس وسر الحركة.

لا يخرج الذئب إلا خلسة بين الأنام أو بجراحة أم الذئاب. هو مجرد عين فقط. لا جوارح له ولا أنياب. حتى العويل ليست له قوته وشجاعته، وإلا لكان ذئبا حقيقيا. هو مجرد رسول للذئب، رمز للخيانة وتهديد طمأنينة الساكنة. عين الذئب تسرق منهم أرواحهم وثقتهم في أنفسهم، كما أمنهم. لذلك، كانت أخطر من الذئب. لذلك كان الإجراء المدبر بين حراس روح المدينة هو استئصال واجتثاث هذه الأعين الخائنة: (بياعة فرنسا).

كان قرأ الحملة ضد خريجي وطلبة القرويين قد بلغ صداه وأثره جبالاً زرهون. محاصرة لهم وتفرغ للمدينة من وجودهم. حتى من وجد عملاً يعيل به العقول والأسر، تمّ إخراجهم من المدينة.

حنق الحاج إبراهيم لظل الخيال وشروده. وحنق لذلك الحنش الذي يدب في غفلة عن الأنام وبينهم. ردّد في قرارة نفسه (وما جزاء الإحسان إلا الإحسان). تذكّر توظيف العلم الجديد للآية. درسه حولها في جلسة علم خاصة بأفراد المقاومة. عبارة عن مفهوم مخالفة. لم يصعب على الحاج إبراهيم استيعاب القاعدة الأصولية ووظيفتها، رغم أن بعض الحضور اكتفى بنتيجة التحليل في الجلسة، سائلاً عن المقصود النهائي. مستويات الفهم مستويات للتعلم. ما شرحه كاستنتاج للسي علال: (أحسنًا لفرنسيس. ساعدناهم في الحرب ضد الألمان. أخذوا زرعنا ورجالنا. استغلوا خيراتنا. وعدونا بالاستقلال بعد الحرب. لكنهم بدل ذلك جيّشوا سلاسلهم وأكثروا من عيون الخونة. ذئاب خونة. أو جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أين هو العدل في كل هذا؟).

استغفر الله من هذا الحنق الذي جفف حلقه من كل بلل. نلح باحثاً عن ريق. شرب هواء الغروب علّه يحمل رطوبة. اتجه نحو السقاية بجانب باب القصبية. تناول بيده اليمنى عُراف طين منقط بالقطران وموضوع بجانبها. بسمل ثم عبّه بأكمله وقصد جامع دار الجديدة صاعداً درجه.



كانت عبارة عن اجتماعات مصغرة. لكنها مترابطة في موضوعها وفي قراراتها التي تجمعت فأعطت الاستنتاج العام والرأي النهائي المناسب للردّ والإجابة على مثل هذه الطلبات والسياسات.

حيرة عمّت الأذهان، والموضوع لم يكن في علم الجميع. فقد تلقى أعيان المدينة وشرفاؤها نبأ نية فرنسيس الإقدام على مشروع مد خطوط السكة الحديدية حتى مشارف مدينة مولاي إدريس زرهون. ليس ذلك فحسب، بل كذلك نيتهم بناء دار للسينما بالمدينة.

تضاربت الآراء في البداية، ما دامت أسئلتها تطرق أبواب الفهم ولا تنوي خلق خلاف بين أصحابه. كان الحاج إبراهيم من بين الأفراد الذين تكلفوا بمحاورة القايد وإجابة فرنسيس على نيتها ومشروعها. لقد سبق لسكان المدينة أن واجهوا قرارات الاستعمار. بل أكثر من ذلك توجهوا إلى مقام السلطان بن يوسف واحتجوا على ما رأوه ضرراً لهم. لكن الحاج إبراهيم في تلك المناسبة. مناسبة زيارة السلطان وطلب تدخله. كان بالديار المقدسة حاجاً. فقط ما حكوه له واستجمعه بعد رجوعه كمعلومات وأخبار. كان صديقه في الحياة اليومية والتجارة الزراعية، السي علّال بن المهدي اليازغي،

ضمن المعنيين بما وقع والمنخرطين في مواجهة الموقف. سي علال صاحب قصة شارب الذهب⁵، وجنان الزيتون وتجارة زيت الزيتون:

(قام البراح في صباح باكر، مرفوقا بعسكر، بالإخبار:

اسمعوا يا عباد الله.. ما تسمعوا إلا أخبار الخير:

هذا العام قال لكم المخزن أن غلة الزيتون كلها ستجمع وتسلم لإدارته، وتأخذون مقابلها نقدا بعد ذلك.

اسمعوا يا عباد الله:

كل من أدخل ولو كيلوغراما واحدا من الزيتون لمنزله يعاقب بسنة سجننا.

تغيرت الحركة في السوق كما في المسجد والبيوت. لم يع الناس بم ابتلوا في هذا الامر المفاجئ الجديد.

الرجال جماعات في الساحة بجلابيهم واضعين غطاء الرأس الذي يقبهم حر شمس الحريف القاسية. زادتهم قساوة هذا الأمر:

•• - رواية (شارب الذهب) هي الجزء الأول من هذه الرحلة السردية الروائية.

. ولكن، نحن نأكل من هذا الزيتون طول السنة، ونستعمل زيت الزيتون في الصباح والمساء. كيف لا نوفرها لمنازلنا ونعطيها لفرنسيس؟

. هؤلاء كفرة، يريدوننا أن نموت جوعا. لعنهم الله. علق التاجر الفاسي في صف أهل فاس الخاص ببيع الأثواب. أنا، فلان إذا لم آخذ منه الزيت والزيتون، لن أستخلص وأؤدّ ما أخذه مني من أثواب. ما العمل؟

المعلم إبراهيم الخياط، صديق علال وصاحب دكان بالسوق الداخلي، وابن الحاج العربي صديق أبيه، يعلق على الخبر في المساء أمام علال:

. هذ العام أضفه لعام الهيفوف والجوع. جربوا فينا الحرمان من الخبز والآن أرادوا ان يجربوا فينا الحرمان من الزيت والزيتون. حتى برد الشتاء لن نجد بما سنقاومه:

. ما زلت لم تجمع الغلة بعدُ آعالال؟

. ليس بعد، الزيتون لم ينضج بعد كفاية. يعلمون أنه سيكون طازجا بعد شهر أو على الأقل بعد عشرين يوما، بحسب المناطق.

صلاة المسجد كانت جامعة. وعدد الناس لافت للانتباه. وقراءة اللطيف اتخذت شكلا غريبا. كانت كطنين النحل، استنفر مسامع المخبرين الذين

يوصلون المعلومات لإدارة المستعمر. تسمع بين الفينة والأخرى استنجادا غيبيا:

. الله ينصر سيدنا السلطان.

كأنه استنجاد بعدالة لا بد أن تحلّ وتُنقذ السكان من هذا التهديد الذي نزل عليهم كالصاعقة وأراد نزع رزقهم والفرار به إلى أعلى كأنه صقر ضخّم غرس محالبه في شاة ضعيفة ورفعها دامية إلى السماء لكي يفترسها في مكان عال وبعيد لا يراه أحد.

رافق الاستنكار الاستغراب والتساؤل:

. ماذا سيفعلون بكل هذا الزيتون والزيت؟

لم يغمض لعلال جفن إلا ساعات قليلة. كانت زوجته ترافقه في التفكير، كما تسائله حول زيتون دوارها. ما مصيره كذلك؟ ربما إذا لم يأخذ فرنسيس غلة أبيها، ستجلب بعضا منه ليساعدهم في مؤونة الشتاء والسنة.

لكن لعلال، زاده توترت نفسيته المتراكم حاليا مع هموم الأرض المنزوعة، وهموم التصرفات التي تصدر من القايد وحاشيته. يستحضر روايات صهره وأب زوجته حول المقاومة التي سجلها شمال الغرب الريفي مع السبليون الكفرة،

والمعاناة التي اضطرت بعضهم إلى الهجرة جنوبا واستقرارهم بجبل زرهون. كبر المشكل في ذهنه وأصبح قضية سياسية:

. لا بد من حلّ نبحث عنه. ماذا عن سلطان البلاد؟ هل يرضى بهذا الظلم؟ لا بد من تزكية فكرة الذهاب عنده والشكاية له.

كانت الفكرة تختمر بسرعة قبل حلول موسم الجني لغلة الزيتون المباشر. جميع الألسن تبادلت الاقتراح، وجميع البيوت والأسر كان حديثها حول طريقة حل المشكل وكيف سيعالجه السلطان. تسلح الناس بالإطعام بالصدقات وقراءة اللطيف وطلب مشورة الفقهاء والعلماء.

في غضون نفس أسبوع هذا الإعلان، أقيمت لقاءات مكثفة بين الفلاحين، وانضاف إليهم بعض الطلبة والتجار. كان فضاء المساجد كالمسجد الأكبر ومسجد سيدي عبد الله الحجام، ومسجد سيدي عبد العزيز، ومسجد مولاي اليزيد، كما كانت بعض التجمعات في المنازل، مجالا للتشاور والمناقشة. حضر فيها علال خلال ثلاثة ايام. كما استدعى لوجبة غداء في منزله ثمانية من أقاربه ومعارفه. اتفقوا في النهاية على رفع الشكوى لسلطان البلاد، لعله يرفع هذا الظلم عنهم. وبما أن ملاك أشجار الزيتون وفداديها كانوا متفاوتين في امتلاكها، فقد تفاوت كذلك مقياس الموقف الذي يرى الذهاب للعاصمة لأجل الشكاية لجهات عليا.

تم الاتفاق على جعل حافلتين في الرحلة إلى العاصمة. الأولى أكثر أناقة وصيانة، اتفق كبار الملاكين على اتخاذها لرحلتهم كمجموعة تضم ستة عشرة منهم. والثانية متوسطة الصيانة، ستكون لصغار الملاكين والذين كان عددهم تسعة عشر فلاحا ومالكا.

أحد كبار الملاكين اتفق مع صغار الملاكين ليذهب معهم في الحافلة. كان علال من بين كبار الملاكين، وكان مرافقا للحافلة الأولى التي ستقلع للغد. جاء في الصباح الباكر، كما جاء باقي الفلاحين. لكن حافلة كبار الفلاحين لم يأت إليها إلا هو وفلاح آخر من حي خيبر. فقد وسوس خدام فرنسيس لكبار الملاكين:

. لماذا سْتَعْبُون أنفسكم بالذهاب حتى الرباط؟ اتركوا هؤلاء الصغار يذهبون. إذا نفعتهم الشكاية، ستستفيدون أنتم كذلك، دون معاناة تعب السفر.

كان علال قد أعد حقيبة سفره، وارتدى جلبابه الصوفي المخربل الجديد، وبلغته التي يستعملها للذهاب إلى صلاة الجمعة، والتي جعل لها كعبا مناسبة، يبدو فيها أكثر طولا، ما دامت قامته لا تزيد على المتر والستين سنتيمترا. لكن مع هذا البلغة ومع (الجلابية) السميكة والواقفة الأكتاف، جعل مشيته تتخذ الصدر أماما والعنق مستقيما رافعا به رأسه إلى أعلى، بحلة الملاك الكبار.

شعر بالغدر حينما لم يجد من أتفق معهم على الذهاب إلى العاصمة. تداول باقي الملاكين الأمر بالمناقشة والاستنكار والاتهام بالخيانة لكل من لم يأت. ولم يكن من لم يأت سوى كبار الملاكين. لكن صغار الملاكين صمموا العزم على الذهاب، وليكن ما سيكون! وليكن ما يكون. اتخذ علال كرسيه مع صغار الملاكين، وذهب معهم إلى العاصمة.

وصلوا إلى جامع مولاي الحسن بالعاصمة. وقبل ذلك في الطريق، كان هناك من يقرأ اللطيف، ومن يتلو القرآن. قد تلاحظ كل مرة الأكف مرفوعة بالدعاء إلى العلي القدير. وقد كأن البعض منهم في أولى رحلاته راكبا إلى العاصمة. وحتى الذهاب قبل ذلك إلى مكناس كان يستعمل فيه دابته، أو يمشي على رجليه. اختلط عنده الفرح باستعمال وسائل المواصلات الحديثة، ورؤية تضاريس وطبيعة متنوعة، والمرور بساكنة مدن وقرى متعددة، كل هذا اختلط عليه مع القلق من المجهول في هذه الرحلة:

. ماذا لو واجههم فرنسيس بالسلاح وصقّوهم في الطريق؟ ماذا لو أنهم لن يفلحوا في مسعاهم بالرباط؟

أسئلة كثيرة، لا يشفع في تهدئة توتراتها سوى هذه الرقعة الجماعية، هذا التضامن الذي يعطي الشرعية للتفكير في المقاومة التي يتخذها بعضهم بعدا سياسيا وعمليا لأجل محاربة المستعمر.

كان القلق باديا على عمال منذ بداية الرحلة. رغم معرفته بجبل ركاها، إلا أن تخلف الجماعة التي كانت ستأتي في الحافلة الأخرى، جعله يطرح أسئلة الانتماء. لو لم يكن هؤلاء الملاك الصغار، ما مصير الاحتجاج وطلب الحق؟ من سيرجع لهم غلتهم التي هدد الاستعمار بمصادرتها هذه السنة؟

تفكر رواية زوجته وأهلها من سكان الريف الذين نزحوا إلى جبل زرهون، من بني ورياغل وبني وكيل. كيف تركوا ممتلكاتهم؟ وكيف اضطهدوا وأبيدوا بأسلحة غريبة خلقت تشوهات وأشكال موت فظيعة لم يروا لها وصفا في الحكايات ولا في أهوال قيامة القرآن الكريم.

تفكر كذلك، رواية المعطي الجيلالي الغرباوي التي كان كل حين يسمعها منه، سواء في لقائه به في السوق الداخلي أو في منبع عين القصر، حيث يأتي "لتوريد" البهائم التي يشتغل على قيادتها لمقالع الرمال والغابة:

. عائلتنا لها أراضٍ خصبة أفضل من هذه التي في سهل بورياح أسفل زرهون. نحن من (بني احسن) قرييون من البحر والرباط. صادروا أراضينا وأقاموا فيها ضيعاتهم التي أصبح يسيرها فرنسيون. لا زال عندي رسم وعقد الملكية للأرض. إنما لمن أرفع شكايتي ومن سيرجع لي حقي؟ ها أنذا أصبحت أعمل عند الآخرين، بعد أن كنت سيد نفسي.

و تتسلسل الحكاية حتى تصبح مملّة في بعض الأحيان، فتقوم الجماعة له حسرته بسخرية أو نكتة أو مداعبة كلامية تجعل روح الأخوة الدينية والمحبة الاجتماعية بديلا له عما ضاع منه ماديا في جهة الغرب.

. ماذا لو صادروا جناننا وفداديننا؟ هكذا تساءل علال محاورا الراكب بجانبه.
أليست الضيعات التي يقيم فيها جريماندي والجويير • الفرنسيين مثلا، ملكية في الأصل لمغارية؟ ألم يستحذوا عليها؟ ماذا لو أصبحنا مثل المعطي الغرباوي بدون ملك؟

فكر في صغيريه وأمه وزوجته. ماذا إذا لم يعد من رحلته هاته؟ ما مصيرهم جميعا؟ حسرة الخيانة أكبر مرارة من سفرهم المخيف بمجهوله هذا.

ها هو ذا إذن، جامع مولاي الحسن. اتخذته الجماعة الزرهونية مقاما للانتظار بجواره. يأتي الملك للصلاة فيه، فيلاحظ الجماعة هناك. يسألهم خدام القصر كل مرة :

. ما خطبكم؟

يجيبونهم بواقع الحال والخوف من المال.

بقوا على هذا الحال في الاعتصام واللجوء الاحتكامي (المزاوكة*) عشرة أيام. وهم كل يوم يزيد عزمهم على مواصلة الاعتصام حتى تحقيق الهدف: رفع الشكوى للسلطان وطلب الحق منه.

ناداهم الملك للاستماع إليهم في نهاية المطاف. وفي تلك المدة من اعتصامهم كانت مدينة مولاي إدريس زرهون تعيش محتضرة على مصير الجماعة المسافرة، متسائلة عن نتائج مهمتها، مُعدّدة الاحتمالات الطيبة وغير المحمودة كذلك. ساد الأسر جوّ حزن وبكاء، وتهديد بفقْدان المعيل والابن والحبيب. تشكل موقف معادٍ للذين تخاذلوا وخانوا الالتزام بالذهاب.

دخل سكان المدينة للمساجد. كل فقيه أدخل (المحاضرة) الذين يحفظون القرآن، وبقوا معتصمين في داخل المساجد في قراءة كتاب الله وقراءة اللطيف، يأكلون وينامون حتى يرجع الذاهبون للشكاية بالرباط.

سجل كاتب الملك أسماء الحاضرين للشكاية أمام السلطان.

. ما مشكلتكم؟

. آ مولاي السلطان نحن جئنا طالبين حماك وعدلك. حقنا ضاع مع فرنسيس. لقد أرادوا أخذ رزقنا وقالوا لنا من أدخل ولو كيلوغراما واحدا من الزيتون

*- اللفظ يدل على طلب الشفعة والاستنصار بقوة مقدسة أو شخصية قوية. غالبا ما تكون باللجوء إلى مقام ضريح أو شخصية سلطانية كما في حكي الرواية.

لمنزله مصيره عام من السجن. ونحن آسيدنا، عندنا ثلاثة صفات في الرزق بها نعيش وإلا سنموت: الزيتونات (الزيتون)، والزريعة (الزرع)، والعوينبات (العنب).

سألهم السلطان:

. ما لكباركم وأعيانكم لم يأتوا معكم؟

. آسيدي كنا سنأتي في حافلتين، واحدة لهم وواحدة لنا. في الصباح، حافلتهم بقيت فارغة وتحلفوا عن المجيء، ونحن قلنا نمشي عند مولاي السلطان الله يطول عمره، ونطلب الحق والعدل منه.

طلب السلطان من كاتبه أن يسجل الأسماء وعدد أشجار الزيتون التي يمتلكها كل واحد منهم. فبدأ يدون كل اسم وعدد الأشجار التي يمتلكها من الزيتون. كان أول المسؤولين عن عدد ممتلكاته من الزيتون قد ضاعف العدد وجعله كبيراً في جوابه أمام كاتب الملك:

. عندي آ مولاي مائة زيتونة! رغم أنه لا يمتلك سوى عشرين. زاد الناس في عدد ورقم الأشجار التي يمتلكونها. سجل لهم كاتب الملك صك أمان على ممتلكاتهم ووقعه السلطان. رجعوا فرحين إلى بلادهم زرهون. وموسم الجني قد حل أسبوعه.

عمّت الفرحة البلدة، واعتبروها نصرا في مقاومة المستعمر. أَلْف الطلبة حفظة القرآن نشيدا بالمناسبة، واتخذه أفراد الكشفية والمقاومة نشيدا رسميا لهم في التحريض ضد المستعمر وضد الخونة كذلك، حتى إن الأمر خلق مشاحنات وملاسنات بين الملاكين الذين ذهبوا للرباط والذين تخلفوا عن الذهاب. كما خلق توترا مع حركة المقاومة: هل نعتبرهم خونة أم خوافة أم ماذا؟ لكن حينما يمر عدد من شباب الكشفية مُرَدِّدا الأبيات تحت نافذة منزل أحد الأعيان المتخلفين، تجد ردود فعل مستنكرة وشاكية ومبررة. فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية متداخلة ومتشابكة، لا يمكن معها إقصاء البعض عن الآخر، رغم أن محطة هذا الامتحان كانت مصيرية.

هكذا يمر شبان الكشفية (شباب المقاومة) مرددين الأبيات:

اليوم هيووا للحروب هيووا *** ونرجع للبلاد ظافرين
 اقائلا سلّ التاريخ يُمَلِّ *** لأننا نحن خير الفاتحين
 أنيينا تدر البشري قد *** حلت للنصر ونحن فرحين
 فطبيي نفسا وقرى عيننا *** لنجاتك من القوم الظالمين
 كم شيدنا من قصور وبناء *** وانقلبوا خاسرين خائنين
 اليوم الراية الحمراء تسمو *** وتترف على الفائزين
 فهنيئا لنا فزنا جميعا *** والحمد لله رب العالمين

فلعنة الله على الخائنين***ورحمة الله على المخلصين

...

هذه الرحمة تجلت في قلوب الناس، إذ حضر الحديث الشريف الذي علمه الفقهاء لهم (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). كما حضر مفهوم العفو والأخوة الدينية في قلوب الملاكين الصغار الذين أخذوا يجنون غلات زيتون الملاكين الكبار الذين تخلفوا عن رحلة العاصمة، ويدخلونها إلى بيوتهم باسمهم، أو إلى معصرات الزيتون باسمهم هم أصحاب التوقيع الملكي في عدم أخذ فرنسيس لشيء من غلاتهم.

عاد علال إلى فلاحته مطمئنا وشاعرا بالانتصار ومدخلا البهجة والاعتزاز إلى أسرته. رغم أنه تراجع وتردد واستغنى عن الفكرة التي راودته في تقديم شكاية للسلطان حول الأرض التي سلبت منه).

هذه الرواية التي استجمعها الحاج إبراهيم من مجالساته وأصدقائه وأهله. استطاع أن يجس بها نبض التضامن بين حضوره وغيابه. صديقه السي علال اليازغي الفلاح، خير مثال على ما يمكن أن يصير له ملك فلاح بزهيون.

إنما، تلك مشكلة قد تم حلها، وهذه مشكلة جديدة تختفي وراءها سياسة جهنمية تسببت في أرق وسهاد الحاج إبراهيم.

أکید أن مشروع القطار ستتبعه مصادرة الأراضي من أصحابها. ربما ستكون أرضه بجوار وادي خومان ضحية للمشروع. كذلك مصير باقي الفلاحين.

أي تنين هذا الذي سيزحف على خيارات أصحابها؟ لم يكن يثق باتحاد الجماعة وصمودها واتفاقها على رأي واحد. لكن الأمر يستحق التحدي والاستعجال والمواجهة للعدو الداخلي قبل الخارجي.

السي إبراهيم الخياط بالسوق الداخلي شاركه كذلك هذا التفكير. استرجع معه ما وقع للسي عمال اليازغي :

. لابد من بقاء الكل على رأي واحد. في نظري، وقّعوا على عريضة ييضم فيها الجميع، وقوموا بأداء القسم الجماعي بالمصحف الشريف.

علّق السي محمد الخراز حين التقائه به بقوله :

. قلت لك الفولة لاصقة في السيب •. الطعم مصيدة.

•- خيط الصيد اللاصق بالصنارة أصلا يرمز لكل مكيدة توقع بمغفل ما.



مرت أسابيع على آخر ليلة ملحون دشنتها الجماعة بما جادت به قريحة السي محمد الخراز. وكان إكسيرا فُقد، وفُقدت معه تروية العطش وحلاوة السكر وملوحة الطعام.

لا يشعر بالحرمان الحقيقي سوى المدمن. تراه يبحث بكل السبل عن حلّ، يخلق ويصطنع الوسائل. يغامر ويمتلك شجاعة الفرسان في اختراق الصعوبات. ما وقع للسي عبدالكريم بن سليمان غريب غرابة (بليته) أو مادة إدمانه اللعينة والمحبوبة كما يسميها. (بلية) التنفيحة التي إذا فُقدت مادتها جن جنونه وجعلته يطرق أبوابها عند أصحابها ومستعمليها. قاداته قدماء بحثا عن التنفيحة إلى الفندق الجديد بالسوق البراني في طريق باب الزهر.

من باب القوس رمق شخصا جالسا في الطابق الأول للفندق. جلسة ما بعد العصر التي ليس فيها لأغلبيتهم سوى انتظار الأذان لصلاة المغرب، وحيث إن جل الناس يكونون قد انتهوا من كدّ النهار وحركته. صعد الدرج المؤدي إلى الطابق الأول. ردّد مع نفسه:

. هذا الشخص براني. غريب على الزاوية. حتى قب الجلابة صغير في حجمه.

رمق نعله الذي وضعه أمام جلسة القرفصاء في استراحة دابّ فوق الأرض. لم يكن من صنع محلي، ولا من مألوف النعال أو الأحذية. عيناه مستديرتان ومختزنتان لحذر قلق. ابتسامة لا تفارق شفثيه. رغم أنها لا تترجم قسّمات وجهه ونظّرته. كتفاه منطويان بحيث يساعدانه على ضمّ وجهه لصدّره بشكل لافت. بدا له هذا القادم والمستهدف لجلسته:

. السلام عليكم.

. سلام.

. قادتي البلية عندك من باب الفندق.

. تفضل آ شي محمد، بالشحة والراحة.

. كيف عرفت اسمي؟

. أنت مشلم، والنبي حبيب على قلوبكم. تشمّيته تشمّيتكم. ههه.

. أراك غريبا عن الزاوية.

. أنا قادم من مكناس. قلت آتي إلى هذا الجبل في تجارة فضة وذهب. إذا

كان عندك قطعة أو حلّي، مرحبا.

. الله المعين. أنا قصدتك في التنفيحة.

. مرحبا آ شي محمد. تفضل. السطر اللي غواني، والقلب اللي كواني...
ههه.

. أراك صاحب مقام في الكلام ومعاني. آش سماك الله؟

. أنا شالوم الكوني. ابن عم المغني سامي. هل تعرفه؟

. آه نسمع به ونغني له. أنت يهودي آ شلوم؟

. نعم سيدي أعزك الله. أبيت هنا تحت وصاية القايد. قال لي: بيع واشتر،
والزم غرفتك في الفندق بعد العصر مباشرة.

. آه. تسمع بزهرة الفاسية؟

. حبيبي ديالي فين هو؟ بعث لها النقرة والذهب، وحضرت لغناها مرات
ومرات.

. هي أنت آ سي شالوم صاحب الغناء؟

. أموت في الغناء وأذوب في الذهب والنقرة. والروح ما يشفيها إلا الفناء آ
شي محمد.

. اسمي هو عبدالكريم بن سليمان. واش تحضر معنا في ليلة ملحون آ شلوم؟

. القايد ما يجب خروجي من الفندق. فرانسيس وصوا على ذلك. الشلامة هي الأولى آ شي عبد الكريم. أو لا؟

. كلامك صحيح آ سي شالوم. ولكن عليك الأمان. جلسة الأعيان مع الفنان ما فيها خوف. كريمة ونعيمة.

. حتى الزاوية عندكم ما يخطاها خير. البركة موجودة وكاينة فيها بزاف.

. نحن أصحاب الملحون. النظم واللحن والغناء والطرب. جلستنا فيها أصحاب الحال والعود والكف والثني. هل تحب أن تجلس معنا؟ عليك الأمان. نوصي عليك حارس الفندق الجديد. يفتح لك الباب في الذهاب والإياب. وأنا رفيقك فيهما.

استشار سي عبدالكريم صديقه الحاج إبراهيم. برقت عينا الحاج للخبر. واختلطت استفهاماته وتعجباته. بين همّ مشروع فرانسيس في إيصال سكة القطار، وبين حضور يهودي مباغت حلّ بالزاوية ويبيت بفندقها. حدسه حادّ في كشف وفضح عيون الذئاب.

كأن حضور شلوم الكوني محاورة لعقل المستعمر في فائدة مشروع القطار (الماشينا*). وكأنه حضور يسجل لحظة تاريخية توقع للطرب لقاء محبيه وتذويب اختلافاتهم في الجنس والملة. وكأنه حضور لأسماء المطربين المشهورين وأرواحهم، وبالخصوص زهرة الفاسية التي ذاع صيتها وصوتها، والتي سجلت أغانيها في إذاعة فرنييس. من أغنياها المشهورة التي يعشقها الحاج إبراهيم وجماعته (حبيبي ديالي فين هو)، (حبك تلفني على شغالي)، (زاد علي الغرام)...

. واش راه حافظ القصايد أو غير تاجر فضولي؟ يسأل الحاج إبراهيم صديقه سي عبدالكريم بن سليمان.

. أذهب لأسأله. إذا كان ولد الملحون، يحضر معنا ليلتنا.

. انتظر. وإذا كان عين ذئب وجاسوس. يكفيننا الخونة الموجودين في بلادنا؟ طيب. يحضر. ولكن، لا حديث غير الملحون والغناء. خذ معك هذا الجلاباب والبلغة. هو يلبس جلابية سي محمد الخراز والبلغة ديالو، وسي محمد يلبس هذه. اتفقنا؟ بعد صلاة العشاء، أنتظركم ثلاثتكم. اتركوا سي عبدالعزيز يأتي بعدكم. يشوف الجو واش صافي.

*- باللغة الفرنسية la machine .



. السي السلام، مرحبا بك. أنا الحاج إبراهيم، وهؤلاء أصدقائي. سمعت بأنك تباع وتشتري في الذهب والنقرة.

. صحيح آ الحاج. أنا اسمي شلوم. ولكن تسمية سلام مقبولة. نفس المعنى.

. حتى الذي يسمعوننا تلصق في أذنيه سلام أحسن. ما رأيك آ سي شالوم؟

. عندك الحق آ شي محمد.

. واش تصلح دمليج مكسور آ شلوم؟

. أنا أبيع وأشتري فقط. الإشلاح يلزمه صناعي. ولكن نشوف الشلعة آ سيد الحاج.

يحضر الحاج إبراهيم من منزله دمليج لالة الياقوت. تفتح عينا شالوم الكوني ويقترح على الحاج مقايضته بقرطين وخاتم بحجرة خضراء. يترك الحاج المشاورة للالة الياقوت. تأتي الخادمة لالة طامو، كما يناديها الحاج. تلمع نظرة لالة

الياقوت لتلك الحجرة (الفص)، حتى إنها أرسلت لالة طامو مستعجلة إياها في قبول الصفقة ومعلّقة بعفوية: وما فائدة دمليج مكسور؟

تتسع ملامح ابتسامة شالوم الكويني، وتُجَبُّ السلعة مع مثيلاتها تحت جلبابه.

. ليلة كريمة آ شيدي الحاج.

. كريمة وشعيدة آ سلام. ههه.

يقهقه الجميع لهجة الجديدة، ويشاركهم شالوم في الضحك شاعرا بالانشراح والارتياح لجلسة المجموعة وكرمها وبركة التعامل معها. يسأله الحاج إبراهيم:

. تسمع للمحونا ونسمع لمحلونك آ شلام؟ ولكن قل لي أولا: أنت من مكناس أو من مدينة أخرى؟

. آح على الجراح آ شيد الحاج. أنا في حالات وقلبي غابوا عنه الأفراح.

. حالات؟ يتساءل مستغربا السي عبدالكريم.

. الحالات آ شي عبدالكريم، هو المنفى. ما بقي لي وكر أو أين أفر. عندي زوج أولاد. أخذهما ابناء عمي بالقوة مني. مشوا بهم لأوربا وبريطانيا. الزوجة ديالي اضطرت تتبع أولادها. أخذت معها رأسمالي وبقيت أنا بين الأسواق أبني تجارتي من جديد.

طال الكلام قبل الغناء. كان الضيف الجديد اكتشافا وإخبارا بمعلومات جديدة تغيب عن سماء الزاوية وجبل زرهون. منظمة تقوم بتهجير اليهود المغاربة إلى بلاد فلسطين. مؤتمر يونيو 1946. لقاء برئيسه كوهيل. رفض شلوم الكوني لعرض مغادرة المغرب. دموعه المتحسرة والتي شحب معها وجهه الصغير الذي لا يطابق غلاظة جسمه.

. انا دوائي في الملحون والطرب. العالم خرج من حرب ويذهب لحرب، وشالوم حرقه الزمن وعدّبه.

يمسح شالوم الكوني دموعه، وتواسيه الجماعة. بينما يعتذر الحاج بحجة آلام في الرأس، ويفضّل سماع المجموعة دون قدرة على مشاركتها الغناء. يغمض عينيه، فيمر شريط أحداث متداخلة. لا يدري هل هو نائم أم مستيقظ. أية مقاومة يجب أن تكون؟ لقد قرأ الحاج إبراهيم عن أحداث فلسطين وغليان الحرب، وعن تمكّن اليهود من استيطانها وتكوين دولة بها. كانت البيانات قنابل تفجر العقول، مليئة بالتصريحات السياسية والتحليلات التي تربط بين الأحداث وتحاول تفسيرها. صوت الإذاعة أجج المشاعر وأقلق البال وجعل الكل يشارك الحدث ولو من بعيد.

وقبل ذلك كان الذي وقع بفلسطين كفاجعة وصدمة تلت ما وقع للمسلمين كشعور بخروجهم من بلاد الأندلس، كان رحلة للحاج إبراهيم مع الذاكرة،

ومع موسم الحج الذي ذهب إليه، والذي جمعه مع أشخاص وحوارات وعناصر تحليل مساعدة على الفهم. كل ذلك دقّ ناقوس الخطر من جديد مع نبض شرايينه:

. فعلا بلاد المسلمين في خطر. شعر بتباعد وجدانه مع نغمات الملحون، وبنشاز إيقاعه، ما دامت النفس قد سافرت مع الروح خارج طعم الزمن. وهذا اليهودي المتلبد في دموعه، أكيد أن عائلته ذهبوا بها إلى فلسطين أو سيذهبون.

في همسه الداخلي :

. المحنة هذه يا ربي. نحن لا نقصد الملحون إلا للتفويج عن النفس من سأم الدنيا الناقصة والفاقية. لا كمال إلا كمالك. ولا سعادة إلا بالسجود لك. أستغفر الله العظيم. أستغفر الله العظيم. حتى مشروع الماشينا أصبح يهدد وجودنا ورزقنا. هل سنغادر البلاد بحثا عن رزق جديد ونشرد عيالنا وزوجاتنا؟

انتقلت مجموعة الملحون من قصيدة إلى أخرى. أطربتهم لكُنة شالوم الكوني في النطق للكلمات رغم غرابتها عن لهجتهم. ينطق السي محمد الخراز:

. والله إن الغناء بصوت اليهود أحلى.

. الحرام كله زوين آ المعلم محمد. يرد عليه ضاحكا السي عبدالكريم.

يقفه الجمع، فيما عينا الحاج إبراهيم شبه مغمضتين ومحيرتين في أمرهما. هل هو متعب أم هو نائم؟ لا يمكن للحضور معرفة خبايا الأفكار التي تدور في لب الحاج إبراهيم.

يعلق السي عبدالعزيز، الذي يبدو أصغر الأفراد سنًا:

. هي الجلاية ديال السي محمد والبلغة حُرمت عليه؟

تتعالى من جديد الضحكات. تلتقي نظرة الحاج الذي فتح محجريه مع صخب الضحك، مع بصر السي عبدالعزيز الحجام. تُهدى الجماعة من دوي ليلتها التي ملّح سهرها شالوم الكوني، والذي لم يعلق على كلامهم. فهو نصف ضيف ونصف قضية ونصف مشكلة وأنصاف أخرى تطابقت خوفًا داخلها فيه.

. نغني بشوية الله يرحم واليديكم. يترجى شالوم الجماعة مدركًا بحدسه ذاك القلق: رَدِّدوا معي : آيلي يا لالة ايوا، الغرام ما عنده دواء...

لقد حققت مادة الصامت والمعجون مفعولها. استراحت الجماعة من الآلات واستعانت بكفوفها. تناقل الإيقاع حتى أصبح مساكنًا لليل بدرجة كبيرة. كأن الجماعة تتدرب على كورال صوتي فقط. طلب منهم السي عبدالعزيز الختم بقصيدة النبي العدنان : عاري عليك يا محمد.

الغريب أن شالوم يحفظها ويردها معهم. اندهشت الجماعة وسُرت لتجاوبه معها.

. عزيز عليك نبي المسلمين يا شالوم؟ يسأله السي عبدالكريم بعد الانتهاء من قصيدة مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

. والله حتى قرّبت نسلّم. لكن بني عمومتي منعوني وهددوني. قلت لهم: روحوا لحاكم. انا سأبقى تائها في حالوت حتى يفرج ربي.

يقف السي عبدالكريم من جلسته:

. آسيادنا، الفجر قرّب. لازم يرجع شالوم للفندق قبل خروج الناس للصلاة. نمشي جماعة حتى باب الفندق. يدخل شالوم، ونعطي للعساس هذه البركة ديال الطعام والسوانت (الستيمات).

. ما شخيت بالجلسة معكم آ الاحباب. تشبح على خير آ الحاج إبراهيم.

. تصبح على خير آ سي شالوم. إذا أصلحت الدمليج وعُدت لبيعه، اسأل عني. سأشتريه منك إن شاء الله.

. ما يكون سوى خاطرك آ الحاج. الله يقوي خيركم.



الأيام التي تلت، طغى فيها موضوع حضور شالوم على لقاءات الجماعة. استرجعت بقولها منطق الأمور لتتساءل عن مجموعة من أقواله وأحواله. كان دكان السي محمد الخراز مكان هذه المناقشات غالباً. وكان طيف شالوم اليهودي لا يزال حاضراً بباب الفندق الجديد. اغترب عقل المناقشة عن وجدان ذلك السمر في رياض الحاج إبراهيم.

. شالوم وأجرك على الله. الأخبار عنده كثيرة. يعلق السي محمد وهو منهمك في تخطيط شكاره جلدية. ويتابع:

. أنا لا أفهم ما قاله عن فرنسيس. كلامه يؤكد ما يروج من أخبار وإشاعات. ماذا يريدون بالزاوية؟ ما غرضهم ونفعهم من جعل سكة الماشينا في بلادنا؟ حيرة والله. أرادوا جلب القطار من مكناس إلى زهون. وأرادوا بناء قاعة سينما. العجب هذا.

. أجبني على هذا السؤال فقط آ المعلم. يسأله السي عبدالكريم: لماذا واجه الشرفاء اقتراح فرنسيس بالرفض؟

. يمكن السينما حرام في الشرع آ السي عبدالكريم.

. والقطار، حرام؟ لماذا الصورة مقبولة والسينما حرام؟ السيارة والحافلة والشاحنة، ها هي في الزاوية. لم لا القطار؟

. هذا الموضوع آ السي عبدالكريم، لازم يكون حاضرين فيه الذين درسوا العلم معنا. نتركه لجلسة اخرى.

فجأة يطل الحاج إبراهيم بجلبابه الأبيض وتلغته، نضرا متعظرا، أنيقا، في جولته عبر ممر السوق البراني. من باب الفندق الجديد يناديه السي عبد الكريم الجالس أمام دكان المعلم محمد الخراز:

. تبارك الله على الحاج إبراهيم. مجيئك في وقته. سبحان الله. كنا نناقش شالوم وحكاياته.

. ما شأننا به في هذا اليوم الربيعي الجميل؟

. اجلس معنا لتسمع حكينا. يرد عليه المعلم محمد.

. أبحث عن أحمد الغرابوي الدلال. لم أجده في السوق الداخلامي، قلت أبحث عنه في السوق البراني.

. اطلع للطابق الأول من الفندق الجديد. سيكون عند السي القيسي الدرارز. يمكن أني رأيته يمر بصوف أحمر قبل قليل. الله أعلم.

كان إرشاد المعلّم محمد صائباً. وبعد دقائق معدودة عاد الحاج إبراهيم ومعه الدلال السي أحمد الغرابوي. جلسا قبالة دكان المعلم محمد الخراز، حتى إن الممر ضاق بالعايرين أمامه. لكنها ثقافة زرهونية تجعل قبول مثل هذه التجمعات وشكلها. ففي نهاية المطاف، يلتقي الجميع بقرابة أو صداقة أو عمل مشترك أو قرآن يتلى جماعة أو أخوة في الدين تضم قلوب المؤمنين.

ربما كان السي أحمد الغرابوي الدلال ضيفاً على مجموعة الملحون. لكن ذلك لم يمنع من استمرارها في حواراتها المشتركة، والتي كان حدثها الحديث عن موضوع الماشينا أو القطار الذي تكلم عنه شالوم اليهودي كذلك، بائع الذهب المتجول. وكان الخبر وصحته لم يتأكد إلا بفمه ونطقه. لم يأخذ منهم الخوف من الموضوع حجم الهول إلا بعد سهرتهم مع شالوم.

. هل وجدت مفتاحاً لهذه المحلّة آ الحاج إبراهيم؟ يسأله المعلم محمد.

. كيف نسميها محلّة وهي لا زالت مغلقة وغامضة. ولكن ما قرأت بعض إشارات في مجلة السعادة، هذه الأيام، وما اطلعت عليه من بعض الأخبار، وما شاوري في فيه بعض الأهل وناس الزاوية، يعطيني صورة عن الموضوع.

. بَسِّطْ الكلام آ الحاج إبراهيم. يعلق السي عبدالكريم مبتسماً ومتوتراً في نفس الآن.

. هذا السي أحمد الغرباوي أمامكم. اسألوه لماذا أتى من سهول الغرب وترك أرضه؟ وأصبح يتاجر في الصوف والثوب والدوم وصنائعه دلالة؟ بدل القمح والزرع والشعير؟

. الحكاية نعرفها آ الحاج إبراهيم. أية علاقة بين السي أحمد وحكاية شالوم؟ يرافق المعلم محمد تعليقه وسؤاله مع دقائق مطرقته التي تضرس جنبات الشكارة الجلدية المخيطة.

. لو كانت عندك الأرض الفلاحية في الوطاء والسهل، ستعرف خطر فرانسيس. أحمد الله أنه عندك جنان زيتون في جوف الجبل وشعاب مغلقة.

. الله يبارك فيك آ السي الحاج. همزة كبيرة عندي، ياك؟ يستفهم المعلم محمد موقفا مطرقته مُعلِّقاً بين سماء وطرق.

. في بداية الاستعمار أوقفوا بظهير شريف مُوقِّعٍ بخاتم السلطان استمرار الأملك الجماعية والأحباس، وذلك لكي يفوتوها للاستيطان الفرنسي. وقد تسببت هذه الإجراءات في طرد الفلاحين من أراضيهم الخصبة. عانوا فيها من الإبعاد والحصر. بعدها وزعت الأراضي على المستوطنين. مؤلم الاستعمار. هناك صندوق يسمى صندوق القرض العقاري.

الأراضي الجماعية أخذتها الدولة ويُسيِّرها مدير الشؤون الأهلية وموظف فرنسي ومستشار واثنان من الفلاحين الأعيان. كانت خطة لتفويت الأراضي

للمستوطنين. هكذا كانت ضيعات لويس وجويير وجريماندي مثلا عندنا هنا بزرهون. هكذا تاه السي أحمد الغرباوي وضاعت منه أرضه في الغرب مثلا.

. ما علاقة الماشينة بكل هذا؟ يسأل من جديد السي عبد الكريم.

. هل سيمر القطار في الهواء آ السي عبدالكريم؟

يجيبه الحاج إبراهيم مستغربا وهو يسوي طربوشه الأحمر ويستوي في جلسته من جديد. سيمر عبر الأراضي الفلاحية. وجنبت هذا الثعبان كلها حامية وسامة. سيأخذون أراضٍ هي ملك لأصحابها بالقوة وبأئمة بخسة. وبدل أربعة معمرين ستجد عشرين معمرًا في سهل بورياح وخومان. حتى أنا ستجدني فاقدًا ما أمتلك هناك. وسكان الزاوية سيتركون الفلاحة ويستزقون باب الله. ولو أننا كلنا فقراء أمام الله تعالى الغني الحميد. ما رأيك آ السي عبدالكريم؟

الجنرال ليوطي* عزل مدينة مولاي إدريس داخل شعاع ثلاثة كيلومترات، لا يقيم فيها أي أروبي ولا يزاول فيها أي نشاط تجاري. مثلا الكانتينا (la cantine) التي وضعت وبنيت لأصحاب الخمر، تبعد عن دائرة المدينة بما يكفي حتى لا تثير حفيظة الساكنة. هذا القرار كان في البداية. الآن، بدا لهم اختراق المدينة ليس حبا فيها أو لسواد عيونها. ولكن لأخذ أراضيها ونهب

*- هوبير ليوطي (1854 - 1934): جنرال فرنسي وأول مقيم عام للمغرب بعد احتلاله.

خيراتها الجبلية. السينما ستكون ملهاة، والقطار كرش حاملة وتدرس كل مكان وتعلم خيراته.

. وربما السينما شكاره خاصها تعمز؟ بيع وشراء ومعه الريح؟ يستفهم مضييفا السي عبدالكريم.

. كلامنا يبقى هنا آ الشرفة.

. غرقنا في الهمة آ الحاج إبراهيم. يعلق المعلم محمد.

. وأنت آ المعلم، نشفت ليّ الحلق، ولو كأس شاي. واه !

. هاذ سهل بورياح ما بقي سالما. رياحه خطيرة محمومة، ولو أنها باردة. يضيف السي عبدالكريم.



كثر اللقاء بين الحاج إبراهيم والسيد علال بن المهدي اليازغي. رابط الصداقة والعلاقات التجارية والانتماء لمدينة مولاي إدريس زرهون. كان غرض الحاج إبراهيم هو البحث عن طريقة لتنظيم رحلة جماعية تتشكل من أعيان وشرفاء المدينة إلى الرباط. عساهم يكتسبون عطف السلطان فينقذهم من هذا القرار.

للسيد علال اليازغي رأي مخالف في الموضوع. أولا يأسه من احتمال اتفاق الجماعة على قرار واحد. خوفه من نخاذلها وعدم صمودها في القيام بخطة شجاعة. ثانيا، الحرقة التي تشتعل جمرا في قلبه وفؤاده. تلك الأرض الخصبة التي تحايل عليه فيها أحد الأغنياء الجدد بالعلاقات والنفوذ. أرض كانت سببا في وفاة أبيه المباغثة. هي الفقسمة* بلغة أهل البلد. (مات بالفقسمة مسكين). رغم محاولاته في استرجاعها إلا أنه يتمنى لو سحقت وأحرقت وأصبحت رمادا منثورا في السماء. كلما قرأ آيات الفناء، تخيلها ذاهبة بتلك الأرض المغتصبة احتيالا. لم يكن المغتصب مستعمرا، بل كان من ذوي بلدته بحسب ما يقول ويروي.

*- كلمة معبّرة، تستعمل في الدارجة المغربية، تدل على كثرة الهم الذي يفجر ألما في الأعضاء وتوترا في النفس.

كلما التقى الحاج إبراهيم صديقه علال، بدا له تردده في الذهاب معه في قرار شجاع. يعلم أنه لن يكون من المتخاذلين. هذه طبيعة شخصيته وتربيته. تزداد تساؤلات الحاج إبراهيم. يحاول استكشافها في خطاب علال ولغته وحواراته.

يطول حديث علال عن نفسه وطفولته، تجده دائم التمرکز حول الذات لدرجة إعجاب بها. إعجاب يجمع بين حب الحياة وعدم الخوف من الموت. درجة تجعل صاحبها أقوى في التحدي وأكبر في الشجاعة والثقة في النفس.

في غيابه يسأل عنه أصدقاءه وأهله ومعارفه. دائما يستجمع الحاج إبراهيم دقائق الأمور حول شخصية علال بن المهدي اليازغي. ولعل الغوص في تفاصيل تاريخها سيكون له تأثير جذري في تغيير طبائع شخصية الحاج إبراهيم وتطورها. لكنه لا يستطيع الحكم على هذا التغيير هل هو إيجابي أم سلمي؟ ذلك الأفق في العلاقة مع شخصية علال، والذي يشبه أفق ترقب لأحوال الطقس التي قد تجعلك في انتظار أبدي لا تأتيك بغيث. لعله كلما دخل إنسان جديد في حياتك، كلما احتجت إلى معرفة عمق واديه ومدى صفاء نهره، لكي تستطيع الغوص والعموم سباحة فيه، اغترافا منه، تمازجا مع روحه ووجدانه، تعلقا بذكره وفقدانا لغيابه. هو الصديق إذا. ولا بد للحاج إبراهيم أن يبحث عن خيوط مصاحبته واجتراره لطريقه. وقد استجمع معلومات كثيرة ودقيقة حول سيرته وحياته.

سيكون سي علال اليازغي متعمّده في جبهة النضال. يخشى الحاج إبراهيم الخيانة. ليالٍ متتابعة سرت منه لذة النوم العميق والمريح. كانت تلة باب القصبه في أحد أحلامه مركبا فلكيا وبحريا، متزعزا من مكانه. رأى فيه التلة شبه منجرفة إلى منبسط سهل بورياح. رأى وادي خومان دافعا لها بمصب نھري قوي نحو الهاوية، نحو منحدرات ترميها في أقدار المستحيل والمجهول. رأى عينيه وقد اغرورقتا بدمع النھر، فأصبحتا ممرّ الذي تسحقه التيارات المتضاربة والصخور المرتطمة. رأى تَلَّيَ المدينة عبارة عن عينين فارغتين من سكون الليل أو وضوح النهار. استنتج رعب خوفه وتهديدا وجوديا بالتخلي. حتى سكنه بباب القصبه جعل نفسيته متزعزعة. سلخه البعد عن المدينة أو الإقامة بخارج أسوارها.

. سحقا لمثل هذه الأحلام. هكذا ردد مع ذاته في عمق ليل سرى سرمديا مع مشكلة تهديدٍ لأرضه التي يريد المستعمر أن يجعل سكة الحديد فوقها وعبرها.

. كيف استطاع علال بن المهدي الصمود أمام ما تعرض له من غضب وتخاذل؟

حكاية علال، حكاية الأرض والتراب وحبّة زيتون تدمع فرحا وتشفي الصدر. قصته قصة شاربيه اللذين يعتني بهما كثيرا ويوميا.



رأي السي عبدالعزيز الحجام خلق جدالا ساخنا مع الحاج إبراهيم. صداقة وعشرة فن تزعزت قوائمها ودعائمتها في رحلة تيارات متضاربة تفرقت آراء رعدية تدوي بصخب مغايراتها.

في البداية، كان الاتهام قويا وعنيفا من طرف الحاج إبراهيم، داخل دكان السي عبدالعزيز الذي تحول إلى برلمان مصغر ومشكّل من ثلاثة أفراد وثلاثة آراء: الحاج إبراهيم، السي علال اليازغي، والسي عبدالعزيز الحجام.

اتهم إبراهيم السي عبدالعزيز بالخيانة، وتعاطفه مع المستعمر، بترويجيه لما يقوله الخونة المنتشرون في الأحياء والأسواق:

. كيف تدعو وتشجع على مشروع استعماري؟ أنت إذاً في صفهم. هذا موقف خيانة.

. ما العيب آ الحاج إذا كان هناك مشروع فيه مصلحة للبلاد؟ ألم تأت الطريق المزفتة والسيارة والحافلة؟ ألم يصل الراديو والهاتف؟ القطار فيه سلعة وتجارة وزيارة. سمعت أنه أكثر أمانا من الحافلة. تركب الأرواح فوق سطح الحافلة،

وكلما سقط منها فرد ومات، ترخّنا عليه يكون مثل مشهد موت ذبابة.
حرام هذا.

. والأراضي التي سيأخذونها منا؟

. بَعْها لهم واشترِ أخرى. يرد عليه السي عبدالعزيز ببرودة تخالف انفعال الحاج إبراهيم وفورة دمه. استشعر السي عبدالعزيز حالته الغريبة، لكنه لم يُرد أن يقول إلا ما يراه بعقله مناسباً.

يتدخل علال اليازغي معلقاً:

. أ تظن أن الأرض تعوّض بأخرى. الأرض مثل الأم، بل هي الأم. هل يمكنك أن تعوّض أمك بأخرى؟ هل تملك أرضاً آ سي عبدالعزيز؟

يصرخ الحاج إبراهيم من جديد:

. أنت، لازمك تدخل من باب صنهاجة حتى تتطهر. يمكن أنك في نجاسة حتى في الكلام.

. آ الحاج، آش وصلنا لهذا الكلام. ليس لهذه الدرجة. أ تظن أنك ملاك مقدس؟ يبدو أنه ليست لنا قيمة عندك.

ينصرف الحاج إبراهيم في فورة دمه، وزيد فمه ملتصق بشفته السفلى. بينما يعتذر علال اليازغي لما صار إليه الحوار، وينصرف هو الآخر إلى منزله.

يقف السي عبدالعزيز أمام دكانه متأملاً المارة وطيف الحركة بالسوق، بينما غليان ذهنه استنهض أفكاراً جاثمة وباطنة. فقد اهترت أسس ودعائم غير مرئية لعلاقته مع الحاج إبراهيم، بعد ما صدر عنه من كلام. السيد عبدالعزيز، له جبله وقبيلته وامتداده التاريخي هو الآخر. أكثر من ذلك له إيمانه. طفا على لسانه في ديبب كلام وبصر شارد، الاستغفار والعياذ بالله. لم ير أمامه إلا غبار الطريق غير المزفت، وأبواب دكاكين ومظلات مهترئة وألبسة بالية ونعال معظمها ممزقة تحترق بصره. جدران منازل بعيدة غير ناصعة وبعضها متهدم من جوانبه...

تحولت الابتسامة التي رغم ارتسامها على وجهه إلى خطوط جليدية ساخرة من اللحظة. ارتطمت مع آذانه الداخلية آلات الملحون في صخب متساقط ومنكسر. طائر روحه تناثر ريشه وعاد الصبي الداخلي في حزن الفقد.

أيمكن لنقاشٍ بين أصدقاء أن يكسر مرآة العلاقة التي رُسمت عليها أخوة وصدقة؟ أن يصبح الإنسان عدو الإنسان في رمشة عين؟

حوّل اهتمامه إلى تنظيف دكان الحلاقة. اخترق زبون عالم تيهه وأرجعه إلى عقل العالم، عالم زرهون وعالم مولاي إدريس زرهون.

خاطب نفسه وهو يخلل أصابعه في شعر الزبون: مع مَنْ ستقاوم ومع مَنْ ستطور البلاد؟

نفض الفوطة لكي يجفف بها الرأس المبتل، وجفف معها نبع التساؤلات الذي
يسيل حمما وليس ماء، ثم عاد لعمله مؤجّلا ما هو قدر على النفس وعلى
الآخر.



حكاية مدينة، اكتسبت ثقافيا واجتماعيا وتاريخيا قداستها. باب صنهاجة هي المسماة كذلك باب الحجر وبعدها باب الزهر. رغم أن باب الحجر هو اللقب الذي بقي ملتصقا بها، فإن وظيفتها كما حكايتها أنها كانت بجانبها سقاية ماء، وغرفتان على اليمين وعلى الشمال. من يريد الدخول يستحم بهما. على اليمين مكان اغتسال الرجال، وعلى الشمال مكان اغتسال النساء.

رغم أن الملاحظة تذكر بقصور الصحراء وبنائها المغلقة والمحاطة بأسوار عالية، فيبدو أن الظاهرة ممتدة لتعطي طابع الطهارة والقداسة والرعاية البيئية الخاصة بمكان مدينة أو قصر أو قسبة أو قرية. رمزية لها بعدها الحضاري كما الديني. لكنها هنا ستزيد في دلالتها ارتباطا بمقام الضريح الذي سيحذب الأنظار والتفسير والشرط المطلوبين لهذا الاغتسال. خصوصا كذلك وأن زوار المقام الآتين من مناطق أخرى ينزعون أحذيتهم ونعالهم كلما أتوا لدخول مدينة المولى إدريس الأكبر. تجدهم حافيين الأقدام وهم في قصدهم لضريح المدينة الرئيسي، رافعين أعلاما تحمل هدايا زيارتهم وأثواب نسائهم وأعلام قبائلهم

أو شعار توحيدهم وانتمائهم الإسلامي. هوية تتجذر مع هذه الطقوس التي تكون خارج دائرة القبيلة أو العشيرة لتكون داخل دوائر المجتمع وتشكل ثقافته وتنوع أماكنه ووظائفها الدينية والسياسية والثقافية.

دخول المدينة هو دخول لمكان مقدس. حج المسكين أو الحج الثاني بعد مكة. على الأقل في بلد المغرب الأقصى في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين.

حكاية باب صنهاجة، حكاية محنة الحرفيين اليهود الذين يلجون المدينة للاستزاق بها، والذين يؤويهم مع مهنهم فندق خاص يسمى بفندق اليهود، هذا الذي تحوّل مع مرور الزمن إلى مقر مؤسسة خيرية ودار للعجزة. في صمت غريب وغياب عجيب، أغلق السي عبدالعزيز دكانه ولم يظهر له أثر لأيام عدّة. خلالها كان صخب الموضوع يفور ويفور. كانت حملة المخبرين لأجل استحسان مشروع القطار وقاعة السينما. كان البعض مؤيدا والبعض الآخر معارضا. وكانت درجات الاستيعاب لأبعد التأييد والرفض متفاوتة بين شخصيات وأهل البلد.

تباعدا رأيا سي علال مع رأي الحاج إبراهيم. لم يعد الأول متحمسا لخوض موضوع ومعرفة تداخلت فيها حقائق الذات مع الموضوع. فلتات لسان الحاج إبراهيم أغضبت علال اليازغي كذلك. وما زاده غضبا أن الحاج إبراهيم في

اليوم الموالي، لم يبحث عن سبيل اعتذار ولا سحبٍ لكلام صدرَ عنه جارحا ومتعسفا عن مَنْ الطاهر ومَنْ المدنس في البشر وفي اللسان؟

يرفض علال اليازغي إعطاء الشرعية لمثل هذه التساؤلات، وهو المجترح بداء الغضب والحيف والحرمان، من الأرض ومن الوالد الذي مات بصدمة الخديعة التي نزعت منه أرضه، ليس من طرف المستعمر، بل من مستأمن في الدين والإسلام ومصالح العباد.

يُرأود سي علال السؤال النافذ:

تُرى، لو لم يكن للحاج إبراهيم أرض في منبسط سهل بورياح، ولو لم تكن معرضة للمصادرة من أجل مشروع القطار، أكان سيتخذ موقفا معارضا؟ وهو الشغوف بمجديد الصناعة الحديثة والمنتوجات العصرية الجذابة؟

لحظة واحدة، قد تكون كافية لولوج عالم مخبئ واستكشاف أسراره. مَنْ مع مَنْ؟ وَمَنْ ضِدَّ مَنْ؟ مَنْ ناصر علال اليازغي في محنة فقدانه لأرضه سابقا؟



كان السيد عبدالعزيز من أقرباء زوجة السيد علال اليازغي. يعلم بإقاماته وعلاقاته. حينما لم يظهر له أثر، عزم بخطوه من أجل طرق باب سكناه بحي الخطاطبة بحير، ذلك الحي المحصن بأسواره وأبواب أقواسه والمطل على الجزء السفلي من المدينة والوادي العميق من الجهة الغربية الجنوبية.

ما دار من حديث بينهما حول المواقف، واتخذت تداوير في الكلام كما في العلاقات. اتفقا على عدم الإفصاح عن مضمون حوارهما. لكن تفسيره قد تسعفه تصرفاتهما التي تلت اللقاء.

للأماكن هويات وبطاقات تعريفية تاريخية. لها ذاكرتها وثقافتها. لها أرواحها التي تسكنها. وحينما تتفاعل الذاكرة مع الأرواح تعطي حيوات غير مرئية لها. ذلك ما استنتجته دائرة السي عبدالعزيز من أصدقائه ومعارفه.

اختار سمه الفني بمقهى مولاي سليمان، الواقع بباب الرشاش خلف القوس المقابل لطول شارع السوق البراني. مقهى رسم لزهون شخصيتها الفنية والاجتماعية وتاريخها الفريد في عالم الطرب وفن الملحون. كان صاحب المقهى من المولعين ومن الفنانين الأساسيين في جوق الملحون. إنما جوق الملحون وعالمه قيمٌ وثقافات وتقاليد وأسلوب عيش. إذ يصعب على شخص

ما أن يعلن ويتصرع بانتمائه إلى عالم الفن داخل مجتمع تقليدي متشبث بالصورة الدينية وسلوكها الاجتماعي. فحدود التماس بين المطلوب وبين المنهي عنه متقاربة كاللهيب حول الحمى. وذلك ما يجعل الناس يتوجسون من شرع أبوابه لأرواحهم ووجدانهم.

ربما تكون دائرة الملحون الأولى مع الحاج إبراهيم قد اختارت أوقاتها ومكانها وأشخاصها، وفي الأمر تجانس وتقاطع طبائع وشخصيات. لكن الأصبغ في العلاقات البشرية ما تستبطنه أنفسها. يبقى الإنسان غريب الأطوار وعدو نفسه التي يجهلها، ما باله بمعرفة نفسية الآخر وما تحتويه من غرائب. كيف يمكن للجرح أن يتداوى بجرح آخر؟ ذلك اختيار لعالم جديد وعلاقات جديدة.

كم يهاب المستكين لهدوء المجتمع وتوازناته كل التيارات الشاذة عن القاعدة. الجهر بالانتماء للفن والطرب. الانخراط المؤسساتي داخله في جوق سمر واحتفال. ذلك جوق ملحون مولاي سليمان. ومقهى مولاي سليمان ذاع صيته تاريخيا. كما تعلم في الرواد الكبار في الحفظ والأداء والعزف. يكفي أن نذكر الفنان الحسين التولالي الذي كان يأتي من مدينة مكناس ليتلقى ويحفظ. وقد كانت أسماء محلية مثل (ابن راشد)، و(حمّاد)، و(العربي العويّنة)، و(البيديني)، و(ميرا)، إضافة إلى مولاي سليمان، هي الرائدة في عالم الملحون داخل عالم زرهون وما جاوره ببلاد المغرب. لقد كان المقهى المكانَ القطب

الذي يأتيه عشاق هذا الفن من كل بلاد المغرب، وخصوصا أيام الموسم السنوي. كان العربي العويبة يتقن العزف على آلة الكمان، وكان يُعلّم رواد الآلة في الملحون الذين يأتون من الرباط وسلا ومكناس.

كان السي عبدالعزيز قد اتخذ قراره بالالتحاق بالمقهى في المساء. يجلس هناك زهاء الساعة قبل أن يصعد إلى منزله عبر درج صابة • الحمام الجديد. والجلوس بالمقهى لم يكن طربا فقط، بل كذلك تداولا لمواضيع شتى، من بينها موضوع القطار.

قد يغلب على الجلسة دخان الكيف المتصاعد من عيدانه المخصصة له (السبسي)، لكن السي عبدالعزيز تأقلم معها مثلما تأقلم مع جلساتها منذ صغره مع مدخنيه.

لم تُخرجه الجلسة الأولى، ذلك أن منطق التجارة حاضر. الترحاب وعدم الاستفسار. كما لم يتلق أسئلة مباشرة من طرف أصحاب النظرات الفضولية الذين سرعان ما يخفونها ويظهرون اعتيادية للأمر ولما يجري معها. وكل شيء له سببه. لكن كل سبب له أوان ظهوره بشكل طبيعي. وما دام السي عبدالعزيز ليس بالغريب، فهو (المعلّم) وصاحب الدكان للحلاقة والحجامة بالسوق البراني، وابن البلدة. وبما أن زبائنه من رواد المقهى كثير، فإنه لم يجد

• هي تسمية النفق الذي يكون ممرا تحت البنايات. وهنا يأخذ شكلا متصاعدا إلى الاحياء العالية في موقعها حتى قمة الربوة أو الكتلة الجبلية التي تشكل فوقها عمران البنايات وهندسة أحيائها.

صعوبة تحول دون اندماجه في مناقشة مواضيع شتى، منها موضوع السكة الحديدية والقطار وقاعة السينما.

إنما الجديد هو عالم السخرية الذي يطبع الحديث في المواضيع الأكثر جدية. سخرية قد تكون تحليلا عميقا وانتقادا دقيقا. سخرية تلج إلى مختلف زوايا وجوانب الموضوع كما إلى حياة المجتمع الزرهوني. تجد فيها أبياتا من قصائد الملحون، كما من ديوان سيدي عبدالرحمن المجدوب، كما من حكم المدينة وثقافة المجتمع المغربي.

ما كان مقلقا ومتوترا للحاج إبراهيم ومغضبا له في تناول الموضوع وجدّه السيد عبدالعزيز هنا في مقهى مولاي سليمان، مقهى الملحون، ضحكا واستغرابا متجاوزا، تمحو همومه لوحات الكمان والعود في الأداء وسُحب الكيف والسجائر في التدخين.



حينما تسكنك مدينة يعني ذلك أنها تعيش بدواخلك، بأنفاسها وخيالها وظلها، قبل أن يتحقق ذلك في معانيها المادية والتفاعلية.

يمر ظل شخص فتتعرف عليه منه ومن صوت خطوه وقرعه، من توقيت مروره أو نحنحته. تنتظر تواصله أو سلامه، أو إنك تبادر إلى مكالمته قبل أن يعبر مقام جلوسك أو وقوفك. تلك سياقات الحياة اليومية داخل المدينة الصغيرة مولاي إدريس زرهون. وظائف شوارع وأزقة، وأدوار مؤداة لضرورات العيش أو للتواصل المجتمعي داخلها، يعيشها سي عبدالعزيز كما غيره من سكانها. تجد غيمة نفسية مظلمة لروحه أو مظلمة لانتباهه. لكن مثيراتٍ ومنبهات تعيد الذهن إلى وظيفة وعيه وتواصله.

مرّ الحاج إبراهيم بعد ستة أيام من أمام دكان السي عبدالعزيز. صادف ذلك نفض هذا الأخير لفوطة ونشرها على حبل أمام باب الدكان. كان ظل السي عبدالعزيز منشغلاً حينما مرّ طيف الحاج ولم يفش السلام على صديقه. وكأن الصديق توقّع ذلك. وكأنها بداية تفسير لما دار بينه وبين السي علال اليازغي. عاد لدخل الدكان وتابع عمله وحلاقتة لزبون. بادر ذهنه لتشغيل قسيمة

ملحون عطّرت سمعه الداخلي بما يبعد عنه قلق كل سؤال أو حسرة على سلوك مجهول ومرفوض.

فيما بعد صلاة العصر، التقى السي عبدالعزيز بالسي محمد الخراز بالقرب من دكان الأول. استفسره سي محمد عن عدم تكلمه ومحاطبته للحاج إبراهيم:

. السي عبدالعزيز ما بك؟ لماذا لم تكلم الحاج إبراهيم حين مروره؟

. السي محمد. كلنا مسلمون. من عليه أن يفشي السلام المارّ بخطوه أم المنشغل بعمله؟ أنا لم أراه إلا حينما تجاوز باب الدكان في صمته الذي يذر رماد اليباب.

. كان عليك مكالمته. ربما يكون قلقا أو غاضبا من شيء ما.

. كلنا أولاد تسعة أشهر آ سي محمد. اللهم إذا كان هو يعتبر نفسه أفضل من الناس أو إنه شريف يحتاج إلى تمسح بمقامه.

. أعوذ بالله. ليس هذا ما نويته.

. لقد غضب من رأيي في موضوع القطار. واقترب من سيّ. بل أكثر من ذلك دعاني إلى التفكير في الاغتسال بباب صنهاجة أو باب الحجر قبل الدخول إلى الزاوية. وكأنه هو فقط من ينتمي لها أو إنه هو الطاهر فيها.

هل أصبحنا في مقام اليهود عنده؟ أو الزائرين الغافلين الذين يزورون المدينة؟
من مقامه لقرون هنا؟ أنا أم هو؟

. ربما كان مازحا. تعرف الحاج إبراهيم.

. ولماذا لم يفش السلام إذا؟ كل شيء له حدوده آ سي محمد. دع الأمور
تسير واتركه في راحته. يوم يتساوى مع باقي الناس مرحبا به. أما إذا ظن أنه
أفضل منهم، حينئذ رحمه الله. ليعيش بظنونه وأوهامه. كلنا أهل كرم ودين.

. صحيح. الله يهدي من خلق. أزيحوا هذه الغمامة وأبعدوا عنا مرض العداوة.

ساد صمت كبير فضاء الدكان بعد ذهاب السي محمد إلى عمله. بعض
الأصوات التي تخترق مسامع السي عبدالعزيز، كانت توقيعا للعاذي والمعتاد
في يومه هذا. مساء ذلك اليوم وكعادته الجديدة، عرج على مقهى مولاي
سليمان. كأس شاي بنعناع من منتوج بساتين الساحل الأخضر أسفل سور
ممر الرشاش. مواضيع شتى تناولها الحاضرون، من بينها موضوع الرسالة التي
ذهب بها وفد من أعيان المدينة إلى مقام السلطان بالرباط، وتلك التي تسلّمها
القايد لكي يوصلها إلى مقرّ الحماية بمدينة مكناس.

كلّ التعاليق كانت حاضرة بأقصى أطرافها المتناقضة. لكن الجميل، أنّها
جميعها كانت باعثة على الضحك والانشراح وتناول الموضوع بما ستيسر به
الأقدار.

في نفس المساء، كان لقاء الحاج إبراهيم مع جماعة الملحون بمنزته داخل رياضه. جلسة دامت نصف ساعة تقريبا قبل أن يبادر أعضاؤها إلى الانصراف بأعذار مفتعلة. حين أكد وأصر الحاج إبراهيم على نفس كلامه وموقفه من السي عبدالعزيز، اعتبر الجميع أن المسألة إهانة لهم. تعالى كبرياء الحاج إبراهيم بشجرة الأنساب ومقام مولاي عبدالسلام ومولاي إدريس وشفاعة الرسول. كثر كلامه حتى أصبح شبه هذيان لم تستسغه الجماعة الحاضرة. في انصرافها، كان الأول على مشارف باب القصبية في اتجاه منحدر طريق الرشاش، بينما الأخير منهم وقد انتعل بلغته حيا صاحب المنزه بتحية السلام والتحق بالباقيين مسرعا الخطى حتى يقترب منهم أكثر في الكلام كما في الخطو والمسير.

. السي عبدالعزيز، قال كلاما حكيما هذا اليوم: الله يرحمه. فعلا إذا كان الحاج إبراهيم بهذا الفهم والموقف، فالله يرحمه. أخطر ما في الحياة هو أن تفرغ غضبك إهانة لمن حولك من المقربين.

. لكنه هنا تجاوز حدود الغضب. كأننا رعا ع من حوله. أين ذهبت الأخوة الدينية ومحبة الإسلام؟ هل هو وصي على الجنة وبائعها في الأرض؟ هل هو أفضل من الآخرين بحكم أنه شريف ولد النبي؟ راكم سي عبدالكريم بن سليمان تساؤلاته الراضية لما فهمه.

. صدمة والله. وكأننا جئنا نسعاه رزقا في طلب تذويب هذا الأمر مع السي عبد العزيز. والغريب أن السي عبد العزيز لم يتناول معنا المسألة بما فيه كفاية. اكتفى بالرد على استفساراتنا فقط. هكذا استغرب السي محمد الخراز وهو يتقدم خطو الجماعة حتى توقف أمام درج مقهى مولاي سليمان وخاطب مرافقيه:

. تعالوا ندخل لمقهى مولاي سليمان.

مفاجأتهم أنهم وجدوا السي عبد العزيز منسجما مع إيقاع الطرب بترديده للآزمة القصيدة (روحي يا الغزال فاطمة)، ومرددا بتصفيقه على لحنها. اتخذوا جلستهم في الأمكنة الفارغة التي وجدوها. أذابت قصيدة (فاطمة) شجونهم، وأدخلتهم في رحلة صورها وغنائها. بينما تعالى خيط دخان الكيف من 'السبسي' الذي كان بين يدي سي محمد الخراز. السبسي، توقيع التواصل اليومي بين المدمنين عليه والمتحاورين داخل سحبه.



كثرت لقاءات الحاج إبراهيم مع شخصيات عدة من داخل مدينة مولاي إدريس زرهون. جالس القايد، كما جالس مترجمي فكرة المقاومة الجديدة الذين بدأوا بتعبئة وتفكير فيها. كان لقاؤه بالسي عبدالكريم وعلال مفيدا في ضرورة تجاوز الخصومات الداخلية بين الأفراد. بينه وبين جماعة الملحون. شكا الحاج إبراهيم لهما موقف ورأي سي عبد العزيز من قصة القطار. وقد اعتبرها السي عبد الكريم ثانوية بالمقارنة مع ما ينتظرهم من حسم في مواقف جديدة. عاود التذكير بوثيقة المطالبة بالاستقلال وعريضة 1944. وكذلك خطاب السلطان محمد الخامس بطنجة 1947. تحاذل فرنسا عن وعدّها بما بعد الحرب العالمية الثانية. وضع فلسطين الذي شُنّت فيه حرب خاسرة مع دولة إسرائيل المستتبّنة فوق أراضيها. الوعي الجديد الذي بدأ ينتشر عبر البلدان العربية ومع صوت القاهرة والرسائل الحماسية لقائد المقاومة الريفية محمد بن عبدالكريم الخطابي، من بلاد مصر وعبر أثيرها.

بالمقابل، اعترض بعض مريدي لقاء سي عبدالكريم المقاوم على تقربه من الحاج إبراهيم أكثر وثقته الزائدة فيه، وهو يحمل أفكارا لا تمت إلى الأخوة التضامنية والشعبية بشيء. تحقّظ في التفصيل في هذا الموضوع، لكن السيد

عبدالكريم عرض المشكل على إمام المسجد لكي يكون هو الناصح للحاج إبراهيم ولكافة المصلين. وكانت خطبة الجمعة الأولى من شهر رجب لسنة 1368 الموافق لشهر ماي 1949، والتي ألقاها الحاج العربي بالمسجد الأعظم الكبير، تدور حول مطبة الخلاف بين المسلمين ومخالفتها لمبدأ الأخوة الدينية:

(أحبتني في الله، يقول المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم: عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْسَّهْرِ وَالْحَمَى). صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عليه السلام: (المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا). و نهي عن الفرقة، ودعا إلى الصلح بين المسلمين. كما توعّد المفارق للجماعة:

صح عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام. متفق عليه.

وروى أبو داود والنسائي بإسناده قال المنذري: إنه على شرط البخاري ومسلم: فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار.

أحبتني في الله، لقد أنعم علينا الخالق سبحانه في هذا البلد الآمن والسعيد، بهذا الجبل المفتخر بإيوائه سبط الرسول الكريم، ودعانا لكي ننشر البر

والإحسان ونكون قدوة لغيرنا ممن يأتون للزيارة والتبرك بالمقام الشريف. فكيف سنقوم بذلك ونحن ننشر العداوات والقطيعة بين قلوبنا ونسحق هواءنا بالأحقاد؟ من تجاوز ثلاثة أيام في مقاطعة أخيه فليحذر عذاب جهنم. نُجَانَا وإياكم منها، آمين...).

كانت كلمات الخطبة تنتشر قشعيرةً في جسد الحاج إبراهيم، الذي علم أنه معني مباشرة بمضمونها ورسالتها. لقد سبق للإمام أن جالسه خصيصاً بطلب من السي عبدالكريم المقاوم. سمع الحاج إبراهيم منه وبرّر موقفه، لكنه اعترف له بأن حالة الغضب هي التي جعلت مثل ذلك الكلام يصدر عنه. شكاه له مقاطعة الجماعة له.

.المسامح كريم آ الحاج إبراهيم. وأنت حاج لا بد لك أن تصل دينك بالتسامح والصلح لكي تصل دنياك بأخرتك طالبا العفو والمغفرة من الله تعالى.

مناخ صلاة الجمعة جعل الخطبة تنفذ إلى أعماق وجدانه وتصحي ضميره وتبين له زاوية الخطأ الذي ارتكبه.

في صفوف أخرى داخل فضاء المسجد الفسيح، كان رفاق الحاج إبراهيم خاشعين كذلك في إنصاتهم لخطبة الإمام. وكانت صخرة الكبرياء صامدة غير متزحزحة عن إيقاظ لورقة رحمة وعفو وتسامح. لكن عفو السماء لا يكون إلا مع عفو الأرض: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

من يذيب هذا الجليد لكي ينبت زهرا فائحا بعطر المحبة من جديد؟ ما لم تستسغه الألسن ككلمات ولم تجد له مفردات هو هذا السؤال المدفون في أعماق الوجدان، والذي تهيأت له الأرواح.



(هجرتي لمقام وهجر خلاّني
يا ناس، قلبي انساه وانساه مع عشرايني
فتّحت الورد والزهر
قطرتو محلاه
فينكم آ عيون اعياني
هجرتي قلبي وما لقيت دواه
بقي ساكن في روح المعاني
لو ما كان ربي كريم
و شفيعي طه العدناني
كنت تركت رجايا
و حرقوني محاني

لو كان السما سقف مغلوق

و لا نبي ضوءاً طريق الانسانِ

حمدتُ ربي

بالرحيق المختوم

و بالسّرّ وبسامو

رويت به قلبي

سكّرتني وسقاني).

تلك كانت القصيدة التي نظمها الفنان براشد، والتي افتتح بها جلسة النزهة التي جمعت أهل الملحون في بستان عرصته على مقربة من عين القصر.

كانت جلسة ما بعد العصر، وقد تكلفت كل مجموعة وكل فرد بإحضار الحاج إبراهيم، والسي محمد الخراز، والسي عبدالعزيز الحجام، والسي عبدالكريم بن سليمان. وقبل أي كلام، كان المقام للحن والقصيد الذي خصّسه الفنان براشد للصلح بين الأربعة. يبدو أنّها كانت جمعة مباركة، تحالف فيها المقاوم مع الإمام والفنان لأجل تذويب جليد الغضب والأسى الذي حرق قلوبا، جماعة الملحون التي احتضنتها أسرّتها الكبيرة في جنان عين القصر الغنية بفواكهها العذبة المذاق:

جبل تضاحكت البروق بجوه فبكت عذاب مياهه بعيون

وكأنما هو بربري فاقد في لوحه والتين والزيتون

حييت من بلد خصيب أرضه مشوى أمن أو مناخ أمون.



الحاج محمد بن راشد، شاعر شهدت له مسيرته الاجتماعية والفنية والشخصية بمقامه ونبوغه في عالم الملحون. وجه آخر لتألق هذا الفن داخل عوالم زرهون الاجتماعية والفنية. عشقٌ للحياة بألوان الربيع الدائم في جنان الروح ليل نهار، ذلك وقع الفن في الفؤاد. ذلك إكسبير وترياق الخلود الذي يحطم رماد الرتابة اليومية الذي لا يعد دائما بفرح وكمال.

لم يكن الحاج إبراهيم ليقارن عشقه للملحون بعشق الحاج بن راشد. لكن (للناس فيما يعشقون مذاهب). حقا إن الحاج إبراهيم يستضيف أصدقاءه في منتزه رياضه وبعض الضيوف الذين يصادفهم اللقاء. لكن الحاج ابن راشد كان مدرسة مفتوحة ومحتوية للرواد والشيوخ والعشاق طول السنة. فموسم مولى إدريس زرهون تكون معه أبواب منزله مفتوحة ومشرفة لضيوف الملحون من مختلف مناطق ومدن المغرب. مقر حقيقي لفن الملحون بإيوائه ومأكله ومشربه وسمره وطربه. ليالي الملحون رسمية بدار الحاج محمد بن راشد. الفنان أكومي، والفنان التولالي، وغيرهما، يأتون بعائلاتهم وأعضاء جوقهم ويحيون

الحفلات بمنزل الحاج براشد وبمقهى مولاي سليمان وبمخارق قرية من أسوار زرهون التاريخية. وقد استمر ذلك حتى العقد الأخير من القرن العشرين وليس فقط في مرحلة الأربعينيات أو الخمسينيات.

لذلك كانت نزهة رواد الملحون بمدينة زرهون بعرضة الحاج براشد تقليدا يوقع به كل عاشق وفنان انتماءه وتقديره ووفاءه لهذا اللون الجميل الذي ترقص به الروح في سماوات الخيال والفرح.

حضور الحاج إبراهيم، والمعلم سي محمد الخراز، وعبدالكريم بن سليمان، والسي عبدالعزيز الحجام، كان امتحانا لشخصية الفنان التي يجب عليها أن تتجاوز العداوة والهجر، لأن هجر الإنسان لأخيه الإنسان هجر للروح وريع الحياة. هي عروة تنضاف إلى العروة الدينية الوثقى. فهل تنجح نفسيات المذكورين والمدعويين في تجاوز اختبار الطبيعة قبل المجتمع وقبل اللمة التي تمتلك حسا نقديا دقيقا ورهيفا وعميقا يقتلع بالحرف بذرة البرعم وصلابة الصخور.

تحت شجرة الجوز الكبيرة والوافرة الظلال في شهر ماي الذي حميت أشعة شمس، كانت الجلسة المركزية للحاج محمد بن راشد ومولاي سليمان واليدين وحامدة والعيونة وعبدالكريم بن سليمان ومحمد الخراز... في دوائر ظل تحت أشجار أخرى متفرقة حول شجرة الجوز، كانت جماعات صغيرة متابعة ومشاركة في حفل النزهة.

وكانت المحاكمة الفنية والاجتماعية للخلاف الذي وقع بين أفراد جماعة الحاج إبراهيم.



من بين الحضور اللافت للانتباه لمن كان جديدا على ثقافة الجلسة الزهونية، شخصية قد لا تدرك جنسها. قد لا تعلم هويتها. قد تستغرب لصوتها. لكنك حينما تتفاعل مع وجودها وحوارها، ربما تستطيع إدراك بعض من هذا أو اليسير منه.

كانت هي المحور المحرك لتفاعلات الزهرة القصيرة التي ضمت رواد الملحون بهذا المنتزه المفتوح في هذه العرصة الظليلة والتي تحتوي على أحلى فواكه الموسم، من برقوق أحمر وأصفر، وتوت، وإجاص، وعنب تخرق جذوع داليته الأشجار فتلتف بها في التحام يمزج الفواكه داخل جنان معشوقة بالجنة الأرضية قبل الآخرة.

امرأة في أواسط أربعينياتها. طويلة القامة، بلباس رجالي، تنتعل بلغة لا تدل على جنس ذكوري أو أنثوي. قد تخلق أبعادها الأسطورية في تأويل الغموض الذي يلف بها. باستثناء الوشاح الذي يجعله حول رأسها في شكل رزة أو عمامة، والذي تنسدل تحته شعيرات ذاهبة إلى بياض شيب أنثوي، فإنك تستطيع تأمل صفحة وجهها المخترقة بقسمات الزمن المخيف لتاريخ أفراد داخل أمة عرفت المجاعات والأوبئة والسيبة وانعدام الأمن أو الأمان على

النفس كما على مكونات وجودها الأساسية، حينها يمكنك أن تبدأ في استكشاف هذه الشخصية البارزة في مجلس نزهة الملحنون.

كانت هي المتواضعة في مشيتها، الفارضة لاحترام خدماتها، توزع كؤوس الشاي بين الحاضرين، وأطباق اللوز والجوز. أما فواكه الموسم، فقد كانت معروضة فوق منديل ثوب كبير في مجبوحة المجلس الفني وحضوره.

. من منكم يستطيع نزع قبعته أو طربوشه ووضعه فوق منبسط هذا المنديل؟
يستأذن المعلّم محمد الخراز في طلبه هذا الذي بدا غريبا.

. لقد ذكّرنا بواقعة المعلّم الفريدي الذي سبّه أحدهم وقال له: آ اليهودي.
حينها قرر أن يدخل السوق بشاشية أو طرييش يهودي. وحينما استدعاه الباشا، وحكا له المعلّم ما وقع له من إهانة، استدعى هذا الأخير الشخص الذي سبّه، ونهره وطلب منه الاعتذار حتى لا ينزل فيه عقابا.

كان ردّ الفنان العويّنة مستحضرا لهذه الحادثة التي بقيت درسا تربويا لعالم المجتمع الزرهوني الذي لا يخلو كما باقي التجمعات من ثقافات سب وشم وإهانة تفرضها تدافعات الجهل والمصالح والهويات الضيقة الدنيئة في أوهامها.

. من يدعو أحاه في الإسلام إلى الاغتسال والتطهر قبل الدخول من باب صنهاجة أو باب الحجر، حتى لا يدنس الزاوية، فقد أهانه في دينه. يستطرد المعلّم محمد الخراز.

يتقدم المعلم محمد ويضع طاقيته فوق البساط. يتبعه آخرون. تتجه الأعين صوب الحاج إبراهيم. ينزع هذا الأخير طربوشه الأحمر ويضعه هو الآخر. تتعالى الضحكات المازحة. يقوم الفنان حمادة وينزع طاقيه السي عبدالعزيز فيضعها فوق رأس الحاج إبراهيم.

. ما رأيك آ الحاج إبراهيم؟ يسأله حمادة.

. الله يجعل القلب سميحاً. يرد الحاج إبراهيم، ويتابع: حالات الغضب نقول كل شيء. لو حاسبنا الله على لساننا لاحترقنا بسببه في الدنيا قبل الآخرة. يقوم لمعانقة السي عبدالعزيز. يتعالى التكبير والحمد. تبدأ التعريجة في الدف وترتيب الإيقاع. تنبسط السرائر ويتم تبادل الربت على الأكتاف. ينطلق الإنشاد من تحت ظل شجرة توت مقابلة لشجرة الجوز:

(سألت الورد، هو سألني

ما بك مهموم مكمش مغموم

قلت له القلب الذي سقيته جرح أوشاجي

العطر الذي أهديته له به أصبحت مألوم

جوابه في الحين كان محتوم

سيرة مدينة ونسيج حياة

أنا جلايلي نشرتها لنور الشمس

و رحيقي أرسلته سفير من محروم

كلمة غسل تداوي الجراح

و بسمة شمل تحلّي الكل مكمول

سولّوا الجارة على ولد البلاد

كان جوابها هو الفار

حيث كل واحد منّا النهار الاول بني الدار

و قبل منها فين كان هذا البشّر؟

سولوا عين القصر على شربة العين

قالت لهم هي مُلال غرست شوكها ومشات

اللي سقاني وتبّت اغصاني هم رجال البلاد

كونوا رجال او اولاد

كلكم رجال البلاد

محبّتكم جامعني

سيرة مدينة ونسيج حياة

كلكم رجال البلاد

كونوا رجال

كلكم ولاد البلاد

و محبتكم جامعني

يا أصحاب المعاني).

البعض منهم آثر المبيت بالعرصة داخل النوالة الكبيرة التي توجد بها. الآخرون عانقوا الخيوط الحمراء والقرمزية لغروب الشمس، والتَّحَفُوا بها في عودتهم إلى منازلهم. منهم من آثر الرجوع من باب الزهر، ومنهم من فضّل اختصار ذلك من مدخل حي بني يازغة القريب من طريق عين القصر. بينما عيون الذئاب، كانت متربصة بالداخلين إلى الزاوية من أهلها مثنى وثلاث ورباع. قوس سهامهم يشتدّ تساؤلاً:

. أين كان أصحاب الملحون فيما بعد هذا الزوال حتى غروب شمس يوم هذه الجمعة؟



في نفس اليوم، وبعد أن خلا لنفسه برياضه، استطاع الحاج إبراهيم أن يأخذ نفسًا طويلاً استرخت معه أعصابه، ونسي خلال غفوته معه مشكل المشروع الفرنسي في رغبته إيصال سكة القطار إلى مشارف المدينة. جزء من كيانه كان قد هُدد بالموت مع انقطاع جماعته عن وصله ومخاطبته.

شعُر أن صديقه السي عبد العزيز لم تنبسط بعد سرائره، ولم ينشرح صدره لهذا الصلح. ثقل المشكل الذي وتّر قلبه ونبضه والذي أرقه لساعات من الليل، قد انطرح وخفّ حملة بمجرد نزعه لطربوشه الأحمر الذي يضعه تحت قب جلابته الصيفية في شهر ماي هذا. لكن أعصابه لم تنطلق بعد إلى راحة على هدير النفس وسباحتها بعشق اللحن والملحون.

كلمات القصيدة التي أنشدت كانت رسالة قيم ومبادئ تنظم العلاقات الاجتماعية والشخصية. وكانت موجّهة لانتقاده وتصحيح أخطائه وتصوراته. هو يعلم عيبه. ويعلم أن ما تطيقه زوجته معه من طباعه لا يمكنه أن يمارسه خارج الرياض ومع كافة الناس. إنما بعض الأحيان قد تمتد محاولات الإنسان

إلى جرح أقرب المقربين له بطباعه الخاطئة. كأنها نزعة طبيعية غير إرادية لكي تستحوذ نفسك على نفس الآخر، وتتغلب عليها، وتحقق انتصارا ربما وهميا ومرجوا. نزعة الأقوى في الاحتكاك والمنافسة.

هكذا وجد نفسه يرر لنفسه سلوكه الخاطيء دون أن يجعله صوابا. فالشعور بإيلام وإيذاء صديقه عبدالعزيز امتد لكي يؤذي باقي الجماعة، وعبرهم كل من جعل نفسه معنيا أو حكما أو في سياق الوضعية والحدث. وبما أنها مدينة صغيرة، فكل فرد داخلها معنيّ بمنطق علاقاتها ومصالحها ومواقفها. ألا نطلب من الآخر التضامن معنا في شدتنا دون أن يكون هو المتورط أو العالق فيها؟ . سأبادر غدا صباحا لملاقة السي عبدالعزيز قبل توجهي إلى تجارتي بالدكان. فالغد هو يوم السوق الأسبوعي. لا بد لي من مباشرة مجموعة من الصفقات والبحث عن أخرى.

هكذا خاطب نفسه، ثم وجه كلامه لزوجته لالة الياقوت راغبا في الخلود إلى نوم طفل متجدد: . تصبحين على خير.

فعلا كانت آخر فكرة اقترحها على نفسه صائبة ولازمة. فبمجرد ما رأى قدوم السي عبدالعزيز في الصباح، في طريقه إلى دكانه، بادر إلى معانقته والتسليم عليه. سارع إلى الاعتذار الشخصي مما وقع بينهما، إلى تعليل حالة الغضب وعدم عصمة الإنسان من الخطأ:

. أنت أخي والعزير على قلبي. أعتبرك رجل الجد والمعقول والصراحة. واعتبرني أخاك الذي قد يخطيء فتبادر إلى تصحيح خطئه.

. المسامح كريم آ الحاج إبراهيم. لكن لا تنس بأنك جرحت شعور الناس الذين يحبونك. نعتبرك أخا وأبا. إنما إذا كان البعض منا يعتبر نفسه شريفاً والآخرين من العوام الذين لا قيمة لهم، فهنا انتهى الإسلام والسلام معه. أظن فهمت شعوري وموقفي الآن. ساعة الجد نحاسب أنفسنا على أقوالنا فيها. وساعة المرح، كما تعلم كلها نكت ومستملحات. على العموم، إنني أقيم مأدبة عشاء بمنزلي بخير. وأنت أول من أخبرته بالمناسبة. سيكون حضور باقي الأصدقاء إن شاء الله.

. إن شاء الله. اللهم يسّر. أراك فيما بعد. إلى اللقاء.

. إلى اللقاء آ الحاج إبراهيم.



يسافر الحاج إبراهيم في الأسبوع الموالي إلى مدينة مكناس. سفر تجارة وضرب في الأرض واستعداد لفصل الصيف الذي سيحل فيه شهر رمضان الأبرك، كما سيكون فيه موسم المولى إدريس. يلتقي بالسيد عبدالجواد الديموني. تاجر من كبار عائلات المدينة الإسماعيلية. استفادت أسرته من إكرامية الحماية التجارية لدولة الولايات المتحدة الأمريكية. يوم اقتسمت الدول الغربية مجال الاستغلال لبلاد المغرب وخيراته، وجعلت لها مقيمين ومتعاملين في شؤون التجارة والاقتصاد والديبلوماسية والسياسة والسهر على كل مصالحها فيها.

تمتلك أسرة عبدالجواد خزائن كبيرة وعقارات متنوعة في المدينة الجديدة كما في المدينة القديمة. عبدالجواد الذي شابه مسأله مسار الحاج إبراهيم، في كونهما استفادا من ذهاب للتعلم بمستويات عليا. لكن عبدالجواد كان قد استفاد من تعليم غربي فرنسي وأمريكي إنجليزي. تشبّع بقيم حداثة ومعاصرة، وعانق بحكم تربيته داخل وسط عصري بالمدينة الجديدة، أفكارا متنوّرة ولكنها في نفس الآن متحررة وواقعية، تدرك ما يقع وما يجب أن يكون حفاظا على توازن المصالح.

كانت مراسلات السيد عبدالجواد مع شخصيات ومؤسسات أمريكية تواكب حياة المغرب وأخباره وتجاراته وسياسته، تُكسبه دور الدبلوماسي والمحلل السياسي لما يجري ولسيرورته ومنطقها الرابط بين عناصرها وخبوطها.

لقد تعرّف على شخصية الحاج إبراهيم وميولها وعشقها للفن والتجارة. تحيّلته في وضعية مغايرة باستعداداته للفهم والتطور. شكّله في وضعيته وثقافته. فخيوط التعلم التي نورت عقل الحاج إبراهيم، والتي هيأت له لكي يلبس الزي العصري كلما فكّر في زيارة لأسرة عبدالجواد الديموي، وسؤاله عن جديد الصناعة والاختراع والبضاعة الآتية من الغرب، كلّها عوامل شجّعت على هذه العلاقة وهذا التجاوب والتقارب بين الشخصيتين.

و رغم أن الحاج إبراهيم لم يتجاوز سقف الإطالة على الحياة العلمية والجامعية، ولم تتجاوز دراسته الأكاديمية أفق الرؤية الفقهية، إلا أن ولعه بالتاريخ وبشخصية السلطان مولاي البيزيد، زاد من شوق السيد عبدالجواد لتجديد اللقاء به ومحادثته في التاريخ كما في التجارة.

هذه المرة، انضافت قضية ساخنة كان الحاج إبراهيم يريد لها حلا في انتظار محاولات الحلول التي اقترحها مع سكان مدينته زرهون عمليا في مراسلة السلطان ابن يوسف والمقيم على مصالح الحماية بمدينة مكناس.

جلسة السيد عبد الجواد في أرائك عصرية جلدية مغطاة بجنابل أطلسية. تدخينه لأنواع سجائر فاخرة وزاهية برائحها المنعشة والمحدثّة لتخدير خفيف

للدماغ. كؤوسه وطاولته التي لا تشبه جلسات المغاربة المستديرة. كلها، عناصر اندهاش. لكنها كلها تخلق جوا محترما لمن يكون ضيفا عند السيد عبدالجواد.

كانت صينية الشاي بيراد مفضض لامع وكؤوس مذهبة صفراء. وكانت حلويات المخبزات العصرية التي انتشرت بالمدينة الجديدة تقدم في أطباق صغيرة خاصة بكل فرد. ما جعل الانشراح في نفسية الحاج إبراهيم الذي يخاف من الحرام في كل زيارة له لمدينة مكناس. فقد ذهبت أيام المغامرات، وهو الآن حاجٌ وجدُّ ومسؤولٌ عن رمزية شخصيته. دائم الاستغفار وطلب التواب له ولجميع المسلمين. كل مرة يلجأ لسبحته، خصوصا أثناء سفره. قد يغمض عينيه في معانقة رحلتها كلما مرت بخاطره أو ببصره أفكار أو رؤى متخيَّلة.

تداولوا في جديد الفلاحة ووضعها هذه السنة، في مبيعات السنة الماضية بجبل زهون وخلال أيام الموسم والمناسبات المختلفة. انفجرت شجون الحاج إبراهيم في شبه شكوى لمن يرمز لعالم الحياة الجديدة وله علاقة بفرانسيس من قريب أو من بعيد:

. مشكل كبير آ سي عبدالجواد.

. ناديني باسم جواد أفضل آ الحاج إبراهيم.

. سي جواد، إنهم يفكرون في مَدَّ خطوط السكك الحديدية إلى سهول منبسط زرهون. وهذا سيكون على حساب أراضينا الفلاحية مصدر عيشنا ورزقنا. لقد راسلنا مولاي السلطان وكذلك المقيم على الحماية الفرنسية، وما زلنا ننتظر رد الجميع.

. بحسب علمي آ سي الحاج، هناك سياسة سنّها الجنرال ليوطي خاصة بمدينة مولاي إدريس. هو شخصية مثقفة جدا. درس الفلسفة، لكنه آمن بأن *La joie de l'âme est dans l'action*. لا أظن أنهم سيعملون على هذا المشروع. سمعت بالفكرة قبل أشهر. هناك دراسات ميدانية حول حجم الربح الذي يمكن مثل هذا المشروع أن يحققه. هل هناك مناجم أو ثروات فلاحية بحجم النقل الكبير والضخم الذي ستحتاجه. ولا ننس أن تكلفته ستكون من جيوب المغاربة. هذه سياسة ليوطي الناجحة. بفضل اهتمام العلماء والدارسون بالمغرب، ولكن خدمة لسياسة فرنسا. بالمناسبة، سيزورني موظف بإقامة الحماية الفرنسية. هو جار لي. ربما سيكون عنده جديد.

شعر الحاج إبراهيم بتغير في مزاجه وكون ذهنه. كأنه تجرد من حمولة البيئة الزرهونية، وأصبح مهيباً لجديد بيئة وفضاء جلسة السيد عبدالجواد. دخل موسيو جيرار. حيا الجالسين واتخذ له أريكة مريحة. أتاه خادم السيد عبدالجواد بعربة صغيرة من طابقين. طاولة متحركة تضم لوازمها الخاصة في الشرب كما

في التحلية. خدم نفسه بنفسه بما يحلو له، وابتسامته لا تفارقه في الكلام وهو ينظر إلى مجالسيه أو حين يملأ كأسه. قدّم السيد عبدالجواد وعرف الضيفين بعضهما على البعض الآخر.

. الحاج إبراهيم من مدينة مولاي إدريس زرهون.

. أووه، نعم قرب فوليبيليس (وَيِ لِي لِي).

. نعم. هل عندك علم بمشروع السكة الحديدية الذي يروج إيصالها إلى المدينة مولاي إدريس؟

. أظن موسيو جواد أنها دراسة. اقترحناها وقدّمناها لجميع الأطراف، بمن فيهم سكان المدينة. اعترضتُنا أولاً قوانين وضعها المرحوم الجنرال ليوطي. كما تعلم أن الجنرال ليوطي شخصية نصف شرقية ونصف غربية. مولع بعالم الشرق وثقافته وتاريخه. أبحر في كتبه ومناقشاته قبل أن يصبح مسؤولاً في مستعمراته colonies. كان يؤمن بدور الجيش التربوي والتزامه به كذلك. هو من سنّ منع دخول غير المسلمين للمساجد. عندكم في زرهون سي إبراهيم لوحة في باب الضريح: *Acées interdit aux non musulmans*.

آمن باحترام المدن العتيقة وترك مسافة عيش تقليدية عند أصحابها. مولاي إدريس كذلك. ربما قانونه سيكون هو المانع الأول في عدم إنجاز المشروع. أضف إلى ذلك أن تكلفته هل هي مربحة أم لا؟ أية موارد وأسواق اقتصادية

وتجارية ستخترقها هذه السكة الحديدية؟ ماذا ستجني منها إدارة الحماية الفرنسية؟

كان الحاج إبراهيم يتابع بتأنيٍّ، ويحاول فكّ شيفرات الكلمات الفرنسية. لكنه لم يستطع فهم محمول الخطاب إلا بعد أن ترجم له وشرح له السيد عبدالجواد فحوى كلام موسيو جيرار.

.كن مرتاحا آ الحاج إبراهيم. ربما هذا المشروع لن ينجز. نتمنى ذلك، ما دمتم لا ترغبون فيه. إذا كان هناك جديد سأخبرك به شخصيا. يمكنك الآن الذهاب لتسلّم طلباتك من البضاعة من الخزين الرئيسي بالجوار.



موسيو جيرار، تلميذ لفلسفة الجنرال ليوطي، في سياسته التي نهجها بالمغرب، متشبع بالدراسات التي تمت حول الإسلام وبلاد المغرب. يباشر مهامه بالإدارة العامة التابعة للحماية بمدينة مكناس، وفي نفس الآن يدون ملاحظاته الخاصة حول تحولات اللباس عند المغاربة بين العصري والتقليدي. تحولات الخلاقة وشكل القبعات والطرايش. يعاين الممر الرابط بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة، باب بوعماير. يأخذ صوراً فوتوغرافية متكررة للأشخاص المرتبطين بالمصالح الإدارية والتجارية.

جلساته مع السيد عبدالجواد وأوساط الأسر المكناسية تتخللها مناقشات مرتبطة بالتاريخ والدين والامتداد الإثنولوجي للأسر بإقليم مكناس. تلك الموجات من الهجرة التي سببتها المجاعات وانتشار الأوبئة في مجموعة من المناطق المغربية. وبين دائرة المدن العتيقة والمدينة الجديدة، كانت توازنات العمران والعمل والنشاط الاقتصادي من اختصاص مكتبه في تسجيل الملاحظات ورفع التقارير. وقد كان مقتنعا بأن انتشار الوعي الجديد عند الساكنة سيؤدي انتشار مطالب متكافئة مع المستوطن الأجنبي، سواء في

الاقتصاد أو في الحقوق. تلك سياسة ليوطي في جعل تدرج الاحتلال الناعم الذي يقلص من أشكال العنف في انتشاره وامتداده.

كان السيد عبدالجواد متابعا لمناقشاته ومواكبا لجديده. لكنه في حيرة من أمره بين انتماء مجتمعي وثقافي وترابط مصالح سياسية واقتصادية مع تمثيلية وحماية الدائرة الأمريكية في المغرب. كعكة الاقتصاد بين العرض والطلب، بين الموارد والسوق. هكذا يتذكر تفسير انتشار النفوذ الأجنبي حين حضوره للقاء فرنسي أمريكي احتدم فيه النقاش رسميا بين ممثليه الديبلوماسية. عشقه لبلاده وثقافته المغربية جعله يداوم الحضور والتنظيم لسهرات وحفلات الطرب الأندلسي. وعلاقته بالحاج إبراهيم تتسع للالتقاء في موسم مولاي إدريس زرهون وفاس ووزان في بعض الأحيان.

وإلى جانب السلع الجديدة التي يجلبها من خزائن السيد عبدالجواد من مكناس، فإن الحاج إبراهيم يزوده بما يحتاجه من زيت الزيتون والعسل والسمن والتين المجفف، دون نسيان هبات الثواب المتبادلة والتي يجعلها الحاج إبراهيم جلباب محربل من الصوف أحيانا أو ماء الورد والزهر المقطرين والحُرَيْن أحيانا أخرى...

كانت عودة الحاج إبراهيم إلى مولاي إدريس زرهون امتطاء لحافلة الامراني للنقل العمومي. بينما تكلفت إدارة تجارة السيد عبدالجواد ببعث بضاعته له لاحقا في شاحنة خاصة، لها مهام توزيع أخرى.



موسيو جيران، يحتاط كثيرا في التواصل مع سكان المدينة وقيامه بمهامه الوظيفية. دائما يذكر صديقه السيد عبدالجواد بالحدث الدرامي الذي عرفته قصة الطبيب الفرنسي (موشان) سنة 1907. ربما يجد السيد عبدالجواد حرجا في ردع هذه الذكرى. يتساءل لماذا يركز عليها موسيو جيران وهي تاريخ قد ولى. يشرب مع سيجارته خيوط الحكاية رمادا متساقطا وسحابا يبخرها في اللامعنى. هل كان (موشان) طبيبا فقط؟ أم كان يقوم بمهمة تجسس؟ والمغرب آنذاك لم يدخل عهد الحماية بعد؟ ولماذا هذا التوجس عند موسيو جيران؟ هل هو خوف من الموت أم تجريم مسبق للسكان من المغاربة؟

و كأن خطوات الفرنسيين والأجانب يجب على الجميع أن يحاكم كل ظل يخترقها أو نظرة تتفحصها؟ المغاربة اليوم ينتظرون حرية واستقلالاً. ينتظرون وعودا صدرت من إدارة الحماية. يخطون أجنحة الأمل والحلم الجديد. مثلهم مثل باقي الدول التي ركبت موكب الاستقلال والثورة. هو وعي يدور بجُلد السيد عبدالجواد. لكنه لا يترجمه كلاما أو عملا. بجره تجارة وتجارته بجزء. الكفة متوازنة.

يسترجل الحديث بينهما، ويستحضر السيد عبدالجواد شخصية الحاج إبراهيم:

. رغم صورة جلابيته التقليدية وحجّه، فإن الحاج إبراهيم متنور في مجموعة من الجوانب. تجده بلباسه العصري حين قيامه بزيارتنا. وموقفه من سكة القطار له ما يرره شخصيا بالنسبة له. يعجبني فيه ولعه بالتاريخ وبشخصية فريدة في تاريخ المغرب.

. من هي؟ يسأله موسىو جبرار.

. شخصية المولى اليزيد. أحد سلاطين المغرب.

. جميل. هل تعلم أنني اشتغلت في أحد بحوثي حول شخصية سلطان مغربي؟

. من يكون؟

. عبدالعزيز بن الحسن (1878 . 1943). شاب مولع بالألعاب وجديد الصناعة الغربية. أنفق أموالا طائلة من ميزانية الدولة من أجل تلبية غرائزه ولعبه. الاستفادة التي خرجت بها من هذا البحث هي قدرة الإغراء على استمالة المواقف الشخصية وتلئين السلوك البشري. وهي اليوم قائمة مع التغيرات الشكلية الحاصلة في عادات ولباس المغاربة.

. الحاج إبراهيم رجل طرب وموسيقى وغناء ملحون. رجل تجارة متنوعة. جبل زرهون بين يديه. لذلك أجعله مفتاح البضائع التي أريد ترويجها هناك. عقبة موضوع السكة والسينما التي تجاوزت خطأ مع مشروع القطار هذا، جعلته خائفاً على أرضه الفلاحية. أما ولعه بالتاريخ، فيمكنني تفسيره بأنه يبحث عن دور اجتماعي متميز، أو أنه يعوض عن انكسارات طموحه الخاص. لكن جلسته شيقة في هذا المجال. يمكننا أن نستدعيه قريباً من أجل محاورته ومجالسته في مثل هذه المواضيع.

. سأعمل على التأكد من تطورات المشروع المتعلق بالسكة الحديدية. تعلم أن الدراسة متأنية وتنظر إلى كل الجوانب المتعلقة بالتجهيز واليد العاملة والكلفة والوظيفة والربح المرجو منه. حينئذ يمكنك استدعاؤه وإخباره بمجديده.



أن تتقاطع مسارات تكوين وحياة شخص مع آخر قد يصل ذلك إلى مراحل
تماهٍ وتمازج بينهما. قد يحدس باطن النفس بمناخ أريحيتها واختياراتها.

يجلس موسيو جيرار في شرفة شقته بالمدينة الجديدة، والتي تقابل السوق
المركزي بها. داخل ردهائه الصوفي الناعم. ينزع بابوشه ويجعل قدميه الحافيتين
فوق الجدار المنحدر لسور الشرفة. طاولته المعتادة تحتوي على كوب قهوة
ساخنة وقنينة كونيأك. في شهر ماي هذا، أثر تناول القليل منه فقط، وكان
ذلك كافياً لملاحظة دفء مفاصل واحمرار وجنتين تفوران حرارة. زرقة عينيه
تجعل بريقهما الزجاجي والمائي، ينعكس من بعيد.

بين يديه كتاب (مراسلات الشباب) للجنرال ليوطي. نموذج المقتدى في
تحقيق طموح العمل داخل مستعمرات الدولة الفرنسية، وتمجيد الذات
والنجاح الشخصي في الحياة. السيد عبدالجواد يعلم بنزوات موسيو جيرار.
يعلم ميوله المثلية. لكنه يتخذ مسافة بين ما يعلم وما لا يريد أن يعلم أو يراه.
أما المدهش في اكتشافه وإطلاعه الجديد، فسيكون هو أمر جينرال كبير

وشخصية تاريخية مثل ليوطي وكيف كانت له حياة خاصة مشبوهة وغريبة لا تترجم تلك الشخصية العسكرية القوية والنافذة في سياستها. أمر الاثنين لا يهم السيد عبدالجواد، لأن حياته تجارة ومسافات، ولأن سياسته عمل تحت حماية أمريكية وتكوين متوازٍ مع القيم الغربية المعتدلة والتي لم تنسِه امتداداته المغربية والعربية والإسلامية.

سيستغرب السيد عبدالجواد أكثر حينما سيطلب منه موسيو جيرار جلسة طرب تضم أفرادا في الملحون والأندلسي. يريد أن يعيش أجواء سهر مغربي بكل ممنوعاته وإيقاعاته. تدخين مخدر الكيف وتناول تلك (الزيمية) التي يسمع أو سمع عنها. مراقبة الإيقاع والأصوات. السفر الوجداني داخل العالم الشرقي والمغربي.

هذا السفر الذي تحقّق، ولكن بدون حضور الحاج إبراهيم فيه. فقد عرض الدعوة على بعض رواد الطرب في زرهون بعد أن تلقى الطلب من السيد عبدالجواد في زيارة سياحية خاطفة لمدينة مولاي إدريس زرهون وللموقع الأثري وليلي. تبين طبيعة الجلسة من خلال مضمون الطلب، والحاج يعلم أن استباحة المحظور ستجر إلى محذور أكبر. فالمدينة الجديدة بمكناس توجد بها حانات ودكاكين يبيع الخمر. وموسيو جيرار من عشاق جلسات الليل ربما، والتي ربما تنتهي بمجون. وهذا ما لا يعلمه الحاج إبراهيم بتفصيل.

بعد أن خلق الأمر حيرة في نفسيته بين تلبية الطلب وإخبار رواد الطرب به، وضع جل الاحتمالات المتعلقة به، بما فيها وضعيته وعلاقته بغيورين على قضايا مقبلين عليها وترتبط بضغط جديد يحقق استقلال البلاد، بالسلم أو بالقوة. كيفما تأتى الأمر. ما لا يسمح بخلط أمور التجارة والاقتصاد والاجتماع مع أمور بناء المستقبل السياسي الجديد للبلاد. هي دوائر نار ملتبهة وجد نفسه بينها.

على العموم، كم من رواد الطرب تعجبه جلسات المدينة الجديدة، ولو أنه يسمع بها فقط، ويحلم بامتلاكها فضاء ومنتعة. قد يتخيّل الغزوات الملحمية التي يجتبي فيها الحسنات والرحيق المختوم. قد يمتد خياله لكي يجعل إعصارا شهبانيا لغرائزه. لكنه سرعان ما يلتفت إلى بياب المحيط وخشونته. وهذه فرصة بألف حظ وميعاد. ورب صدفة خير من ألف ميعاد.

كان على المجموعة أن تقتني معها عُدّة الكيف و(الصامت). وكانوا خمسة أفراد. واحد في الإنشاد، وآخر في العزف على آلة الكمان، وثالث على آلة العود، ورابع على الدف. أما الخامس فكان مؤديا بصوته المطرب لوصلات أندلسية راقصة ومنتعة.

كان الحفل بمديقة يمتلكها السيد عبدالجواد ببساتين طريق فاس
.Plaisances

جل الحضور أزواج. قرابة اثنين وعشرين من المدعوين. من بين الفرادى الوتر في حضورهم، كان موسيو جيرار الذي يعيش عازبا في مهمته بالمغرب. في سن السابعة والثلاثين من عمره، لم يرسم بعد مخططا لحياة أسرية خاصة به. وقد كان هو صاحب الفكرة والطلب لهذه السهرة.

استغرب الزاهنة لهذا الفضاء المضاء ليلا، ولروائح العطور والخمور والنبيد. وأكثر من ذلك لأنواع الألبسة وسفور الأطراف والصدور، خصوصا عند السيدات والآنسات المدعوات. هناك من يتابع عزفهم بشغف، ومنهم موسيو جيرار. وهناك من يجعله رفيقا في قطار يستأنس بصوته في رحلة متعة وسهر وشرب ورقص وعناق.

من بين ما قرأه موسيو جيرار، دراسة سوسيو جنسية حول المجتمعات المغلقة. والجنيرال ليوطي كان قد صنّف مدينة مولاي إدريس من بينها، والتي يجب الحفاظ على طابعها التقليدي المنغلق في عقليته وثقافة حياته. لكن الدراسة تذهب أعمق لاكتشاف الجنوح للممارسات الشاذة. قد تكون بين فردين من جنس واحد، وقد تكون كما في بوادي خالية مع حيوانات... يتسم حين مراجعته لمثل هذه الفقرة وتحليلها. يعلم أن الرغبة المثلى عنده متطابقة، وأن هذه الممارسات قد تكون مطلوبة عند عليّة القوم. فقط أن الأدبيات الرسمية تبعد كل شبهة عنهم، بما فيهم بورجوازيات العالم الأوربي الذي يأتي

وينحدر منه. قد تكون هذه الاستنتاجات ملخص حواراته مع أصدقائه المحيطين به.

هل كان ما سمعه عن المجتمعات المنغلقة صحيحا؟ لا يهّمه الآن إلا تحقيق مراده من ليلة العروج بالنفس إلى مبتغى النشوة والرغبة. لذلك بقي بعد انتهاء السهرة مع فرقة الملحون. حاورهم بما يعرف من كلمات عربية ودارجة. تسلّح بخمرته وسُكره لكي يخرق المواضيع التي يريدتها بمحظورها ومضحكها. شاركه بعضهم من الفرقة السكر والعريضة والغناء. غناء جماعي ورقص جماعي كذلك، أبطاله ستة. ترديدهم الصارخ لمقطع أغنية الحسين السلاوي:

كمان باي باي

كمان باي باي

تحوّل معها الغناء إلى ضحك جنوبي بإيقاع ممسوس بالمخدر وبالمسكر.

يعودون إلى تعقل في احترام الأغنية ويؤدونها بمقاطع متفرقة وفي هدوء برجاء من موسيو جيرار الذي أصبح جالسا بين أفراد المجموعة، معانقا لهذا ومقبّلا لآخر في خده. قد يرى أحدهم تصريفا جهاديا في اختراق أخلاقي أو لا أخلاقي لتعامله مع (الموسيو جيرار) هذا. فالجهاد قد يكون حتى بالجنس وممارسته اغتصابا أو فعلا، لا يهم. الحقيقة بنت لحظتها. وكلمات الفنان الحسين السلاوي مستمرة فوق سكة إيقاعها:

فرقوا الفنيد والسيجار ﴿٥﴾ زادوا الدولار حتى من العجايز ﴿٥﴾ اشراوا
الفلولار حتى من هم صغيرات ﴿٥﴾ يعقدوا اللسان الامريكان تسمع
غير "أوكي، أوكي".



سيكون لموسيو جيرار دور في تسريع التوصل بمعلومات حول مشروع القطار. بعد أن بادر إلى مراسلة الإدارة العامة، توصل بمعلومات مفصلة أسعفته في مراجعة تاريخ السكك الحديدية بالمغرب. تلك الشراكة التي كانت بين ألمانيا وفرنسا، والتي سارعت أجواء الحرب العالمية الأولى في إيقافها. تلتها شراكة بين إسبانيا وفرنسا، بحكم تقاسمهما استعمار المغرب بين شماله وجنوبه وشرقه وغربه.

كان المخطط في البداية يخدم المصالح العسكرية وسبل النفاذ إلى داخل التراب المغربي من جهة الشرق، بحكم أن الجزائر مستعمرة قديمة لفرنسا منذ 1830. الآن، هذه الفكرة في توسيع الامتداد الجانبي لخط السكك الحديدية، كان دراسة متوازنة بين الاستراتيجية العسكرية والأبعاد الاقتصادية التي ستحققها. جل التقارير سجلت الكلفة الباهظة وصعوبة استخلاص ضرائب كافية من أجل إنجازها كمشروع. في انتظار التوقيع على إغلاق الملف، لا زالت الأوساط تتداوله اجتماعيا وإعلاميا. النتيجة المرتقبة: (إلغاء مشروع السكة الحديدية في إيصاله إلى منبسط سهل بورياح قبالة مدينة مولاي إدريس زرهون).

ما أضحك موسيو جيرار في جلسته وقراءته، ذاك اللقب الذي سجلته التقارير والذي جعله المغاربة الأوائل للقطار: بابور البغل le paquebot de la .mule

سيرغب موسيو جيرار في زيارة البلدة، لكنه يخاف من ولوج بنية تقليدية لا يأتمن مسارها. لذلك قام بإخبار السيد عبدالجواد بمجديد القضية، واستأمنه في إبلاغ السلام لأهل الملحون والفرقة العجيبة التي أثنت وغمرت ليلة الصخب بالبساتين. وكل نهر يحتاج إلى شلال يراقص أعماقه ويوقظها. تلك الجملة التي قالها مع نفسه ولم يقلها للسيد عبدالجواد، اكتفى بإخفائها داخل ابتسامة عريضة.

فرحة الحاج إبراهيم بالخبر الذي تلقاه قبل أن يعلن رسمياً وتراسل به إدارة وقيادة مدينة مولاي إدريس زرهون، جعلته يبادر إلى جعل دعوة وليمة عشاء برياضه. وبعد أن صفا جوُّ التشنج مع أصدقائه في الملحون، ارتأى أن يبدأ بهم في الدعوة مع الإلحاح على الحضور، إلى جانب أفراد من عائلته الذين ستكون نساؤهم مع أهل البيت في الجناح الخاص لهم.

لكنه وبجدسه دائماً، أثر عدم دعوة الفريق الحماسي الذي أحيا سهرة الملحون والطرب الأندلسي بضيعة السيد عبدالجواد ببساتين مكناس. بعض الدوائر لا بد من مسافة معها حتى تعود مقاييس التجاور بين عشق الفن وواجب الحياة المجتمعية التي تفرض لكل شيء حدود طلبه. حتى الدين لا بد فيه من

قياس متوازن وإلا استوحش صاحبه عن حياة العمران. لذلك كان استرجاعه لشخصيته المعتمدة بين الأصدقاء ورواد المقاومة المقبلين على خطط نضالية، قد جعله يعيد التوازن في معاملاته وتصرفاته في جلها ما أمكن.



الرغبة في الدفاع عن الوطن مشتركة بين شرائح المجتمع المغربي. لذلك حينما بدأت شرارات المقاومة الجديدة التي راكمتها أحداث من أهمها أحداث الدار البيضاء والتي استفزت أفئدة المغاربة، كان الخبر كالصاعقة التي نزلت برقم الشهداء الذين سقطوا ضحايا في مدينة الدار البيضاء يوم 7 أبريل 1947، قارعة لعقول الناس لكي تنفض جمود الزمن وجهل السياسة. تبعثها زيارة السلطان محمد بن يوسف إلى مدينة طنجة أيام 9 حتى 13 أبريل من نفس السنة. كانت الصرخة بالدم والكلمة. ازداد معها وخلالها تقارب القلوب ووجدان الناس حول نفس الشوق والتفجير للمكون. الرغبة في الحرية.

ومع تطور الاحداث وتراكمها عبر سنوات وفي مدينة مولاي إدريس زرهون، كان الهَمّ شعبيا وقياديا كذلك. لم يكن النضال ولم تكن الرغبة في التضحية والاستشهاد حِكْمًا على عينة دون اخرى. لكن هذا التمازج عقليات وزوايا نظر تضيق وتتسع لما يمكن القيام به والتنسيق فيه. هناك من يجهر منفعلًا بكل شيء. وهذا لا يليق بحركة مقاومة منظمة وتتوخى السرية وتؤمن بأن صدور الرجال قبور للأسرار. فغالبا ما كان المقاومون يتعدون بهذه المسافات مع هؤلاء. لا يخبرونهم بخطوات التنسيق ولا بأفق العمل الجديد في سياسة

المقاومة. لذلك قامت صراعات خفية وظاهرة بين فئات المقاومة داخل مدينة المولى إدريس زرهون مثلما قامت داخل ربوع المغرب.

كانت تلك الاختلافات تترجم فروقا ثقافية واجتماعية بين البادية والمراكز الحضرية، بين شرائح طبقية وقبلية كذلك. ما طرح حيرة في دواخل الحاج إبراهيم. اجترّها منذ سنين حتى انفجرت مع أحداث نفي ملك المغرب إلى كورسيكا ثم مدغشقر. وكأن النفي مرتبطٌ بالجزيرة. وكأن الجزيرة حصار نفسي قبل أي حصار بحري أو مادي آخر. ذلك الحصار كان مداً مملّحاً يخنق أنفاس الحاج إبراهيم مثل غيره من الغيورين على بلادهم وتماسكها.

انفجرت أحداث سبقتها طبعا تراشقات بالكلام بين الغيورين والذئاب المتسللة بين صفوف الساكنة. ذئاب رأت فرصة وصولية وانتفاع مادي ومكاسب تحققها على حساب خدمة الحماية والاستعمار. ربما بعضهم كان يظن بأن ما يقوم به هو استنزاق عادي في ظل وضع تاريخي لم يكن سببا فيه. هو استغلال للأوضاع دون أن يكون خالقا لها. فالذين وقّعوا على الحماية، والذين توافقوا على تدبير مصالح المغرب، هم المسؤولون الكبار عن كل هذا. لكن هذه المبررات لم تكن مشروعة عند المغاربة. هناك وازع الدين الذي يعيد جدولة كل وعي، والذي يذكر بأن الحرية طريق لاستقلال القلوب وعبادتها لخالقها دون أن تكون تحت رحمة كفار.

قد يتعامل الحاج إبراهيم مع بعضهم، وهو يعلم أنهم عيون المستعمر التي لا تنام. لكن ساعة الفصل لم تجن من أجل محاكمة مثل هذه التصرفات. وكيف ستكون هذه المحاكمات؟ الجواب على مثل هذا السؤال فجرته أولى عمليات الاستشهاد التي عرفتها مدينة مولاي إدري زرهون. استفاقت الساكنة على صوت الرصاص. لطمها بصوته كما بأسماء الذين ذهبوا ضحيتها. منهم من بترت ذراعه في مقاومة للمستعمر متحديا الخوف ومتشبثا بالاستشهاد في سبيل الوطن وسبيل الدين الذي يمجّد الوطن. أليس حب الوطن من الإيمان؟ هكذا علّمهم أناشيد الكشفية التي انخرط جلهم كشباب فيها أواسط الأربعينيات. ومنهم من أفرغت فيه بندقية العسكر وسط الشارع العام بين باب القصبية وباب الجديد. دوى مع كل ذلك صراخ الألم وتكبير الفرح بالموت الجميل فداء لروح البلاد.

لم يبق الساكنة مكتوفي الأيدي. انتقموا على الأقل من عيون الذئاب. بل إن هذه العيون لم تعد عيوننا فقط. لقد أضحت هي الأخرى من فصيلة الذئاب. هي سبب هذا النخر. فلقد كانت الدليل الذي يقود إلى أسماء من لهم علاقة بحركة المقاومة. من هم في تواصل مع أسمائها. بينت لهم أبواب سكنائها وأرشدتهم إلى دروب اختبائها.

لم يسلم الحاج إبراهيم من دسياسة الذئاب المستترقين بنهش لحم وجسد الوطن. كانت الوشاية مضيبة. ارتبطت باحتمال أن يكون مخبئا للسلاح في

رياضه. تمّ اختراق فضاء الرياض بالقوة، وتم تفتيش كل زاوية وركن، وكل صندوق ومخزن. لم يجدوا سلاحا، لكنهم وجدوا وثائق ومنشورات مرتبطة ببيانات مقاومة محلية ووطنية. وجدوا أعداد جرائد متنوعة. اقتيد الحاج إبراهيم للتحقيق. نُقل إلى مدينة مكناس ودمعه على خدّه الذي وقّع به خوفه على أهله ورفاقه الذين استشهد البعض منهم في هذه الأيام الصاخبة من شهر غشت وشتنبر وما بعدها من سنة 1953.

كان الخبر أكبر فزعا عند مجموعة من الأسماء التي كانت تحضّر لمقاومة سياسية ومسلحة ممنهجة ومدروسة بدون انفعال كبير. فالتعذيب آلة قاسية على الروح قبل الجسد. وربما الاعتراف باسم واحد قد يجر إلى تساقط أوراق شجرة أسماء أخرى. لم يكن يهتمّهم الاعتقال بقدر ما كان يهمهم تنفيذ المهمة المقدسة التي باركها نفي السلطان وتأجيج العلماء وتنظيم الطلبة وحركات المقاومة في المدن كما في البوادي.

ظهرت هذه التنظيمات التي أصبح يشعر معها المغربي أنه مواطن وليس مجرد ساكنة طبيعية في مجال محتلّ من طرف المستعمر. منظمة الهلال الأسود، والمنظمة السرية للمقاومة، واليد السوداء، وغيرها من التنظيمات التي برهنت على نضج وعي واصطفاف سياسي وراء عمل مبرمج يوازي ذكاء المستعمر الذي استطاع خداع المغاربة واستبلادهم لعقود من الاستعمار والاستغلال، مصاحبا ذلك بوعود كاذبة وغش ومكر سياسيين كبيرين.

داخل مقر التحقيق كانت المفاجأة كبيرة عند الحاج إبراهيم حينما وجد موسيو جيرار هو من يقود التحقيق. اندهش الاثنان، لكنهما التزما حدود المسؤولية الملقاة على عاتقهما.

. السي إبراهيم، وجدنا بجوزتك أدلة تثبت علاقتك بحركة سرية ضد حكومتنا الفرنسية. ما ردك على هذا؟

. فعلا عندي أوراق لكنها لا تدل على انتماء أو عمل داخل مجموعة سرية ما. بحكم أنني درست بالقرويين، ولو لأشهر قليلة، كنت من الذين يتوجه إليهم البعض لقراءة ما يتوقرون عليه من رسوم ملكية أو رسائل مبعوثة لهم. وحينما يأتيني أحد الناس يوم السوق ويطلب مني قراءة ورقة بين يديه قد أطلب منه تركها لي حتى أراجعها. هذا ما حصل مع ما وجدتموه عندي. أشخاص لا أعرفهم، يأتون يوم السوق الأسبوعي، يوزعون أوراقا على كافة الناس. لا أظن أن كل من تسلّم ورقة بين يديه سيكون متهما بعمل سري ما.

. جواب سليم سي إبراهيم. لكن بحكم أنك درست بالقرويين فإن الاتهام يجوم حولك لكي تكون أحد المحرضين على هذا الشعب. المغرب يعرف انتقالا لحكم جديد سيدخله بين صفوف الدول المتقدمة. الإصلاحات التي نريدها بعد انسحاب محمد بن يوسف ستكون لصالح بلدكم. لذلك نطلب منك تصريحاً يؤيد هذا الانتقال والحكم الجديد.

. موسيو جيرار، لا أقدر على القيام بهذا الموقف ولا أعلّق على كلامك. إنما فقط لكي تعلم حقيقة ما يقع، فنفي الملك محمد بن يوسف هو اقتلاع لجوهرة إيمان منغوسة في قلب كل مغربي. نشعر بأن ديننا هو المستهدف والمهدد في كل هذا. أرجوك لا تنتظر مني تصريحاً مثل هذا وأنا مستعد لقبول أي موقف منكم.

. سيكون عليك أن تقبل نفيك وإبعادك عن مدينتك بجبل زرهون. كل طلبة القرويين السابقين تم إبعادهم. وبحكم المناشير التي وجدت بمنزلك فالتأويل قد يكون متناقضاً. بقدر ادعائك تسلّمها من مجهول يوم السوق بقدر احتمال توريطك في أن تكون المروّج لها وصاحبها. وما دام الوضع ساخناً ومضطرباً بسقوط أرواح في مختلف بلاد المغرب فإننا سننظر في إمكانية إقامتك في بلدة بعيدة مع الالتزام بعدم مغادرتها والبقاء تحت مراقبتنا يوميا فيها. سنؤجّل النظر والبت في هذه المسألة إلى الغد. هل عندك طلبات لحاجيات الليلة؟

. هل من الممكن أن أرى السيد عبدالجواد؟

. سأخبره بالطلب وأردّ عليك.

. شكراً.



. لقد نقلوه إلى مدينة طنجة !

. كيف وقع ذلك؟

جمال! استفهامية ترددت على ألسنة المعارف وأهل البلدة.

استثناء بين أحكام صادرة عن إدارة المستعمر؟

لا. هناك من طلبة جامعة القرويين السابقين من تم إبعادهم إلى مناطق قروية دون أماكن عملهم السابقة. لكن الحاج إبراهيم بحسب ما ورد على مسامع الساكنة وجدوا عنده أدلة مادية !

وهناك من ضخم من محتواها. ذلك أن الروايات تتدحرج ككرة الثلج فتصير أكبر من حجمها الحقيقي.

إنما طنجة؟

حسرة دامعة رافقت أهله وهم يتلقون الخبر. كأنها جنازة حقيقية. لم يعد الرياض ببهجته ولا بطلعة الشخصية التي أثنته بابتسامتها وهبتها ورائحة

عطرها الوردية أو المزهر. نُكِّسَتْ أعلام الملحون لأيام ولم يعد لنعمة طعم يستساغ. بل أكثر من ذلك، وضعت حالة طوارئ من خارج عالمه. فالمستعمر فرض حظر التجول، والعيون المخبرة أو عيون الذئاب بتشبيه الحاج إبراهيم، انتشرت متتبعه لكل شاذة وفاذة. لكن، وفي نفس الوقت، قامت حركة مقاومة عفوية وأخرى منظمة.

استشاط الناس غضبا، فقامت النساء إلى جانب الرجال في مهمة التنسيق وتسريب السلاح والمناشير ومساعدة المقاومين الشجعان الذين آثروا الاستشهاد من أجل قضية وطنهم وملكهم المنفي. وكأن روح الدين هي السياسة، أو إن السياسة من الدين. تحولت القضية إلى مهد تفسيرها. لا بد من محاربة الكفار وطردهم من البلاد. تبلور مطلب الاستقلال على ألسنة الناس فأصبح بحجم الوعي به وبقيمة الحرية معه. أمل جديد طبعاً، لكن ثمنه هو هذا المخاض.

سقوط الضحايا والمجروحين. اعتقال مجموعة من المتظاهرين ونقلهم إلى سجون متفرقة بمكناس والقنيطرة. انتظارات محاكمات ستقود بعضهم إلى الحكم بالإعدام. ربما قد ينجو بعضهم منه. لكن، بأية أعجوبة سيتم بها ذلك؟

استفاق الناس على آلة مدفعية ثقيلة رست بفوهتها قبالة المدينة فوق قمة الجبل المقابل لها بفتح باب الفرجات المؤدي إلى دواوير وقرى. انتشار قوات

عسكرية من أصول إفريقية سماها الناس ب(لاليجو . الڭوم)... انتفضت الدواخل من غول الخوف لكي تواجه غولا حقيقيا.

في يوم عيد الأضحى، حاصر البياعون والمخبرون احتفالية الناس بهذه المناسبة الدينية. حاصروا حزنهم وتضامنهم مع ملكهم المنفي. كانت رغبة من الاستعمار في فرض سياسة الأمر الواقع. انتقال الملكية من حكم محمد بن يوسف إلى ابن عرفة خديم فرنسا. هاج غضب عارم أفئدة الناس والمقاومين على الخصوص، وخصوصا يوم عيد النحر.

أي دم سيسكب أكثر من دم الإنسان والشهداء الذين ذهبوا ضحية؟ كانت الثائرة على مقر سكنى القايد الموالي للمستعمر ولسياسته، والمتحدي لإرادة الزرانة في الانتفاضة والمقاومة. أحرقوا، نهبوا، انتقموا. وأكثر من ذلك دبروا له تفجير قبلة من تحت الكرسي الذي كان جالسا فوقه على رصيف السوق البراني بجانب أحد الدكاكين. تم اغتيال جندي فرنسي اخترق أحد الدروب والأزقة الضيقة ترصدا للمقاومين المتسللين بين شرايين المدينة المتنوية على جسد هذا الجبل الذي يأبى خنقه ومنعه من حرية استنشاق هواء نقي وبعيد عن كل حماية ووصاية.

كانت عائلة الحاج إبراهيم كلها مجتمعة برياض باب القصة. تأتيهم الأخبار عن المقاومة الشعبية وعن تطور أحداثها، كما تأتيهم عن رب العائلة، الحاج إبراهيم الذي لم يكن يتوقع أحد أن تمسه يد تعذيب أو اعتقال. إنما الغريب

في الأخبار هو تنقيله إلى مدينة طنجة. لم تر النسوة في المسألة سوى درجات عذاب وألم لهن ولوليّ النعمة عليهن. وما يزيد النار اشتعالا واتقادا وحرقة حامية هو الزيت الذي يصبّ على ألسنتها وجرها. كان المكان الجديد عقاب غربة النفس التي ستتعب بهذا الفراق وهذا التمزيق لوشائج الوجدان. فمن الذي سيستطيع تفسير هذا القرار لعائلة الحاج إبراهيم؟

استنجد الحاج إدريس، الابن البكر للحاج إبراهيم، والذي تقلّد شجاعة الثبات في غياب الأب لكي يتابع ما يجري من أحداث ولكي يواسي أحزان الأهل والأحباب، وكان استنجاهه بإمام المسجد الكبير ومعارف أبيه الذين لهم خيط صلة بمصادر الأخبار. المطلوب الصبر والترث. على الأقل لن يتم سجنه. فالإبعاد لن يعنى السجن في نهاية المطاف.

بعد أيام من التحقيق وزوبعة المجهول الذي يعصف بريجه المنذرة، جاءت رسالة محتومة من مدينة مكناس. حملها أحد معارف السيد عبدالجواد:

. الحاج إبراهيم بأمان. سينتقل لمدينة طنجة، ونطلب منكم إخبار زوجته لكي تستعد لمرافقته في مقر إقامته الجديد.

انتهت البرقية. كأنها برق خاطف فعلا. فصل بحدّه كالسيف بين وعي ووعي. كل الاحتمالات والمخاوف السابقة تم ذرها رمادا الآن. بقيت مواجهة المصير الجديد الذي يحمل الفراق والغربة والنفي عن الأهل والأحباب. وبقي تفسير وحلّ طلب مرافقته أو زوجته معه إلى مدينة طنجة. لن يكون سجننا إذا.

ولكن، أية زوجة هي المعنية بذلك؟ والطفلة الصغيرة (رقية)؟ هل ستكون مرافقة لأمها إن هي كانت المعنية بالالتحاق؟ فعلا، كان القرار الذي تراضى عليه الجميع هو أن تستعد زوجة الحاج إبراهيم للالتحاق به. أما لالة الياقوت، فقد أصابها شلل نصفي ولساني بفعل الصدمة. الله وحده يعلم ما تعانیه من آلام بسبب هذه الأحداث. قد يكون الموت أفضل من هذا الصمت الجليدي الذي جمّد جسدها وقدرتها على الكلام.

و طنجة. هذه الساحرة الغربية في مروياتها ومحكياتها التاريخية. يخافها الناس لرقود هرقل بمغاراتها، لقربها من بلاد الكفار وغارات السفن ومحكيات الحروب. هي محطّ الأطماع التي مزّقت قلبها المؤمن. لكن التاريخ لا يسجل أحداثه ولا تطوّره بشجون ومخاوف الناس وتخيلاتهم. طنجة، كما شرح ذلك السيد عبدالجواد للحاج إبراهيم، والذي استضافه بعد الأيام التي قضاهما في التحقيق، منطقة تجارية دولية. نظام الحماية فيها دولي، تتقاسمه فرنسا والولايات المتحدة ودول غربية أخرى. ستكون أوراق اعتماده وسكنه وتجارته بوصية من السيد عبدالجواد الذي توسّط لتيسير هذا الأمر مع قنصل الولايات المتحدة بمدينة طنجة. وسيشرف الحاج إبراهيم على بعض تجارة السيد عبدالجواد في كل هذا.

كان القبول لهذا الحل بالبكاء المر الذي بدا شحوبا على صفحة وجه الحاج إبراهيم. ما يهّمه هو عدم تأويل ذلك بتواطئه ومهادنته. الناس يموتون وهو

في خيار الهروب. كيف يقبلون فكرة النفي إلى مدينة طنجة ووضعته ستكون بسكنى وتجارة وعائلة؟ وذلك (الحمام الطوبي) الذي يرفرف بين فضاءات رياضه؟ وشمس الأصيل التي تبرم أوتار آلة العود وتسحرها وتغريها بالعزف احتفاء بالغروب والشفق والغسق والفلق؟ والنجوم التي تتلألأ رقصا مرحبًا بطلعة البدر المتبختر في تشريفه لسمر الليل الذي يولّد الألحان والقصائد البهيجة؟ والرياض كل الرياض لا يكون ربيعاً دائماً إلا بحضرة لالة الياقوت. بما اعتمر وتحلى وتزين، ولها تورّد وتزهّر وغنى وانهمر ماء عذبا فأسقى وأشفى؟ ولكن، هل يكون شبح السلطان المولى اليزيد مجترا له إلى تجربة أهوال جديدة؟

أكد أن الحاج إبراهيم استعان بإيمانه وترديده اللطيف وتعوذه بالرحمن الرحيم وبكل أسماء الله الحسنى. خير رفيق له في محنته وامتحانه الغريب عما اعترى المقاومين من أشكال اعتقال أو اغتيال أو نفي وتغريب. لو كانوا قد صقّوه بالسلاح لكان قد استراح. لكنه مقتاد إلى تجريد من حياته الاجتماعية والأسرية. تخاطبه أصوات متعددة حين إغماض جفنيه. تسائله جهرا في حلم يقظة. قد يحاول الإجابة وتبيان وضعيته. قد تنفلت منه بعض الكلمات القصيرة والسريعة وهو في عزلته وزنانه. يعود فيستغفر الله العظيم، ويذكر نفسه بأن الحالة تعب وقلة نوم وجرعة ألم وجعل وطن في مزاد علي جديد كسلعة تبادها التجار فيما بينهم لكي يقرروا التخلص منها بأرخص الأثمان نظرا لتطيرهم منها.

ما مصير أعضاء المقاومة؟ وهو الذي لم يعترف بخيط رابط له معهم. لم يستطيعوا نيل اعتراف أو توريط أحد منهم من طرفه. كانت الأسماء تمر خيط لهيب محمّر في ذاكرته، ومع كل اسم تطلع ملامح كل واحد منهم. مرة في تسارع ومرة في ملامة وتحذير أو رجاء وأخرى في تقطيب وحث على التحمل والتجلد...

الحسن بن أحمد المرزوقي، علي الحجامي، إدريس الحجامي، السيد كرين، بالمجاهد، الرامي، محمد بن سليمان، السيد الدشيش، السيد الغليلي، محمد المرزوقي، محمد بن عياد، إدريس الدوناسي، عبد الله القواري، ابن سي علي ومحمد الوانجي، وغيرهم كثير. هي أسماء بقدر ما كان الحاج إبراهيم يستحضرها في ذهنه داخل عتمة الذاكرة وكأنه يخاف نسيانها تحت ضغط التعذيب النفسي قبل المادي ورغبة المستعمر في اقتلاع اعترافات بلسانه، بقدر ما كان يبحث لها عن أمكنة جديدة لتخبئها في غياهب الذاكرة حيث لا إنس ولا جان يستطيع إيجادها داخلها.

يتخيل صورة السلطان الذي رافقه خيالا وتطلعا وتماهيا، رغم الفارق في الاعتبار الشخصية بينهما، وتتداخل التأويلات مسترجعة تفاعلات المحيطين به مع اهتمامه برواية سيرة المولى اليزيد. يروّح الحاج إبراهيم عن جحيم اعتقاله بمحاكمة ذاته حول ذلك الاهتمام. يسأل نفسه:

. أتكون لعنة هذا السلطان سبب توريطه؟

يبتعد عن لعنة السؤال حتى لا يتمكن من روحه ونفسيته، ويعود للاستغفار
والعياذ بالله...



يوم عيد الأضحى، كان فعلا اختبارا للمغاربة وللزراينة كذلك. عيون الذئاب متربصة بأبواب المنازل، في حين كانت أخرى متتبعة لما يشتعل من شرارة مسيرة احتجاجية انطلقت بين أزقة ومسارات مدينة مولاي إدريس زرهون.

فعلا انطلقت مسيرة ضد نفي السلطان محمد بن يوسف. كانت عيون الناس مستلهمة ومتقوية بهيبة وشجاعة أب الأنبياء إبراهيم عليه السلام. العيد عيده وكلهم على سنة نبي الدين الحنيف المصطفى العدنان.

- إبراهيم عليه السلام اجتاز اختبار نحر ابنه، ونحن كيف لا نجتاز اختبار أرواحنا فداء لسطاننا؟ الدم طهارة ونية تقرب الله تعالى. دماؤنا فداء للسلطان والوطن. نفديه بما بدل الأضحيات حتى يتقبل الله منا دعاءنا ويعيد لنا ملكنا واستقلالنا.

هكذا ترددت خيوط الاقتناع بالتصعيد في المقاومة والمطالبة برجوع ملك البلاد وخروج المستعمر ونيل الاستقلال.

كانت المرأة حاضرة بشجاعتها ومقاومتها ومساهماتها في التحريض ضد المستعمر وفي نقل السلاح من مكان إلى آخر. كان حضورها في مسيرة يوم عيد الأضحى بين شوارع المدينة بارزا. هكذا كانت (أمي الدريسية)

بشجاعتها متقدمة الأصوات المستنكرة. في عيد الأضحى من سنة 1372هـ الموافق 21 غشت 1953، كانت الثورة الاجتماعية المنددة بنفي الملك. ابتدأت يوم 20 غشت ووصلت شرارتها إلى مدينة مولاي إدريس زرهون.

أجواء غاب عنها الحاج إبراهيم قسرا كما غاب عنها من كانوا منخرطين في عمل مقاومة مسلح وعملي. لكن الحاضرين في المظاهرة عاشوا التناقضات وسلخوا جلودهم من كل الالتباسات. كانت أمي الدريسية تحمل نفس اللقب العائلي وشبيهه عند القايد الذي فجّرت المقاومة قبلة من تحت كرسيه في السوق الداخلي، ثم اقتحم منزله وعرض للتلف احتجاجا على جبروته وموالاته للمستعمر في الأوامر. ويا للمفارقة! فقد أصبح الانتماء للوطن بالأفراد وليس بالأسماء والعائلات. داخل العائلة الواحدة لم تعد تكفي روابط الدم، أصبحت روابط الوطن بلونه الأحمر وبالدم الذي جمر الناس عليه والذي يفدى به.

ترى الشباب على هذه القيم في الكشفية وأناشيدها وحملاتها. ولعل النشيد الذي نظموه وغنوه وأنشدوه يوم رجوع المدافعين عن غلة الزيتون لمرحلة قريبة خلت هو نموذج لهذه الشعارات والأناشيد.

شحذت الهمم وشحنت طاقات الشجاعة، وكان الشهداء والمعتالون والمنفيون والمعتقلون خير مشجع لكل من أجل المطالبة بالاستقلال. أجواء لم يعيشها الحاج إبراهيم بحضوره في سوقها وميدانها، استطاع فعلا أن يطلع على أخبارها

فيما بعد، حينما التحقت به زوجته وأسرته بمدينة طنجة... لكنه حينها، كسب مرارة ولعنة التاريخ الذي قد ينصف أو قد يظلم أصحابه. وذلك ما سيعيشه في الآتي من تفسير وتأويل للأحداث.

فكيف له أن يفسر وضعية طنجة للناس حين عودته؟ الحماية الدولية؟ ! وما علاقة الحاج إبراهيم بها؟ لماذا لم يقتده المستعمر إلى سجن القنيطرة؟ ولماذا لم يتم قتله حتى يبرهن للناس على عدم خيانتهم وكشفه لأسماء مقاومين ببلدته؟ وهو الذي كان يترصد من أعلى الربوة أمام باب القصبة تلك العيون الذئبية التي تترصد هي الأخرى بقلوب المغاربة قبل جوارحهم؟ !



باب القصبة - ملحة زرهون



صورة احتفالية



مدينة زرهون



جبل المقاومة



باب القصبة



المفهوم المرزوقي
منسقى منطقة زرهون



بالسوق الداخلي مجتمع زرهون



الحاج بواتد



صور المشاهير و مشاهير زرهون



احتفالية الملحون

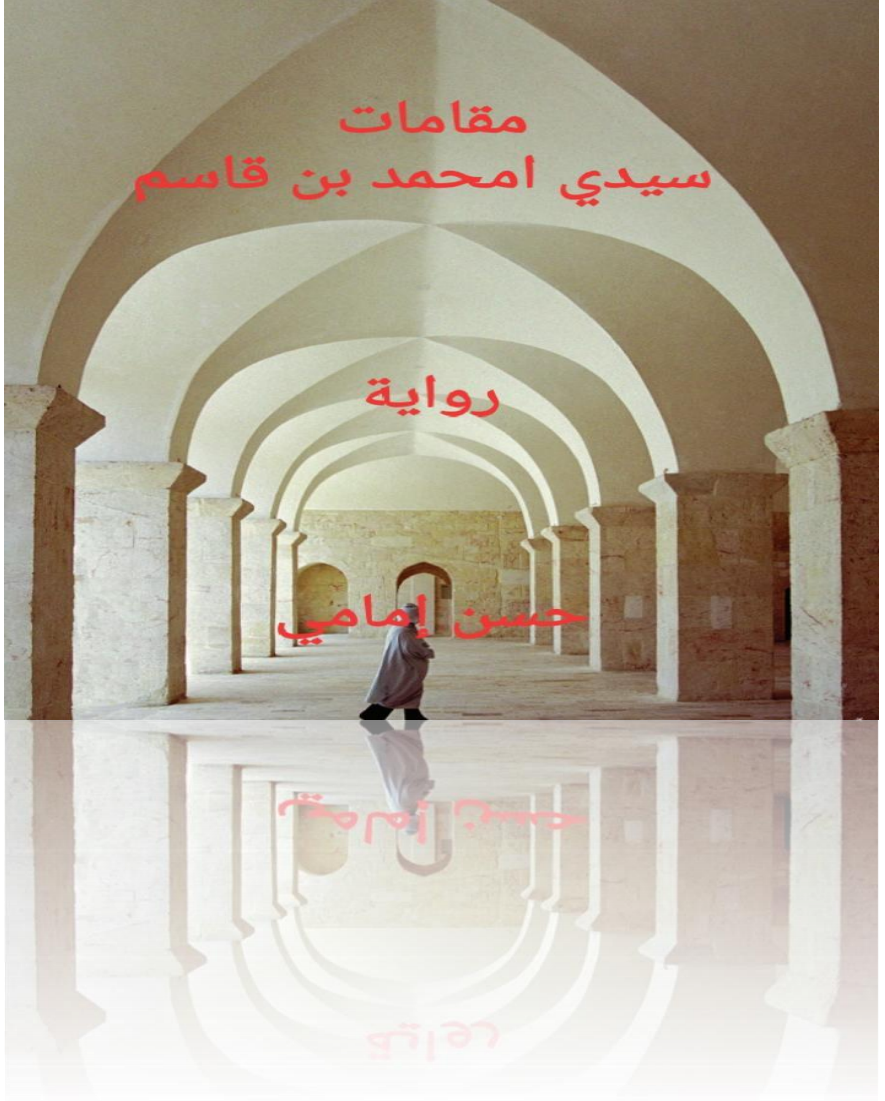


احتفالية الملحون

حسن إمامي

مقامات سيدي محمد بن قاسم

"سيرة مدينة ونسيج حياة"



مقامات سيدي محمد بن قاسم

~

الحمام الطويبي اللي كان ساكن في العلامي

كنت به نعيش ف مقام عالي

هجر البرج ...

و خلايني حزين وسط الليالي

...

~

مقامات سيدي محمد بن قاسم

(1)

يستهلُّ (ابا الساحلي) أغنيته بضربات ثلاثية الإيقاع. تكون فخذة نائبة عن كل آلة دف غائبة، وتكون كفه مسترسلة في وقع هذه الضربات ومواكبة لغناء كل المقامات.

يجلس فوق الدرج الخلفي لبناية الضريح. بناء مربع ومُشكَّل من جدران سميقة وعريضة من الأحجار والأعمدة الخشبية المكونة لطبقات كل جدار، وقُبة بيضاء من الداخل والخارج، تأخذ حلة البساطة وجمالية الطلاء البديع الذي يرسمه الجير، والذي ترسمه كذلك لمسات البِنَاء الذي قام بها بعشق المحترم والموقَّر لمقام قبر هذا الضريح . الولي. وحيث تأخذ البساطة عشقا روحانيا عند الآتي المقبل على هذا البناء، فإنها توحى بصفاء داخلي مفقود. ربما هو موجود بداخل فناء هذا الضريح، وسيغتسل به الزائر مما علق به في عالم هو آت منه، عالم بشري مختلج اختلاج الغاب، وموحش بدرجة استيحاش الحيوانات المفترسة بسبب جوع أو خوف.

بجلباب رمادي بالٍ وذاهب إلى سواد، لطول الأمد بينه وبين غسل وتطهير، ورأس تعرى من شعره إلا ما كان من جوانب احتفظت به في استدارة بين القفا وخلف الأذنين، تعود في جلسته على تقديم رجل أمام أخرى، حيث تبدو آثار الإسكافي الذي صنع العجائب ببلغته أو نعله التقليدي. تجذ القدم الأمامية دائما في حركة مع الإيقاع، كأنها طرقت على طبل أرضي، تعطي التوازن بين الغناء والدف، كما تساهم في الميزان الموسيقي العام بين إنشاده وكفه وأخص قدمه.

حينما يسمع سكان الحي المحيط بالضريح إنشاد أبّ الساحلي، يعلمون حالته النفسية ونشوته لحظتها. استراحة محارب من معارك ضارية ومؤملة يعيشها يوميا، ما دام حاله ونعته:

. أحقق . مجنون . مجذوب ...

تتناسل الحكايات المؤولة لحاله، والتي هي من صنع خيال الناس. يستغربون لتقلبات نفسيته وسلوكه. ف(ابّ الساحلي) خلال فصول السنة يكون على أحسن حال وألطفه. لكن حاله هذه تشتد كلما اقترب الصيف وارتفعت درجة الحرارة، لدرجة أنهم ربطوا حمقه ومرضه بفصل الصيف. وتجدهم معلقين:

. سيعود لصوابه وراحته في فصل الخريف.

هكذا يؤولون صمته الذي قد يلجأ له كعادة بعض الأحيان. لا يدرون إن كان راحة واستراحة داخلية يحتاجها. لا يعلمون قدرته على تحملها.

(2)

مقام الجبل

~

التنهيدة طالعة من الميده

اسقيتي بالسَّما الوادي

و روجي بقات شريده

مرمية في الخابية غريبة

و اللي تمنيتو ما لقيت لؤ

من طريق غير هاذ التغريده

~

تكون هذه التنهيدة محرمة لأوجاع منتشرة بين زوايا الدروب المجاورة، وبين مطابخ المنازل التي تتكرم عليه بما جادت وتفضلت به عليه. كأن حاله حاهم. كأنه مرآة نفسيتهم، وكاشف أسرارهم المنسية وأوضاعهم المعيشة. ولذلك يكون لقبه عند النساء بالمجذوب صاحب البركة (المجذوب مول البركة). وعند الرجال، غالبا يلقب ب(صاحب الحال الذي يعيش في الحال). هذا الحال الذي فروا هم منه، حفاظا على ما تبقى من صحة بدن ومقاومة أمراض ومجابهة عواصف الأقدار.

أما الأطفال، فليغريب صدف أصحاب الحال، كانوا يجعلون مسافة معه باحترامه. فلا يرشقونه بكلام أو حجارة مثلما قد يغامرون به مع العابرين ليهم المترامي على أطراف الجبال، خصوصا وأن فضاء المجال الطبيعي والحجري يتيح لعبا أكثر خطورة ومغامرة بالأحجار كما بأشياء أخرى.

كان أبًا الساحلي عضوا من أهل الحي، رغم أن مبيته ليس بداخله. كانت توجيهات الراشدين للعب الأطفال في عدم انفلات سلوك معه. وكان الأطفال هم الوسيط بين نساء الحي وصاحبنا (أبًا الساحلي) كما يلقبونه. كل ما يسلّمونه له من أكل أو شرب تجد له مكانا في قفته المتوسطة الكبر، والطويلة بالمقارنة مع شكل القفف التي تستعملها الساكنة.

الأعين الحاملة للأطفال ترى فيه وفي لباسه ووقفته خيال أساطير وتأويل حكايات. ترى في قفته خزائن وعجائب، تؤولها بحكيها وتساؤلاتها وصنع خيالها. حتى جلسته لما بعد صلاة العصر، كانت بتوقيت مناسب للمقام بجانب هذا الضريح وفي طقس التبرك به. لكن تبرك مجذوب بمجذوب، يبقى سرًا عجيبا، ويمتد حتى الغروب وبعده.

يستغرب الشباب قبل الكهول، كيف يستطيع الجلوس لهذه المدة في نفس المكان. يشفع له الغروب بكونه يمتدّ لآفاق خلفية لجلسته، يقيه بناء الضريح من أشعة الشمس التي تحجبها خلال مدة اتقادها ظلال جدران ممتدة على الحافة المنفلتة انحدارا إلى أسفل سفح طريق متربة، وإلى قاع الوادي الذي يتشرف النهر بالمرور بين منعرجاته والارتواء بعيونه المتفرقة بين شعاب ومرتفعات جبل زرهون.

تمتد أمامه الغابة في أعلى الجبل، والطريق المنعرجة إلى يمين بصره. كما تمتد في أعلى القمة على شمال بصره أجزاء من أطلال بناية مهجورة لقصر (سيدي

عبدالكريم بن الرضي). قصر معلق فوق الجبل ومختزن لسيرة وتاريخ المكان والإنسان. تعانق الرؤية هذا المشهد، وفي نصف استدارة أخرى، وإن كانت تأخذ شكل زاوية حجرية منحدره من أعلى، تجدد الصورة مسكونة بكهوف تحت قمتها الممتدة، وبصخور ضخمة تصلح لخيال حكايات الفناء أو صراع آلهة من خبر كان يا ما كان... تلك الكهوف هي مقام الجبل للحمام البري أو الطوي بلغة المنطقة الذي يرفرف بين الفينة والأخرى، بين الأجواء والأركان. لكن هذا الحمام غادر المقام، كما غادر قلبه ساكنوه، وتركوه خاويًا وغريبًا إلا من صوت فراغ أو سديم عدم حلّ قبل الأوان أو نعيق غربان.

جلسة آبا الساحلي تتناوب عليها كل الأجيال. مقام الكيف ومقام الشيخ ومقام الطفل، مقام النساء ومقام الشباب... غالبًا ما كان موزعًا لها هكذا بحدسه. يوزع برنامج أمسيته بحسب كل مقام. ولكل مقام مقال. وطبعًا، يفرض عليه يوميُّ الحي أعرافه وتقاليده وثقافته، فتجده يبحث عن توافق ينقذه من غربته الداخلية كما يقيه من شرور مخالطة الخلق التي هي في الأصل عنده وعند غيره: شر لا بد منه.

(3)

مقام الكيف

لمُحْدِر الكيف حضور كبير في الحياة اليومية لمجموعة من مدخنيه. طقوسه مقاومة لجميع أشكال الحصار الأخلاقي والأمني والاجتماعي عموماً. فجبل زهون ممر رئيسي لقوافل الدواب التي تنقله بأثقالها من المناطق الشمالية للبلاد. أما بائعوه بالبلدة، فهم محسوبون على رؤوس الأصابع، لكن المداشير المتفرقة بين سلسلة جبال زهون، لا تخلوا من احتياطي مناسب للتداول في البيع كما في التدخين. ومجموعة أدوات تباع وتشتري بالدكاكين، لها ارتباط باستعمال وتدخين محدر الكيف أو القنب الهندي هذا، ك(الشقف) و(السبسي) و(اللوحة) ومادة (طابا) الرومية التي تباع بعض الأحيان مع السجائر وغيرها، وهي ورقة نباتية متوسطة الحجم تعتمد في صناعة لفافات التبغ عموماً.

ابًا الساحلي يعيش على هذا المناخ، ويجعل من دخان(الكيف) المتصاعد احتراقاً في جعبته الصغيرة (الشقف)، ملهمه في الدندنة والغناء، كما في

استكانة النفس التي تكون نارا مشتعلة لا يبرّد احتراقها سوى دخان الكيف الذي تشربه رثناه ويتغيم بها دماغه انتعاشا.

أوقات الأزمة وانعدام المادة تنذر مدخنيها بخطر الخصاص ومعاناة نقص في الإدمان. يَشُدُّ فيها ايا الساحلي وغيره الرحال على الأقدام عبر منعرجات الجبال إلى الدواوير المجاورة، فتكون المغامرة مستحقة لكل الجهد والمشقة. هي مادة الكيف التي ألفها البعض كنبته للتدخين، حتى إن القنب الهندي هذا عشبة للتداوي والتلقيح، تجعل الساكنة تتعايش معها، ما دامت حاضرة في مقاهيها ودكاكينها وتجمعات رجالها وشبابها.

ابا الساحلي، رغم قلة الحيلة ماديا، يمتلك يقظة وفطنة وتدبيراً مناسباً لتوفير المادة. فخلال النهار، يقسم جهده بين توفير نقود وأكل وتواصل مع مريديه في الصحبة، وبين توفير المادة والسؤال عنها. قد يكون جهده في تحضيرها وإعدادها للتدخين لمجموعة من مستعمليها جهداً عملياً بمقابلٍ في بعض الأحيان، حيث إنه يوفر حصته من التدخين بفضل خدمة الآخرين في تحويلها مادة مدقوقة أو (مقصوفة) بلغة أهل البلدة، ومُعَدَّة بعناية خاصة وجيدة، حتى إذا ما جاء المساء، كان منتشياً، منسرحاً.

خلال اليومي من النهار، قد يكون مرسولاً لشراء سنابل الكيف وورق التبغ بين بعض تجاره ومستهلكيه. يجلس بدكان المعلم الخياط في جهة محتجة

بستار من ثوب، منهمكا في تنقية هذه السنابل من العيدان وما تحتويه أوراقها من بذور صلبة هي زريعة تحتفظ بمرارة النواة الصالحة للزرع كل حين.

يتذكر يوم كان يتخلص من بقايا تنقية الكيف برميها في أبيض كبير من بين أصص جعلتها البلدية تزيينا لمدار ساحة السوق ومدخل الضريح الرئيسي بالبلدة ضريح مولاي إدريس الأكبر، معلقة فوق أعمدة حديدية، كيف نبتت سنابل طويلة للكيف، واستنفرت درك البلدة لكي يقوموا بحملات مخوفة، كما استنفرت عمال البلدية حتى يجرسوا ويجرصوا على عدم تكرار العملية. إزهار وعملية استنفار أضحكت المتابعين للسير اليومي والمعيشي والثقافي من المعلقين والساخرين على الحال العام.

هكذا يكون قد نقي ما يناسب لوصفة التدخين، وهياها لعملية (القص) بسكين يعمل على صقله وتلميعه دائما لهذه المهمة، لا يفارقه، يجعله دائما مغمدا في قبضته في جيب سرواله البلدي الفضفاض. يتحدث عنه كعنصر أساسي في (قص) الكيف كما في وضعيات أمن الذات ودفع التهديدات عنها: السكين (بونقشة) كما يسميه.

أما لوازم (القص) والجز الأخرى للكيف فتبقى في دكان المعلم الخياط دائما وغالبا، إلا إذا استُعيِر بعضها لرفاق في البلية والحرفة، فاللوحة الخشبية والغربال، أساسيتان في العملية.

لكن فصول السنة متبدلة، والتزامه بصديقه الخياط يقل أيام البرد القارس. إذ غالبا ما يلجأ إلى الفرن لكي ينعم بدفء النار ويبت النار، حيث تكون مادة الكيف محمية من رطوبة الشتاء وبردها، وحيث تَحْمُرُ الخدود لحرارة الفرن وعالم التدخين، وتسترخي المفاصل بعد معاناة برودة خارج الفرن. هكذا يحاول توزيع أوقاته بين أمكنة ورفقة بحسب المقامات والفصول. هكذا هو الكيف، همولة تحديرية وعلاقات اجتماعية وحياة ثقافية وتجارية عند أبّا الساحلي كما هي عند آخرين.

لكل هذا، تكون جلسة أبّا الساحلي بجوار ضريح سيدي محمد بن قاسم محملة بهذه العوالم والحقائق والتجارب.

كان دائما يقاوم إغراءات البقاء مع أصحابه في البلية في الكيف. فبمجرد بدء أذان صلاة العصر في الأيام المعتدلة في طقسها، تجده مسرعا في الاستعداد لمغادرة جلسة التدخين، كأنه تَفَكَّرَ شيئا مستعجلا، عليه القيام به. حتى السبسي الذي يكون بين يديه، يسرع في إفراغه وجمعه وطيبه في قفته.

ل(پا الساحلي) علاقة تأملية وثقافية مع أدواته الخاصة بالتدخين، تلك المسماة بالسبسي. يتأملها كقضيبي خشبي من عود الأشجار، مجوف بشكل محكم على شكل ناي رقيق، لكن دون أن تكون له ثقب لاستعماله في صوت موسيقي. قد يداعبه كأنه قصبه هوائية، لكن ترديد تقسيمات الطرب تتردد

في دواخل أنفاسه نيابة عن الأداة. يستحضر مع هذا فضاء البساتين والجنان التي يزورها لكي يختار من أشجارها ومن أغصانها ما يناسب ليكون أداة تدخين: سبسي أصيل وصلب من صنع يديه في بعض الأحيان.

يجعل على رأس السبسي وعاء طينيا صغيرا جدا بحجم رأس ثقب السبسي يسمى بالشقف. يملؤه بمادة الكيف المقصوفة، ويشعل المادة الموضوعه فيه يعود ثقب أو رقصة شمعة مشاركة في الاحتفال. تتقد الجمرة الصغيرة التي قد تتفاعل معها نفسيته وتتشكل وضعياتها بين اضطراب أو احتراق أو خمود توترات. حتى إذا ما استنشقت الجمرة دخانا من الثقب الآخر للسبسي، امتلأت الرئتان بالمادة، وتمددت عروق الرأس لتنتشي بالمخدر بشكل هادىء وبطيء. لذلك سماه العالم بالمخدر الهادىء، مفضلا له عن المخدرات القوية كما نسمع في الأخبار والروايات. هو الذهب الأخضر الذي يدر على تجاره أرباحا، مثلما يدر الذهب الأبيض من كوكايين وغيره الأموال الطائلة على تجاره. لكن الفرق القائم بين الربحين جليُّ هنا في البلدة حيث لا وجود إلا للكيف وهذا الحشيش الذي بدأ يغزو سوقها بشكل ملفت أواخر سبعينيات القرن العشرين، قبل حوالي عقد من الزمن ومن استحضار مقاماته رفقة هذا الكيف مع أبّا الساحلي وتجمعاته وجلوسه بجانب ضريح سيدي محمد بن قاسم نهاية هذه الثمانينيات من نفس القرن.

تجارة الكيف والحشيش في البلدة معاشية أكثر، تضمن دخلا مستقرا لأصحابها وليست مثل ما يسمعونه عن ملايينها خارجها. قد يكون من حظ جلسات ايا الساحلي أن يدخن مع أصحاب البلية من مناطق أخرى من بلاد المغرب وحتى من سياح أجنب يشاركونه عالمه الغرائبي، سواء داخل دكان الخياط أو في عالم ألف شعلة وشعلة: عالم الفرن التقليدي الذي يجمع بيت النار كما الحطب كما جلسة فوق بيت النار الساخن والمتقد، كما شخصيات عجائبية أخرى كلها نتاج بيئة رسمت على محيا أصحابها قسما شقاوة عمر ومحنة حياة.

سبسي ايا الساحلي، كما يسمى عند المدخنين هو المطوي. هو سبسي يركب من جزئين، حتى إذا ما انتهى من استعماله، أمكنه طيّه وجمعه في حجم قصير الطول إذا، يساعده على إخفائه في الجيب أو في القفة أو حتى في قب جلبابه أو غير ذلك.

يعلق عليه المعلم الخياط:

. أراك هربانا أنت والمطوي ديالك آ با الساحلي ... !

يرد عليه بسرعة خروجه من الدكان ورأسه مثقل بالتدخين مائل في الكلام، مدننا:

مقام الكيف ديما حبيب

سيرة مدينة ونسيج حياة

ما دام بخوره هو عطوره

ما دام النويني روحه اللبيب

وَتَأْسُ يا نَأْسُ ...

وتأس الليالي والصيف

وانا اللي في هاذ الدنيا غريب

بغاني مولانا هكذا فريد

أسفاري بهذا الغالي اللي في الجيب

يتم إنشاده الزجلي بصوت غليظ شبه مبحوح وبعينين تحاولان الجحوظ:

. السلام عليكم.

يعلق عليه المعلم الخياط ضاحكا هو ومن معه:

. وأراك أخذت النويني وخليتي لنا غير الزريعة ديال الكيف.

يكون انعراجه عن باب الدكان قد أخذ معه تسميته المعتادة عند مغادرته لتجمعه هذا. هذا التجمع الذي ألفه يوميا تقريبا، وأصبح له مناخا شبه أسري معتاد.

وصول ابا الساحلي إلى مقام ضريح سيدي احمد بن قاسم يكون بعد مسافة ربع ساعة من وسط المدينة العتيقة. يوجد الضريح على مخارج المدينة من الجهة الشرقية المتشعبة تضاريسيا بين مسارات الوادي ومنحدرات مرتفعات واقفة لجبل باب الرميلة وجبل سيدي عبدالكريم بن الرضي، والجبل الحجري للقلعة التي اتخذها الناس استقرارا منيعا كحي سكني آمن. يأخذ منه المسير إليه وقتا مناسباً لأكثر من ربع ساعة تلك، خصوصا إذا اعترض طريقه سلام أو كلام أو حوار وتعليق أو مآرب قد تكون مفيدة له أو مجرد محاولات ضرورية في طلب رزق أو تواصل اجتماعي.**

(4)

مقام الشيخ

حين جلوسه فوق المصطبة الخلفية المظللة لمقام الضريح، يجد بعض الشيوخ المسنين قد توزعوا في الفضاء والمكان، جالسين كل بحسب طريقته المعتادة. فمنهم من يجلس بجوار ابا الساحلي بعدما انتظر مجيئه المألوف والمعتاد، ومنهم من يجلس أمام باب منزله في هدوء وجودي يكون فيه الزمن الماضي قد انتصر في الحضور على الآني، ولم يجعل للمستقبل شأنًا في الحركة، ومنهم من يكون مترقبا من فوق صخرة، ما دام مقام الضريح فوق ربوة عالية عن الطريق الذي في المنحدر، وعن منحدر الوادي تحت هذه الطريق الضيقة، مشرفا ومستقبلا، برؤية العين قبل الخطو المقرب للآتين من جهة قنطرة عين وليلي ذات التاريخ والذكر بين سكان البلدة.

هذا الترقب من طرف كل شخص يكون لِمَا ستأتي به هذه الطرق المتشعبة من هنا أو هناك. كأنهم حراس اليومي وما ستنبعث به كل لحظة فيه، أو هم في انتظار قطع غنم أو ماعز أو بقر. ذلك أن المدينة تجعل من خصائص

اقتصادها إلى جانب التجارة والحرف المتنوعة والزراعة، رعي الماشية، وحيث إن غالب ممتلكي الماشية يسكنون بضفاف المدينة وأحيائها الجانبية، ومنها حي سيدي محمد بن قاسم، فإن خصوصية الاقتصاد المعاشي لسكان الحي مرتبطة بالسكن فيه.

الشيخ (اجنيح)، برزته البيضاء وجسده النحيف الدال على صلابة جسم رغم كبر السن، ورغم ما مرّ به من محن، منها مشاركته في حروب فرنسيس في الفييتنام، وآثار الجرح الذي بقي وشما على جسده، وبتراً لخصر يده اليسرى، يكون في حاجة إلى جلسة ما بعد صلاة العصر، بعد أدائه لها في المسجد الأكبر بالمدينة. بخفة خطوٍ تجده قد ذهب للصلاة وعاد منها ليجد الأب الساحلي جالسا، لا تفارقه ابتسامة المتنعم بسلام اللحظة في هذه الطبيعة المحيطة والممتدة، وهذه الحياة البسيطة والخالية من تهديدات ما مضى من حروب ومجاعات ومقاومة استعمار.

يكون الشيخ اجنيح البارع في لعبة (ضاما) والمستعد لمنازلات جديدة، حاضرا وجالسا بجانب مقام الضريح، بخبرة الحكيم في تدبير الخطط ما دام صاحب حروب ومواجهٍ لتحديات موت واغتراب. وتكون (الضاما) هي اللعبة التي تجذب لها الرواد من الشيوخ والشباب، والتي تأخذ من وقتهم وتشويقهم حينها زمنيا كبيرا، خصوصا بعد صلاة العصر وحتى اقتراب غروب الشمس.

نادرا ما كان ابا الساحلي يخضع لرغبتهم في الاشتراك في اللعب. هو يعلم نوبات التعليق والاستفزاز التي تكون في اللعبة، ولا يريد أن يكون في دوامة حرب باردة في لعبة الضاما خصوصا وأنها تخلق أعداء في لعبتها إلى جانب أصدقاء. تبرهن العداوة في اللعب على عدم رضا وضيق خاطر، وأحيانا عدم استقرار نفسي أو اجتماعي. كما أن اللعبة مجال لاختبار الذكاء والتفوق المنسي من الحياة اليومية مع كثرة الانشغالات وظروف الحياة المعيشية لغالبية الناس.

إنما هي الضاما، الشهدة التي يجتمع حولها النحل، والذي يكون غسله تلك النكت والتعليقات المبتكرة، وتلك الضحكات المتعالية كل مرة، حتى إن الشيخ يصبح صبيا أو شابا وينزع عنه صفة الوقار وعمامة المهية ويصبح بألفاظ الطيش والمراهقة. هذا ما يجعل الجميع يدخل في غمار هذا التحدي ومتعة الفرجة واللعب. والكل يعلم أن الشهدة شوك وغسل.

بفطنته قد يشارك الشيخ اجنيح في بعض الجولات في اللعب، ويترك للآخرين المجال. لا ينسى أن يبرر انسحابه منها راجحا أو خاسرا بتعليقه المعتاد:

الضاما امرأة عمياء

أنت تقودها للانتصار وهي تمشي بك للحافة

سيدي عبدالرحمان قالها :

سوق النساء سوق الاطيار

تبين لك من الريح قنطار وتبيّعك راس مالك

يا الداخِل رد بالك

تسمع دعوته لآخَرَ لكي يلعب بدله بتعليق لا يخلو من (تقشاب) وسخرية
كما يُعَبَّر عنه في البلدة:

. زِدْ آ بودومة !

فلعبة الضامما تجعل بالاتفاق كل خاسر في جولة يعلق خيط دوم على جانب
رأسه أو على أذنيه. وتكون دالة على رمز خسران أو بلادة حمار:

. أريد قفة آخذها للسوق وتكون بأذنين كبيرتين.

تتعالى الضحكات لكل تعليق مثل هذا.

يأتي متفرج جديد معتاد على هذا المناخ ويباغت بقوله:

. أنا غداً سأمشي لجمع الحطب من غابة باب الرميّلة، أحتاج لبهيمة لحمل
الأعواد والحطب، وإذا كانت حماراً فذلك أفضل.

. اجلس آ البغل واسكت. يكون ردّ الخاسر في جولات ضاما التي تكون بانتصار رباعي الأشواط حتى يستحقه المنتصر. وفي كل مكان بالبلدة تجد هذه الرقعة فاتنة وساحرة وخطيرة في تعاليقها، حتى إن كل حي أو مجال صنعة يكون فيهما أبطال مشهورين قد يرشحون للتباري بين الأحياء والحرف.

خارج اللعبة أو قبلها يكون الشيخ اجنيح المبادر إلى محاورة آبا الساحلي:

. تبارك الله عليك آ آبا الساحلي. كاين شي نوبني*؟

* (أرقى ما في عشبة القنب الهندي الملائم في التدخين).

. مرّة هنا، ومرّة ليهية (هناك). ما انعدم خيرا عند الناس الكرام.

. ما رأيك في كاس شاي منعنع؟

. إيوا، ما كرهنا للعشية من مائدة.

يبتسم الجميع حتى المبتعد عن الجلسة، وتصل الرسالة في الحين. مرة تأتي بغيث طلبها، ومرة يتم التأجيل. حسب الأحوال:

. الله غالب. هكذا قد يأتي الرد أحيانا:

. الله غالب آ آبا الساحلي.

يعلق الساحلي بمقامه :

مول التاج ويحتاج

و المسكين اذا سألته

اهدى لك من كلام الهنا

أما مول التاج

حال وأحوال

ديما يشكي بأوجاع الحال

مرة الفتات ومرة طار الدجاج.

تلك رسالات الساحلي المعبرة. كل مرة يريد الشيوخ سماعها. بل هناك من يحضر لها مسبقا، بما بقي من طعام الغداء أو صينية شاي يوصي بإحضارها صغار الأولاد إلى جلسة الضريح الخلفية. وحيث لا صاحب تاج في الحي، فالتعليق يكون معبراً عن الحال للجميع.

بعد أكل وشرب ماء:

. الله يخلف على الجواد.

. آرى (هات) النوينى آابا الساحلى !

النوينى اللى بغيت

حلى عيونى مدمعة

و مومو عينى اللى تمنيت

هجر كهوف هذه الجبال

و هجر الكهف الكبير

قلبى هذا... بقى بلا شمعة

كنت نضوى عليه وكان ينحاز لى حايك

يلبسنى و نلبسو ...

يحكى لى ، نحكى لو

هو لى كامة

و أنا ليه شجره طامعة

أنا ظله وهو قنديل عينى

هو لى كحول

و أنا... مرود يزّين مقام العيون

اللي يشرب ذيك الدمعة

يناديه (ابّا التاقي) بجلبابه الصوفي المخطط بالأحمر والبني القاتم، والمنتظر
لرجوع قطع غنمه مع سارحه بين جبال باب الرملة:

. واش راه الكيف؟ نوبني أو غير زريعة مُرّة؟

في نصف التفاتة لا تلتقي فيها العين مع العين، احتراماً لدرجة مزحة الخطاب،
وتواضع يترجم واقع الحال، وحذر مما يأتي به السؤال، يكون الردّ:

علاه الزريعة تنبت في الحال؟

علاه راها تعطي الزهرة الزعرة؟

ياك شفيتها محمولة بين الجبال

و بين يدي منقّية شعرة شعرة !

العشبة نقية هي اللي تنغم البال

راه العشبة النقية هي اللي تنغم البالال.

هي حوارات هادئة وغير متسعة، تخترقها لحظات صمت أو ارتشاف كأس شاي جادَ به سكان الحي. يحتاجها ابا الساحلي مع حكمة عُمر شيوخ الحي، تُسكن نفسه المرتجة بمعارك صبا وطفولة وشباب، والمكسورة بعواصف الزمان، كشجرة بدأت تهجرها أغصانها وأوراقها بعد هجر الطيور لها. ذلك هو الحال. لذلك لم يكن يريد الاستمرار في صخب لعب الضاما حتى لا يرتج البال بدواخله.

(5)

مقام الأطفال والنساء

~

أطفال المدارس، بعيونهم الفضولية والمتسائلة، لا يجدون لمقام ابّا الساحلي طريقا اختبارية أو استفزازية. جلسته مع الكبار، وتعاطف أمهاتهم معه في كل مناخ وفضاء منزلي، بل جودهم عليه بالطعام وبما يلي من لباس في المنزل... كلها عوامل جعلته فردا من العائلة الخارجية للحي. هيبية جلسته وصوته الجهوري وعيناه الجاحظتان كسبع غابٍ يُهاب، كلها عناصر تجعل خيالهم يشكّله أسطورة في لعبهم وكلامهم... وعَبْرَهُ يُؤلفون قصص الغاب البعيد في أعالي جبل باب الرميّة أو وراء الجدران المتهدمة لقصر سيدي عبدالكريم بن الرضي المترامية هناك في أعلى النظر بين الأحجار والأشجار، في قمة جبل الوادي المؤدي صعودا إلى منبع ومسبح الحامة الأثري الروماني.

تتضارب الروايات المحكية للأطفال حول أبا الساحلي، وتزيدهم طرق تلقيهم للمعلومات خلطا وتناقضا، ييقون معها فاتحين لأفواههم بكسرة خبز في يدهم... مرة يكون الساحلي وليا أو مجذوبا، ومرة يكون عند آخرين أحرق ومجنونا وأخرى رجلا غريبا، يلزم معه الحذر والحيطه، فهو يخطف الأطفال ويذبحهم ويأكل لحمهم... هو هريان من روح قتلها، وأتى طلبا لشفاعة مولاي إدريس، ومولاي إدريس هو الذي أرسله إلى سيدي محمد بن قاسم لكي يحتمي عنده... وعند طفل آخر تجد المزيد من العجائب في تصوره لشخصية ابا الساحلي:

. يذهب بالليل للغابة فيكلم الحيوانات ويأكل معها وينام وسطها، حتى إذا أتى الصباح تحول إلى المدينة يتجول فيها.

وكل مرة يكون حديث الأطفال ترجمة لطرق تربية تناسب شخصياتهم وتحاول ردع فضول لهم غير مرغوب فيه.

لكن انتظاراتهم لمجالسة الكبار ومجالسة ابا الساحلي تبقى فضولا مرغوبا فيه، ما دام الكبار يجالسونه، هم كذلك سينتظرون ذلك، حينما سيصبحون كبارا شبابا. ربما سيجالسونه ويسامرونه، ولا يدرون إن كانوا سيشاركونه تدخين الكيف كما يفعل الكبار. لا عيب، فما دام تاجر الكيف يسكن بين ظهراي حيهم، وما دام كل بيت لا يخلو من مستعمليه، ستكون تلك أحجية آتية، هي الآن حلم ممنوع، ومُهَدَّد لكل من يراوده التفكير فيه بعضا الأب

أو قرص أصابع الأم المؤلمة. مهدد كذلك بنماذج عقوبات عاينوها من طرف بعض الآباء لأبنائهم والتي كانت كافية بقساوتها لكي تعطي للباقيين من أطفال ويافعي شباب الحي درسا يردعهم من كل محاولات تمرد وتجاوز لما هو مقبول نسبيا في تحدياتهم ولعبهم ومغامراتهم.

يميل البعض منهم إلى اللعب في جوانب قريبة من الضريح وهم يعلمون أن قفة ابا الساحلي العجيبة تحتزن شيئا سيحود عليهم به منها. يكون الحظ طبعاً لمن أتى بتوصيلة من المنزل وتبرع على ابا الساحلي. وبحسب الفصول، قد تجد فاكهة الغابة الصغيرة: القطلب أو (باختو) كما يسميه أهل البلدة، وقد تجد النبق أو الزفروف أو التين اليابس...

. شفتِ ابا الساحلي... راه مزوج بجنية ساكنة في الغابة، هي التي تعطيه هاداً الماكلة... يمكن هي في القفة مخبية لا يراها إلا هو. كم من مرة يكلمها داخل قفته!

يبقى المتلقي الأقل حظاً في تصور خيال، مندهشاً، ونصف مصدق دون أن يكون مكذبا لما سمع. فهو الآخر عليه أن يضيف ويكتشف ويروي للآخرين. أما الفتيات، فقد استرقن أبياتا زجلية من بوح ابا الساحلي، ناسبت لعبهن بتصافحهن براحة أيديهن:

الحمام الطوي، يا اللي ساكن في الغلاي

هجر البرج وخلاني ف المقام العالي

آ لالي يا لالي ...

آ الجاه العالي

...

من أين لهن بإعادة صياغة أبياته الزجلية بشكل مناسب وغنائي؟ هي جلسات أمهاتهن وأخواتهن الاحتفالية بالبنادير و(الكوالات)... هي الدقة المألوفة بالمعلّمة، والتي تتصاعد معها الأصوات فوق دقات الدفوف، فتخترق الأجواء، حتى إذا ما وجدت آفاقا راجعة، انعكست صدى تتخاطب به الجبال المتقابلة والمتداخلة... وللصدي رجع كما له تفسير يناسب كل مخيلة، وخصوصا إذا كانت نسائية. الصدى أرواح في الأعالي الضخمة الثابتة كشهادة للتاريخ على مرور حياة من هنا وهناك. ذلك الصدى الذي نسج لحكايات مع أقواس هارون في اتجاه وادي الميت في عمق جبال زرهون، أو الذي ناشد من قعر الوادي الشعاب والأدغال المختلجة والجبال الشامخة العالية على قامة البشر الصغيرة جدا.

صاغت النساء زجل آبا الساحلي، لحنه على إيقاع ومقام دقة المعلّمة... اشتهرن به وانفردن عن باقي نساء البلدة وأحيائها، فكنّ كلما اجتمعن معهن، كان لهن هذا الانفراد والتميز، ومعه تزيد بركات التبرع على آبا

الساحلي، مبدع الكلام ومخاطب زجل الحمام، ذلك الحمام البري الذي يراقص أعالي الجبال. حتى الشابات تجدن في دلالات مقام الحمام حلم رفرقة وتحليق بخياهن وأمنياتهن في حرية حياة جديدة خارج ما بدأت تضيق به تلك الحياة القديمة المألوفة. لم تصبحن صغيرات، فكيف التحليق والسفر مثل الحمام؟

وللصدي وظيفة اختراق الجدران وكسر سياجها وإيصال رسائلها لمن يهمله أمرها أو ينبض قلبه في تفاعل مشتاق معها.

...

عندما تقترب الشمس من الغروب، تبدأ في إسدال ستارٍ وردي ثم محمر شفاف متدرج بين النضوح والدكن. تلبس الجبال كما الأحجار والأشجار هذا الفستان الشفقي الذي يعطيها سمفونية لونية وتحولاً نهارياً يقلب الأدوار ويريح من الأشغال، ويعيد رعاة الماشية والفلاحين والخطّابين من رحلات الحقول والأدغال. يكون لنصيب الوحدة والعزلة جزء من رحلة هذا النهار، حيث ينصرف الشيوخ إلى صلاة المغرب، وتستنفر الأمهات أولادهن للدخول إلى المنازل، بعد أن تم استنفار الدجاج والديكة والأفراخ للانسحاب من الفضاء الخارجي، وتبدأ لعبة قفل الأبواب والنوافذ.

للليل غربته ووحشته الآتية والتي لا بد من الاحتماء منها. كما للمكان هول ذاكرة ماضية أيام زمن الحيوانات المتوحشة أو أيام السبية الآدمية المخيفة.

ولمحكى الذكريات طبعاً رصيد يغلف العتمة بقصص تلعب دور الأشرطة المصورة بالأحلام والصوت والاستدارة حول الرواية، حيث تتناقل الرموش إلى أن تغيب الأعين في بحار بعيدة معلنة الانطفاء لقرص شمس ونهاية يوم في استراحة وجودية للمخلوقات.

الشبح في مكانه ينتظر ويتأمل حلول الظلام. تهدأ أصوات البلدة لكي تبدأ أصوات الطبيعة والوادي والشعاب والغابة والجبال. بعض هذه الأصوات مألوف، مرتب بين أثاث الطبيعة. وبعضها الآخر يستدعي فضولاً كما قد تحفق له دقائق القلب الذي لن يخلو من لحظات خوف أو فزع بدرجات متفاوتة.

يكسر جدار الصمت هذا ويليه نور شمعة تضيء محيط قدميه، أو بداية تسلل الشباب لسمر ليلي تختلف عطاءاته ومغامراته. هو مقام الشباب في جلسة أباً الساحلي، متكئاً على جدار ضريح سيدي محمد بن قاسم.

~

(6)

مقام الشباب

محكيات الشباب، مغامرات يستمتع لها ابا اساحلي أكثر، ولا يشارك فيها إلا بالقليل من الكلام، حينما تغدو بسطاً فيه مزحة ونكتة. تنفرج بسماته وضحكاته حتى تستبين الأضراس المتفرقة والمتبقية داخل فمه. هو يعلم أن بعضهم صعب المراس، وصعب المجالسة، خصوصاً وأنهم يعيشون في توترات المرحلة الشبابية. يذعن سمعه للمغرم العاشق، والذي لم ينل من ود معشوقته سوى نظرة باردة خاطفة. يسقيه من روح الكيف الذي ينتصر على مادة الواقع، والذي يطفىء نيرانه المشتعلة في الصدور. قد ينتظر هذا الشاب تحليقة زجلية جديدة، علّها تلهم محاولاته في استمالة محبوبته التي لا يمتلك منها إلا طيفاً وأطلالاً وظلالاً وديار أو رائحة عابرة.

. لو كان آ ابا الساحلي عندي الجهد، نعيشها ملكة، ونحضر لها ما تريد.
إنها لن مثل المعزة دياها اللي عندي.
. اسمع آ هذاك...

عنداك العافية اللي في صدرك

تجي على راسك، تحرق النوادر،

وتخليك شجرة بلا اغصان

بلا عواد، كي عمود الصوابر.

. عمّر ليه شي سبسي كي يبرأ. ذواه عندك آ ابا الساحلي.

يُعلق الآخر من الحاضرين على مقام الغرام.

. لو كان الخوخ يداوي.. . يبدأ أبا الساحلي اللازمة بالتعليق ..

تجيب الجماعة:

. كون داوى راسه !

تتعالي الضحكات الخافتة والتي لا يريدونها صاحبة رغم أصواتهم الغليظة أو المتفخحة أو المبحوحة بفعل التدخين المستمر.

. هاهها، مسكيبين... يزيد ابّا الساحلي لمستة المنتشية، والتي تشعل من جديد تلك الضحكات وتخلطها مع الكحات الدالة على تمكن الكيف من شجرات التنفس عند بعضهم.

يسبقهم ابّا الساحلي في العودة لهدوئه وصمته. يهم بإشعال الشقف، ويمده للليل بالغرام:

. هاك آهيا ذاك!

يتدخل صاحب الفتوة في الحي، والذي ينذر حضوره بخطر ما، سببه حادث مرّ بالنهار أو مسلسل أحداث وسوابق وسيرة عنف وشغب لا زالت أحداثها لم تنته بعد أو لم يبدأ البعض منها:

. لو عرفتم... أنا إذا جاءت البنت بين يدي، أحملها بين كتفي، وأعبر بها في العراسي... الشراب والكيف، وهي، والتخريفة، والارنب يكفينا.

. أو من بعد آهيا؟ ماذا؟ يعلق ابّا الساحلي بنظرة نصف منحنية، يساعدها ظلام الليل الملتحف بطيف نور للشمعة التي انتصفت وأخذ شعاعها يتراقص على جنباتها منتحبا على صمغها الذي ذاب وتجمد في رقصات بركات دامعة، في إظهار تقوس قفاه العارية.

. من بعد شنو؟ اللي ليها ليها... يا الله! أنا اللي بغيت نديرها نديرها، صَحَّة
على كل شيء وعلى بني آدم.

تُحَظ عيناها حتى تنعكس صور أشباح وظلال المحيط على بؤبؤيه، وتبدو
حمرة على عروقهما الرقيقة المحيطة، فيما تنتفخ أوداجه معبرة عن جدية كلامه
وتُحديه لتتأججه.

يلق أقرب صديق لصاحب الفتوة والذي لا يفعل بالشكل العنيف لكلامه:

. ما كل حاجة آ صاحبي تقضى بصحة وقوة. يمكنك أن تسرق العراصي
وتجيب الكيف من الجبال، وتُفَرِّعَنَّ على كل شيء وأي واحد... إلا الغرام...
إيوا سَوَّلَ أبَا الساحلي يجاوبك.

. أش قلتِ أبَا الساحلي؟ يرجع بسؤاله وصوته إلى هدوء كلام، ويضيف:

. غَلَاةَ الدنيا عامرة بنات وانا نبقى نشوف فالخير ديال المدارس مدفق!

يجيبه أبَا الساحلي بابتسامة مستلطفة لعدم انفعال أو جهالة:

. راه الغرام!

يصمت هنيهة حتى استمال آذان الجميع في جلسته:

راه الغرام اللي ضَعَّف سيدنا سليمان

رشاشُ العصا... كانت فيها الحكمة،

... كانت صولجان.

راه الغرام... اللي هبّل قومان

قامت الحروب وأتركات العيال

و بقى المسكين تالف علّ المكان

قصة الخلخال والخاتم وإباحمان

تعطيك إفادة.

السر في الحيلة

ماشي في قسوحية اللسان

السر في التنهيدة...

كيف الحوتة زالققة فّ الويدان.

. ها هي آبا الساحلي... هذه سلة الحوت من وادي خومان. صوّب لنا

شي عافية انشويوها عليها.

هي طلعة شاب آخر من أبناء الحي، من حافة الوادي وسفحه، منبلجا من ظلمة قائمة لم تميزه من بعيد معها إلا هياته المألوفة وحركة كتفيه وشكل رأسه الضخم ضخامة كتفيه وقصره وقامته المربوعة.

بعد سمر استمر لساعات، يأتي صوت مسرع من قبالة قنطرة عين وليلي:

. اسرعوا هناك سيارة درك بين منعرجات طريق الحامة آتية إلى هنا.

يبادر صاحب الفتوة إلى التعليق:

. أنا غادي نبهط للعرضة أبيت في النواله.

يفرنقع الجمع ويترك ابا الساحلي في جلسته مع بقايا شمعة منهكة ومنطفئة بعد ذهاب فتيلها واحتراقه. يخلصون المكان بسرعة قبل ذلك من آثار تدخين للكيف أو الحشيش. تطل الدورية من مسافة على أطراف الجدار الخلفي للضريح. وتبدو لهم جلسة ابا الساحلي وهياته المتفردة. بعد لحظات تستدير العجلات وتطوي الطريق الذي خطته مجيئا.

(7)

مقام سي الكبير البارودي

"قاب قوس من السماء"

لباس أنيق، تبدو من تحت جلبابه الرقيق والشفاف اللون والمخطط بالأبيض والأصفر الفاتح، حلّة "جبادور" مطرز وسروال تقليدي أصفر بنفس التزيين الذي جعل للباس بأكمله. رائحة الورد تفوح من بعيد وتجذبك إلى وقفة شخص مبتسم بابتسامة وهالة صاحب نفوذ وسلطة وهيبة. لا بد للمرء أن يلاحظ وجود علاقة لها بين زيارة هذا المقام وهذه الهيئة الظاهرة فجأة فيه.

زيارة الضريح تتطلب من الفرد ذلك السكون الروحي والاستعداد لفتح أعماق الوجدان وملاقة غيب غير مرئي يتمنى الاقتراب منه وتلبية حاجياته بفضله. أقلها طهارة روحية مما لوثته الحياة الاجتماعية، وما علق نفسيا منها ومن أتعابها.

إنه مقام جليل، داخل بناية تاريخية كبيرة جدا كبر مقامات القصور والمؤسسات المهمة. تأخذ منك طريق الدخول المرور بجنبات أقواس وبجانب قصر ملكي يبقى مسدودا طول السنة إلا ما كان من مداومة خدمه وتنظيفهم له وعنايتهم بمرافقه، وما كان من بعض الزيارات التي يعرفها من طرف بعض أفراد الأسرة الملكية بين سنة وأخرى. يقابلك عمود خشبي أفقي يفرق مدار القوس الأول ومدخل الضريح بمسافة المتر من فوق الأرض، ما يفرض تلك الانحناءة قبل الشروع في المرور وسط المدخل الذي يطول لمائة متر تقريبا أو زيادة.

بجانب الممر يسارا، يوجد فضاء ساحة أسراك. أو شاراك بنطق أهل البلدة، والتي تقود إلى المدخل الخلفي للقبة الحسنية، كما إلى المرافق الصحية وباب خلفي مؤدّ خروجا إلى حي الحفرة. أما من جهة اليمين فهناك أبواب صغيرة بعضها شكّل مبيتا والآخر مدرسة قرآنية عتيقة فيما مضى.

حينما تنزع حذاءك أو نعلك تشرع في نزول درج وتقف أمام نافورة رخامية بيضاء، يستدير حولها وحول مائها من يتوضؤون للصلاة، ومن يتبركون بشرب مائها الذي يساعدهم على طقس التطهر والتحرر الداخلي من ضغوط مترسبة. كما قد تتراقص فوقها طيور صغيرة خفيفة الظل والحركة. أما الحمام فلا يطمئن للمغامرة إلا نادرا.

ويكون أول المرحبًا هذا الوجه النضر المبتسم مكحل العينين، بهيج اللباس كما اللسان:

. مرحبا بالشرفاء في مقام ولد النبي سيدي مولاي إدريس.

يكون مستعدا لطقس ترحابه هذا، مرتبًا حركاته وكلامه وتدخلاته. يمرر صفحة يده اليمنى المبللة بماء النافورة الرقاقة (الخصّة) بين خضرة القصب المحيطة والمتعالية بقرميدها وقامة الصومعة الشامخة والسامقة، على وجهه وعلى جنبات لحيته التي يتقن حلاقتها وتزيينها ورسمها فوق ذقنه ووجهه.

تبقى أذناه معها باديتان ومتأهبتان كما باقي الحواس لكل حركة أو قول أو تواصل. ورغم أنه قد يكون واقفا بمفرده في صباح ما، يرفع يديه إلى السماء، ويُسمع منه نداء كل حين ولو أن أحدا لم يلج باب الضريح بعد. كأنه تدريب مستمر ولازمة يتبرك بها ويردها تجنيدا لخدمة مستمرة: (مرحبا بالشرفاء في مقام ولد النبي سيدي مولاي إدريس).

ويفتح كفيه في دعاء يحنمه بحمدٍ لله في تقبيلهما بشفتيه ومباركتهما على صدره.

من مشيته تبدو النعمة على محياه. مستقر في المكان، مرتاح من كل سفر، مستفيد من أوقات نوم كافية. سعادات يشعر بها كل حين:

. الذي وجد صحته يحمده الله! اللهم آمين يا رب العالمين.

في رؤية كل زائر للسيد البارودي بخديه الممتلئين والمحمرين، وبجفنيه المتنعمين، وبطنه المنتفخ والمتصاعد في الانتفاخ، يلاحظ ما يدل على تغذية كاملة ووجبات دسمة، بالنهار والمساء. وحينما يدخل لمقام الضريح الأكبر، تجده منجذباً كذلك بالتحية لهذه الأناقة واللباس التقليدي المتقن الذي يبهر الرجال والنساء. أما ابتسامته فلن تجدها إلا عند سفير أو وزير أو صاحب مقام عالٍ. يبادر الزائر للسلام والتحية وطلب البركة، وهو الذي جاء لطلبها من الضريح. ترهف نفسيته وتبهر ثقافته شخصية بهذا الشكل، فيفارق مقام الشكل مقام المقال.

ورغم حركاته المتفاخرة، يكون سي البارودي دليل الزائر لمقام الضريح وقبره، ومُقرَّبَه من جماعة الشرفاء الجالسين في انتظار من يرفعون له دعوات ببركة ولي الضريح. هي بركة مادية مقابل بركة روحية مرجوة. وبحسب مقام الزائر وهياته وشكله، وبحسب حدس (سي الكبير البارودي)، تكون مبادرته في إهداء شمع مزِين أو ماء زهر مقطر، لهذا الزائر دون ذلك.

يجعل في منزله كمية من الشموع مختلفة الحجم واللون والزينة، وكذلك بعض قنينات ماء الزهر والورد، وبعض الأثواب التي استطاع توفيرها من هدايا الضريح والتي لا تدخل في ما يحتسبه المشرفون على مداخيل الضريح. كما قد تجد في الغرفة الصغيرة التي يضع فيها لوازم النظافة بعض مخلفات الزيارة

كذلك، فيسارع إلى جلبها وإهدائها للزائر حينما تكون العملية تستحق العناء وتحقيق المراد.

هي ديبلوماسية تواصل وهيبة عالية وهدايا رمزية إذن، تكون مقدمته لنيل بركته المادية هو الآخر من هذا الزائر الذي لا يصل إلى باب سيارته إلا وقد حقق من الانسراح والانفراج، ومن الشعور بعلو مقامٍ أمامَ بركةِ هذا الضريح وأصحابه الشرفاء وتقاطر الدعوات له ولموكبه من رفقته وأسرته... وهو الذي أتى من المدينة ليزور هذا الضريح وسط هذه الجبال المنفتحة على الحياة وعلى الدعوات للسماء. يكون الزائر وقد ذابت هويته وانتماءاته الاجتماعية والثقافية، وقد انتظم في تراتبية عمل لا تعطيه من التعظيم مثل ما أعطاه أصحاب المقام من مكانة عالية. وتكون القيمة المادية لما أعطاه لهم مقابل القيمة المعنوية والتغذية الروحية التي اغتنمها في هذه الزيارة. وكم من المشاكل والعقم يعالجها هذا الانسراح الذي يعيد الثقة للنفس والقوة للشخصية.

قد يغتاط البعض من حظ سي الكبير البارودي، والنعمة التي أصبح عليها، خصوصا داخل تنافسية لم تجعل للآخرين مثلما جعلت له من حظوظ حياة وصحة ومال وزوجة وأولاد ومنزل سكن فاخر. بل حتى من قفته التي يرجع بها من السوق المركزي . المارشي . الموجود وسط المدينة، والتي تكون ممتلئة بأنواع شتى من الخضر والفواكه واللحوم والدجاج...

لا تخلو الطريق من تعليقات بعض الأفراد فيما بينهم أو معه:

. الله يَنْفَعنا ببركته. اللي سقاك يرشنا !

. العمى للعديان. وصباح الخير آهيا...

. صباح الخير آسي الكبير. البسط فيه قلوب صافية.

. والله ينجينا من قلوب الخابية الخاوية.

. هاهاها... واييه آسي الكبير... تبارك الله عليك، وصباحك مبروك.

أما التعليقات غير المسموعة، فتتعدد ولا تترك احتمالا إلا أوردته في كلامها:

. هاذ سي الكبير بوطحشة، يمكن شي خابية ديال اللويز والذهب طاح فيها وتبرع بها.

. واييه ! بزاف على هاذ النعمة. الخير كل نهار آ صاحبي!

إنما غيظ سي الكبير من أمور أخرى بعيدة عن هذه التعليقات وحسدها. يفتاظ من إقصائه من حظ ونصيب (الريبعة) أو مجموع الإكراميات التي توهب لأولاد السيد أو الشرفاء أحفاد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

ف(سي الكبير)، مِنْ خَدَمِ الضريح في نهاية المطاف وليس من شرفائه، رغم الشجرة التي يحتفظ بها لمنحدرات أجداده، والتي تتزين بفروع كما بأصول كل حين، بحثا عن ثمار زمن غابرة. تشكل هذه العقدة الاجتماعية والثقافية عُصَّة

في حلقه وفي علاقاته الاجتماعية، نظرا لأن الامتداد النفوذ والاجتماعي لطبقة الشرفاء قوي جدا، يوصلهم إلى داخل القصر الملكي بعلاقات ومصاهرة في بعض الأحيان. وإذا كان الضريح رمز ولاء، فإن أتباعه رمز كذلك لتجديد البيعة داخل هذا الولاء. إكراميات تلو الأخرى من أجل تلاوة الذكر والدعاء بالخير لملك البلاد. وبين النية والسياسة، مسافات التوافق والتأقلم والتعايش.

رغم كل ذلك، فقط استطاع سي الكبير بناء علاقاته القوية، وامتلاك عناوين وأرقام هواتف وبطاقات زيارة لعدد كبير من الشخصيات المرموقة بالغنى أو بالنفوذ أو بالجاه الاجتماعي. هكذا استفاد من رخصة سيارة أجرة كبيرة، يكتريها شهريا ويستفيد من سومة كرائها كراتب شهري منظم، وذلك بفضل حظه حين زيارة مكتب إداري رفيع المستوى بالعاصمة الرباط، أزرتها توصية من جهات شريفة محزنية:

(. ألو سعادة الوزير. هاذك راه مجذوب ولد مولاي ادريس وفقير معه البركة. أنا جربته. اذا قضيت له غرضه، ستفتح لك أبواب كبيرة في السياسة والمشاريع ديالك كاملة. حتى شي امرأة جديدة وصغيرة.

تتعالى ضحكات الرضى والقبول لمداخلة الهاتف:

. نحن في خدمتكم لآل الشريفة. الله يطول في عمر سيدنا).

هكذا سي الكبير، يستطيع استباق الجميع في كثير من المحطات واللحظات. فإذا كانت حلقة الدعاء بجانب الضريح قد تنعم بخمسين أو عشرين درهماً، فإن ديبلوماسية تواصله وخدمته المنحنية بطقوس الهدايا، قد تنعم عليه هو بمائتي درهم أو مائة على الأقل. ناهيك عن سفرياته التي يخصصها لأهداف زيارة مناسباتية، والتي ترفق بالهدايا وتحيية الشرفاء وبركة الضريح الأكبر.

لكنها الغصة الثقافية التي غرست تدخينه لمادة الكيف منذ صغره، أو استنشاقه مسحوق مادة (طابه) في بعض الفصول والأوقات. شعاره شعار الجل من أصحاب البلية والحدلقة:

(.الراس اللي ما يدور كدية!).

إدماً أدام تواصله مع الفئات المجتمعية بالبلدة من عامة الناس والشرفاء الآخرين. فالجل له شجرة في المنزل دون أن تكون له في حقل أو بهو.

وهو تواصل حافظ به على حس نقد وانتقاد مستمر لممارسات وطقوس زيارة الضريح ومؤسساته. انتقاد يمتد إلى التفكير في بدائل عن خدمة الضريح، خصوصاً وأنه يهدّد كل مرة بالطرد منه، أو يتم بتحريض إدارة الشؤون الإسلامية والأوقاف عليه. مرة تتهمه بأنه يدخن الكيف بين الجنبات المقدسة وتخرق الرائحة شبائبك القبة والقبر والمقام، ومرة تتهمه بأنه أدخل امرأة عارية الرأس والكتفين إلى مقام الضريح وقبّل كتفها داخله...

وحيث لا يمتلك قوة نفوذ للرد عليهم أو إثبات اتهامات مضادة لهم هم كذلك، فإنه يبقى محظوظا بكون خدمة الضريح وقفً على أسرته ومن انحدر منها من أحفاد. ولذلك الأمر قصة يجهلها هو كذلك، لكنه ما يفتأ يسأل عنها دون أن يُشفي غليل سؤاله جوابً.

(8)

مقام الروح، عند الولي قائمة

تستمر التهديدات والتواطؤات، وتكبر معها الغصة، حتى إنها بدت بحسب تفسيره الداخلي المدفون في انتفاخ أوداج وانتفاخ اللوزتين (الولسيس)، في عنقه، بين حالة المرض وهالة الكحة العالية المقام أمام الآخرين، كأنها كحة قائد بلاد أو مالك جنان وضيعات.

في ليلة سمر، في دكان المعلم الخياط، حيث يسهر المعلم في عمله بخياطة أو تنبيل أو فصالة، تكون الرفقة، إلى جانب الصناع والخدم، من أصدقائه في البلية غالباً. ينصرف الخدم الذين يكونون صغاراً في السن مع أذان العشاء، وهي عادة في تعلم الحرف التقليدية بالمدينة كما بباقي المدن كذلك. فالتعليم في المدارس لا يلجّه جميع الأطفال. وبعضهم ينصرف من الدراسة ويأتي لتعلم الصنعة في نهاية الأسبوع أو خلال العطل. أما البعض الآخر فيظروفٍ تعثر، تجده قد اختار أو اختارت له أسرته. التي غالباً ما يعوزها الحال. أن يتعلم

الصنعة حتى يُعيّلها بما استطاع. تبدأ بإكرامية الثلاثين درهما في الأسبوع، لتتطور فيما بعد إلى أفضل.

كان الطفل عزيز الذي انصرف ذلك المساء قبل أذان صلاة العشاء نموذج القهر الاجتماعي الذي يضطر الأسر لتشغيل أطفالهم. أبٌ مدمن على تدخين مادة الكيف ومنهك الصحة وغير قادر على عمله كمساعد بناء في حمل أثقال أو غيرها، وأم تعمل خادمة بمنازل بعض الأسر والتي أصبحت المعيل الرئيسي لأسرتها. حتى من واجب الكراء أو النفقة أو غيرها كانت هي المسؤولة عن كل هذا. ويكون الطفل عزيز محظوظا لأنه اختير له مجال ناعم غير شاق يتجلى في خدمة المعلم الخياط علال وفي تعلم الصنعة بتدرج داخل دكانه.

يبقى المعلم مع الصناع الذين يبلغون سن رشد بالدكان بعد صلاة العشاء، قادرين على السهر والعمل حتى منتصف الليل. وقد تجد من يدخن الكيف أو الحشيش منهم من الجالسين مع جماعته حتى الثالثة صباحا، خصوصا في ليالي الشتاء حيث امتداد الليل طويل بالمقارنة مع النهار.

جلسة عمل ورفقة سهر، ووجبات أكل وشرب مختلفة، ورفقة موسيقى مناسبة. كل جيل له ذوقه واختياره. يتم تلاقي الأجيال من خلال هذه الاختيارات الموسيقية بين تراث كلاسيكي عربي، يتصدرها محمد عبدالوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش، وقصائد الملحن المتنوعة والمهمة... وقد يحضر

في أمسياتهم داخل الدكان بعض رواد طرب الملحون أو المنتمين لفرقة منه. فالمدينة عرفت أمجادها الشعبية في طرب الملحون، ولها رجالها الذين يحفظون القصائد ويعزفون على آلاته. وما ليالي الملحون في موسم زهون سوى دليل على هذا التجذر لهذا الفن. تقام سهراته بالمنازل المشهورة بالمدينة، وتحضرها الأسر وضيوف المواسم. كما يحضر رواد الملحون من الفرق الوطنية من كل مدينة مغربية، من سلا والرباط ومكناس ومراكش وتطوان ووزان وغيرها من المدن. وجيل (الحاج إبراهيم والحاج براشد) يشكل بصمة تاريخية إيجابية كذلك.

يكون لهذا التاريخ من الاحتفالية بفن الملحون حضور نوستالجي وحنيني في وجدان كل مبتلي ومحب لفنه. يكون حضورا في اليومي الموزع بين متطلبات معيشه واستمتاعه بأغانيه وقصائده. وتكون لرفعة الذوق درجات في انتقاء القصائد وانتقاد أدواتها وتسجيلاتها.

• - (الإشارة هنا إلى شخصيتين بارزتين في رواية باب القصة، والتي هي الجزء الثاني من ملحمة مدينة مولاي إدريس زهون: سيرة مدينة ونسيج حياة).

هذا الثقل التاريخي والفني يشجع أصحابه على الالتقاء كل حين، حتى في ليالي الشتاء القارسة. ولعلها هي المحببة عند بعضهم.

في هذه الليلة كان حضور سي الكبير معتادا في جلسة السهر في دكان المعلم علال الخياط. فمداخيل الزيارة وموارد التجارة تقل خلال هذه الأسابيع من السنة. يستسلم الكل إلى الاستهلاك من الفائض والريح القديم، ومما وفره من أموال وخيرات. كان حضور السي الكبير البارودي إذا، وكان حضور ابا الساحلي الذي منعه الأمطار من جلسات ومقامات ضريحه سيدي محمد بن قاسم. هكذا قرر أن يتخذ من (الفران) مقاما للمبيت حتى ينعم بدفء ناره وحرارة جمره. فالمسافة بين دكان الخياط والفران ليست بالبعيدة، فهي لدقيقتين أو ثلاث دقائق فقط. دروب المدينة العتيقة ملتوية ومتعرجة صعودا وهبوطا، ومنسدلة على ربوات جبل زهون في تشكل زمني وعمراني يمتد لعقود في عمليات بنائه وتموضعه. تنساب عبرها الخلائق وتدب وتمشي يوميا في نسج خيوط حياة وثقافة وأحداث. فحينما ينتهي من جلسته مع جماعة المعلم الخياط سيذهب لفضاء الفران من أجل المبيت هناك داخل هذا التشكيل الهندسي والمجالي.

يُحضّر ابا الساحلي سطلا حديديا نصف ممتلىء بجمر بيت النار. قد يأتي به من الفران او من بيت نار الحمام، حتى يجعل السمر مكتملا وحاميا بدفء ناره من البرد الشديد الذي يُصقع الفضاء الخارجي للدروب ولحيط

المدينة. ربما يشاركه الآخرون في لحظات شرود وجودية ثقافاً النار ولهبها ووعيدها يوم القيامة. ربما تكون نفسياتهم هي المستحضرة لهذه الخواطر والهواجس كذلك، ما دامت الحياة متشابكة في تناقضات ومصيدة الحلال والحرام، والطاعة والعصيان. محنة لا ينسيها إلا هذا الغوص في سحب مادة الكيف وجمود دخانه وغمامه.

كان العشاء لهذه الليلة بطنجية معدة عند المعلم الجزار (عبدالغني)، صديق المجموعة وصديق سي الكبير كذلك. وقد تكلف ابا الساحلي بإحضارها من الفرن بعد أن اكتملت في طهيها لساعات على نار جمر خامد تحت الرماد. اختار لها المعلم الجزار قطع لحم من (الملج) وأضاف لها سمنا وتمرا ورأس الحانوت المشكل من عطرية وأعشاب منعشة لحرارة الجسد ووظائف أعضائه، كذا بعض فصوص الثوم ولوزام أخرى.

استمر مشروب الشاي محافظا على حرارته فوق سطل النار، في إبريق وضع على قضيبين حديدين أصلا هما لشواء الكفتة، لكنهما ينفعان لهذه المهمة. امتلك دخان الكيف سقف الدكان، وتبرم الباب قليلا مقحما برودة وفي نفس الآن مسربا للخارج حرارة ودخانا ورائحة غريبة.

كانت مواضيع الحوار والكلام مختلفة بين أخبار البلدة اليومية وملفاتهما المفتوحة، وبين أخبار التلفزة والمذيع الإعلامية. حديث العراق هذه السنة استمر مع الحصار المفروض، ومع الملحمات التي بنتها المخيلة الاجتماعية

وتراكم الشعور بالإحباط أمام نكسات الدول العربية الإسلامية التي هي حاضرة بتراثها وفنها في هذه السهرة من سهرات ليالي شتاء مدينة مولاي إدريس زرهون.

كان الاستماع في فترة منتصف الليل للفنان محمد عبدالوهاب: (أين من عينيك هاتيك المجالي.. يا عروس البحر يا حلم الخيال...)، في أغنية الجندول الخالدة التي لحنها الموسيقار سنة 1941 من نظم الشاعر علي محمود طه. أخذت منهم نشوة الكيف وحرارة العشاء والمجال المغلق مأخذا جعل الأذان تنصت في صمت مستريح من الكلام والحوار مع بداية الأغنية بعشق وطرب ومتعة. الكل يتفق على جودة الاختيار لها في هذه اللحظة، رغم اختلاف الأذواق الفردية فيما يخص ولعهم بالمغنيين الشرقيين الكبار. منهم من يعشق فريد الأطرش كثيرا. فبدر الدين ذو العينين الزرقاوين والصانع الشاب، يهيم بملك العود، ويجترح بنار الغرام في عشقه لفتاة من الحي الذي يعمل فيه، فيتطلع لمرورها كل حين. حب من جهة واحدة لم تدّر هي له وقوعه ولا غرق سفينته. ومنهم من يعشق محمد عبدالوهاب، وهنا يلتقي المعلم علال الخياط وسي الكبير في هيام خياله. أما أبّا الساحلي، فيحب لونا آخر مرتبطا بالقصائد والملحون.

انتهى شريط (الكاسيط) في اختراقه لشريط الزمن من هذه الليلة. ساعة إلا ربع مرفوقة بأغنيتين قصيرتين ممتلئتين بمواويل مغردة لمحمد عبدالوهاب، أروت

ظماً المستمعين وسافرت بهم في خيال الكلمات وفي ملاقاته عروس البحر،
وحلم الخيال... ذهبي الشعر، ملك أوصاف، حلو اللمسات، حبيب
الروح... مقاماتٌ، يصبح معها المغني مستمعا لغناء المستمع، حيث بدأ
الصانع بدر الدين في غناء مقاطع الأغنية في نهاياتها:

أنا من ضيع في الأوهام عمره

نسي التاريخ أو أنسي ذكره

غير يوم لم يعد يذكر غيره

يوم أن قابلته أول مره

احترم الكل، واستمتع، بسفر بدرالدين الروحي مع الأغنية ومع نشوة الكيف
وليليه الملحمية المستمدة من هيولى الوجود الأولى حيث الكل دخان وماء،
لم تفرز معه السماء عن الأرض. كذلك لم تفرز المادة عن الروح هنا في
جلستهم، ولا الخيال عن الواقع. قداسة العشق، وقداسة الغناء تكاملت مع
قداسة احترام المجموعة الساهرة لبوح بدرالدين المجتري داخل أدائه لمقاطع من
الأغنية. كأن الكل مجتري معه، وكأنهم هم كذلك في حاله وكأنه له الحق،
ومن واجبهم سماع نداء غرامه والصمت المقدس المصغي له.

انتقل الجمع لحديث خافت بعد هذه الجولة العشقية المكتومة لبدرالدين.
تعددت المواضيع إلى أن نطق ابا الساحلي بمقام زجل في حق سيدي محمد
بن قاسم، والجميع في حالة هيام يستمع بتركيز مثلما كانوا يسمعون من قبله
لتغريدات محمد عبدالوهاب وبدرالدين:

مقام سيدي محمد،

دوايا في منامي

أنا نزاوُكُ فيه ليلي ونهاري

و هو يمسخ جبهتي

و يكشف عني غمامي

مقام سيدي محمد

شفايا في العديان

يا ك راه حارس المدينة والمقام

يا ك راه للطُّفل حامي

و للنساء بركة في الولادة

وللبنات زواج من بعد غرامي

الروح فيه صافيه

و اللي بغا يرتاح من كل عافيه

يمشي ليه قاصد

بلا مال بلا قربان

غير الزيارة ليه كافيه

غير الزيارة ليه كافيه

غير النية دير فيه...

راه كل حاجة تكون مقضيه.

. آتبارك الله عليك آبا الساحلي. غنّ لنا هذا المقام ! خاطبه بدر الدين.

تفاجأ الجميع بين سكر كيف ودفء دخان ببدء آبا الساحلي في إنشاد المقام، مستعينا برجله اليمنى في تشكيل الإيقاع، وكف يده اليمنى كذلك في مواكبة الكلمات:

مقام سيدي محمد دوايا في منامي...

رد عليه في البداية بدرالدين ككورال الجملة، ثم تابعت المجموعة الرد على ابا الساحلي، فتحول المشهد إلى أغنية ملحون مؤداة بمجموعة، واختلطت النشوة مع دموع الضحك التي حبسته عن الانفجار استمتاعا بلحظة إبداع وانسراح عند ابا الساحلي. وها هو قد أسرع في الإيقاع في نهايات أدائه:

غيرُ النيه دير فيه

راه كل حاجة تكون عنده مقضيه

بعد جولة صمت وتدخين جديدة، شرد ذهن سي الكبير واقشعر بدنه لِمَا سمعه قبل قليل من مقام ابا الساحلي حول سيدي محمد بن قاسم. حرَّك كحة كانت ضرورية لتخرج قبلة تلك الغصة الموقوتة في وجدانه. فكَرَّ ثم فكر، ثم دبر وأمر، بعد إعادة نظر، متكرما على ابا الساحلي بورقة نقدية من عشرة دراهم.

. زِدْ ! احكْ لنا ابا الساحلي على بركة سيدي محمد بن قاسم، احنا مُسَلِّمين لأصحاب الحال ورجال البلاد.

. يكفيك مقام الضريح الأكبر آ سي الكبير... اترك هاذ الولي الدرويش لمقام ابا الساحلي وحاله...

. حتى نحن عندنا حق في سيدي محمد. سوف نذهب اجمعين لزيارته. ونجعل له موسما حتى هو. ياالله!

~

(9)

رائحة الإسفنج

مقام صنع القدر

بائع الإسفنج، رمز ثقافي واجتماعي كبير في المدينة. قد لا يولي الناس الاهتمام لشخص البائع خارج أوقات بيعه وشرائه. يصبح مثل عامة الناس، له علاقاته، كما له حياته الخاصة. لكن اشتهاه الإسفنج للأكل أو انتظار دور الحصول على الكمية المرادة، وطقوس تحضيره ووضعه في سطل معدني خاص أو طست مناسب كعجين، ثم بعد ذلك، لمسة المعلم البائع. وحيث إن كل متقن لحرفته وتجارته يسمى بالمعلم، دلالة على الإتقان والنجاح فيها وحسن تصريفه لها تجاريا واجتماعيا وعلاقاتيا، وكذا اكتساب شخصية ماهرة بفضلها، وتميُّز بأخلاق فردية وخطاب شخصي وعادات مرتبطة بها. كل هذه الخلفيات الذهنية تكون حاضرة عند الوقوف أمام الدكان، والنظر إلى المعلم وهو يقتطع جزءا من العجين باستدارة سبابته وإبهامه، وتحويله بإهمام اليد الأخرى إلى قطعة مستديرة ستخضع إلى وضعها فوق زيت ساخن تُقلَى فيه، فتبدأ بالوضع على جانب المقلاة التي عُمِّرت لسنوات وعقود، واتخذت

من أشكال جانبية لا تجعل اللون الشفاف إلا داخل مجال القلي بالزيت بداخلها. ثم بعد ذلك يستعمل الميخطف أو المخطاف بلهجة أهل البلدة، والذي يكون برأس مسهم ومعقوف، يحرك به دوائر الإسفنج فوق صحن القلي الحديدي (المقلاة). كلها طقوس يستمتع بها المنتظر صباحا لشهوة فطوره التي أرادها بالإسفنج.

تكون الرائحة جاذبة له، ويكون خيط الدوم الذي يستعمل لحمله فيه حُلَّة احتفالية، تنتظرها كل عائلة فكرت واختارت أكل الإسفنج، محضرة صينية قهوة بالحليب أو براد شاي، في انتظار مجيء المكلف بشراء الإسفنج من عند المعلم الخياط، والذي ليس بخياط في حرفته، فقط هو اسمه أو لقبه.

في هذا الجو الصباحي الباكر، خرج السي الكبير بفوقية خفيفة، ليسها، ووقف منتظرا دوره في عملية الشراء التي يحضرها هذا الصباح ستة أشخاص هو سابعهم. هي السابعة صباحا تقريبا، وبداية بيع الإسفنج تكون بعد صلاة الفجر بحوالي الساعة إلا ربع. فأول دكان يبدأ عمله بالبيع والشراء هو دكان الإسفنجي. وقد ندرت الحرفة مع بداية تسعينيات القرن العشرين فأصبحت قليلة، ولم يعد موجودا في ممارستها سوى المعلم الخياط وشاب جديد آخر غامر ونجح في الاستمرار فيها في شارع خارج ساحة السوق، بعد أن كانوا أربعة معلمين يبيعون الإسفنج.

من صدف هذا الصباح، مجيء الفقيه الملقب ب(بودومة) لشراء حصة إسفنجية، بجلبابه الأزرق شاحب اللون، وطاقيته الصفراء الباهتة، وعينه اليسرى الشبه نائمة والتي لا تستطيع تمييز فتحتها إلا نادرا حين طول حديث وحوار معه. هو الفقيه الطالب، الحافظ للقرآن الكريم، القليل الكلام، ولكنه الكثير المشي والتجوال. يكون هذا المشاء حاملا بشكل شبه دائم لخيط دوم صغير أو عود يابس رقيق وأصفر. غالبا من عيدان حصير. قابضا له بين أنامله، وواضعا له بين الحين والآخر بين شفتيه، في جانبهما الأيسر. قد يقبض على العود بيده اليمنى، كأنه محفز انتباهه ومنذر من غفلة ومنبه في الطريق.

قصة الفقيه بودومة فيها غرابة وجهل نسبي. فهو لم ينشأ ويكبر في طفولته وشبابه بالمدينة. إنما كان مجيئه إليها واستقراره بالبلدة وهو مشرف على عقده الثالث، متزوج من امرأة من بلاد الغرب وسهولة الفسيحة، ومخترق للنسيج الاجتماعي والمجتمعي من خلال حلقات قراءته للقرآن بالمسجد الكبير بعد صلاة المغرب وصلاة الفجر، ومن خلال قراءته لكلام الله كذلك في المقابر أيام الجمعة خصوصا أو حين ذهابه في جنازة ما.

وتتكاثر الحكايات حول الغريب، حيث يكون مادة دسمة للحوارات الفضولية اليومية، ولُمحجّي الاكتشاف لغرائب الحكايات. أما أغربها والذي شاع، فهو نعتة بحكمته في دومته، ولذلك سموه بالفقيه بودومة. فهو يستطيع محاوره الجن

بها، ويستطيع الاستدلال على طريق كنز ومكانه بفضلها، ونشر بركة تلاوته للقرآن بفضلها كذلك.

هكذا أصبح الفقيه بودومة عند كافة الناس صارح جن ومحاورها. كما أصبح تفسيراً عند الناس لسرّ سكوته وصمته الدائمين وعدم وجوده متكلماً بين أفرادهم. نادراً ما يتكلم، نادراً ما يكون برفقة اجتماعية، نادراً ما تجده واقفاً بمكان لمدة زمنية طويلة. لا تراه إلا وهو مار في طريق. يمشي ويمشي، حتى إن خطواته دائماً تسمع عنها أنه قام بها آتياً من جولة خارج دروب المدينة، بين جنبات واديها وجبالها ومقابرها، والتي هي كلها طرقات معبدة وصغيرة يستعملها الناس في حياتهم اليومية كما في نزهاتهم الطبيعية ارتقاء في أحضان منحدرات جبال زرهون كأنها أحضان امرأة بصدرها الحنون ودفنها الدائم الذي توفره هذه الطبيعة بهدوئها ومتعة اخضرارها وخرير مياهها، هذه التي تناسب متسللة، منحدره بين صخور ومنعرجات الوادي العميق الآخذ في الانحدار حتى يصل بعد كيلومترات إلى منبسط سهل خومان، فيتحول من ضيق إلى توسع مسار وضياف وهدوء كمن كان مسرعاً في مشيه حتى وجد بساطاً ارتقى على صفحته. ذلك وادي خومان ونهره الذي عزف على وترٍ وشريطٍ بين جبال مسبح الحامة وزرهون.

كان سلام سي الكبير، سلاحه الديلوماسي الذي يخترق به كل شخصية، ويزيل به عقبات التواصل معها. بين نحافة جسم الفقيه بودومة وضحامة

صدر السي الكبير، كانت مبادرة السي الكبير بفتح ذراعيه ووضعهما على جنبات كتفي الفقيه بودومة وتقيل رأسه وجبهته، وتحليل كل ذلك بكلام توقيير وتبجيل:

. تبارك الله على سي الفقيه حبيينا. الله يجعلك دائما بركة لنا، وينقنا ببركتك وبكلام الله الذي تحمله في صدرك. صباح مبارك ومسعود هذا الذي هل علينا بطلعتك.

. الله يبارك فيك آ سي الكبير. لهلا يخطيك علينا آ الشريف.

يرفع المعلم الإسفنجي عينيه كما مخاطفه، متابعا لمشهد السلام، مخفيا مع ابتساماته المتدرجة استنتاجاته الخاصة التي لن يكشفها إلا في إحدى جلساته خارج مجال العمل والتجارة.

. سي الفقيه، صباح الخير. يبادر المعلم الخياط الإسفنجي هو الآخر للقيام بالسلام الواجب للوافد والزبون الجديد.

. واحد النصف كيلو اسفنج آ سي الخياط.

. مرحباً آ سي الفقيه .

في الانتظار وخلالها، ينفرد سي الكبير بالسي الفقيه بودومة في مسافة عن باب الدكان، بعيدا عن الحاضرين والواقفين من المشتريين المنتظرين.

. سي الفقيه، أريدك أن تقوم بعمل فيه الأجر في الدنيا والآخرة.

. مرحبا آ سي الكبير. أوامر انعماس (نعم يا سيدي).

. أريدك أن تذهب كل يوم لضريح سيدي محمد بن قاسم في الصباح، بعد الفطور. خذ وقتك. تقرأ بعضا من كلام الله على قبر الضريح. أنا سأعطيك بركة من النقود كل نهار. حينما تنتهي، مرّ علي بضريح سيدي مولاي إدريس. سأعطيك خمسة دراهم في اليوم. ها أنت، عندك الخيار. ثلاث مرات في الأسبوع حتى لا أتعبك بالذهاب إلى هناك. الأفضل، أيام الاثنين والخميس والجمعة.

. ما يكون بأس آ سي الكبير؟

. لا، فقط، وقف عليّ سيدي ماحمد بن قاسم في المنام، وطلب مني أن أتفكره بالقرآن وبصدقة من الطعام على المساكين في مقامه، وأهداني صندوقا لأمعا بزخرفته. لا أدري ما سره. لا تنس، راه لعائلات والنساء يذهبن له. أكيد سوف يعطونك شي بركة هناك.

. إيوا آ سي الكبير، تبارك الله عليك. هذه هي النية الصافية وإلا فلا.

. سيكون بيننا كلام طويل وطعام غزير في ذلك المقام إن شاء الله. الله ينفعنا ببركته وبركتك آ سي الفقيه. راه الناس في البلاد كلهم يحترمونك ويرجون بركتك. أنت من أولياء الله والفقراء الصالحين.

- الله يجعلنا من الذين آمنوا واتقوا وحمدوا الله على نعمته وقسمته وحسناته.
- آمين يا رب العالمين. صباحك مبروك آ سي الفقيه. الدور عليّ في شراء الإسفنج الآن.
- صباحك مبروك آ سي الكبير. الله يرحم لك الوالدين، ويزيد في الخير على يديك.

(10)

مقام الطلّبة

جلسة هذا المساء الربيعية تفوح برائحة الزهور التي تحملها الرياح العليلة الآتية من أشجار البرتقال والليمون من البساتين المنتشرة فوق منحدر الوادي، ابتداء من قنطرة (عين وليلي) وامتدادا ملتويا ومتعرجا يأخذ في الاتساع العريض كلما انفتح الجبل مفترشا ضفتين تُطوّعان التضاريس حتى تينع خضورة منتجة على جانبي النهر الذي يشكّل هويته من كل شيء فوق هذه الأرض. تعانق الطبيعة السماء وأشعتها، وترتمي بسفوحها على منبسطات سهل خومان. وكأنه بداية رحلة جديدة ومغامرات عيش لنباتات وخلائق فريدة.

شرفة أفقية هي في إطلالتها على الجهة الغربية والغربية الشمالية لفتحة الوادي من صدر جبال زهون المتبخرة ربوات وقمم متفاوتة. تداعبها أرياح الزهور

التي تحتفل بها النباتات والحيوانات فتستعد معها للتلاقح والمعاشرة والتوالد، كما تجعل منها عطرا دافئا هدية تلتحف به في امتزاج أنفاسها ورقصاتها.

هكذا نجد النباتات والأزهار والورود والأشجار وفيه لستها الفائحة في الاحتفال داخل مساحة وفضاء هذه السمفونية الربيعية التي تجعل البيئة أوركسترا ينضم لها رمونيتها كأس شاي معطر ببراعم زهر الليمون الذي تصدر رائحته ممتزجة برائحة النعناع البلدي المنتوج بالماء العذب من عيون زرهون المتنوعة المذاق والطعم، فتشتهي النفس للارتواء. وتزيد اللوحة جمالا تلك الباقات المعدة من الأزهار والورود الملونة والمنزلة فوق طاولات المقاهي والدكاكين والمنازل.

في هذه الجلسة الليلية شاركت الموجودات السماوية فبدأت النجوم تتراقص فيها هي الأخرى، جاعلة من تألؤها إيقاعا ضوئيا عليه يفترش الخلق موسيقاه السمريّة وأحلامه العلوية، كما من قمرها المبتهج بفستانه الفضي اللامع قائد فرقة موسيقية - مايسترو - بلغة الإذاعة المسموعة.

يكفي بعض الأحيان أن يكون جهاز راديو صغير موجودا ومتوقفاً من أجل خلق جو الأانس والسمر والسهر - راديو السيس (6) ،، إذا كانت بطاريته جديدة. يكفي إحضاره لكي يُسمع ويمتّع الجماعة الساهرة ما كُتب لها من أغانيّ وسهرات وأخبار وبرامج، فينقلها بعد منتصف الليل إلى عوالم إذاعة طنجة، وذوق فني جميل آخر متحرر من رقابة عبوس النهار بأخلاقياته

ورسمياته، ومن صرامة وهؤل إذاعة الرباط العاصمة، والتي تعمل بتوقيت الرباط وسلا وما جاورهما.

قد تتوفر في بعض الليالي آلات تسجيل (مسجلات)، تستعمل فيها أشرطة مسموعة (كاسيط). بعضها مما اشتراه أحد سكان الحي وأبنائه من المدينة، والآخر مما جاء به من تجند للعمل العسكري بالجنوب، حيث الأجهزة والمواد التجارية رخيصة الثمن، استثناءً هناك، باعتبار الوضع الجديد في الأقاليم الجنوبية، أمنيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، وباعتبار القرب من لاس بالماس والجزر الكنارية أو الجعفرية، والتي ما انطفأ صوت عزيزة جلال من الغناء باسترجاعها للوطن في إحدى أغانيها.

كان (عبده)، أحد تلامذة الحي النجيين في الدراسة. وكان تجند أبيه في الصحراء مبعث فخر ورمز شجاعة وبطولة لعائلته وسكان حيّه خصوصا لما جاء في إحدى المرات على متن سيارة عسكرية (جيب)، بلباسه العسكري الميداني، وبأثر الرمال على حذائه الطويل الذي يصل إلى ركبته.

كانت زيارة سريعة هي، قام بها لأسرته بعد أن أتم مع فرقته مهمة مرسولية مستعجلة من تحوم الصحراء وجبهة المواجهة إلى الجهات المسؤولة بالعاصمة الرباط. وقفت السيارة رباعية الدفع على الحافة المعلقة كأنها واقفة على جدار حائط. أدى السلام للجالسين بجوانب ضريح سيدي محمد بن قاسم بتحية عسكرية سريعة متوجها إلى زيارة أسرته والتي لم تدم أكثر من ساعة. غادر

بعدها داخل السيارة مع الطاقم المرافق له في اتجاه عمق الجنوب الذي يبدو كأفق مستحيل في الرؤية والرؤيا لمن لم يقم بزيارته لحدود تلك الساعة.

وبقيت التساؤلات تطرح، وكان المرجوُّ استفساره هو (عبده) ابن العسكري، والذي أصبح الآن، يدرس طالبا بجامعة محمد بن عبدالله بفاس. ففي تلك السنة، انتقل عبده من مكناس إلى فاس. لم يعد تلميذا، بل أصبح طالبا وبدأ يكتسب شخصية جديدة مع حياته الطلابية وينفض غبار التلمذة ليشعر بتحرر أكثر. تحرُّر أخذت دائرته تتوسع بشكل سريع كانتشار دوائر الماء حول محيطها مع كل حدث ارتماء على سطحه.

في كل زيارة لعائلته، كانت أفكاره الجديدة تتركب في لغته، تدهش أفرادها كما تدهش ساكنة الحي الذين يتواصلون معه من خلالها. وكانت جلسة الربيع هذه، حيث يجلس (أبا الساحلي) كعادته، ومعه بعض شباب الحي المتفاوت الأعمار.

ضياء القمر يؤثث أطلال الجبال والأشجار، وتعكسه استدارة لجينية في إحدى تجمعات الماء أسفل الوادي، والبادية من زاوية جلسة الساهرين بجوار جدار سيدي محمد بن قاسم. ربما يمر طيف من ظل ليلي لكائن حيواني هنا أو هناك فيشرع الخيال نوافذه لكي يشتغل أكثر، كأنه كائن ليلي هو الآخر لا يعيش إلا مع ضوء القمر أو مع غمض جفون الخلائق. قد يصبح مرور كلب ذئبا أو ثعلبا أو خنزيرا بحسب حجمه. كما قد يصبح أرنا أو سنجابا

أو جرذا. وقد يصبح مبعوثا من المقابر المقابلة للجلسة في أعلى صدر الجبل فوق الحي السكني المتنامي الجديد (الظَّهَيْر). قد تغشى العيون وتعمل فتطلق العنان لمقامات الكيف فلا تراعي درجات الهذيان مع تحديده.

خرج عبده حوالي الساعة العاشرة ليلا إلى جوار الضريح، وبعد السلام على المجموعة الحاضرة، جلس بالجوار متخذاً مسافة الضيف على مقام رواد ومدخني الكيف والسجائر.

. آ سي عبده... هل غادرك النعاس؟ يسأله صديق طفولته (نجيب العوفي).
. الرأس منفوخ. واحد المادة في الفلسفة لم ترد الدخول إلى الرأس. قلت أشم بعض الهواء والنسيم الليلي، أرتاح قليلا.

يملاً أباً الساحلي شقف السبسي بالكيف، يشعله، ويعطيه ل(عبده).

. هاك عاؤن بهذا السبسي ! استنشقه بالمهل !

يعلق نجيب العوفي ضاحكا:

. والله لقد أعطاك ابّا الساحلي الحل المناسب والمساعد.

ليلتها دخل عبده إلى المنزل، ركز على مادته الدراسية، استوعب مضامينها. بعدها بقي ما وقع تلك الليلة سنّة خلال مدة التحضير للامتحانات، حيث يبقى خلالها في منزله بزهرهون، لا يذهب إلى الجامعة، ما دامت الدراسة قد

توقفت استعدادا لامتحانات. كل ليلة يلتحق بالجلسة، يدخن معهم وجبة سبسي واحدة فقط دون سواها، يساعده على التركيز في دراسة مجردات المادة ومنطقها.

بعد انتهائه من الامتحان، عاد لجلسة الجماعة بجانب الضريح، أراد التدخين معها، منعه ابا الساحلي من ذلك:

. الامتحان انتهى. إيوا ذاك التدخين كان باب القرابة. الآن سيصبح سبب البلية. إذا قرّبت للسبسي، يكون الخبر عند عمي العسكري والوالدة.

يقهقه نجيب حتى تستبين أضراسه مع انعكاس نور الشمعة عليها:

. ما ترك لك ما تقوله آ عبده. أبا الساحلي على حق. أنا الذي سأخير والدة الآن إذا قرّبت من السبسي قبل ابا الساحلي.

تعالت الضحكات حتى قرعت زجاج نوافذ المنازل المجاورة والتي تتوسد الآذان وراءها لاستراق صوت مفاجيء في هذا الليل الربيعي.

(11)

مقام الضريح

كانت تلك قصة عبده الطالب الجامعي مع سبسي الساحلي وتعليقه. وفيها كانت فترة الاستعداد للامتحان، فرصة للتعاور المتبادل، والتي يجتهد عبده لكي يرضي الجماعة فيها بالمواضيع المختلفة والمناسبة، ويحاول لفت انتباههم وكسب اهتمامهم بها. ما دام منطق الجماعة يجعل ثقافتها المتجانسة هي القاعدة، أما ما يأتي به عبده أو غيره من العابرين في جلستهم المستمرة طول السنة تقريبا، فيكون استثناء.

ما تزخر به الحياة وأفكارها، وجد له طريقا للتفاعل في جلسات السهر هذه. أفكار عبده أخذت تمردا أكثر فأكثر على ثقافة المجتمع وسياسته. وكان الحديث عن مقام الضريح مثيرا للنقاش ولتدخلات عدة. وابتا الساحلي

بالخصوص، أراد التذكير بمقام ضريح سيدي محمد بن قاسم. استعان بزجله وتميزه لاختبار عقل الطالب وليُحَدَّ من انتقاده لبركة الضريح.

أنشد قائلاً بتلقائية وعفوية، بما أبدعه نسيج الذهن في تلك اللحظة المنتشبة، على نغمات وإيقاع ناس الغيوان الصادرة من (راديو السيس) الذي أحضره نجيب العوفي.

وبينما العربي باطما ينشد على طبلته عبر موجات الأثير (وا حلاب حلاب بويا الحبيب... ويا سيدي والانوار عليك ضاوية... وا الدنيا ما لك عوجة...)، تعالى بتدرج صوت ابا الساحلي، ما استدعى من نجيب التقليل من صوت الراديو حتى لم تبق مسموعة منه سوى دندنته ودبذبته:

خيط الدنيا هنا يتقاضى

ياك يجي بالمقام

جنازة قائمة

بالمدود هائمة

من داره خارج يتمادى ويتهادى

حتى لحدود سيدي محمد،

كل شيء كان له معنى

سمعوه الجيران والأبواب والنوافذ

خارج خرجة الملوك والهوادج

ها لا اله الا الله، بالمد

وبالتكرار الله الله اكبر.

ها سبحان الله وبالحمد يتوافد

و بالتكبير راه يتزفد

خيطة الدنيا هنا يتقاضى

عند سيدي محمد جاء مرفود

و في مقامه انتهى الكلام

وحبس الدمع وخسف العلام

ما بقات غير الشهادة

ما بقى غير التعجيل
راه ما سخينا بك يا أ الله يرحمك
بغاك الله، سرّ لقبرك
خرجتي من الدنيا
خرجتي من مقام النهار والليل
سر لقبرك آهيا ذا
سيرى لقبرك آهياتا
راه سيدي محمد غير فقير
يرد العدا من هاذ الخلا
على النامعين فهاذ الغفلة وهاذ البلا
وبين الخيوط راقدين.

. آش قلت آ سي عبده في هذا المقال ديال ابا الساحلي. يتدخل نجيب بعد
انتهاء الساحلي من إنشاده.

. فهتمت مقام الجنازة والذكر فيها... ولكن علاش خيط الدنيا هنا يتقاضى؟
الله أعلم .

. من الدار إلى هنا، آش تسمع في جنازة الميت؟ ومن مقام سيدي احمد بن
قاسم حتى إلى المقابر هناك، كل شيء يصبح بالزربة والسرعة القصوى حتى
الخطوات... مشى للتراب... الله يرحمه.

بدت عليه جدية وتأثر بما قال. كأنها هالة الموت التي تهدد الدواخل كل
حين. ساد صمت رهيب، دخن خلاله ابا الساحلي بمفرده من (السبسي)
مرتين. اخترقه صوت عبده بهدوء:

. عندك الحق أبا الساحلي. ولكن ما تنساش، راه كاينة الطبقية حتى في
الجنائز.

. وضّح الكلام آ الطاليب، قرابة العلم عندكم جديدة.

يستفيض عبده في حديثه عن الطبقة ورؤيتها الماركسية والماركسية اللينينية.
يشهر المصطلحات التي تعلّمها في حلقات النقاش الجامعية والتي درسها في
شعبة الفلسفة وموادها. لقد وجدها فرصة سانحة ليقوم بخطاب تأطيري
لشباب حيه من الحاضرين هنا، في هذه الليلة، في مقام سيدي احمد بن
قاسم واثًا الساحلي. يقتنع بأن حلمه هو تحويل وعي الساكنة إلى وعي

طبقي، خصوصا وأنه بدأ تعلمه الموازي في الثقف بالثقافة الاشتراكية، من خلال شرائه لكتاب (رأس المال) لكارل ماركس، ومن خلال اقتنائه لبعض المنشورات والدراسات والبيانات المطبوعة للفصائل النضالية الطلابية اليسارية.

ميول بدت عليه حتى في اعتماره لكوفية فلسطينية بالأحمر والأبيض، دليل على جبهويته وليس فتحويته، وفي تركه لذقنه يتشكل على الطريقة اللينينية. حتى الزليج الذي فاض عدده عن الاستعمال في الطابق العلوي من المنزل، اتخذ من بعضه . من زليج الحّمّام صغير الحجم ذي اللون الأبيض على الخصوص . إطارا ولوحات للرسم. هكذا رسم بقلم مدادي رقيق صور لينين وتشّي غيفارا وعبدالكريم الخطّابي وغيرهم. لوحات جعلها على جدران غرفته التي أصبحت خاصة به في أعلى سطح المنزل. غرفة أصبحت رفاقية ملتزمة بأغاني الشيخ إمام ومارسيل خليفة وقعبور... دولة رمزية جديدة بالعلم الفلسطيني وبصورة كبيرة بالأحمر والأسود لزعيم الثوار تشّي غيفارا... عالم لم تجد أسرته منه إلا الاندهاش ومحاولة صغار إخوته وأخواته الاقتداء به فيه... حتى كاسيط أغاني عبدالحليم ووردة، عرفت التهميش والاستغناء عنها، في إطار تفريق بين ما هو رجعي وما هو تقدمي. أما أصدقاء الحي، ففئات، منها المتعلم الذي سبقه بالدراسة الجامعية، ومنها الذي اتخذ حرفة أو بقي بدون دراسة ولا عمل، لكنه اكتسب ثقافة مقاومة الحياة والمجتمع والطبيعة والتخوفات الغامضة للوجود والمستقبل.

. مُشى يُطَبُّه اعماه. هي هذه. غرقتنا في بحور الظلمات والكثرة باينة.
نحن في حديث الجنائز وليس في حديث السياسة. يعلق ابا الساحلي.

يضحك الجميع متنفسا الصعداء من ورطة هذا التحليل المعقد الذي أقحمهم
فيه الطالب عبده.

. اتركنا من موضوع الطبقة في الجنائز آسي عبده... الله يحفظك. أنتم الطلبة
صعاب في السياسة، راسكم سخون بزاف. والسياسة تقود صاحبها لبيت با
قدور (السجن). يعلق صديقه نجيب العوفي.

. قالها المعلم الحضري الله يرحمه: الغني يأخذونه في الجنازة بالمائة والحن.
والفقير بالزربة في المشية والشهادة. عاش ما كسب، مات ما خلّى، ما ترك
شيئا وما أخذ معه آخر. ياك قبر واحد؟ علاش التفرقة بين الغني والفقير؟!

يضيف عبده توضيحا للطبقة التي أقحمهم فيها.

. لا تنس تفريق الجنازة في اليوم الثالث. الزردة في دار الغني ليست هي في
دار الفقير. لهذا تلاحظ المائة ممدودة وموجودة في الجنازة. يضيف ابا
الساحلي.

يضحك الجميع لهذا التعليق الواقعي الساخر بشكل يؤيد الفكرة.

. انتظر آ أبا الساحلي. واحد القضية أتساءل عنها.

. أما هي آ سي عبده؟

. لاحظت أن واحد الطالب أو الفقيه يأتي خلال الأسبوع في الصباح، ويجلس لقراءة القرآن أمام باب الضريح المقفل لسيدي محمد.

. ذلك الفقيه بودومة. مرت ثلاثة أشهر وهو على هذه الحال. بعد جولته في الطبيعة والمقابر في الصباح، يأتي لباب الضريح. يقول الناس أن جنية شاداه. يلزمه أن يقرأ عليها هنا حتى تحرره. ساكنة في عين بوسعيد أمامنا في الجبل وراء المقابر. أما آبا صالح، جارنا في الحومة، البارحة قال أنه يقرأ على كنز مدفون في هذه الدوائر المحيطة بالضريح. واش وسط الضريح أو قريب له؟ الله أعلم. يتابع نجيب العوفي رصده للتفسيرات والتأويلات.

. هي نُحَصِّرُ الفأس في الحين، ونبدأ الحفر في المكان؟ يتدخل عبده ساخرا.
. ههه... ستجد الفاخر ماشي الذهب. إلا يلا كنت (زوهري). الكنز يلزمه الزوهري وأصحاب الحال. أسأل آبا الساحلي عليه. يعلق نجيب .

. ذاك الطالب يسترزق الله. يتدخل آبا الساحلي مضيفا كلامه بشكل مبهم لا يزيد عليه بتفصيل.

لكن نجيب الذي أطلق لشعره الأسود تسريحة متدللية على قفاه، بشارين مكتظين كأنهما عليهما غلّق جسده الطويل والنحيف، ومن رآه يقول هو العربي باطما في حاله ومثله، يتابع الموضوع من جديد:

. أنتم شفتم الطالب بودومة فقط. هذه الأيام، بدأت الحوارية المجذوبة هي الأخرى تحضر للضريح. مرة تطوف عليه، ومرة تقبل بابه، ومرة تعلق مجدول كتان على القفل الخارجي للضريح. حتى الشمع أصبح بالديزينة يشعل فتيله في دوائره. هذا الشمع الذي نستنير به الآن هو من تلك الدزينات.

. شكون هذه الحوارية آ نجيب؟

. ما لك جئت من المريخ؟ راك زرهوني، ما عارفهاش؟ آه، أنت الآن رجعت طالب فاسي وليس بزرهوني. يلزمننا نزوروك البلاد من جديد ونعرفوك عليها. وين هي دارنا عافاكم؟ يقتنص نجيب سؤال عبده ليمطره بهذا التعليق الساخر.

- فين هي دارنا؟ ها هي قدامنا.



~

مقام الهوارية

~

هي امرأة في أواخر الخمسينيات من عمرها. مدار كحلي دائم على عينيها اللتين تتخذان لونا حجليا براقا يلمع منهما رغم التجاعيد التي قسمت الوجه إلى خرائط زمن، وتمكنت من حفر مساراته عليه. وشاح رأسها أو فولاراتها التي تحجبها به والذي يبدو معها ضخما من بعيد، تتدلى على رأسها الواحدة فوق الأخرى.

هي أربعة أو خمسة، ذلك عدُّ الفضوليين المندهبين لهاتها ولباسها وحالها. ورغم ذلك، تجذ نتفات شعر أحمر تتمرد على جنبات وجهها، بشكل أشعث دال على تمرد شخصيتها على مجتمع لا تمتلك من قدر نعمه سوى دروب المدينة التي تجوؤها، وجوانب الحوانيت التي تجلس بمحاداتها، متأملة هذا العالم

البشري، محافظة على ابتساماتها رغم ذلك البحر العميق من أسرارها التي تتماوج بتنهيدات لا يراها الكل في مقام أمي الهوارية كما ينادونها.

جدائل الفولارات معقودة، كل واحدة على حدة، متدلّية هي الأخرى من جانبي عنقها وكثفيها، هي دواليب خزنتها. ترتب فيها بشكل محزم ومقيد ومشدّد نقودها التي توزعها بين البيضاء والصفراء، أما الأوراق فلا تستطيع رؤية ترتيب وضعها. كأنها عناقيد ملفوفة بثوب تنتصب مستريحة على صدرها. يكفي تمرير كفّها عليها فتعطيك زينة لمحيها ولطريقة وضعها.

كيف ترتب نقودها داخلها، ذلك ما يدفع كل واحد أو واحدة لكي يتصدق عليها بين الفينة والأخرى ويتنظر بدءها في عملية الفك والشد من جديد. إنها أمي الهوارية، لها أقاربها البعيدين من عموميتها وأمومتها في المدينة كما بجوارها. حكايتها سيرة مروية كملحمة وتراجيديا القدر الذي يقع مكتوبا على حياة الإنسان.

كانت أمًا لثلاثة أبناء، رجال كبار في ريعان الشباب والعطاء. عمل بدني وفلاحي وقدرات جسمية على التحمل والمكابدة لمشايق الحياة. كان لها ثلاثة ملوك. حينما تعدّهم بالأسماء، فتلك بداية حزن شديد جاء كمدي من الأعماق، زاحفا على رمال هذا الوجه، وعلى هذا الساحل المرسوم بالتجاعيد الجافة والتي تصخرت بعد ترقّل، ليسقيها دمعا ملحا مبللا للوجدان. حينها

تجد أمي الهوارية منعزلة في زاوية، مدلية أكبر فولاراتها على رأسها، لا تجيبك على تعليق ولا على سؤال، فقط هي خيوط بارقة لدمع منهمر.

من يعلم حالها يعذرها، ويعرف مقامات فرحها من حزنها، حيويتها من انطوائها. يشفق للحال، كأنه أو كأنها يجدان فيما وقع لأمي الهوارية رفعا لوبال وبلاء، وردًا لبأس وهَمٍّ عن الآخرين ودفعًا لمصائب عنهم، نابت أمي الهوارية عنهم في تحمل وقوعها.

أطبأؤها وحكماؤها المعالجين لنفسيتها، هم من الأموات أكثر منهم من الأحياء. ليست مسيحا ولا تعرف ما وقع للمسيح، ولكنها تعلم أن عالم أولياء الله الصالحين هو لبن يستسقونه من ثدي نبوة أيوب عليه السلام، ومن صبره الذي يرسم الدروب داخل نفسية كل واحد في هذا الوجود. تناديهم دون الأنام:

. عييت فيه... كان هو صغيرهم... هو الذي تبقى لي منهم. كانوا ثلاثة. لا تسمع نداءهم، ابق مع اميمنتك العزيزة عليك. كلهم أرادوا الذهاب... خطفتهم الموت كجنية أرادت لي التيمم فيهم...

أولياؤها الصالحين كثر، ودرجات معزتهم والبوح لهم بجانب جدرانهم أو داخل كسوة قبورهم المسيجة مثل الكعبة، مقامات وفصول ومناسبات... مولاي إدريس الذي يوقف سيل دمعها، وسيدي علي بن حمدوش الذي يُذهب وساوس جنها وزوابع صدرها، والذي يبعثها لسيدي أحمد الدغوشي لكي

يهبها قسطا وحقا من النوم والراحة... الشيخ الكامل الذي يأخذ من حضرتها مأخذ جد، يخلصها من توترات وارتعادات خوف، ومن شبح الموت الذي يمزق الأحشاء رعبا ولا يأتي ويخلصها من حالها. فتجد الحضرة كمعارك خيول وحيوانات مفترسة، يرتفع صهيلها ونهشها فتختمر الحرارة وتختلط الألوان بين الأحمر والأدهم والترايب والأسود، لتشكل لوحة الغيبوبة التي تأخذها إلى راحة من صراعات نفسية مريرة، لا يستطيع العقل تحملها ولا الجسد تحمّل أثقالها. أما دار الضماننة بمدينة وزان، فتلك تكون حجها البعيد المدى، الذي زارته مناسبات عدة، لكنها تستشهد بها على قيامها بواجبها في الولاء للأولياء وصلة الزيارة لقبورهم والتبرك بهم.

. إذا لم تذهبي إلى مولاي عبد السلام، كأنك لم تقومي بشيء في حق الأولياء.
يعلق عليها من يريد المزاح معها في حالات انشراحها.

. أنا مولاي التهامي بوزان يشفع لي عند مولاي عبد السلام. أنا غير ولية ديال الله... بغاني الله هكذا .

وهي بمقام دار الضماننة، تكون أمي الهوارية في كامل قوتها النفسية وأناقتهما الأثنوية، سيدة تستحق الاحترام والوقار وهو ما تناله في ذلك المزار... تاركة بحر همومها بين وديان ومنحدرات جبال زهون، حيث ترقد أرواح أبنائها الثلاثة. لكن كل هذا يبدو كرخصة مؤقتة لروحها حتى تريح نفسيتها. لا بد لها أن ترجع لواقع تراجيديتها كطقس مازوشي ضروري. أن تُسائل القدر

داخل حمم اشتعال آلامها، حيث الضربة القاضية على أمومتها التي لم تستسغها ولم تقبلها، والتي لم ترث منها إلا آلام الذكرى والحنين والاشتياق والتمرد على قدر الوجود كل حين. في لحظات تفجّر صبرها وعدم إطفاء البئر النفسي الداخلي لغطس الأنفاس والأرواح بدواخلها، تنفجر بالكلام والحركات غير المحسوبة... حينها يشفق عليها الناس: (مسكينة أُمي الهوارية... الله يشفيها. جاءها الحال... سيمر...). لا يطيقون منطقتها وطريقة طلبها، ليس مسموحا ولا متاحا، ولا عقيدة أو شريعة متبعة، كل ما تتلَفَّظه أو تقوم به:

. بغيت أولادي آ عباد الله... اللي خذاهم يُرَجِّعُهُمْ لِمَيْمَنُهُوووووووم،
 وaaعباد الله... شكون يحن على هاذ الولية؟ ما طالبة قسمة، ما طالبة
 ذهب... علاش آ سيدي ربي؟ علاش آ سيدي ربي؟

حينئذ، تفر الآذان وتُصم، وتعمى البصيرة، وتتجاهل الأذهان ما سمعت:

. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لا يملكون حلا لها إلا بمضاعفة بعض الصدقات عليها. وهي هكذا، ستمر حالات الشدة، فتجدها مبتسمة تشرق الشمس من عينيها الحجليتين، ويكون ذلك الشعر الأحمر الأشعث، على جوانب وجهها كأنه شعاع هذه الشمس الحارقة التي مرّت عليها عواصف كاسحة وجارفة فانفرجت ضياء

جديدا في انتظار مرور عصف جديد. إنما هل تكون شمسا حارقة تأتي على هشيم العمر؟ ذلك استنتاج مخفي لا يقوله الناظر لحالها.

لها مقامات النكتة والحكم في جلساتها بجانب درج الحوانيت المعلقة، أو في عتبات المنازل التي تدق أبوابها طلبا لصدقاتها وقوتها... وغالبا ما تكون رافضة الدخول إلى بيوها أو رحابها، فالمنازل آهلة بأصحابها، والمنزل أبناءً وأولاداً. أين هم أبناءها الذين سيكونون بفضاء منزل لها؟ لا جواب، لا دخول إذن.

تلك عقدتها، ذلك تشردها الذي جعل لها مقاما هائما تحت سقف السماء وفي زوايا وأركان السوق أو الصابات المغطاة وقاية من أمطار أو أشعة شمس حارة. قد تقص الحكايات وتجعل أفضلها ما تضمنت محنة أم في فقدان أولادها، وقد تكون الحكاية بأكملها دالة في رمزية كبيرة على حالها.

مقام الزيارة

كعادته كل صباح، يستغرق منه النوم ساعات متعددة. لا يستيقظ إلا مع اقتراب أذان صلاة الظهر. تكون أمه قد انتهت من أشغال المطبخ، وتُهيء لتطل على خم الدجاج فوق السطح ونشر الغسيل والاستحمام بأشعة شمس ربيعية تسحر العين في انعكاسها على أجمة أشجار الغابة المنتشرة بين ثنايا الجبال المتواجدة بهضابها ومنحدراتها أمام مدار سطح المنزل. كما يكون التوقيت شبه اتفاقي بين الجارات للالتقاء في حديث الصباح وجديد أحلام لباس الليل الذي تعرى منه النهار، كما جديد شمسه التي أطلت بأخبارها.

. فُق من النعاس آعبده. ليس من الجيد أن تبقى نائما حتى الآن. لقد اقترب أذان الظهر. يا لله! الفطور في السفلي. بقيت أنت وحدك الذي لم تتناوله.

يتناول فطوره وعيناه لا زالتا متأثرتين بسهر الليلة الماضية. فجأة سمع دقات طبول وغيطة، وسمع معها استنفار الجيران والجارات للخروج إلى أبواب المنازل أو الإطالة من فوق السطوح والنوافذ. ممسكا كأس قهوته السوداء الباردة، يطل من باب المنزل على الزنقة المارة يمينا من درب سكناه.

موكبٌ بِشَاةٍ وَقُفَّةٍ خبز وغياط وطبالين. شمعة خضراء مزينة بالصقلي الأصفر يمسكها خادم الضريح الأكبر سي الكبير البارودي، ووراءه متابعاً سيّره بخطواتها المتأنيّة، امرأة في عقدها الرابع بعباءة سوداء اللون وفولار أسود ونظارتين سوداوين كذلك. تقتفي ظلها امرأة كبيرة في السن، يبدو أنّها تحت إمرتها وخادمة لها. من لباسها وأنحاءة ظهرها ونظرتها ومسكنتها، تبدو مشفقة على حال المرأة الموسرة التي رغم تالألأ خليها على معصمها وعنقها، فعيناها مغرورتين، وجفناها محفورين ببكاء أو أرق أو مرض ما... إنه موكب متجه صوب ضريح سيدي محمد بن قاسم.

استغرب عبده مثل باقي سكان الحي من هذا الموكب الرسمي المتجه للضريح. فالمألوف أن وظيفة ضريح سيدي محمد بن قاسم تقتصر على الزيارات الفردية الهادئة له من طرف سكان المدينة غالباً.

يأتي الناس وخصوصاً الأمهات بأولادهم من الذكور أو الإناث لكي يجعلوا لهم زيارة خاصة للضريح. في سن الطفولة يظهر على الطفل أنه بكاء أو كثير الصراخ والذعر أو كثير الحركة والشيطنة... يقومون بإدخاله إلى بهو الضريح الذي يبدو جدراناً قديمة تعلوها قبة شاحبة اللون على جوانبها شبكات عنكبوت متفرقة، دالة على استيحاش المكان... ظلمة يفرضها انعدام نوافذ تحترقها أشعة الشمس. وربما تسكنه أرواح أو زواحف قاتلة ومتصيّدة بالداخل لعالم قَبْتِهَا.

يوضع الطفل بمفرده هناك ويقيم لمدة ساعات حتى يستأنسوا بسكوته وتخلصه من صراخه وبكائه وعويله. ثم يفرج عنه بعد ذلك، كأنه طقس اعتقال لا بد للفرد أن يمرّ به في إحدى مراحل حياته. فتكون فعلا أولى فترات ودرجات الاعتقال التي يتعلمها الأطفال خلال حياتهم الغريبة الآتية. ربما رعونة الصغر لا بد لها من درس حتى لا تكون في الكبر، وحتى يُردع صاحبها فلا يفكر في انحراف عن مطلوب الجماعة وقانونها وعرفها. الحياة قيود وموانع ولا جموح للحرية في السلوك والتصرف. هكذا يتعلم لاشعوريا الطفل أن يخضع ويلجم رعونته وفضوله المقبل على حياة طالما استنشقت هواءها منذ ولادته فزادته إعجابا بألوانها كما بسمائها ومفاجآتها. قد يكون الطقس في غلق الباب عليه لفترة تستغرق أذان الصلاة الثلاثة. ربما إذا جيء به واقتيد قبل الظهر في يكون حظه العثر التحرر بعد أذان صلاة المغرب.

ومن خلال مرويات سكان الحي، وما يعرفه عبده وأصدقائه، أن توقيت صلاة الجمعة يكون الأفضل لهذا العملية. ربما تبركا بذكر الله وخطبة الجمعة وفضل هذا اليوم. ربما لاتقاء شروخ التجربة حتى لا يدخل فيها سكون جن في روح الشخص الذي زار الضريح وأدخل في قبو قبته. هناك من يجعلها تجربة قاسية، بأن يأتي بالطفل بين صلاة المغرب وصلاة العشاء، وتكون الظلمة أكبر عقاب له وأنجع مُسَكِّن لهيجان نفسيته. لم يجد (عبده) لكلمة

(مزعورين) أو (الجعرة) تفسيراً. تلك التسمية أو ذلك الوصف الذي يعطى لضحايا هذا الطقس العقابي من الأطفال. ربما لها علاقة مع كلمة مذعورين. ما قد يستطيع أن يفسّر به الكلمة ودلالاتها ومفهومها. وكم تربص عبده وجماعته بما قد تتركه الزيارة من قطع نقدية أو هدايا متقرب بها للضريح. رغم شحها فقد كانت تعتبر تحدياً وإنجازاً لشيء مستحيل.

من المرويات كذلك، أن النساء تأتين ليلة الخميس وتضعن ماء في إناء بداخل الضريح، يستعمل بعد ذلك للشرب أو للاغتسال، من أجل التبرك والإنجاب. ومن الروايات الشاذة والفريدة، أنه يداوي على (الفواق) !

هذا كل ما يعلمه عبده عن زيارة سيدي محمد بن قاسم. إنما طقس هذا اليوم، ومع اقتراب أذان صلاة الظهر، يدل على عادة جديدة مبتدعة، كالتجري في زيارة ضريح سيدي علي بن حمدوش. موكب رسمي، واحتفالية بهدايا وقرايين، وشموع وتبرك بطقوس زيارة. كيف يستطيع الناس تفسير كل هذا؟ لم يحصل على جواب عند أمه التي بقيت مطلة من فوق السطح. كما لم يستطع إيجاد جواب من عند الجارات اللاتي بقين مندهشات، منشغلات، ممتلئات فضولاً وفرحة لهذه الفرجة التي ستخلق لهن مادة دسمة للحوارات وتقضي على فراغات الجهل الذي يهشم وعيهم بما يدور في دنيا الرجال ودنيا هذا العالم الذي حصر دورهن بين جدران منازل ووظائف أسرية مقيدة. سيشتغل عقلمن على مادة جديدة، ستكون موضوع جلساتهم، كل واحدة

ستغرف من معين تنقياتها وخيالها لكي تطعم فضول الأخرى بما استطاعت إليه سبيلا.

أصبحت الساحة المتدرجة بين انبساط وانحدار وتفرق صخور على جنباتها كأكوام للجلوس أو الاتكاء، مملوءة بجمهور خرج للفرجة. أطفال ونساء، منهن من جعلت إزارا يستر هيئتها، ومنهن من اكتفت بفوطة على كتفيها، فالوقت مستعجل لمتابعة مشاهد احتفالية غرائبية جديدة على الحي.

خروج عبده للساحة كان بكوب قهوته و(مشاية) أمه . صنداها الأحمر . التي وجدها بباب المنزل فجعل قدميه داخلها، بالكاد تحترق أصابع رجله ربطتها كبساط أمومة يأخذه إلى هذا العالم الخارجي . لباس حذاء الوالدين، عادة طفولية منذ الصغر، تستمر حتى مراحل عمرية معينة، فيها حنين ما طبعها. ففي بدايته يكون مثل مركب يأخذ رجلي الطفل الصغيرتين ويسبح بخطواته المغامرة. ومع النمو والكبر يشعر هذا المنفلت من الصغر بأنه في تفوق داخل هذه الحياة وهو مؤتمن داخل مركب الأمومة الذي يشكّله الصندال ويوطده الارتباط الحيني للأمومة به، وهو ما يجعله يكره رغم تنبيه الأم لترك (مشايتها) سليمة من تمزيقات قدميه الآخذتين في التضخم والطول.

ويبدأ المشهد الاحتفالي الذي يديره سي الكبير!

!

مقام الموسم

يجلس الفقيه بودومة بجانب باب الضريح، معتكفا داخل قب جلبابه. سبقت
الموكب أمي الهوارية، مستعدة ومبتدئة للاحتفال بحضرتها المعهودة والمثيرة.
نزعت شربيلها* الأسود من رجليها، وجعلت أخمص قدميها في رسم خطو
على تراب الساحة، مستميلة يمينا وشمالا، ضاربة راحة كفها اليمنى على
صدرها، وواضعة الأخرى فوق رأسها، بادئة في الصراخ بأصوات غريبة،
جاعلة من ارتجاج رأسها وتيرة لرفع الإيقاع في هذه الحضرة الجديدة التي
أعطت لحي سيدي محمد بن قاسم حياة غنية هذا الصباح. وبما أن الجل من
الرجال قد ذهب إلى عمل أو كان منشغلا بتدابير المنزل اليومية فإن هذه
الفرجة قد كسرت رتابته وحلفت الحدث غير المتوقع.

* - (الشربيل هو النعل النسائي التقليدي في المغرب، المقابل للبلغة الرجالية، إلا أنه يختلف عنها في الألوان والتطريزات، حيث إنه أكثر زخرفة ورونقا حتى يتلاءم مع باقي الألبسة النسائية المغربية).

استندار الجمع حول رقصة أمي الهوارية التي جعلت يدها اليسرى ممتدة على مستوى أفقي مع ذراعها، راسمة بها دائرة متحركة وموسّعة حلقتها. جعلت الشاة بالجانب الأيمن من الضريح، حيث استعد سي الكبير لنحرها بادئا باسم الله الرحمن الرحيم وداعيا المرأة في لباسها الأسود من الاقتراب وجعل الخطو فوق هذه الشاة أضحية المشهد وقربانه ومخلصة عقد الحياة بدماء نحرها الحمراء.

فُتح باب الضريح ودخلت المرأة بمفردها إلى بهوه المربع. ثلاثة قبور ساكنة في هدوء داخله. نزعت حذاءها المنبسط والذي يجعل كعبيها منتفخين ونازلين في ضغط جسدي على قدميها في صورة توحى بما هو إثارة إلى جانب الإيحاء بما هو عري للتخلص من قيود اللباس وقيود الثقافة المكبلة داخل المجتمع.

سَلّمها سي الكبير الشمعة الكبيرة الخضراء بعد أن أشعل فتيلها، ووضعها في صدر البهو وقبلته الشرقية. قعدت في جلسة دعاء صامت. طلب سي الكبير من الفرقة الموسيقية المرافقة الانتهاء من العزف والتطليل. كانت الغيطة في نوتتها الخاتمة هي المجرورة إلى النحدر الصوت من قوة إلى ضعف فصمت كبير. طلب سي الكبير من الفقيه بودومة قراءة ما تيسر من القرآن الكريم. بينما أعطى دزينة شمع صغيرة إلى أطفال صغار لكي يجعلوها مشتعلة على جنبات الضريح. ارتفعت زغردات المرأة الأخرى المرافقة التي بقيت خارج مبنى الضريح، ثلاث مرات متتابعة.

. الذبيحة، هدية لكم يا سكان المقام. هكذا أمر سي الكبير أحد معارفه بالحي بسلخها من جلدها وبطانيتهها، وتوزيعها على من أراد لحمها من سكان الحي.

وزع بعد ذلك الخبز الذي أحضره. كان للأطفال نصيب الأسد في هذه الاحتفالية التي أخذت نهايتها مع شروع أذان الظهر في اختراق آفاق ومسامع الحاضرين. نصف ساعة تقريبا، كانت كافية لهذه المراسيم، بقي معها عبده واقفا بنظرته التي أراد لها التميز وعدم الرضا بما يقع، مقطبا حاجبيه، ومبديا امتعاضه من هذه السلوكات القروسطية كما يسميها.

في حركة رفع ليد اليسرى، ما دامت اليمنى منشغلة بكأس القهوة الذي بردت حرارته أكثر، كانت الإشارة التي تحتج وتلوم وتندد، ما لم يقبله الجمهور وما اعتبره إنذار شؤم في عدم احترام المقدس ومقام أولياء الله الصالحين، إلا ما كان من بعض الأطفال الذين رأوا بفضولهم بابا جديدا للاكتشاف كسلوك في هذا المقام. تتساءل أبصارهم في دهشة دون كلام: ماذا يمكن أن يحصل مع هذه الإشارة؟

سيقوم الكبار طبعاً بالجواب على استغرابهم في الآتي.

بالمقابل، بقيت أصوات داخلية لخطابات مادية تاريخية وتحليلنفسية تسخر من حواس عبده وهو يتابع المشاهد. إعادة كتابة تاريخ جديد بطقوس سحرية وخرافية أم بصياغة موضوعية علمية؟ طاحونة توترات ذاتية لا يخبرها الآخرون

ولا يعلمون بوجودها. ستأكله ديدان أفكاره. ربما سيكون هذا تعليق أحد الأفراد الحاضرين والعارفين بفلسفاته التي أتى بها من الجامعة.

انتهى المحفل بخروج السيدة المعنية بالطقوس من فناء الضريح، ورجوعها مع سي الكبير إلى الوجهة التي أتوا منها قبل قليل. أقفل الباب، وانصرف الفقيه بودومة، بينما بقيت أمي الهوارية جالسة في استراحة من حرب حضرة أشفت غليلها وأخذت براكينها النفسية العميقة. التفت أحد شباب الحي إلى عبده:

. صباح الخير سي عبده.

. صباح الخير سعيد. بخير؟ مبروك الموسم.

. هذه زيارة خاصة. يبدو أن سي الكبير استغنى عن بركة الضريح الأكبر أو هو الذي بعثه إلى هذا المقام. تلك القهوة في يدك، ما زالت صالحة؟

. نعم رغم أنها أصبحت باردة. إذا أردت التلصيقة. القطرات الأخيرة الجامدة في قعر الكأس منها. فهي لك.

. التلصيقة هي المهمة لتدخين الكيف. اجلس بجاني فالفرجة لم تنته مع تفصيل لحم هذه الذبيحة.

. واش حرام أو حلال؟ الله أعلم.

. هذا ليس شغلنا. يعلق سعيد. الناس تحب الفرجة والزردة. صاحب النية هو المسؤول.

. رأيك صواب آ سي سعيد. ولو أن الناس تمشي إلى الأمام ونحن نمشي إلى الوراء. هؤلاء أرادوا إحياء طقوس الأضرحة من جديد. إيوا تبارك الله ! بكري تطورنا !

. أنا أحب أن أعرف، كيف قام سي الكبير بهذا الفيلم وجاء إلى هنا؟ لماذا لم يقيم به في مقام وساحة المزاراة الرحبة وضريح مولاي إدريس؟ يمكن العشبية يكون الخبر الصحيح عندي، حينها أعلمك وأخبرك.

. وا سي سعيد !! ذاك شغلهم... لو وجدنا كيف نحاربهم، نعم، أتفق معك. أما مجرد معرفة وتفسير فلا يكفي. الممارسة واضحة، كلها تخلف في تخلف!

مقام "السرغوشي"

. الذاكرة الموشومة... الرأس الموشوم.

كانت جملة التي بدأ بها حوارهم ومزاحه ونقاشه مع صديقه نجيب. جملة ستعطيه متسعا من الحق في الكلام والاستحواذ عليه. أمام نظر ابا الساحلي، الذي يتابع حوارهما في هدوء هذه الليلة من أواخر يونيو. جو ليلي عليل، رغم حرارة الصيف الملتهبة خلال النهار، خصوصا هذا المساء الذي أرخت فيه السماء دفئها على الأنام والنباتات والمخلوقات. تفتّح الكلام، وبقي ابا الساحلي محتاطا من إقحام نفسه في بداية الحوار. فكلام طلبة الجامعة، معانيه غريبة وغامضة ومخيفة... علامات استفهامهم تشق صخور الجبال وتفتق ثوب السماء لترديه أرضا مندسة ومدكوكة. إذا تابعه بتأن سيظهر فعل المخدر من الذهن، وتذهب نشوته و(تبويقته) التي ترخي للحواس وتعطيها استراحتها من كل توتر يومي أو وجودي.

لم يكن يتوقع أن يسمع من عبده مثل هذه الأفكار التي تغترب في الفضاء كاغتراب أخطر الجرائم ونفي أصحابها عن عيش الأمان والمجتمع. كل مرة

يتطرق لموضوع يريد به زعزعة ثوابت الحاضرين، بأسلوب لطيف وابتساماة هادئة، وطريقة متدرجة خادعة.

ما هذه الذاكرة الموشومة؟ علامة استفهام قطبت حاجي ابا الساحلي، واستدار معها نجيب العوفي ليقابل وجها لوجه صديقه المشاغب بالأفكار.

. إذا كان صاحب الفتوة، طارزان الحومة، مبحوث عنه في جرائم سرقة، فأنت سيبحثون عنك في جرائم أفكار آ سي عبده، أكيد. المشكل هو: هل سيسمحون لي بزيارتك أم لا؟ السياسيين يحون أثرهم!

. دائما تتهمني آ صاحبي وأنا بريء من اتهاماتك. أنظر لهذه الحفرة في رأسي! تلمس جلدتها. ألا تلاحظ أنها أثر حفرة؟

. نعم. ملتصقة مع عظم الرأس وغائرة! أين نلت هذه الجائزة. فلقة بوليس في الجامعة أم صراع بين الطلبة؟

. آ سيدي هذه تسديدة بحجرة من يد (السرغوشني)، الله يرحمه.

. رماك بالحجارة على رأسك وما زلت حيا؟ العجب هذا!

. لطف الله. كنا مارين بالقرب من شجرته (الزفوفة). شجرة العناب.. أثاره أحدنا بقذيفة كلام: (الزفوفة احترقت). هاج غاضبا. أمطرنا بوابل من الحجارة. لم ينل حظه منها إلا أنا. أليست وشما من ذكريات الطفولة؟ ها هو

الرأس موشوم، والذاكرة موشومة كذلك. وأنت يا صاحبي تتهمني بكلام المجرمين والتفلسف والسياسة. حرام عليك.

. تعلم أنك حينما تريد تركيب الكلام، تدس ما تشاء. مثلا الآن لماذا الحديث عن الذاكرة الموشومة وأنت تريد الحديث عن وشم فلقة على رأسك؟ حيلك لا تنتهي... إنما قل لي: هل تعلم قصة (زفوفة) السرغوشي؟

. لا، أعلم فقط أنه يسكن أعلى المنحدر الذي توجد فيه الشجرة، مطلا على الطريق المؤدية من سيدي احمد بن قاسم إلى طريق وقنطرة سيدي صابر، وعلى حافة الوادي أسفلها حيث مسبح (العزاني) بصخوره الواقفة كجدار مائل.

. آ بّا الساحلي، واش تعرف على الزفوفة والسرغوشي؟

. كلُّ وحاله. واحد ساكن في حجرة، والآخر ساكن في شجرة. يوم أتى الباشا والمخازنية عند السرغوشي، حينما منع عمال البلدية من القيام بعملهم في توسعة الطريق بمحاذاة مع شجرته الزفوفة؟

. نعم، سمعت بذلك. لكنني لم أكن حاضرا يومها هناك.

. نزل الباشا من السيارة. سبقه المقدمون والمخازنية. نادى أحدهم على السرغوشي من بعيد احترازا من غضبته:

(. تكلم للباشا آ السرغوشي !

. ما مشكلتك مع عمال البلدية؟ سأله الباشا .

. حذرتهم بالأا يقتربوا من الشجرة .

. لكن الشجرة بعيدة عن الطريق، لن يقطعوها.

. اسمع آ سي الباشا ! هل تحب أن يدخل الغريب لمنزلك وزوجتك فيه؟

. تكلم بأدب مع السيد الباشا آ السرغوشي ! يصيح أحد المقدمين.

. طبعاً لا! ابتلع الباشا ريقاً ناشفا وهو يرد جواباً على سؤال مفاجيء وغريب وغير متوقع.

. إيوا الشجرة حُرمة كذلك. ملك للسرغوشي. لا أحد يقترب منها.

. لكنها بعيدة عن الطريق. يؤكد الباشا.

. حُرمتها وحدودها هي ظلها. بقدر الشمس، بقدر الظل).

. واؤ ! استغرب عبده وتعجب للجملة الأخيرة. هذا القياس للحدود رائع.

(بقدر الظل بقدر الشمس). أيهما أولى بالقياس؟ الشمس أم الظل؟ ما مقام

الشجرة بينهما؟ هي المحور. التغذية بنور الشمس والحماية بظلها من أغصانها.

يعني أن باقي الأشجار كذلك ستكون على مسافة بعيدة عنها وليس الطريق فقط.

- يبدو أن الفهامة بدأت تكبر عندك بسبب تلك الوشمة المحفورة في رأسك آ سي عبده.

- انتظر! هذه نظرية كونية بين النور والظل، الليل والنهار، الضياء والظلمة. سأجعلها فلسفة كبيرة. في وقت ما في الماضي، كانت هناك ضريبة الظل. إذا أردت أن تستفيد من الظل، عليك أن تؤدي ثمن ذلك. أما السرغوشي، فهو يحمي ظل شجرته، ومن حقه. تلك حدودها. هل تعلم أن النباتات تمتلك آليات دفاعية سائلة ومشمومة بالرائحة. يجب أن نبحث عن نوع الشجرة، شجرة السرغوشي وآليات دفاعها إن كانت موجودة. باعتبار هذه القصة، فهو ليس بأحمق، نحن الحمقى.

- آليات الدفاع هي الحجرة التي فلقت رأسك كذلك آ سي عبده. آش تقول آ بّا الساحلي؟ يتوجه نجيب بالسؤال والكلام معه.

- إذا كان السرغوشي أحمق، فانا كذلك أحمق. هل كل واحد يعيش في وقاره نسميه أحمق؟ أو من يدخل الفضول وشؤون الناس؟ الناس هم الذين يؤذونه بكلامهم وتجريحهم. حيث الفقير والغريب وابن السبيل، ما عندهم من يحميهم. حتى الأطفال يرشقوهم بالكلام والحجارة. ابحث عن التربية. شقاء في النفس والخطاير يجعله يبتعد عن مجاورة الخلق. حينما يضايقونه ينزعج.

احتاج عبده للبحث عن أصل التسمية وجذورها. لم تسعفه المراجع التي يتوفر عليها. سأل، هاتف، ناقش، جادل. استمرت الحيرة كما السؤال. تردد، توتر، نقر بظفر سبابته الطاومات وما تسطح فوق يديه، وما وصل إلى بر جواب آمن.

بقيت التخمينات كاستنتاجات أولية، ستكون سلاحه كما إضافته وتأثيرها في فضاء المناقشات ومتغير الفهم والثقافة. وتلك ثمرات إحدى جلساته الموالية والتي فتح فيها كذلك النقاش حول التسمية والأصل والجذر.

ربما عملية قلب بين الحروف عند البعض وليس الكل، حيث لا تستطيع منطقة نطقها مجتمعة لترتيب معين. هو السغروشني بدل السرغوشني. والغين بعد الراء ربما أيسر في النطق عند سكان مدينة مولاي إدريس زرهون في مثل هذه الألفاظ المركبة. آيت سغروشن وتركيب الكلمة من سغر بمعنى جفف أو جمد... و أوشن بمعنى الذئب، وما يجمع تركيبهما من حكي تاريخي أو أسطوري، لكنه جميل جدا في الاستحضار.

ترك صياغة استنتاجاته الأخرى إلى حين لقاء رفاقه في الحياة الطلابية.

مقام السياسة

يدفن وجهه في راحتي كفيّيه. يغرق في تفكير خارج سياق الزمن ووتيرته في جلسته بين الأفراد الحاضرين. بقيت أصواتهم كمشيلة لأشباح تراود الذهن منفلثة عن قبضة وجودها المادي. لم يعد ابا الساحلي مستوعبا مجريات الحوار الدائر. سافر مع شريط أحداث وكلمات متقاطعة وحركات متفرقة. كان بطل هذه المشاهد هو سي الكبير. ارتسمت صورته داخل فضاء شروده وعمته تفكيره الداخلي. بدا سي الكبير ضاحكا وساخرا ومبتسما ومتفحّصا نظراً ابا الساحلي في ارتقاءه الذهنية. جلسة المعلم الخياط، وسؤاله عن ضريح سيدي احمد بن قاسم. توقيع الطالب بودومة لذلك الحضور المستدام لقراءة الذكر على عتبات الضريح. مجيء امي الهوارية كل مرة. احتفالية الغياطة والطبالة.

استعاد ابا الساحلي جلسته المستقيمة والمتكئة بظهره على جدار الضريح. سمعت تنهيدته الموقّعة للفهم مع تأوّه:

. إيسيسيه. هكذا !

هكذا إذن، كان استيعابه لما يقع وما سيقع:

. سي الكبير ضاق به المقام في ضريح مولاي إدريس. ولكن، راه يلعب بالعافية. يوم ترجع شقفة المال جمرة، تكوي وتحرق الجلد والعظم. دابا الايام توريه.

. فدنا ابا الساحلي. يعلق نجيب العوفي.

. الافادة ما تفيد اللي جاي، والجايات والآيات كثر.

يتناول السبسي بين يديه، ويشعله بوقود متقد ومحترق مع عملية استنشاقه التي احمرت معها عيناه تركيزا في وعلى مجهول تفكير.

سيفهم ربما ما يحدث، لكنه لا يهمله بين من سيحدث. الناس يعيشون بتبادل ما يحتاجونه من حب وكره، وفقر وغنى، وشوق ونفور. سنة الحياة التي هجرها ابا الساحلي ليعيش ذاته دون تقييدها بالآخرين.

. تلك الهبيلة اللي زطمت وسط سيدي ماحمد بن قاسم شكون هي؟ يسأل ابا الساحلي وكأنه لا يسأل أحدا سوى ذاته.

يلتفت الحضور في جلسة هذا المساء، ويكون العنصر الملتحق بهم هو مصطفى الذي تأخر في المجيء إلى حي سكناه. هذا الخفيف الحركة والمنتبه الحواس، رفيق للجميع داخل الحي وخارجه، حتى إن علاقاته تميزت بمعاشرة سكان الأحياء الأخرى وتبادل الزيارات بل حتى الإقامات معهم. عائلته متفرعة في شجرتها بعلاقات مصاهرة وعمومة كبيرة. البيت الكبير الذي يرمز لمفخرة الامتداد التاريخي لعائلته ما يزال شاهداً كقلعة مطلة على جبل عين القصر والوادي المنحدر منها. كذلك هو منظره البانورامي الذي يهيمن على أطياف أطلال مدينة ويلي التاريخية وطريق الدكانة الجبلي وحضور فوهة كهف الحمام الباسقة وسط الجدار الصخري لمتهى الجبل المطل على سهل خومان وطريق الشمال الغربي المنحدر إلى زكوة ومنبسط سهول الغرب بعيداً عن أفق النظر.

مصطفى التيجاني المحربي. تسمية لا يريد مفارقتها. تحيل لهويته التي يفتخر بها، رغم أن حظه من هذه الأمجاد اندحرت إلى قسمة إرث لا تترجم حقيقتها. أبوه سي علي المحربي، رجل جدّ وعمل. حياته بين حقول وبساتين. رغم كبر سنه تجده خارجاً من حي سيدي محمد بن قاسم فوق حماره الذي ينتشي هو الآخر برفقة هذا المعتز بوجودٍ وقناعته وعفته.

حتى الحمار يمتلك ذلك الوقار والتقدير بين الساكنة حين مروره بين دروبهم وأزقتهم. فقد يعود ذات مساء أو حين اقتراب غروب الشمس بمفرده وربما

محملاً بما جادت به تلك البساتين أو الحقول، راسماً طريقه إلى باب (الروى) أو مقام الحيوانات التي تسمع حين وصوله لها صوته المخرخر بخياشيمه ودقه بجوافر ساقه الأمامية كأنه حصان آت من غزوة انتصارية.

هي نحوه الحمار التي يندهش لها الأطفال فيحترمونها بشكل استثنائي وعجيب. وكم يحب الأطفال ملاحظة الاستثناء والتعلق به. يرسمون بخيالهم أساطير وخرافات حوله، وحين يسألون الكبار قد لا يجدون اعتراضاً حول تخيلاتهم فيزيدون في الحكي وحجمه فيما بينهم في اليوم الموالي. ومن يمتلك منهم زاداً من حكايات الجدات والجدود يدمج هذه في تلك فتكبر الحكاية حول حمار المحربي.

حضور مصطفى والحديث معه وعنه يحمل هذه الحمولة التاريخية الأسرية والعائلية داخل المجتمع الزرهوني. لكن حظه من آفاق التألق الاجتماعي عكسته تربية القناعة التي نشأ عليها مع والده وأمه، مع جدته التي آثرت تمضية بقية سنوات عمرها مع سي العربي التيجاني المحربي الذي ترضى عليه في كل صلاة ودعاء وذكر تواصلني أرضي أو سماوي. يوم كان الافتخار بمهنة المقدم، كان جدُّه شيخهم الكبير صاحب الأملاك والسلطة والنفوذ والعلاقات. سي التيجاني، الشخصية الماثلة بقامتها الفارحة بعينين تملان إلى لمعان زجاجي وشارب مستقيم يعطي ملامح فحولة ورجولة وشجاعة،

استطاع أن يكون صاحب النفوذ والاحترام عند السلطة وعند المجتمع. كان بدرجة الأب الاجتماعي وبدرجة المستشار أكثر من كونه شيخ المقدمين. هذه الحرفة التي طمح مصطفى لولوجها والتي يعيش على أمجادها ذائعة الصيت مع جده أكثر من العيش مع واقعها وراتبها الذي يتقاضاه.

هو الآخر متذمر من واقع الحال، لكنه يمتلك عنادا في البقاء فيها، رغبة منه في تغيير وضعها وإعادته إلى أمجاده. يعمل من أجل ذلك ما استطاع إليه سبيلا. فرغم راتبه البسيط والذي لا يعول عليه في نفقاته الشهرية الشخصية، قد تجده يقدم مساعدات مالية لمجموعة من المحرومين واليتامى والفقراء والأرامل. ربما كان مصطفى أول المفسرين لآيات الأيتام والأرامل لأنه يحفظها ويردها كل حين في حواراته بدرجة حفظه لمجموعة من الأحزاب القرآنية. لكنه الشاب الذي يعيش تخضرا بين واقع ولى تاريخنا وقد انقضى، وبين واقع يرسم ملامح حملته لمرحلة طغيان القيم المادية وسلطة المال فيها. صراع يجزته ويمزقه في شخصيته، حيث يكون حائرا بين مدّه وجزره وبين صراعاته الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تتمظهر أمامه. فكيف لا يتشكل له وعي معها؟ وكيف لا يكون مستنجا لكل الدروس من أحداث تقع أمامه أو تمر؟

هو رياضي المحي كذلك. مصطفى: لاعب كرة القدم الماهر الذي يفتخر به شباب المدينة بأكملها. شارك في المنتخب المحلي لفريق النجم الرياضي، وكان

بارعا كمهاجم وهدّاف في الفريق. تكون المفارقة عند بعض الساخرين في تعليقاتهم المنبهر: (كيف يكون مرنا وطيّقا ووديعا في لمساته الكروية وحيويته اللطيفة في الاحتكاك وسط الملعب وعدم الغضب أو الانفعال، وهو ابن ومثل حي سيدي احمد بن قاسم، الحي الذي يشتهر بعنف شبابه وصراعاتهم الدموية القاتلة مع باقي شباب المدينة؟).

هذا الاستثناء يشكّله مصطفى ابن سي العربي التيجاني المحربي إذن. ومجيئه لجلسة المساء بجوار مبنى ضريح سيدي ماحمد بن قاسم يكون منتظرا من طرف جل الساهرين. فمصطفى جريدة المدينة الشفهية وحامل أخبارها ومكتشف أسرارها. هو مقدم حي الحفرة المجاور لحيهم.

. مرحبا سي مصطفى، ننتظر مجيئك بفارغ الصبر. يعلّق نجيب على حضوره مبستما ومورّطا له مع موضوعهم الذي شغلهم هذا النهار. حتى إن ابا الساحلي لم يرد الانصراف قبل أن تأتي جلستنا.

. ابا الساحلي هو اللي مرتاح في هذه الدنيا. السلام عليكم أولا.

. وعليكم السلام يا ولد الخير.

يكون امتياز رد السلام عند ابا الساحلي على تحية مصطفى خاصا ومحترما بشكل كبير دائما. وهو احترام تتفرد به عائلة المحربي التيجاني عموما ويحظى

به مصطفى خصوصا مع ابا الساحلي. فرغم وظيفة هذا الأخير التي قد تستدعي إخبار السلطات بما قد تحتاجه من معلومات حول المدمنين وحول تجار الكيف وطابا والحشيش، يكون مصطفى محايدا مع الجميع في هذا الصراع بين دائرة السلطة ودائرة الممنوع، حتى إن السلطات لا تعوّل عليه في هذا الأمر بقدر ما تعوّل عليه في التدخل في المشاكل الاجتماعية التي تنجم عن صراعات بين جيران أو مشاكل نزاعات أسرية خصوصية.

. مبروك الموسم الجديد آ سي مصطفى. فوّت الفراجة.

يعلّق نجيب العوفي ضاحكا، بينما يبقى عبده صامتا ومتابعا لما يجري ويتطور من حوار. فعبده من جيل آخر أتى بعد جيل مصطفى ويجعل مسافة احترام له ولجيله، منتظرا دائما ما سيستفيده منه ومن تجاربه، رغم أن الصداقة ولباقة التواصل والاحترام قائمة بينهما، لكن بمسافات مقيسة دائما وليس بنفس طريقة نجيب العوفي في الهجوم على مصطفى بتعليقاته ومزاحه.

. تمتعتم بالفرجة في غيابنا. لقد استدعت السلطة سي الكبير واستفسرته حول ما وقع. المسألة أصبحت كبيرة والمشكل تضخم كذلك.

. إنها السياسة أم المشاكل آ سي مصطفى ولد الخير؟

سؤال ابا الساحلي فسّر تعبيره السابق وتنهيدته التي صدرت معه قبل مجيء مصطفى. الكل انتبه إلى سؤاله الذي فرض صمتا نسبيا قبل أن يتدخل مصطفى بالجواب:

. ابا الساحلي أنت أدري بمن هو سي الكبير. ولكن المشكل أكبر منه الآن. نحن الآن على مشارف شهر يوليوز، وربما الانتخابات ستتم في شهر شتنبر. لقد تمت الانتخابات منذ عام ! يعلّق نجيب العوفي مستغربا ومتعجبا.

. تلك كانت الانتخابات الجماعية المحلية. أما هذه فهي الانتخابات البرلمانية وهي أكبر الآن من الأولى. الدائرة كبيرة جدا فيها، تصل حتى مدينة المهاية ووادي الجديدة في طريق فاس.

. وما علاقتنا بطريق فاس والمهاية؟ جبل زرهون بعيد على هذه المناطق.

يكون تعليق (العربي الشركي) نائبا عن الجماعة التي اتفقت مع ما قاله متعجبة ورافضة هذا الجمع بين مناطق متباعدة في الانتخابات.

مقام السياسة*2*

ستكون رواية المقدم سي مصطفى، ولد السي العربي التيجاني المحربي، قرية من واقع الأحداث ومن وصفها. فالجماعة المرابطة الآن في ليلة السمر حول مقام الضريح أبعدها شغلها اليومي عن مركز المدينة وسوقها حيث مستجدات الأحداث وانتشار أخبارها والذي ما يزال يحافظ على لقبه. فالمكان له ذاكرته التي وإن انمحت من ذهن الناس، يظل يحافظ عليها في تسميته وأطلاله وبعض نشاطاته كذلك.

يوم كانت المدينة محاطة بأسوار عالية وأبواب كبيرة وجدران طبيعية سامقة بأحجارها وقممها التي تتربع عليها أحياء مولاي إدريس زرهون الباسقة. يومها كان المركز هو مجال تلاقي سكانها وبيعهم وشرائهم ودكاكين تجارتهم وحرفهم: السوق الداخلي والسوق البراني، إلى جانب الفندق القديم والفندق الجديد. كل هذا انمحق الآن. لكن استقطاب مركز الضريح والزاوية للزيارات وكذا تغير المعالم العمرانية واختفاء ما سلف ذكره لكي تبقى هناك ساحة

كبيرة تلتف حولها دكاكين متراسة ومتجاورة، حافظ للمركز على حيويته الاجتماعية والتجارية والثقافية نسبيا.

بالنسبة للجماعة المرابطة في هذا الليل الصيفي، بدا أن مركز اهتمامها كان متعددا. رغم حضور بعضهم لحفل الزيارة والذبيحة بضريح سيدي محمد بن قاسم. فعبدته الطالب عاد لنوم ما بعد الزوال، وبعدها خرج في نزهة قريبة بجوار (عين بوسعيد) وعين (ابن سليمان) حيث سرّ التاريخ الطبيعي المنسي لجبال زرهون، وحيث ملتقى الماء لشباب حيه وحي الظّهير.

هناك التقى نجيب العوفي من جديد والعربي الشركي. كانا قد انتهيا من (تقصيصة) الكيف التي يحتاجها لهذه الليلة وما بعدها. فالطبيعة فضاء حرية وتحرر من قيود ومنع وتهديد عقوبات الحاضرة والمدينة. هي كذلك، للكلام الحر والطلاق. يمكنهما أن يعبرا عن أفكارهما دون حضور ذهني للممنوع الثقافية المجتمعية.

أما أبّا الساحلي، فكمعتاده، تنقل بين مرافق ودكاكين وعلاقات. ما سمعه هناك خلال هذا اليوم تضاربت آراؤه وتحليلاته. التقت فيه عناصر مشتركة هي جملة ما أتى به ذهنه حاملا له كفههم وتفسير. إذا أضفنا معرفته بشخصية سي الكبير من خلال سمرهم في دكان سي علال الخياط بحي تازكة، فإن بوحه بكلمة السياسة جاء ثمرة ما سمع، دون أن يكون قد تدخل بنت شفة.

ربما جلسة ومقام ضريح سيدي احمد بن قاسم جعلته يشعر بجرية تعبير. ربما مقام الكيف الذي تمكّن من الدماغ جعله يفرز الكلام الذي سيصبح مباحا في جلسة ما بعد صلاة العشاء واختفاء الأطفال والشيوخ والنساء.

رحلة عبده في زهته كانت مرافقةً لكتابٍ قبل أن يلتقي في منحدر منبَعِي الماء بالجماعة. لذلك سيكون ذهنه قد تملكته أفكار الكتاب التي ستلتقي مع مجريات الأحداث في صلب أهدافها ومسارها. فقد أجل قراءة كتاب استعاره من صديق له في الجامعة (الفلاح المغربي مدافعا عن العرش)، وهو كتاب من بين كتب أخرى يعتبر رحلة ممنوعة بقدر منع تدخين الكيف، بل أخطر. الكل يعلم أن اعتقال السياسة أخطر من اعتقال أصحاب الكيف والحشيش.

لذلك تحتاط الجماعة من تدخلاته التي تكون نارية تصب في أركان السياسة ودعائم قيامها. وهو المتمرد على الثالوث المقدس الذي حفر مقروؤه وعيا جديدا في ذهنه.

الجل ينتظر جديد المقدم سي مصطفى إذن. وهو المعاین لما جرى في السوق أو الباشوية، القريب من منبع الأخبار. يمازحه نجيب العوفي:

- نحن نسقيك من منبع عين ابن سليمان، وأنت ستسقيننا من منبع الأخبار اليومية. ألسن مقدّمًا؟

. الله يعطيك هذه الحرفة. تعلم أنني فقط أحافظ فيها على اسم العائلة وحضور سيرة الجد رحمه الله فيها. أما من ناحيتي، فلو وجدت طريقا للخروج والعمل خارج البلدة لكان أفضل.

. ومن سيأتينا الأخبار حينئذ؟ يرد عليه ممازحا سي العربي الشركي.

للجماعة سخريتها في كل هذا. قد تجدها تكثر من لقب سي فلان أو سي فلان، وهي في ذلك تمجده لأنه سيأتي بالأخبار أو سيحكي لها شيئا وأمرًا لم تكن مطلعة عليه. حتى إنها تجعل له جلسة وسطها بكرسي مريح. قد يقوم أحدهم ويجعل صاحب الخبر هو المفضل للجلوس على كرسي عرش الأخبار الجديدة للحى والمدينة وما جاورهما.

هكذا إذن كانت جلسة سي مصطفى، وسقايته من ماء عين ابن سليمان، ومناولته كأس شاي أحضره نجيب العوفي من منزله، إلا ما كان من مادة الكيف، فقد انقطع عن تدخينها منذ مدة واكتفى بتدخين السجائر التي تمكنت من صدره في سعال وضمور.

. وا سي مصطفى، إننا ننتظر أن تحكي لنا ما تعلمه في الموضوع. لقد طال صبرنا.

تنفجر الجماعة ضاحكة لاحتجاج العربي الشركي وانتظاره لمشاهد يغني بها صفحة الليل.

(. لقد أنت عند الباشا جماعة من الأعيان. احتجوا على ما قام به سي الكبير. ذهبت كذلك عند ناظر الأحباس والأوقاف. اعتبروا ما قام به تهديدا لقيمة ضريح المدينة وزاويتها الرئيسية. إهانة لقداسة الضريح الذي يجعله الملوك والأمراء قبل عامة الناس: (منذ متى كان ضريح سيدي محمد بن قاسم تُقدم له الذبائح ويكون قبلة بالطبال والغياط؟). نار مستعرة اشتعلت في أحشاء بعضهم. هددوه بالفصل والشكاية للأعتاب العليا بالقصر. تمت المناادة على سي الكبير الذي حضر لجسلتهم مع الباشا أولا. بهدوء وراحة كبيرين اقتحم المجلس ونظر لمن حوله مستغربا. حينما سأله الباشا كان الصمت المطبق هو الذي ساد الكل. فتحت أفواه استغربا، وبلعت أخرى لسانها وريقها، بينما تجمّد السيد الباشا في كرسيه مندهشا:

. سيدي الباشا لم أقم بشيء منكر. لقد أتاني شخص من العاصمة وأوصاني خيرا بالسيدة التي جاءت للزيارة.

بالمناسبة هي زوجة مرشح برلماني بدائرتنا كذلك، له نفوذ كبير في مدينة مكناس وعلاقات رفيعة المستوى على مدار البلاد ككل. هذا ما أخبرني به المسؤول الكبير في العمالة. وإرضائه هو إرضاء لأصحاب النفوذ.

تدخل أحد المحتجين عند الباشا:

. ولماذا زيارة سيدي محمد بن قاسم؟ لماذا لم تجعلها تزور مقام الضريح الذي نعمت في رحابه؟ أنت جاحد آ سي الكبير.

. الله يعمرّ قلوبنا بالله. سجّل آسي الباشا، أتعرّض للسب أمامكم.

. من فضلكم، لا نريد سباً. جئتم للشكاية، وها نحن نستمع لجميع الأطراف.

. السيدة كانت ستزور ضريح سيدي محمد بن قاسم بي أو بدويني. عندها توصية من فقيه كبير زارته بسيدي علي بن حمدوش حتّها على زيارته. لم أكن سوى المرشد للطريق. وبالمناسبة، فقد بدأت بزيارة ضريح سيدي مولاي إدريس وجعلت بركة مهمة في صندوقه قبل أن تطلب الذهاب إلى هناك. كان وفدها ينتظر انتهاءها من الأولى حتى ينطلق إلى ضريح سيدي محمد بن قاسم. وقد استفاد من بين الحاضرين هنا من بركتها كذلك.

يعلّق آخر وقد انتفخت أوداجه واحمرّت مقامات خديّه:

. تعلم أن بركة الولي مولاي إدريس هي التي تحفظ البلاد والعباد. إذا ابتعدنا عنها ماذا سيحل بالمدينة وسكانها؟).

لم يجبه سي الكبير. كنت جالسا خلف الباب. يتابع مصطفى المحربي حكيه ، أمنع أي زيارة مفاجئة أو اقتحام لمكتب السيد الباشا. وكان طيف وخيال المتكلمين يرافق صوتهم الذي يخترق متسربا من الداخل.

. سيدي الباشا إذا رأيتم ما قمت به مخالفا لشيء ما، أحكموا عليّ بما تشاؤون.

يرن الهاتف في قاعة الاجتماع، يسود صمت كبير حتى إن الرنات بقيت لوحدها تطرب الأذان. بين فضول الحضور في جلسة باشا المدينة وهمهم في حل مشكلة اليوم مع سي الكبير، كان رد السيد القائد على المكالمة إذعانا وخضوعا وتلبية لأوامر:

. نعم سيدي. أوامرك هي الأولى. لا... السيد الكبير يجلس معي الآن. كل ما يحتاجه من مساعدة ودعم نحن سنقوم بتيسيرها له. وأعيان البلاد يبلغونك التحية والسلام ويباركون لك الصحة والعافية... حاضر سيدي... تحياتي.

. لقد بلغكم السلام من الجهات العليا. ويؤكدون على أن السيد الكبير لم يخالف شيئا أو يقلل من احترام لمقام الضريح. تلك كانت رغبة السيدة التي هي مقربة بنسب ومصاهرة لهم. أرجو أن ينحبس المشكل هنا ولا يتطور أو يؤوّل لشيء آخر. شكرا سي الكبير على مجيئك وعتذر على إزعاجك. إلى اللقاء. سيادنا أعزكم الله. تفضّلتم فشرّفتمونا بهذه الزيارة المباركة والميمونة. أتمنى أن تكون في مناسبة فرح وخير لنا جميعا. مكّتي مفتوح دائما لاستقبالكم. وكونوا على يقين أنكم إذا كبرتم المشكل ستصبح له قيمة أكبر وأخطر من حجمه ويصبح لما تخشونه حق وقوة. ليس هناك قانون يحكم في كل هذا. اللهم رغبة الناس.

~

لم يكن للسي الكبير أعداء بين المشتكين للسيد الباشا. كثير منهم تصاهروا مع عائلته الكبيرة، وكثير منهم رافقوه في رحلات العيش اليومي والسفر وأوقات العز والشدائد. لكنها المصالح التي تفرق حتى بين الإخوة. هذا الإرث الروحي الذي يجمع الجميع. آلاف الناس ترتبط مصالحهم ببركة الولي الطاهر مولاي إدريس، رغم محاولات النيل من بركته ومنافسات إقليمية وغيرها يبقى هذا الضريح هو المفضل عند سلاطين الدولة العلوية. قد تكون الغيرة حاضرة عند أفخاذ أخرى وشجرات نسب مغايرة، لكن الكل يعلم قيمته وقوته التاريخية، بدليل استمراريتها وتقويتها مع السلطان مولاي إسماعيل.

لهذا، حين خروجهم من مكتب السيد الباشا كان اللوم والعتاب، وكان الدفاع عن حسن النوايا في الفعل والقيام. كما كان الاستفسار من طرف خصومه في الشكاية وطلب معلومات منه:

. ألا تعلم من كان المتصل بالسيد الباشا؟

. هو يعلم أن إغضاب الشرفاء سيكلفه منصبه.

يجيب سي الكبير على تساؤلات من هذه الشاكلة:

. اسمعوا أعزكم الله. أنتم أعيان البلاد ومقامكم فوق هذا المستوى. ليس لمجرد كون سيدة أرادت التبرك بسيدي محمد بن قاسم سيجعلكم تثورون هكذا. أنا على يقين ومنكم من يشاطرنى الرأي بأنها لو عرضت على أحدكم الرفقة لسارع مهرولا لتقديم خدماته لها. أنت مثلا آ سي حسن، كم من مرة أخذت الزوار إلى بيتك بدل الضريح، ولم تأت بهم إلى الضريح إلا بعد أن انصرف الجميع بعد انتهاء صلاة العشاء، مدّعا بأن بركة مولاي إدريس يجعلها لمن يزوره في أوقات خلو المقام من خطو الأنام. كم من مرة فتحت وأغلقت لك الأبواب. هل سألتك لماذا أو كم جنيت؟

سأبقى ساكتا. الصمت حكمة. أما من اتصل بالسيد الباشا، فذلك شأنه والأمر أكبر من مقامي المتواضع. أنا مجرد خديم للشرفة الأحرار. لكن يبدو أن السلطات العليا تبارك خطوات هذه السيدة وزوجها خصوصا. المسألة فيها الانتخابات التي ستأتي في شهر شتنبر. وكما تعلمون أمور السياسة تلك شؤونكم أنتم أدرى بها. لكنني حر في حياتي واختياري، لن تفرضوا عليّ هذه المرة أن أنخرط في حملتكم.

. لماذا آ سي الكبير؟ يسأله سي حسن.

. لقد برهنت تجاربكم الماضية على فشل الخطة وضعف الحزب إلا ما كان من تجربة سي نبهان*، هو الوحيد الذي أعاد لكم العز للحزب والمدينة. أما هذه المرة فالمنافسة تبدو أكبر، وما أظن أن السيد نبهان ولا الحزب قادران عليها الآن. هؤلاء الآتون يمتلكون نقودا كثيرة لا يقدر على عددها إلا من يمتلك دار السكة. لو رأيتم تلك السيدة بجليها وحقيبة نقودها وسيارتها اللتين رافقتها لغيرتم فكرة الدخول في انتخابات باسم الحزب القديم.

. طيب آ سي الكبير، اضرب لنا موعدا للقاء مع زوجها أو معها، لعلنا نقتنعهما بالمشاركة معنا.

تلتفت الجماعة النازلة منحدر الطريق من حي خيبر وإدارة السيد الباشا إلى منبسط ساحة السوق المؤدية إلى مقام ضريح مولاي إدريس، في اندهاش للسيد حسن ولهذا التقلّب في الرأي وطلب التوسط ممن كان طرفا خصما في شكايتهم للسلطات، من طرف السي حسن.

كان السي حسن زعيمهم الاجتماعي والثقافي في نفس الآن. سليل أسرة توارثت أمجاد السياسة والنفوذ خلال عقود كثيرة، وبقدر ما تسببت لهم في أعداء أكسبتهم علاقات هرمية رفيعة المستوى إن على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو السلطوي. وطبعاً، كلمته كان لها وزنها خلال مشاوراتهم مثلما

*- شخصية أخرى موجودة في جزء من هذه الملحمة السردية باسم السيد نبهان.

هي تضحياته بالغالي والنفيس من أجل الإبقاء على راية حزبه وزيادة بعض الأعيان داخل مدينة مولاي إدريس زرهون.

. سي حسن، أنا تلقيت مكالمة هاتفية من العمالة، من موظف بها وليست لي علاقة بأصحاب الحال. يمكنني أن أعطيك رقم هاتف الموظف إذا أردت. أنت ترى كيف كان السيد الباشا يطأطأء رأسه مع سماعة الهاتف.

يحملق فيه السي حسن حلقة حيرة وريبة وعدم ثقة في جوابه. يؤجل التأكد من كل هذا إلى حينه المناسب.

. على العموم التزكية للانتخابات هذه السنة في البرلمان انتقلت إلى اسم آخر داخل الحزب من قرية سيدي علي. أسرة كبيرة وعريقة ورفيعة في الحزب هناك. لا أدري إن كان سي نبهان سيرضى بذلك، خصوصا وأنه يمثل الحزب داخل قبة البرلمان لحدود الساعة. الانتخابات المحلية السابقة لم نحصل فيها على أغلبية، لذلك خافت المركزية الحزبية من ضعف نفوذنا هذه المرة في الانتخابات. بمعنى مسألة واحتمال ترشيح آخر ولو كان (بُوسْبَع) كله فلوس مسألة مستحيلة الآن. وسي الكبير يلعب بالنار إذا أراد أن يخرق بها له ذلك. يمشي الناس لحاهم ويبقى مقام الضريح هو الأبقى والمعول عليه. إذا أردت العبرة آسي الكبير.

تقترب الجماعة من ولوج ساحة السوق، ويسودها صمت جليل لا تترجمه ابتساماتها وهيئاتها المتبخثرة داخل جلابيها المفضضة. بينما عامة الناس

تحتار من أمرها. هي على علم بما وقع: (ولكن، كيف صعدوا إلى
(البيرو bureau) مكتب الباشا، متخصصين، ونزلوا متوادعين؟).

سؤال سيحرك الفضول وخيوط النيش عن حقيقة ما وقع. وكل له طريقه
المختصر لتجميع المعلومات.

~

بينما كان مصطفى المقدم ولد سي العربي المحربي يتابع حكيه، كانت استنتاجات آبا الساحلي تختلط مع ضحكاته الخافتة، كأنها تعترض على مسار الاستنتاجات التي يمكن أن تنتهي إليها وتخلص إلى نهاياتها أخبار سي مصطفى. وحينما أشفت الجماعة غليلها من فضول الأسئلة والاستعلام، التفتت إلى آبا الساحلي الذي بدا لهم منشغلا بتنظيف جعبة السبسي مما علّق داخلها من " ريق الكيف" كما يسمونه. هي حركة لم تكن بريئة في جلها حيث إنه أطل الانشغال. فاجأه صوت نجيب العوفي بالسؤال الملغم:

. آبا الساحلي، نسيت أصحابك وغرقتي في أشغالك. ما هذا؟ سي مصطفى يحكي وأنت ما أنت هنا. وإيلي، الله يهديك آبا الساحلي.

. الله يهديك آهيا ذاك. وحتى أنت آهيا ذا. إذا كانت النية صافية وسي الكبير غير مسخر، علاش كان الفقيه بودومة يأتي خلال هذه الأسابيع؟ علاش مّي الهوارية رايجة جاية؟

. وا ناري... هاذ با الساحلي خطييبيبيير. واو. . يقتحم صوت العربي الشركي دائرة الانتباه المستغرب للجماعة.. ماذا يبدو لك آسي مصطفى؟ المخبرات ديال الباشا ما فهمت شيئا في الذي جرى ويجري.

. ابا الساحلي في رأسه ما لا نعرفه. الغريب أنه ولو واحد من الجماعة المشتكية انتبه للأمر. حتى السيد الباشا حينما سألنا لم نستحضر مثل هذا الأمر.

. الفقيه بودومة أرسله السي الكبير، وامي لهوارية حتى هي كذلك. الخبر عند مول الإسفنج. دير بالك آه ياذا ولد الخير، القضية كبيرة أكثر من جذبة الحال.

يتم ابا الساحلي جملته، يستجمع قواه للوقوف والانصراف، فالليل قد غرقت فيه أسرار النهار، والشمس الجديدة للصباح تحتاج لاستعداد حواس الأنام لاستقبالها:

- تنحى جانبا آسي الشركي، اترك الغربي يمر ويخفف حرارة الطقس!

تتعالى فهقات مرافقة لاندھاش الموقف وانجاس الحوار الذي فتح تساؤلاته المفيدة في تحليل ما وقع. الكل يعلم أن تسمية الشركي ولو أنها تعني الشرقي نسبة إلى الشرق، توظف في نعت الريح التي تهب من الشرق فتكون منذرة بجمرة مفرطة وجفاف ربما، بينما الغربي يدل على رياح آتية من جهة الغرب وتحمل بشائر الشتاء مثلما بوادر نسيم ربيعي رطب بعدها... لكن المفارقة اختلطت مع الحيرة في فهم ما يقوم به السيد الكبير البارودي، وما سيأتي به خلال الأيام المقبلة. ورغم كل هذا، كانت لعبة أبا الساحلي الكلامية تعتبر انتصارا في الجولة الأخيرة لهذه الليلة الصيفية. كان ضحيته

فيها والذي ربما ستعمل الجماعة على مباحثته فيما بعدها، هو السيد العربي الشركي. وليتذكر الجميع اللازمة:

- تنحى جانبا آسي الشركي، اترك الغربي يمر ويخفف حرارة الطقس!

مقام محسن الشامي

يستغرب الجميع للتقطيع الانتخابي الذي تخضع له مدينة مولاي إدريس زرهون وجبل زرهون معها. تضم الدائرة جزءا من مدينة مكناس التي تبعد عن مولاي إدريس بحوالي 24 كيلومترا، كذلك منطقة ويسلان وبعض المدن الصغيرة في الطريق بين مكناس ومدينة فاس. يتساءل بعضهم في استغراب عجائبي ساخر عن طريقة استحداث هذا التقسيم إن كانت تتم عبر تقطيع خريطة مرسومة بواسطة الساتلايت والصور الفضائية، حتى نتحدث عن اختراق التضاريس المانعة للالتقاء بين منطقة جبلية وأخرى سهلية لا جغرافياً ولا ثقافياً. وحينما تكون الانتخابات، يكون الجري وراء سراب في تباعد بين كتلتين غريبتين عن بعضهما البعض. هكذا ملّ المحرّبون هذا التقسيم الذي لا يضمن تمثيلية مستمرة للمدينة داخل قبة البرلمان، خصوصا وأن عدد الناخبين داخل دائرة منطقة زرهون لا يشكّل إلا جزءا قليلا من العدد العام. هكذا فأبي مرشّح تبتيغيه الدائرة نادرا ما ينجح في الانتخابات البرلمانية

من مثل نجاح المرشح الاتحادي أواسط ثمانينيات القرن العشرين، وهو نجاح أرجعه الجل إلى تحيّدٍ مرشحٍ ووزيرٍ سابقٍ ادّعى بأنه سيشتري الزهانة في الانتخابات كأنهم بلا كرامة وكأنهم أمعاء جائعة تنتظر من يطعمها، فكان أن انتقم من تصريجه جل المصوتين صوتوا ضده.

كان السيد نبهان من بين المجريين والعارفين بلعبة السباق نحو كرسي في الغرفة التشريعية. هو الآن في اختبار جديد، بين الحزب الذي تشرف بالانتماء له والترشح باسمه، وبين المنافسة الجديدة داخل الدائرة وداخل نفس الحزب. قوة المال والنفوذ لها وقعها وتأثيرها وحضورها. لكن منافسة الانتخابات تكون فرصة الجميع لتصفية الحساب مع الجميع. كذا فرصة الأشخاص للانتقام من أشخاص بما ملكت الأيمان وبما استطاعت إلى ذلك سبيلا. ستكون الانتخابات رسما للعلاقات وتشكيلا لها ولتحالفاتها كذلك. هي شجرة زيتون بركانية تتقد بنورها لكي تعيد توزيع الاستحقاق بين النعيم والجحيم. يشعر فيها الفرد بأن الأوان قد آن لكي ينتفض وينفض عنه غبار الزمن الاجتماعي الذي علقته معه أحجار وتشعبت في دواخله أشواك تجرح الأنفاس.

ذلك ما رآه عبده ولد ابّا علال، الطالب الجامعي مع زمرة رفاقه من طلبة المدينة والذين تباينت رؤاهم حول التجربة الجديدة لانتخابات 1997. إنما الأمر الغريب والجديد على جماعة الطلبة الراضة للدخول في هذه الانتخابات

التي تراها عدمية وبدون جدوى ديمقراطية حقيقية في تضمّن مطالب جماهيرية شعبية، تجلّت في موقف محسن الشامي.

يعتبر محسن الشامي أحد الأفراد المتنورين داخل مجموعة رفاقه الجامعيين. وقد مثل جيلهم تميزا مغايرا بين من سبقوهم ومن أتوا بعدهم كطلبة. تعددت تخصصاتهم وتنوعت ثقافتهم وبرزت أعلامهم في الدراسة الجامعية سواء في سلكيها الأولين أو في مدارج التعليم العالي المرتبط بالدكتوراه. لقد حمل في وعيه الفكر الشيوعي والآخر التحليلنفسى. كان يبحث عن تفرد واستقلالية وقوة للذات بين وديان الخوف التي تربّت داخلها الذات المغربية. هكذا كانت قراءاته فريدة وخطيرة، زعزت أركان ثوابته الثقافية وكذا تلك التي عند أصحابه. فما كان يقرؤه سيترجمه بلغته وطريقته الخاصة لمحيطه وأصحابه حتى يقنعهم بالجديد ويقحمهم فيه. وهي عملية تفكيكية استفادها من دراساته الفلسفية واللسانية والتحليل . نفسية. منهج هدم تفكيكي أخذه عن جاك ديريدا.

لم تكن جماعة الرفاق لتدرك سر هذا التآلق وهذه القدرة على التوفيق بين عوالم معرفية متنوعة. توفيقٌ أخذ من فلاسفته مدة قرنين وما يزال يبحث له عن توازن. إنّما المقربون في علاقة الرفقة من محسن، وخصوصا حميد ولد ابابوشعيب، يدركون أسراراً أخرى موجهة لشخصية محسن الشامي. فشاربه الذي اعتنى به من جديد وأعاد صقله على نموذج الرسام الإسباني سالفادور

دالي، بدأ يخلق الاستغراب كما التميز لهذه الشخصية الآخذة في التحدي لمُعْناد المدينة.

رغم انتمائه لشجرة نسب فقد كان دائم التوتر حين ذكرها وحتى في علاقته معها. سرّ موقف جعله يبحث عبر مسار دراساته عن شخصيات انتمت إلى الطبقة البروليتارية في نضالها وهي في الأصل من طبقة بورجوازية وغنية. وهو سرّ كم من مرة رفضه أصدقاؤه، معلّين ذلك بكون الطبقات الاجتماعية في المغرب ليست هي مثيلتها في الغرب وأوربا على الخصوص. هناك، إقطاع ثم بورجوازية بمعالمها وليبراليتها، وماذا عندنا نحن؟ ما تزال الطبقات التقليدية تتوالد بلبوسها القديم رغم امتطائها السيارة بدل الدابة أو الناقة. ما تزال عقليتها قروسطية وخرافية غير متحررة ولا متخلقة بأخلاق البورجوازية بمفهومها المعاصر. ليس عندنا صراع طبقي تاريخي واضح المعالم كما هو في أوربا مثلاً. وحتى التحالفات لا تخضع لمعايير موضوعية معاصرة بقدر ما تخضع للعلاقات القبلية والمصلحية الضيقة. أمثلة كثيرة تعاقبت في النضج والاستثمار خلال العقود الثلاثة من علاقة الصداقة التي تحوّلت نوعياً، خصوصاً مع بداية واستمرار التعليم الجامعي العام والعالي...

العملة التي أراد محسن الشامي صهرها من جديد هي عملة المقدس. محور اللعبة كما يراه في تحليله. ثالثه كما درسه عند بوعلي ياسين، هو الثالث

المحرم: الجنس والدين والصراع الطبقي. مفاتيحه التي عمّقتها وعيا وتحليلا خلال دراساته المتنوعة والغنية.

لقد قرر السيد محسن الشامي التقدم للانتخابات باسم إحدى الأحزاب اليسارية، وهو الجديد الذي فاجأ الجماعة الرفاقية. فبعد أن كان شبه اتفاق بينهم على عري الحياة السياسية من كل روح ديمقراطية حقيقية ومن كل ضمانات نزاهة تفعيلية، ها هو محسن الشامي يخلق المفاجأة كما الصدمة. جلسات التبرير والتفسير والتأويل لاختياره كان يكتنفها الغموض خصوصا في الجانب الذاتي المتعلق بالرغبة في خوض المغامرة. وحده حميد ولد ابابوشعيب الذي كان على دراية بحقائق الأمور الشخصية عند محسن يدرك ما يجري من دوافع ذاتية وشخصية ونفسية. حتى عبده ولد ابا علال لم تكشف له صداقة عمر مع محسن خبايا الصراعات الأسرية القديمة التي أفرزت مثل هذا الموقف.

كان لا بد لعبده وغيره من رفاق درب الحياة الطلابية أن يستعينوا بحميد في استفسار وتفسير الأمر. وهل كان سيقنعهم محسن بالدخول في اللعبة والتصويت فيها؟

إنها جماعة صداقة يراها الثلاثة على الخصوص من زوايا مركبة دقيقة. فالنداء والألقاب المستعملة بين أفرادها، أمور تسجّل سخرية صهر الواقع الاجتماعي والثقافي وكذلك الشخصي معهما. في كم من مناسبة يُسمع نداء (ولد ابا

كأذا أو كذا)، علال أو بوشعيب أو غيرهما. تصنيف يؤطر الجيل السابق في تقادم ويجعل الجيل الجديد عاريا أمام اللغة وأمام الواقع وأمام العلاقات الجديدة داخله. بمعنى آخر: من تريد أن تكون؟ نسخة طبق الأصل لمن سبقك؟ أم شخصية جديدة؟ من سيُشكّل شخصيتك الجديدة؟

أسئلة عرفت محاضرات كثيرة في تحويل المقروء والوعي الجديد معه إلى مواقف وتحاليل تخضع لها الذات كما الجماعة. وكان الثلاثة هم رواد هذا النقاش وهذا التفكيك اللاشعوري للشخصيات. طبعاً، كان أخطرهم في اقتحام قلعة الممنوع وطرق أبوابه بأسئلة من فولاذ مدمر للأبراج ومقدساته هو السيد محسن الشامي. لكن هذا الخوض في تجربة الانتخابات جعل الثلاثة أمام مرآة جديدة ليست كصفحة الماء التي عرفهم عليها السيد عبده أو محسن حين تقديمهما لقصة الوجه والبحيرة و عقدة النرجسية المتشكلة فيها...

~

19

مقام روح امي الهوارية

بينما استمر الفقيه بودومة على عادته في زيارة وقراءة ما تيسر من آيات القرآن بجوار ضريح سيدي محمد بن قاسم، حتى إن قراءته على مقابر الموتى والترحم عليهم أصبحت في الغالب تتم في المقبرة القريبة من عين بوسعيد ومن سيدي احمد بن قاسم، كانت الحياة اليومية الجديدة لأمي الهوارية قد جذبتها للحى والدور المحيطة بالضريح.

لكن الموت المفاجيء الذي باغتها في أواخر شهر يوليو غيَّب لوحة نسوية وصوتا استأنست له أطلال الضريح وأرواحه، مثلما غيَّب ذاكرة مجترحة من هذا الفضاء العام.

و قد تعددت التأويلات من طرف الساكنة، وخصوصا من طرف نساء الحى، حتى إذا انتقلت الروايات إلى أحياء أخرى أضافوا لها من توابل الخيال

ما يعطيها تفرّداً للراوية ولثقافتها وسلطتها في الكلام والحوار. جعلها البعض متمنية للموت والتبرك بالضريح والحي.

انتقلت رواية طلبها للدفن بجوار هذا الضريح. أخرى جعلتها محاورة بالليل لسيدي احمد بن قاسم، حيث يخاطبها من وراء حجاب البناية فلا ترى شيئاً سوى نوره وهواء عليل يعم أركان البناية وجوارها مختلطا بنسيم زهر وورد وياسمين وبكل أنواع البخور الزكية عطرة الرائحة.

إلى جانب الأعين المتربصة بأسرار امّي الهوارية، وتلك التي كانت متعطشة للاستحواذ على ما جمعه من أموال، كانت روايات وجود نقود طائلة في تلايب أثوابها المزركشة أو في دفنها لها في جوف قبر الضريح...

لم ترتح روح امّي الهوارية حتى بعد انقضاء الثلاثة أيام المخصصة لتفريق حزنها بصدقة تذهب كل التبعات عنها. فقد كانت الوليمة التي جعلها سي الكبير في الهواء الطلق، والتي حضرها أيتام وفقراء ومساكين إلى جانب من كانت نيتهم صافية مع الله في الترحم عليها بجوار الضريح من سكان الحي، بداية لحكايات منسوجة جديدة. فمن جعلها ملكة للجن جديدة وقد تزوجت بملك الجن الساكن في حلقة ليل قنطرة عين ولبلي، ومن جعل الوليمة من طبخ الجان ومن استحواذ سي الكبير على بركتها المالية كما على بركتها الروحية بتسخير الجن له في أدعيته ومباركاته... غنى روايات تزامن مع موسم مولاي إدريس زرهون الذي يقام كل سنة. مناسبة أتاحت للسكان أن تشرع

لخيالها ما دامت ستستقبل ضيوفا وحجاجا للموسم يقدر عددهم بالآلاف، فلا بد لها أن تعطي للمكان ولأهله شرف الاطلاع والمعرفة بالغرائبي الخارق للعادة. وهو ما أسعفتهم به امّتي الهوارية بموتها واستمرار الفقيه بودومة في ما يقوم به من قراءات. هذه القراءات التي لم تعد خاصة بأرواح الموتى ولا للقرآن، ولكنها أصبحت في اعتقاد الساكنة والسامعين للرواية مخصصة بمحاورة الجن ومفاوضتهم في شتى أمور !

تطورات أحداث وحكايات أعطت للسي الكبير وللفقيه بودومة قوة أسطورية خارقة ستعمل على تشجيعهما في تحقيق مبتغاهما. ولكن الثمن سيكون جدليا، ربحا وخسارة، كسبا وفقدانا، ما دام رد الفعل منذ بداياته بين مؤيد ومحيد ومعارض. ما دام البعض سيتضرر من سياسة سي الكبير في علاقته مع ضريح سيدي احمد بن قاسم.

مقام مزركش

تمّ تأجيل الانتخابات التشريعية إلى شهر نونبر، وهو ما أمهل الكل لمزيد من الاستعداد والبحث عن تحالفات وكسب لمؤيدين وأصوات. فألوان الأحزاب المرشحة نزلت كطيف شتاء مزركشة على خريطة المدينة والسكان والعقول. كلُّ اختار حزبا ولونا. وكلّ أراد تصفية حساب أو بحثا عن مصلحة جديدة. قد تقف العين على لوحة فضائية وصورة مأخوذة بالساتيلايت فتعكس سطوح المنازل بثقوب حلقاتها المربعة، وقد تعكس لون كل حزب على بقعة سطح من هذه السطوح، فتعطيك لوحة مشكلة ومعقدة. تلك ستكون مدينة تدب فوق خيط الزمن على إيقاع انتخابات وترقص على وتر مرشحيتها.

هكذا ستتحوّل مجموعة من الأحياء في المدينة إلى نشاط جديد. وإن كان جو المواسم الأسبوعية قد وسّع من دائرة الاهتمامات اليومية والثقافية للسكان فإن تميز بعضهم باستضافة ضيوف خاصين وعقد لقاءات وولائم في البيوت وبداية تصفية حسابات السياسة مع مكونات الأحزاب بالمدينة، كل هذا

أعطى حياة جديدة كما أجل تصفية أخطائها ومحاسبة أشخاصها. وكل مصالحه في كل ما يقع.

ما يزال منزل السيد نبهان* يستقبل عائلة المرحوم الحاج حمدان، الأسرة المكناسية ذائعة الصيت والغنى. أما منزل الحاج إبراهيم*، فما يزال يحافظ على تقاليد المرحوم الحاج إبراهيم الذي وافته المنية يوم جمعة من سنة 1990. عائلات من مدينة مكناس وفاس وسلا والرباط، كلها تتشرف بالإقامة في المنزل الكبير. الرياض بباب القصة. بينما يهتم ولداه بتوفير لوازم هذه الإقامة وتكون نساء المنزل مُلحّات في الحفاظ على السُنّة التي استنها كتقليد المرحوم الحاج إبراهيم في إقامة ليالي الملحون برياض باب القصة.

عائلة الحاج إبراهيم لم تفتتها كما لم تشغلها شؤون السياسة ولا الانتخابات رغم علاقة القرابة الموجودة بينها وبين أحد المرشحين المنتمين للشجرة الأسرية والذي يعوّل على امتداد فروعها بمولاي إدريس لكي يكسب أصواتا وينجح في الانتخابات. هو قَسَمٌ والتزام أعطاه الأبناء للمرحوم الحاج إبراهيم قبل

•- إشارة إلى كون شخصية السيد نبهان تشكل محور اشتغال جزء آخر من ملحمة سيرة مدينة ونسيج حياة. وهي أيضا عنوان لهذا الجزء.

•- الحاج إبراهيم، شخصية أساسية في رواية باب القصة، عرفت معها سيرته تحولات مهمة في تاريخ المدينة والساكنة في فضاء مولاي إدريس زرهون في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين. كما ان شخصية السيد نبهان تشكل محور رواية (نبهان) والتي تركز أحداثها على مرحلة الثمانينيات من نفس القرن.

وفاته. درس تاريخي ما انفك ينقل إلى الأولاد مع كل وجبة مستحضرة للموضوع: (فماذا جنى الحاج إبراهيم من تاريخ المقاومة والمشاركة فيها؟ اتهام بالعمالة لا يجرؤ على استحضاره لأولاده وأحفاده ! استحواذ غرباء على بطاقات المقاومة وادعاؤها أمام الناس، بينما نجد المقاومين الحقيقيين كتموا أصواتهم حتى لا يتم التشكيك في شجاعتهم ونبلمهم وحبهم لوطنهم!).

المال والفن والدين والتربية والتقوى، هذه خماسية عائلة المرحوم الحاج إبراهيم إذن. بينما كانت ثلاثية السيد محسن الشامي تحترق واقع المدينة بالتحليل والتشكيل والتفسير، وهو الطبيب النفساني الذي اشتغل بعد مناقشة دكتوراه الدولة في قطاع العدل فكان مستشارا قضائيا في تخصصه اضطره إلى دفع استقالته منه كمنصب حتى يتفرغ للانتخابات على أساس من المراهنة على العمل في القطاع الخاص في حالة ما إذا رسب فيها.

كان حميد ولد ابابوشعيب رفيق محسن خلال هذه الفترة، خصوصا وأن جل الأصدقاء إما خارج المدينة في عمل أو في سفر. وبقدر ما كان حميد صاحب خبرة واستشارة بقدر ما كان صاحب احتياط وحذر من التلاعب بذكائه وصحبته. كان واضحا منذ البداية في أنه لن يزكي محسن الشامي كما لن يشارك في حملته الانتخابية، خصوصا وأنه يعمل في إدارة رسمية ويحافظ على التوازن في العلاقة بين المكونات الحزبية داخل البلدة. ورغم أن المنافسة تمتد

خارج دائرة جبل زرهون، وهو ما تسلّح به محسن من أجل إقناعه، إلا أنه صارحه بالعبارات البيّنات واللآءات المفسرات:

. أختصر عليك طريق الفهم والإفهام. وسنبقى أصدقاء دائما كما كنا قبل الانتخابات وبعدها. ربما لم تصرّح لي بدافعك لهذه الانتخابات، لكنك كما تعلم أنني أدري بك منك. تريننا معا، وتزاورنا معا. وطعام أمك هو طعام أمي... كل هذا حاضر. لهذا فإقدامك على هذه التجربة دون جدوى:

أولا، أنت لك دافع شخصي وليس بموضوعي. مشكل الأرض القديمة التي اغتصبت. وما شاربك إلا سيف ذو منقارين تريد أن تغزو به رمز الأرض. ربما ترشّحك مع هذا الحزب دون آخر يأتي ضد من التي أخذ منكم الأرض الفلاحية.

ثانيا، عندك نرجسية ساحقة تريد أن تحرق كل العلاقات وتزعزع استقرارها لكي تبني العلاقات التي تبني ما يتماشى مع هواك ومصالحك. وأستسمحك إذا تعسّفت عليك في هذا القول، فأنت تمتلك من العلم ما تسخّره لما تريده. وما مرآتك التي وجدتها وأحييت استعمالها والوقوف يوميا أمامها إلا من ذلك السحر الذي تشتعل به نرجسيتك كزهرة لوتس محتضنة للهباب نار فوق الماء. أظنها ثقافتك التي استفدناها منك، ولن تعارضها كتحويل لشخصيتك.

ثالثا، لقد سطّرت هدفك من اختيار الحزب. وما قرابتك العائلية داخله سوى دافع شخصي للمضي في مسار جديد ترقى به مهنيا وثقافيا واجتماعيا.

في النهاية لا فرق بينك وبين هؤلاء ما دمت لم تنطلق من برنامج عام سياسي واختيار تاريخي تذوب فيه شخصيتك من أجل المبادئ التي تشاركناها جميعا كأصدقاء في الجامعة وفي درب النضال.

يندهش محسن الشامي لهد الهجمة غير المعهودة من طرف صديقه، يغيّر الموضوع في المناقشة، كما يقترح أن يذهبا لتناول كأس قهوة بالمدينة الجديدة مكناس.

لم تكن الصداقة القائمة بين الطرفين تنحصر في اللحظة الحاضرة للمناقشة لموضوع الانتخابات. كل واحد منهما يكتمل بالآخر، هكذا كانا يراجعان مجموع المحطات الحياتية والأخطاء الصادرة عنهما، مثلها مثل باقي البشر. جلد الآخر أمام وجهه خير من سلخه في ظهره. وحميد ولد ابا بوشعيب يتميز بصراحته وبشجاعته وقوة شخصيته بين أصدقائه، وليس مع محسن فقط بل مع باقي أفراد الجماعة. لقد كانت تربية ابا بوشعيب له وإخوته وأخواته قاسية وجدية وصارمة منذ صغر سنهم. اعتمد على أكتافه كما يقول المثل الزرهوني. ساعد أباه في تجارة الخضر وهو ابن خمس سنوات. حمل صناديقها بين الشاحنة التي تأتي بها من سوق الجملة بمكناس والدكان بالسوق المركزي بمولاي إدريس. جرّب بيع الأكياس البلاستيكية من أجل توفير ثمن حذاء رياضي أو تكلفة الذهاب إلى المخيم الصيفي مع الجمعيات أو مع أصدقائه حين كبره...

بين حميد ومحسن مفارقات كبيرة في الشخصية والسلوك. فالأول لا يهमे الشكل في اللباس دائما. مرتاح في ألوانه وماركات لباسه وارتدائه. قد يشتريها من السوق الأسبوعي أو من الألبسة المستعملة، يقيسها أمام الملاء... أما الثاني، فقد كبرت معه روح التباهي والتأنق والتألق. وكلما تطورت إمكانياته حاول جعلها ظاهرة في فاخر الثياب أو الأحذية أو النظارات... هكذا يتعاشر صديقان وتمظهر المفارقة للناس باستغراب بينهما ومنهما.

كانت المرأة التي سببت لجد محسن ذلك الأرق والشحوب والهلوسة وانحيار التوازن بسبب أرض لعنة تكتمت الأم والجدة عليها حتى لا تثير الفضول ولا تزوبع كيان الوجدان بسبب حرقه الماضي الذي لا ينفع في استحضاره. لذلك كان التعامل مع محسن نسبيا ومتحفظا في مواجهة سلوكاته الجديدة. فالنسبية حاضرة عند النساء في كون ما وقع في الماضي له أسبابه المباشرة ولا علاقة له بالمرأة. أما الآن وقد عاد هذا المشاغب بأفكاره كما بخيالاته الشبائية ثم الشخصية البارزة المعالم في مرحلته العمرية هذه، فإن المسألة بدأت تزعج أمه كما أقربائه الذين يستشعرون بجدسهم مخاطر ما يقع.

أم حميد وزوجة أبًا بوشعيب تمتلك بعض خيوط للحكاية، لكنها لا تتكلم عنها إلا تلميحا. تخاطب ابنها فتقول حولها:

. يا ابني الأفضل لشاب مثل محسن أن يشتري مرآة جديدة. القديمة تكون حاملة لآثار غير مرغوبة ولا مناسبة. (ماشي مزيان). مثل ثوب قديم قد

يحمل جراثيم وأوساخ.. انصَح صاحبك بالابتعاد عنها. الأشياء القديمة، الله يستر، تكون مسكونة بأرواح الجن، غير مطمئنة.

قد يجد حميد كلام أمه مبالغاً فيه. يعارضه معارضةً جيل تعلم في الجامعة لعقلية التصقت بها الأساطير والخرافات، وكان تعلمها محدوداً في الكتاب وأوليات القراءة والكتابة... لكنه حينما يتابع سلوك صديقه وابن حيّه يومياً، ويلاحظ تباهيه أمام المرأة، بل وجعلها يطار جديد وزخرفة جديدة، وكيف بدأ اشتغاله على جسده أمامها حتى مع ممارسة الرياضات في كمال الجسم، راكم تحليلاً سيكتمل فيما بعد ويعطي نتيجة تفسر هذه الترجسية التي نمت عند محسن وأصبحت أنانية في التعامل وأولويات الاستفادة في المعاملة والمصلحة... وكأنه فيلم درامي سيرتبط بالجسد والمال والمرأة وشهوات الحياة... حينما يسمع حميد من صديقه محسن أو من أهل الحي مقارناتهم بين شخصية الجد والحفيد، وحينما يفتخر محسن بذلك التباهي فيقول كل مرة: (هكذا كان جدي رحمه الله... حتى هو عزيز عليه الضخامة والأناقة والولائم وحب النساء)، قد يجيبه حميد بالحديث الشريف مبتسماً:

. حبّ إلي من دنياكم الطيب والنساء.

لكن التنويه بالحديث لا يعني سلامة التعليق. فيعقب حميد على صديقه من جديد:

. لا تنس أن تحليلك النفسي الذي تعشقه كديانة يجعل التركيز على الشهوات كأساسيات حالة مرضية كبتية. وأنت لست النبي العدنان. (ههه). ما رأيك؟
. فهمتك. أنت تزرع القنابل بين خطى محاورك حتى تفجرها فيه. دنيا واحدة يجب أن نعيشها جيدا.

يتحوّل الحوار إلى أمور أخرى. فالرسائل والإشارات تكون كافية لكي تفعل فعلها بتدرج في نفسية كل واحد منهما. والتأثير يكون متبادلا بينهما.

لكن ذروة التأجج لهذه المعالم في شخصية محسن ظهرت مع ترشّحه للانتخابات، وكأن أصدقاءه قد وجدوا فصله بين مرحلتين وجعله قطعة بينهما: مرحلة المبادئ المشتركة ومرحلة ممارسة القناعات الشخصية وتصفية الحسابات الذاتية. بين الموضوع والذات كان اختيار محسن لهذه الطريق ترجمة لحقيقة السياسة وأخلاقها وحقيقة النفس وروايتها الغرائزية. ذلك ما رآه في مرآته ربما والتي ما تزال تلهمه بفيح زهرة اللوتس التي شَبَّه بها صديقه حميد.

مقام الجير

في منتصف شهر غشت هذا من سنة 1997 انتهى الحداد على امي الهوارية، واصطفت الحكايات الجديدة المنسوجة حولها مع تلك التي تقادمت في ذكرها. أصبح الليل قصيرا في سويعاته بالمقارنة مع ساعات النهار، والحرارة تكون متقدة وشمسها حارقة ولافحة.

هو يوم خميس، يوم فأل في ثقافة المدينة والمسلمين. اختار سي الكبير أن يأتي باكرا إلى مقام ضريح سيدي محمد بن قاسم. وحيث إن المدينة بأكملها تكون على استعداد لأسابيع مواسم الفرح والاحتفال والتعبد والاستسقاء، وكلُّ بحسب نيته في القصد والزيارة والموسم، فإن ما بادر للقيام به هذا الصباح اعتبره البعض عاديا. قال آخرون ربما هي عدالة التفاتة لهذا الولي الصالح الذي يرقد منذ عقود كثيرة، يريد بها سي الكبير الأجر والثواب. خاف آخرون من أن يكون قد مسّه جنٌّ، وتكون هذه بدايات للخرف والهلوسة والخروج عن صواب السلوك. وكل استنتاج أو تأويل يفتح معه أصحابه صفحات فرجة وانتظار أحداث في المشاهد المتقطعة داخل الحياة اليومية لهذه المدينة.

لكن سي الكبير في هذا الصباح كان منشغلا بهمّ آخر. فقد جاء على غير عادته على متن سيارة (بيكاب)، يرافقه فيها سائق ليس من أهل المدينة. لم يتعرف عليه أحد من الحضور. كما يرافقه سي أحمد الحلامي، المعلّم الجيار، بقصبتّه وسطله ولوازم مهمته. كان عدد المستيقظين قليلا، بعض نساء خرج أزواجهن أو أولادهن للعمل في الحقول والبساتين أو لنقل الرمال من المقالع أو الحطب من الغابة. بعض رجال قلائل في مرور بجوار الضريح أو في اقتناء للوازم الفطور من الدكان الوحيد الموجود بالقرب منهم. روائح فطور شهية مع نسيم الصباح البارد نسيبا تخرج من النوافذ القريبة من الضريح. الشمس وقد أطلّت من علياء الجبل الأخضر فأرخت بأشعتها الأولى على سطح قبة الضريح.

بدأت الاستنتاجات طبعا مع رؤية سي أحمد الحلامي. لقد جاؤوا لصباغة مقام الضريح بالجير.

مقام النار البيضاء

يظل اسم (حدهوم) لقبا مستعصيا على الفهم والشرح. اختلج اللفظ. الاسم مختلف الحوارات والخيارات وأشكال التفكير الداخلية عند الساكنة والمعارف. كما ارتبط بحبي سيدي محمد بن قاسم كاسم فريد وأوحد لا تجد له نظيرا في أي مكان إلا ما كان من تسمية (أمي حدهوم) لسيدة بحبي (ابن يازغة) كذلك.

لعبة الأسماء ثقافة في الحكيم والتحاور. إذا أصاب أحدهم الأرق، قام بجولة ذهنية داخلية تنقله بين الدروب والمنازل والأسماء، فتتمظهر معها أطراف الأشخاص بأسمائها في استعراض موسوعي، وقد يخترقون ليله في حلم يقظة أو ارتباط بذاكرة أو ذكريات...

هي الآن في سنها الثاني والستين تقريبا، لكنها ما تزال صلبة العود لم تتمكن منها هشاشة مفاصل أو عظام ولا بدانة مترهلة. وشمته الخضر الداكنة خط صغير يفلق ذقنها تحت شفتها السفلى. أنف مستقيم وحاد حدة عينيها الحجليتين. أما صوتها فسرّيع النطق والتتابع للكلمات. تلايبب "منصورتها"

دائما مطوية لحدود ركبتيها حتى تبقى حرة الخطو والحركة. وقد استطاع الحاج القلعي أن يوفر لابنه البكر ولزوجته سكنا فوقيا يقيه مع أمه (حَدُّهُوم) التي لم ترد له ابتعادا عنها: (سي احمد، عود من أمه، وإخوته وأخواته أوراق منه).

في محطات لاختبار الذاكرة والأسماء، وخلال مراحل إقامته الجامعية بمدينة فاس، كان الطالب الجامعي (عبده) دائم الاختبار لأصدقائه ورفاقه، لكي يجللوا هذا الاسم . اللقب. وقد كان محسن الشامي حينها صديقهم الذي يفوقهم عمرا كما مراحل دراسة. كان قد أنهى دبلوم الإجازة الجامعية ودبلوم الدراسات المعمقة وابتدأ في التحضير لدبلوم الدراسات العليا، وكانت حظوظه ميسرة وميسورة في كل مرحلة لكي يلج سلكا جديدا أرقى دراسيا. ولذلك كان محسن نموذجهم المقتدى، وفألهم المحتذى. ومحسن الشامي هو صاحب التأويل وخبير التحليل النفسي. كل مرة يطلع عليهم بغريب التفسير. لذلك بقيت تأويلاته لاسم (حدهوم) من أفضل ما يمكن حمله كفهْم، ولو كانت أمِّي حدهوم لا تعي مقصودهم، وطبعا ليس لأجله سماها أهلها بهذا الاسم:

. هي المنتهى من كل شيء والمقصود في كل شيء. لو اطلعنا على شباهها، لكانت قضيب خيزران، وعيناها شعلة بركان، وقوامها رشاقة حور عين...

كانت الجماعة بقدر ما يجلو لها سماع هذه الأوصاف المثيرة، بقدر ما ترجع باللوم على محسن الشامي في تحليلاته الذاهبة إلى جذرية اقتلاع للأفهام وزعزعة لثوابتها:

. لو سمعك الحاج لقلعي لقطّعك أطرافا، وشواك أجزاء، وسحل جلدك ومضغ لسانك ورماه لقطّه الأشهب.

يستحضر المكان ذاكرة الأشخاص، وحديثهم عن بعضهم البعض في ذكرى الغياب.

في هذا الصباح الباكر، خرجت (أمّي حدهوم) بمكنستها المصنوعة من الدوم، متتبعة ومقتفية أثر الأثرية والغبار الذي دفعته خيوط الدوم الرقيقة، تنظيفا للمنزل ولبابه الخارجية.

كان القط الأشهب جالسا قبالة المنزل فوق حرف السور المنحدر بين الزنقة الآتية من مقدم الضريح إلى مؤدى طريق قنطرة عين ويلي المنبسط كطريق صغير معبد تفترق منعرجاته بين اتجاهات كثيرة كباب الرميلا أعلى الجبل أو مسبح الحامة وما يليه كاتجاهات.

تسمية القط عند أمّي حدهوم هي القط الأعور، رغم أن عينيه سالمين من كل حادث مأساوي ومن مغامراته التي لا يخبر بها أحدا. إنما السبب هو ارتماؤه في أحد الأيام على ساقها تاركا خدوشا جارحة بأظافره التي انزلقت

مع انتهاء المغامرة. كان قصد القط الأشهب هو القبض على خنفساء تدبّ فوق درج الهبوط بين السور وباب المنزل، وبفعل المسافة الطويلة التي اختارها في الارتقاء، ربما عجز عن إنجاح قفزته وإصابة هدفه فتعلّق بساق أمّي حدهوم، وربما لكونها سريعة الحركة وقد رمت ساقها في حركة أمامية جعلت القط الأشهب يتفاعل مع الحركة الأسرع في اللعب والمشاكسة... من سيفسر للآخر؟ القط الأشهب جعل سيقانه موهوبة للريح في هروب من صراخ أمّي حدهوم ومن ردّ فعلها الذي يعرف حجمه عقابا. أما هي فقد كانت متحكمة في المشهد منذ بداياته، وكيف انتفخ وبره وتهاى بساقيه الأماميين وطوى الخلفيتين، وكيف نصب أذنيه و جنح بنواصي شاربيه مكشرا عن أنياب تحن إلى افتراس نمر لغزالة أو ذئب لحمل صغير... طوال النهار لم يصله منها من بعيد سوى صوتها وولولتها:

. الاعور الاخر. ما ينفع حينما نحتاج إليه. نقتل الفئران والحشرات بشطابتنا... أين يكون هو حينذاك!؟

من يومها، سمّته بالقط الأعور أو بالأعور مباشرة وباختصار. تُرى، هل ساحتها على فعلته؟ لم يكن القط الأعور على يقين من ذلك. لذلك كان في هذا الصباح الباكر، جالسا بمسافة ومتابعا لطقسها اليومي سريع الحركة.

بعد انتهائها من عملية الكنس بسّمت باب المنزل الكبير وأخرجت سطل الجير بشطابة الدوم المغطوسة فيه. حدقت بمهارة في تجميع الجوانب الخارجية

للجدران والمؤدى المرتفع للزنقة الجانبية المطلة على منحدر الجبل الشامخ الذي تعتليه صخور ضخمة تحتوي كهوف الحمام الطوي مُعْتَى ابا الساحلي، كما بعض أنواع من الطيور والغربان، والتي تتصارع فيما بينها للبقاء على قيد الحياة وألفة المكان.

تقف امي حدهوم لهنيهة لتستريح. تتأمل بصمت الجبل الذي يسكنها نَفَسًا، لا جديد يوجس الخاطر أو يقلق البال. تلتفت فجأة لصوت محرك سيارة شحن صغيرة (البيكاب) مكشوفة الخلفية، والتي رست أسفل السفح بجانب الطريق المعبد الرقيق والمقاوم لعوامل الاقتلاع لجوانبه.

ما انتهت منه من طقس نظافة وتبييض يبعد عالم الحشرات والجراثيم عن محيط المنزل، رأت معه معالم لباس جيار معروف لدى الساكنة. ارتاحت نفسيا لرؤية عُدّة ومهمة تشبه مهمتها شبه اليومية.

تعلم امي حدهوم أن نظافة المجال ونقاوته مهمة صعبة التحقق، يلطخها الأنام والحيوان والفوضى في الاستعمال. عينها تتصوران الآن البياض المتقد للحجير، النار البيضاء كما استخلصتها كتسمية في يوم من الأيام (نار تطهر). هو غريب الكلام الذي لا تحدّث به إلا القريبات من جاراتها. النار البيضاء، الطهارة البيضاء، البركان الأبيض... كلها أوصاف لهذه المادة الحاضرة والضرورية في الاستعمال. وقد تعلق امي حدهوم فرارا من الاستمرار في نفس الكلام:

. دعونا من هذا الكلام الغريب، قد يظن الناس أننا مسكونات بالأرواح والعجائب.

وإذا كان هذا الصباح هادئاً في طقوسه المعتادة فإن صوت المحرك ورسوّ السيارة قد أثارا الحواس والخلائق. أذنا القط الأعور وقد انتصبنا. طفل صغير بكسرة خبزه وبدون سرواله وقد انفلت من باب الجيران. بعض النوافذ وقد انفتحت تبسّمًا بأجنحتها. بينما اقترب بعض الصغار أسفل الحي من مدار حركة القادمين في هذه السيارة وتنزيل طاقمها للوازمهم ومعداتهم منها.

هناك من اكتفى بالمتابعة البصرية مسجلاً الحدث وأوصافه، وهناك من تقدم بالمساعدة في إنزال خشنة الجير وجفنة إطفائه وبرميل الماء والسطلين وأشياء أخرى اكتشفها خلال المساعدة.

. أش بغاؤ هاذو؟ ماذا يريدون فعله؟

سؤال امّي حدهوم حرّك بصوته الأسماع وأخرج بعض جارّاتها اللاتي التحقن بها كأنهن قد بدأن السؤال والجواب قبل اللحظة في سمرديّة يقظة ونوم.

تطلّع الرجل الطويل بلباسه المربّع بألوان الجير والصبغة إلى مدار الحي المترامي الأطراف بيناياته وتضاريسه الوعرة بين حافة الوادي والمنازل المتعايشة مع صخور الجبل بين ثباتها وتحولها وانزياحها. كما تطلع إلى اختبار الملامح، وأولها ملامح امّي حدهوم التي تشبهه في جحوظ العينين والقامة الطويلة

والنحيفة. كان الجيار كما يعرفه سكان المدينة ككل هو المعلم أحمد الحلامي. هكذا بصم الحي تسجيل شخوص الحدث في بداياته. يتطلعون إليه وهو المعتر والمفتخر بمهنته والمدرک لأهميتها وقيمتها.

الجير ببياضه فأل خير وشفاء، مادة مطهرة ومنظفة للجدران والمنازل كما للأشجار والنباتات وجلود الحيوانات المستعملة وخليط أدوية تطهيرية... هكذا هو مختبر الثقافة الشعبية الزهونية، وهكذا هي تجربتها... وهكذا هي شخصية الجيار، وبالخصوص جيار تقليدي لا يميل إلى استعمال الصبغة العصرية وتقنياتها وموادها وأدواتها.

ركزت عينا المعلم الحلامي على أعلى الطريق، تجاه بناية الضريح. انتقلت معها أعين المدركين بحس سؤالهم إلى نفس نقطة الجذب. أجابت الحركة بدل الكلام عن فضولهم وأعطت النظرة الجواب لقوس هذا الصباح.

نم صوت مفاجيء من وراء شباك نافذة بدون ظهور المتكلمة به:

. غادي يجيروا سيدي محمد بن قاسم؟

. والله أعلم، هاذشي اللي بان لي.

تجيبها امي حدهوم دون أن تراها، فقط صوتان متحاوران، الثاني مصدره ظاهر والأول مستتر. وتتحول الأعين إلى أجهزة تفحص للبنية، تقيس درجات حاجتها للتجيير والتنظيف. تتساءل حول وضع أعلى السطح

والقبة، وحول دواخل جدرانها. ودّت لو أنّها أعطيت لها فرصة ومدة زمنية لكي تقوم بهذا الافتتاح حتى تعطيه كبطاقة تقنية تحضر لورش الجير والنظافة لبناية الضريح.

تعالت أقواس الاستفهام بارزة من جديد كأنها أسهم مترافضة لنبات الصبار بين الرؤوس، لكنها علامات تشوير للآتي من الكلام:
. يعلم الله كيف هو حال الضريح من الداخل؟

سؤال يمتطي صهوة الريح فلا ينتظر جوابا لأن الجواب سيكون مع المعلم الجيار حين ولوجه له. هذا الولوج الذي زاد من دقائق طبول نبضات القلب وضغط الدم وولولة خفيفة ترقص على حروف الكلام فوق حبل اللسان، لسان نساء الحي.

كانت الجفنة أول ما أحدث وقعه الصوتي نافضة من حولها أثر الأتربة غبارا متطايرا على جوانبها. بقيت خنشة أو كيس طوب الجير مغلقة إلى أن جاء المعلم الجيّار بسطلي الماء من (السقاية) الصغيرة الموجودة غرب الضريح. ذلك أن اتجاه القبر يكون شرقا، وبابه جاءت على حافة قدميه، تاركة له مسافة الاستقبال لكل زائر.

كمية الجير كانت متطلبة لوقت مناسب حتى تنحل وتنطفئ بعد تفاعل كيميائي نتجت عنه حرارة وبخار ماء. تلاشى البخار مخلفا وراءه مسحوقا

أبيض لزجا وناعما في نضاعة بياضه، وقد تشكل سائلا كلبن جبر أبيض. وخلال تلك المدة، تفرغ المعلم الحلامي لتقشير الحيطان الأربعة المحيطة بالبنائية، تاركا مهمة السطح المحدودب في أضلعه الثمانية المتناسقة في التقائها على أعلى قمته هندسيا، إلى ما بعد الانتهاء من الأسهل.

بقي السُّلم الخشبي منتصبا ينتظر من ينقله من جدار إلى جدار آخر و من يمتطيه صعودا. وبينما المعلم الحلامي في مهمته الأولى التي أرسلت بأصواتها بداية عمل مقدس ومبارك ارتبط بولي من أولياء الله الصالحين . ولي يا ما لجأت إليه القلوب الضعيفة طلبا لشفاء أو إذهاب ألم أو إبعاد خوف وشر أو تقريب بعيد وحبیب . كانت بعض نساء الحي تفكرن في نوعية القرى والإكرامية التي ستقدمنها للمعلم الجيار . بعضهن كنّ في انتظار ما سيقترحه رب البيت أو فضل نفقة وطبخ هذا النهار.

تعالى غبار وتناثرت أتربة متكلسة كصفائح رقيقة كانت تغطي جدران البناية من الخارج وتتساقط بسهولة بفعل حرارة الصيف التي وقّت معها البناية من لهيها. فهذه "النار البيضاء" برد وسلام على المختبئ داخل جلبابها. هكذا هو قياس دورها وطقسها عند المعلم احمد الحلامي الجيار كما عند امي حدهوم التي تعلم أن تجيير جدران المنزل من الخارج يخفف وطأة الحرارة الملتهبة لفصل الصيف.

الطقس الذهني للمعلم الجيار مستقر من كل سفر فكري أو خيالي. تدخين الكيف لم يبدأه بعد حتى ينتهي من المرحلة الأولى من تجلية الجدران مما تكلس من أتربة وغبار.

كانت مناداة أمي حدهوم على طفل الجيران مصطفى ولد أمي يامنة، إيذانا بانطلاق أحداث نهار خارجة عن المنزل ومرتبطة بعملية تجيير ضريح سيدي محمد ابن قاسم.

انطلقت إذن صينية الفطور الأولى، وكانت بصمة أمي حدهوم هي الخطوة المباركة لنساء الحي. من فوق (السلوم). بمنطوق أهل البلدة لكلمة السلام أو السُّلم. أمر المعلمَ الطفلَ الصغير كي يضع الصينية بعيداً عن الغبار وأن يتركها مغطاة إلى حين انتهائه من المسح والإزالة الأولى للأتربة.

وكانت الاستراحة الأولى للمعلم أحمد الجيار على درج مطحنة الحبوب المغلقة منذ مدة. اتخذ طقس تناول الخبز المبلل بزيت الزيتون والمغموس فيه حتى تقاطره دوره قبل شرب كؤوس الشاي التي تُراقص بصوتها المسامع حين ملئها، كما تُراقص نغمات راديو المعلم الجيار مؤنسةً له في العمل ومحاربة ملل ورتابة اليومي المرتبطة به.

وهو في نشوة استنشاقاته الأولى المرتبطة بتدخين الكيف، أطل عليه الفقيه بودومة محيياً له وطالبا منه إسكات صوت الراديو حتى يؤدي طقس قراءته مما تيسر من الذكر الحكيم ترهما على الضريح. طلبُ أوقف الوتيرة الطبيعية

لصباحيات المعلم الجيار وأثار حوارا متنافرا بين الطرفين، كل واحد منهما اتخذ داخله نَهْرًا خاصا لسباحته.

أوقف المعلم الجيار صوت الراديو ليس تلبية لطلب الفقيه بودومة، ولكن احتجاجا على طلبه. طالبا منه كي يذهب إلى المقابر خلف قنطرة ويلي ويبدأ بموتاتها حتى ينتهي هو من صباحه ومهمته. لم يُجبه الفقيه على طلبه كما لم يعارضه. اتخذ له مسلكا وطريقا إلى المقابر طالبا السلامة من كل ابتلاء: (الله يعفو علينا).

ما تثيره عملية تنظيف كل شيء قديم هو ظهور عيوبه وأعطابه المختبئة. ذلك أن التبليط الجديد بالجير لن يكون سليما ما لم ترمم تلك العيوب. والمعلم الحلامي جيار وليس ببناء. احتجّ مُعلما صوته ومسمعا الأذان المتدنية بدبدباتها:

.الضريح كله مشقوق وانتم تفرجون عليه منذ مدة. تنتظرون سقوطه ! الكرمة نابئة وسط الحيط؟ وا العجب هذا !

تشبت ساعدها بفرع الكرمة الثنية . فروع شجرة تين مستوحشة . الخارج من الجدار الجنوبي للضريح . حاول معهما اقتلاعه فتساقطت بعض لبنات الآجر متتابعة كما بعض الأحجار محدثة وقع صوت هدم وغبار . وجاء التعليق الذي لا يجبه المعلم الجيار من أحد المارة، لكنه لم يجبه عليه. بقي صامتا ومتأملا وضع الجدار وطريقة إصلاحه الممكنة:

(. اضرب الجير واترك الكرمة. كلّ ولي له شجرته المباركة).

حملق فيه المعلم الجيار ولم يجبه. تركه يبتعد حتى لا يعكر عليه صباحه ويزيح نشوته من مخدر الكيف الذي بدأت معه أنغام طرب إبراهيم العلمي في الراديو كما في طناطن رأس ولسان المعلم الحلامي مغذية مسامعه وذهنه، وهو يردد مع كورال الأغنية:

يا اللي صورتك بين عيني

كيف يدير قلبي حتى ينساك

حتى ينساك...

و كل يوم يترجاك...

فجأة كان خروج الحاج القلعي زوج امّي حدهوم. استنفار استدعته آخر معلومات الصباح وحدث الأجر المتساقط. وجد أحد شباب الحي واقفا بجانب المعلم الحلامي، مُصدرا اجتهاده في الإتيان بجبل وربطه بفرع الشجرة . الكرمة، وجره بواسطة بغل الحاج القلعي. تدخّل الحاج القلعي بحكمة العارف والخبير:

. تريدون هدم كل شيء بفهمكم هذا. وإياكم ونزع الخشبة الموضوعة عرضا بين الآجور وأحجار البناء. ستكون مصيبة عليكم ولعنة. سيقول الناس:

المعلم الحلامي خزّب الضريح (مشى يطبّه عماه). هي هذه. اعملوا على قطع فرع الكرمة بمنشار ودقوا مسمار العشرة فيها.

نادى الحاج القلعي على ابنه البكر سي احمد استعدادا وتحضيرا لعملية الترميم. وجّه الابن السؤال للمعلم الحلامي:

. من قال لك أن تجيّر الضريح آ الحلامي؟

. السي الكبير. حتى يأتي ونرى هذه المصيبة. أنا جيار ماشي بنّاء ولا فلاح.

تعالى صراخ الأطفال والحضور من هنا وهناك. فجأة اعتلت مجموعة من النساء السطوح المتفرقة بينما خرج بعضهن لأبواب المنازل أو أطل من النوافذ. كان الاستغراب مع سماع نوع الصراخ:

. حنش... حنش...

ترأى الحنش بلونه الرمادي اللامع ونقطه السوداء والبيضاء، مخترقا شقوق الجدار إلى أعلى وقد تسارع رشقه بالحجارة، الأمر الذي أبعده المعلم الحلامي مهرولا إلى زاوية بجانب الطاحونة أسفل الضريح.

نصيب الحنش حين ظهوره سيكون شبيها بظهور واكتشاف وجود لص في سوق شعبي أسبوعي أو فأر في عرس ققط. يترك الكل ما بين يديه من

اشتغال، ويعوّل على ما يساعده على محاربة العدو لخوف النفس أو لخوف على الصغار في اللعب أو على المنازل في الاختراق كذا الدجاج والأرانب.

أشهرت الهراوات الطويلة التي استطاعت إسقاطه من أعلى الجدار الجنوبي، وكانت مهارة الرمية بحجرة صماء من طرف محمد ولد أمي حدهوم هي القتالة له، حيث هشمت رأسه وتركته ممددا في الساحة الجانبية، في مشهد للفرجة البطولية التي اختلط فيها الشعور بالانتصار شعور بالخوف. فإذا كان الانتصار للجماعة البشرية، ماذا لو كانت للحنش قبيلته وعشيرته؟ ماذا لو خرجت لتنتصر على الأنام؟

هناك من رأى في المسألة رمزية غضبٍ أو لعنة الولي على هذا الضجيج وهذه الرغبة في ترميمه وتجييره. خوف من أن يحاسب الجميع على نقص النية في العمل. ذلك فعلا ما دار في النفوس. ربما لم يستطع البعض منهم الجهر به لكون المقدس قرين بالحمل بين الحلال والحرام.

لم يحتج الأطفال إلى استشارة ولا إلى انتظار تفكير الكبار وتخوفاتهم. تسابقوا بإيعاز من محمد القلعي إلى إشعال النار في فرع الشجرة المخترقة للجدار. تعالى دخان أسود بفرقعات غريبة وكأن قبة الضريح معمل بخاري يعمل بزيت نفطية. طال المشهد ومعه الفرجة فسمع صوت منفلت من نافذة منزل:

. ناري ناري... الطنجرة احترقت.

كانت أمي يامنة قد غفلت عن مطبخها وكان نصيب ما أعدته لوجبة الغداء قد احترق فوق نار طهيه.

بينما اخترقت الضحكات الساحة المحيطة بالضريح غرق المعلم الجيار في صمت كئيفه ورائحته الخضراء وكأنه بعيد عن كل ما حدث ويحدث، منتظرا مجيء من كان سبب تورطه في هذه المصيبة الصباحية. خاطب نفسه (والله لو أن إدارة الأحباس كلفتني بتجيير ضريح مولاي إدريس ما كنت لأقبل عرضك هذا. لكنني في حاجة للعمل ولقمة عيش...).

أين هم أصحاب المقامات الليلية بضريح سيدي محمد بن قاسم؟

لا أحد استحضرهم الآن. وكأن همّ النهار مستقل عن همّ الليل. ربما سينضاف إلى ملفات حكيمهم وسهرهم فيجد تفسيراً آخر لم يستطع أصحاب النهار فكّ الغازه؟ أما ابا الساحلي حكيمهم هذا، فقد توارى عن الأنظار وعن الحضور خلال هذا الشهر من الصيف مع اقتراب مواسم المدينة. لا أحد من أصحاب البلدية كان حاضرا مع المعلم الحلامي هذا النهار. يشعر بعزلة داخل ضجيج اليقظة الآن. ماذا لو افتقر لمادة الكيف. من سيمدّه ويسدّ خصاصه؟

فجأة لاحظ أن السائل الذي أفرزته فروع الشجرة ورش جلده قد ترك بقعا شبيهة بجروقات جلدية. صرخ وأرغى وأزبد وتهدّد وتوعّد. أصابه هلع وفرع وألم ووجع. لم يعلم كيف تقاطرت عليه المصائب، وأكبرها أن تكون لعنة

الضريح هي أهمّها وسببها. من بعيد علّقت أمي حدّوم في همس لم يسمعها
معه أحد: النار البيضاء فيها وفيها !

مقام عباس الوردى

صعود امي حدهوم لسطح المنزل يأخذ طابع مهام منزلية في الغالب. أخلاقيات المدينة ارتبطت بهذا التوظيف. صورة المرأة في الثقافة المجتمعية تتمطها داخل هذه الوضعية نسبيا. بسطت الحصير البلاستيكي ونشرت فوقه حبوب القمح التي ستبعث إلى المطحنة، حتى تجف من رطوبة الأكياس المكدسة أسفل المنزل.

تقف مهيمنة على مشهد الحي الممتد إلى أعالي حي الظهير وإلى شعاب عين ويلي وسقايتها. كما تكون الطريق الآتية من باب الرملة آخذة خطا متوازيا وتموجا في منحرجات مع خط الطريق الآتية من القنطرة حتى أسفل الجهة الجنوبية للضريح، أما مشارف الضريح فهي الطريق الآتية من داخل أحياء المدينة ومركزها. بينما خلف المنزل مرتفع طريق أو مجال إلى أعلى الجبل وكهوفه الصخرية المعلقة حيث مقام الطيور والحمام... بين زرع ونباتات

المنحدر يتوزع سرب الدجاج الذي يقوده ديكها الأحمر الزاهي والمتباهي
ببطولاته الذكورية.

حين امّي حدهوم غابر في ذكريات الزمن، تستحضره شعيرة التسمية ذاتها.
فهي آخر مولودة في أسرتها ورمز لوضع حد للظنون وللهوموم. كيف لا وقد
كانت الأنتى الوحيدة داخل أسرتها بما انتهت به ولادات أمها من ذكور
سابقين عن ولادتها. مات جلّهم ولم يبق إلا اثنان منهم فقط. لكنها لم تحرم
من أخوات وإخوة في الرضاعة. وما يهمّ الآن كل هذا. ليست ملكا لنفسها
الآن. هي محراب حياة الحاج القلعي وأولادها وأحفادها. أما مشهد وقائع
ضريح سيدي احمد بن قاسم لهذا اليوم، فلم يكن ليثير فيها استغرابا، ما
دامت تدرك أن هناك شيئا يقع خلف كل هذا. خارج النيات الصافية.

وهي في شرودها الذهني طلعت سيارة رباعية الدفع، سوداء اللون، لامعة
المعدن، قادمة تجاه الحي وراسية بنفس مكان وقوف السيارة التي أتت بالمعلم
أحمد الحلامي. طيف رأسها الذي احتفى بظل العمود الإسمنتي البارز في
زاوية سطح المنزل وسوره، يتابع بتربق الجديد الآتي مع هذا المشهد.

لم تحفّ ملامح سي الكبير عن امّي حدهوم، كما علاقته بعملية تجيير
الضريح. خصوصا وأن اسمه ارتبط ببعثه للطالب بودومة من قبل، وامّي الهوارية
الله يرحمها، وزيارة السيدة بالطبل والغيطة للمقام... كما أن امّي حدهوم
تعرف شخصية سي الكبير كخادم لضريح مولاي إدريس وللمتبركين بدعائه

في مقامه... إنما التساؤل سيكون حول المرافق له. قطّبت حاجبيها من أعلى، بينما صعد من أسفل الطريق شخص غريب تجاه الضريح.

بقي السائق واقفا بجانب السيارة الفاخرة، مستعينا بظل معصرة الزيتون الممتد اتساعا جهة الشرق بينما منظر الجدار المشقوق والمخترق بأثار حريق متبقية ومتعالية مع الشرخ، بادٍ للرؤية من أسفل الجهة الجنوبية. من هذه الزاوية فقط يمكن للإنسان أن يرى ما ذكر، بينما الجهات الأخرى الثلاث تبقى عادية في المشاهدة وهي الأكثر تداولاً للرؤية عند عامة المارة والراجلين.

صعدت كنتها، زوجة ابنها، هي الأخرى لسطح المنزل. وبينما هي منشغلة بنشر غسيل الأطفال تحت سماء هذا الصيف التي بدأ نسيم عليل يخفف من لهيها تقيئا بظل طبعاً، إذا بها تسمع تساؤل حماتها:

. شكون هذا المربوع الذي جاء لسيدي محمد؟

بقامة متوسطة وعريضة، وبدلة زرقاء فاتحة اللون، وقميص أبيض مفتوح الأزرار العلوية، وسلسلة ذهبية تلمع من بعيد، ومن أعلى السطح تبدو لها في انعكاس مع أشعة الشمس ساعته اليدوية كذلك بارزة حول معصمه مع خاتم فضي عريض بماسة سوداء على بنصره الأيسر، صعد إلى جهة الضريح وقبّل إحدى زواياه وسلّم بتحية شفوية على المعلم الجيار الذي انتهى لتوه من تنظيف الجدران من أتربة الجير القديم وغيرها.

كان الحاج القلعي جالسا أمام الضريح فوق أقرب مصطبة بجانب الدكان الصغير المفتوح بجانب الطريق وأمامه كومة الرمل، التي استحضرها ابنه محمد في العربة اليدوية، مختلطة بأتربة الجير التي غربلها من الحصى. بجانبها كومة أحجار صغيرة متراصة ووحدات آجر مصطفة مما تساقط من الجدار. مشهد يوحي بأن الورشة أصبحت للبناء أكثر مما هي للجير أو للصبغة.

. الحاج القلعي، السلام عليكم.

. وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

كان رد الحاج القلعي على سلام سي الكبير من مقام جلوسه متأملا مقدم الضيف الجديد مع سي الكبير. بادل نفس التحية مع المرافق وأخذ الكلام والحوار من الثلاثة ضروب مواضيع كان أساسها حب السيد عباس البلوري للبلاد وأهلها ولمقام ضريح سيدي محمد بن قاسم. وما دام جزء من حقيقة الشخص هو هويته وامتداده المجتمعي والثقافي، فقد أخذت التفاصيل المتأنية في الحوار صبرها لكي تنسج للحاج القلعي من هو هذا الضيف الآتي مع سي الكبير.

انتقل الحديث بين الثلاثة حول موضوع ترميم الضريح وتجييره. أبدى المعلم الحلامي تمنا ورفضاً للاستمرار في المهمة الموكلة إليه. ترجاه الجميع للصبر ولإكمال ما بدأه (في وجهه وخاطر الساكنة الذين يحبونه).

تفجرت في أحمد الحلامي روايات غريبة تسكنه بالخوف والرعب من مثل هذه المهام. استحضر الضريح الذي تهدمت قبته كلما بنيت، كما رفض عالم الجن إزعاجهم في عوالمه. تطير من الجدار المشقوق واعتبره شؤماً وإنذاراً، وازى ذلك فرع الشجرة وإحراقه وخوفه من تفجر جذورها دماً أو من رائحتها سحراً قاتلاً. اعتبر خروج الحنش دليلاً على رفض الولي المقيم بالضريح لما يريدون القيام به. ولا تلك البقع التي ظهرت على جلده بسبب ذلك السائل الذي قذفته فروع الشجرة العالقة بالجدار، كانت حدثاً استغرب له الجل رغم أن بعضهم يعلم سرّ الأشجار في حمايتها لفروعها ممن يعتدي عليها. راهنهم بسؤاله:

. لماذا لم يخرج الحنش إلا عندما أراد الحلامي تجيير الضريح والبنية؟ حتى إن ألوانه ليست بألوان حنش عادي. لو رأيتم كيف قاوم قبل أن يحكمه ولد اباً القلعي بضربة قاضية. كيف هز رأسه كأنه يريد الصراخ ومعانقة السماء؟ لم يطر مني فعل الكيف مثلما وقع اليوم. أتريدون أن أصبح ممسوساً بالجن، مجنوناً؟ أنظروا إلى جلدي وسواعدي... هل هذا شيء عادي عندكم؟

خاطبه الحاج القلعي:

. هل ترى تلك الصخرة الضخمة هناك تحت القنطرة؟ هناك ترقد صيفا أفعى ضخمة وملونة مثل تلك التي توجد في (دروج الحافة)، تأتي مع جدار القنطرة وتنشر جسدها ليلا بحثا عن رطوبة الوادي وسقاء مائه. انظر إلى كهف الحمام الطويي أعلى، هناك ثعبان كبير بلحيته يتصيد كل يوم ما يريد من الطيور. ثم إنني سأقوم بسد ثقب الجدار، وما عليك سوى استعمال شطابة الجير من الخارج.

. والضريح من الداخل، من سيجّره؟

. ههه... إذا خفت من دخوله، سندعو نساء الحي لتحديقه ورشّه بالقطران.

. تعبرني آ الحاج القلعي. أنت عارف الرجولة ديال المعلم الحلامي وشجاعته.

. أمازحك آ المعلم. أنا يا سيدي سأبقى معك طول اليوم حتى تنتهي. سأجعل

صلاّتي في زاوية الساحة هناك. بقيت على خاطرك؟ أعلم أن (الثُّمن • ديال

الكيف) هو الذي تخاف من ذهابه. سنحضر لك (بطّاقة) منه واعة...

يتدخل السيد البلوري مازحا ومحاولا فهم حقيقة الأمور:

• نشوة الكيف وتخديره. والبطّاقة هي رزمة مادة الكيف مدقوقة ومعدة للتدخين.

. في الحقيقة، حتى أنا خفت من هذا الجدار والكلام الذي قلتموه... ألا يمكن أن يسقط بعد ذلك؟

كان الرد من امرأة فوق سطح منزل الدكان الذي اتخذ الحاج القلعي مصطبهه لجلوسه هذ اليوم ومباشرة ورشته:

. لا تخف. إن الضريح يرد العدى عنا في كل شيء. منذ سنين والجدار مائل. اللهم إذا غضب الولي. حتى الحنش ليس برانيا ولا غريبا. يأتي من المطحنة الفارغة هناك ويعود إليها... لكن حظه اليوم كان سيئا.

ضحك الحاج القلعي الذي رغم كبر سنه ما تزال نواجده ناصعة البياض وعيناه بارقتان بحبوية حياة، رغم تمكن التجاعيد من صلابة يديه الكبيرتين والدالة على كفاح عمل ووقع تاريخه في الوجود الذي ترك آثاره على صفحتيهما. عقود من العمل والكفاح بين وضوء الصباح لأجل صلاة الفجر ومقبض الفأس للفلاحة أو لأشغال البناء، جعلت قوتهما يضحك لها كذلك شباب الحي الذين يمازحونه فيها نكتة، وبالخصوص حميد العوني الذي حكى له قصة الشكاية التي تقدم بها أحدهم للقائد ضد من ضربه. اتهمه بضره بمجردة. لما نفى المتهم، وقال له ضربته بيدي فقط، قال له القائد:

. دعني أرى يديك.

حينما رأهما قال للكاتب: سجّل أنه ضربه بمجرفة ! . ذلك أن يديه قويتان مثل صفحة معول أو مجرفة.

يكون الحاج القلعي في جل الأحيان بطلا في ذاكرة الساكنة وشهاداتها، والمفضل على كل تاريخ الأحجار الصماء التي تغازل ثقافتهم الشفهية واختياراتهم في الحكى. ما يسمعونه منه وما يبينه بيديه يبقى موقعا دائما باسمه. جل البنائيات في الحي تستشهد للحاج القلعي بانتمائها له: (دار فلان التي بناها الحاج القلعي قبل سنين)... هكذا هي شخصيته ومكانته بين سكان الحي.

يعود الابن البكر للحاج القلعي للخروج من المنزل، بين بياض وشيب أبيه وسواد شارب ابنه، كان سي احمد مُدكّرًا بالقوة البدنية للحاج القلعي أيام شبابه، وكأنه أمام مرآة مرحلة عمرية يانعة ويافعة في حياته وقد ولّت فانتقلت إلى الابن الذي تسلّمها مهمة وأمانة وسيرورة وحفاظا على السلالة البكر. بطوله وبصوته الجمهوري وقدرته على حمل أثقال أو زعزعة أحجار ضخمة، كان إلى عهد انتقاله من صبي ومراهقة شباب إلى رجولة ومسؤولية زواج، قد يلاعب الصغار، لكنه قد يغضب من إفراطهم ومغالاتهم فيه وتحويل اللعب معهم إلى لازمة يومية في النداء. كلما مر بقرب جماعة صبيان يسمع:

. هيركوووول...

قد تنفعه حجارة في تخويفهم، وربما قد يصفع أحدهم إذا بالغ وتجاوز حدّه... كل هذا ولى الآن.

لا يهم الحاج القلعي انفلات أولاده عن ناظره وابتعادهم لمهام حياة في أماكن أخرى. هناك المهندس الفلاحي (سي علي) والذي لا ييخل على أسرته وعلى والديه حتى إنه بعثهما إلى حج وعمرة زيادة في الرضى، رغم أن أمي حدهوم ترفض نعتها بالحاجة، رادّة بصرامة على من يناديها:

. أو لم أكن مسلمة قبل الحج؟ لا أحتاج إلى لقب (حاجة) أمام الله تعالى .

أما باقي الأولاد، فقد اختار أحدهم مهنة الخياطة، بينما الثاني خرج إلى بلاد المهجر بأوربا. البنت الكبيرة متزوجة الآن منذ سنين بمدينة سيدي سليمان. أما الصغيرة فما تزال تنتظر حظها في الزواج، وهي التي ستحضر قصعة الكسكس للجماعة لكي تتناول غداءها بعد أذان صلاة الظهر طبعاً، رغم أنه يوم خميس وليس جمعة حيث الكسكس وجبة المغاربة المفضلة. ربما بركة الولي وترميمه وتجييره تريد الكسكس الذي سيعتبر صدقة جارية مرتبطة بهذا اليوم وأجره.

بايعاز من سي الكبير، جعل السيد البلوري خمسمائة درهم في يد المعلم الحلامي كتسييق عمل، وأراد إعطاء مثلها للحاج القلعي الذي رفض تسلمها مكتفياً بالقول بأن ابنه هو الذي سيؤدي العمل والمهمة، فكان تسليم سي

محمد لأجرة البناء مع ربّت على كتفه وشكره ثم تقبيل رأس الحاج القلعي
وطلب البركة من دعائه. مازحهم جميعاً بقوله:

. ياك تسبيق الأجرة من تبطل العمل؟

ردّ عليه سي الكبير بعد أن دوّت ضحكته الأرجاء:

. آ سي الحاج، واخّا ما يديروا والو، المهم هاذيك بركة يستاهلها غير على
وجهك.

مقام الأصوات

وصف (أمي حدهوم) للسيد عباس البلوري بالمربوع كان في الصميم. فمن رؤيته من بعيد تبدو ملامح بنية جسدية قوية بكتفين عريضين وخصدين منتفخين بارزين يتدلى منهما غيبب يشاكل جفنيه في انتفاخهما وتدلّيهما كذلك. رغم بدلته العصرية إلا أن العين الخبيرة بثقافة مجتمعها لا تحون استنتاج صاحبها:

. بائِنٌ عليه ولد الفلاحة من يديه ورجليه. حتى العقبة الوعرة والمتربة لم يجد صعوبة في صعودها.

هكذا علقت على المشهد كنتها وهما فوق سطح المنزل. لكن خيوط سيرته ستكتمل في مناسبات بعد ذلك. فعباس البلوري، فعلا فلاح ابن فلاح. ابن دوار صغير في الطريق بين مكناس وفاس. لا يعلم الناس كيف اغتنى وانتقل من مجرد حرث الأرض وأخذ القرض الفلاحي من المؤسسة البنكية المختصة إلى تاجر كبير ومستثمر وصاحب مشاريع. عمارتان بمدينة مكناس ومقهى فخمة بمدينة فاس إضافة إلى محطة للبنزين والاستراحة بالمواصفات العصرية

على الطريق الوطنية بين العاصمة العلمية والعاصمة الإسماعيلية... وماذا بعد؟ سؤال شقّ على ذهن السائلين من ساكنة الحي ومن غيرهم، فتركوه للآتي من أحداث ومفاجآت.

من أين أتى بكل هذا المال؟ سؤال آخر شغلّ مخيلة الناس: عثر على حقيبة نقود مرمية بجانب الطريق، أو ربما وجد كنزا كبيرا مدفونا من الذهب فوق أرض أبيه، ولذلك جاء لضريح سيدي احمد بن قاسم:
. آه. أكيد هذا هو السبب.

قد يكون هذا الاستنتاج من بين استنتاجات؟

. يتاجر في المخدرات.

. كيف؟ الله أعلم.

. المهم هذا الغنى كثير جدا وليس عاديا.

. ستبدي لنا الأيام.

~

أما بالنسبة للمنطقة الشرقية لمدينة مولاي إدريس زرهون فإنها تعتبر دائرة سكنية متصاعدة. ذلك أن جل المهاجرين الجدد الذي اضطرتهم ظروف الحياة للترحال والتنقل في العقود الستة الأخيرة ، اتخذوا من ضواحيها أحياء

غير مكلفة ماديا مقرا لسكناهم. وكذلك كان حال الراغبين في بناء منزل مستقل وجدوا بقعا رخيصة وبنوا منازل بدون رخص قانونية ولا معايير تهيئة عمرانية منسجمة. ذلك ما شكّله تنامي السكن بشكل متقابل بين منحدر حي سيدي محمد بن قاسم حتى ضفاف الوادي ومنعرجاته وبين مطلع الطريق المتصاعد في الجبل عبورا لقنطرة ويليي وعلى جانب عين ويليي كذلك. وقد كان منبع الماء مصدرا جاذبا للحركة والنشاط والاستقرار خصوصا خلال مرحلة الجفاف ونضوب مصادر المياه.

أصبحت المنطقة مشكّلة من حَيَيْنَ هما حي سيدي محمد بن قاسم وحي الظهَيْرِ. الأول نازل حتى سفح الوادي والثاني صاعد معانقا أعلى الجبل وصخوره. لكنهما يشكّلان دائرة انتخابية واحدة الآن. وحتى وقت قريب، كانت حدود المجال الحضري تنتهي مع القنطرة، فبدأ المجال القروي حيث مباني حي الظهَيْرِ. قد يتابع الشخص من طرف أمن المدينة فيتوقف تعقبه على حدود القنطرة لأن ما بعدها تابع لأمن الدرك الملكي وليس للأمن الوطني.

لكن، الآن ومع هذه الانتخابات، استطاعت دائرة حي الظهير أن تصبح خاضعة للمجال الحضري لمدينة مولاي إدريس زهون، وهو ما فتح شهية الناخبين لكي يترشحوا فيها، خصوصا وأنها في حاجة ماسة إلى خدمات في التجهيزات في شبكات الكهرباء والماء والصرف الصحي.

كل هذه الملاحظات في الخصاص لاحظها السيد عباس البلوري في جولته مع سي الكبير بين أزقة الحيين. اندهش السيد البلوري لوضع الحي الخطير تحت منحدر جبليّ كبير يهدده بصخوره الضخمة والتي كل مرة تزحف إحداها فلا يرحم معها إلا ستر ربنا وحفظه.

من بين المنازل التي دخلها المتجولان، منزل السي اليماني. ذلك القيدوم المعمر في حي سيدي محمد بن قاسم والمثقّد غير القادر على المشي. تاريخ عسكري حافل مع فرنسيس في حربها ضد النازية وحلفائها، ميداليات شرفية وذكريات قائمة تعطيه القوة والرغبة للاستمرارية في الحياة والحكي.

بعد وجبة الغداء التي حضرتها امي حدهوم وكنتها، والتي أحضرتها بنتها. آخر العنقود. للجماعة في مقام الضريح، جلس جمع غير يسير من الساكنة في زاوية مظلة على حصير، متكئين على جدارين يشكلان زاوية حول صينية شاي، وتجادبوا أطراف الحديث.

شكّل السيد عباس البلوري فكرة نسبية عن السكان وعن الحي. وحيث هي زيارة من بين زيارات مناطق مختلفة تابعة للدائرة الكبيرة للترشيح البرلماني تعبر الوديان والجبال وقممها كما السهول، فقد احتاج إلى بعث رسائل كثيرة قبل مغادرته لمقام ضريح سيدي محمد بن قاسم. يعلم أن المرشحين الآخرين سيتخذون طرقهم الخاصة للتواصل مع الناس، ورغم أن الوقت مبكر وسابق

لأوان بداية الحملة الانتخابية، إلا أنه لابد له من ربح الوقت والمحطات الانتخابية مجالياً.

لأول مرة يعلم بوجود هذا الحي وهذا الضريح. منذ بدأ تواصله مع سي الكبير، ومنذ بعث زوجته في تبرك بمدينة مولاي إدريس زرهون وشرفائها. لكنه شعر بانسراح كبير وبنيل ثقة من تواصل معهم فظهرت آثار الرضى على ملامحه ومحياه. ينظر بتمعن إلى سي الكبير ويلاحظ فيه مهندسا لكل هذه التوصلات. يستفهم منذ مدة سبب إلحاح زوجته على تقريبه والغدق عليه بالنقود وجعله ينخرط في حزبه صاحب الرمز الكاكي، فيجد الأجوبة في هذا النجاح وفي قدرته على خلق توصلات اجتماعية كبيرة.

جلوسه مقتعدا الأرض في وضع الأرتعاء، تناوله للكسكس بيديه في استغناء عن الملعقة، دخوله في حوارات شعبية ومزاح مع المعلم الجيار والحاج القلعي وسي اليماني والسائق... توصيته خيرا بسكان الحي وطلب الاتصال به عن طريق سي الكبير... تكرمه على الأطفال بكمية كبيرة من الحلويات أحضرها معه في سيارته... سؤاله عن شباب الحي الذي بدا معه غياهم طول هذا النهار عن فضاء ومقام الضريح والحي... كل هذا جعله ينتقل للحديث عن الصورة المتناقضة التي لاحظها:

. أنتم أناس رائعون وطيبون وكرماء جدا. تستحقون حياة أفضل من هذه. في الحقيقة لا يعجبني هذا التجاهل لاحتياجاتكم السكنية والبيئية. كيف يعقل

أن نجد مدارا سياحيا رائعا على ضفاف الوادي الموصل إلى مسبح الحامة،
ونجد انتشارا مخيفا لأماكن رمي الأزبال وحرقتها واختناق الناس بروائحها؟
تتملكون طبيعة جميلة مثل إفران وإيموزار، لكن للأسف، وهذا غريب فعلا،
والله العظيم غريب جدا، هذه جريمة في حق السكان وحق الطبيعة. هذا
الموضوع يحتاج إلى صرخة كبيرة في البرلمان. سأتيكم بشخصيات الحزب
بأكملها إلى هنا لكي يروا... سأتي بالصحافة. سأكلم أعلى المصالح في
الموضوع... يوم الاثنين سأكلم السيد العامل أولا... أين كان الممثلون
للمدينة خلال هذه المدة؟ نائمين؟ وأولادكم، ألا يستحقون هواء نقيًا خاليا
من دخان ومن رائحة كريهتين؟

في طريق العودة إلى قريته الأصلية عبورا لمدينة مكناس، أسرّ لسائقه إعجابه
 بالمنطقة:

. في الحقيقة، جبل زرهون مشروع ضخم لمقالع الأحجار... يمكنه أن يدر
أرباحا كبيرة. أما تصويت أهلها، فلا أعول عليه كثيرا. حتى عددهم بالمقارنة،
لا يشكل أغلبية في دائرة التصويت في البرلمان. وكلما كان عدد المرشحين
أكبر، كانت حظوظي أوفر بفضل منطقتي في امتداد طريق مكناس. فاس.

يغير السائق وضعية علبة التحكم في السرعة التي يزيد فيها ما جعل صوت
المحرك هو الجيب على احتمالات واستنتاجات وطموحات السيد عباس
البلوري المرشح.

" في مقهى ابا موحى "

حينما يفيض العدد يقع الاستثناء عن القاعدة

~

كان رجوع عبده من السفر تسجيلا لرحلة الصيف التي رافقها اكتشاف وترباط. لكن ترباط أحداث سيدي محمد بن قاسم جذبت الحكي عن المكان الحاضر وليس البعيد. يفتح قوسا لنقل مشاهد المخيم الصيفي ومهرجان أصيلا وأنشطته، لكنه سرعان ما يعود به جمع الضريح الساهر في هذه الليلة القمرية من يوم الأربعاء 15 ربيع الثاني من السنة الهجرية 1418 الموافق للعشرين من شهر غشت، ذكرى ثورة الملك والشعب عند المغاربة، والعيد الرسمي الذي يحتفل به إعلاميا كذلك، والعطلة الصغيرة التي تذوبها كنقطة في وادٍ عطلة الصيف المدرسية والجامعية.

يجلس عبده في مقهى (بّا موحى) بجوار (سقاية) مدخل ضريح مولاي إدريس، بالسوق الداخلي كما كان يسمى سابقا. يحضر معه ذهنيا وافتراضيا عالم حيه وهدوء ضريحه سيدي محمد بن قاسم داخل هذا الضجيج والتزاحم. حركة مجتمعية مختلفة في شكلها واهتماماتها. بين مناخ الاصطياف والثقافة المعاصرة الذي عاشته مدينة أصيلا وعاشه هو الآخر داخله ساجحا بأفكاره وقناعاته بين محاضراتها ولوحاتها وأشكال تحررها، وهذه الثقافة الشعبية التقليدية والتاريخية، مسافات الألف عام. هكذا بدأت رجله اليسرى في الاهتزاز تحت الطاولة، وزاد ضغط دمه وهو في توتر المنتشي بشحنة السفر وأفكاره، والخائف عليها من الذوبان داخل هذه الطقوس التي طالما انتقدتها وسبح ضد تيارها إن حضورا أو تحليلا.

يستجمع ما روي له من أنشطة سي الكبير. يلاحظ ما يقع في مدخل الساحة الرئيسية بالمدينة والتي عرفت إصلاحا يليق باستقبال سلطان البلاد، خصوصا وأن الوفد السلطاني يكون بسيارات وأعداد وفيرة، وكذلك بروتوكول الاستقبالات وتحية الولاء. هكذا يتخيّل المشهد مستعينا بمبرئياته التلفزية ومراسيمها، في شرود عن تفاعل حواسه مع ما يقع حوله، وما تزدهم به المقاهي المترصّة والممتلئة، واحدة بجوار الأخرى، وما تتفاعل معه مشاهد التجارة وأخذ الصور التذكارية.

غدا، سيكون يوم خميس، يوم الموسم الأول ضمن سلسلة مواسم متتابعة كل خميس وجمعة من كل أسبوع. موسم العلميين كما يسمى عند أهل البلدة. لذلك يلاحظ عبده أن عيئة الزوار والحاجين هي من فئات مجتمعية مخضمة بين الأصالة والمعاصرة، ومن المدن الكبرى التقليدية غالبا. فئات تتقاسم النسيج الثقافي والاجتماعي والفني والديني...

ما ينفك عبده وهو قابض على كأس شايه الذي برُد بين أصابعه ولم تبق فيه إلا رشقات مسكرة في قعره، والذي تنافست بعض النحللات على تذوق طعمه وحلاوته، يتأمل المشاهد بين جالسين ومارّين وواقفين بالساحة.

يشعر بذلك الاغتراب الذاتي، وكأنه ليس من هذا العالم. رفاقه الذين يتقاطعون معه المواقف والانتقادات، لم يلتق بهم بعد، بعد عودته من سفرة الشمال. يقاوم بأسلحته الذهنية هذا المدّ في الاجتماع والتظاهر الثقافي والفني الذي يعتبره قروسطيا في استمراره الحي حتى نهايات القرن العشرين هذا. يتسم ابتسامة مركبة بين تحليل وانطباع وتوقيع، فتبقى تلك الابتسامة خالدة هي الأخرى كمشهد، وتخونه في التأويل من طرف الذوات الخارجية. يصبح عبده هو الآخر مؤثّثا للمشاهد الاحتفالية التي ينتقدها.

بين لباسه الذي اختاره عادة من سروال جينز وقميص منسدل فوقه، ولباس هؤلاء المحتفلين في الموسم والذي يأخذ طابعا تقليديا في أنواع عبااته و

قفاطينه، كانت الثقافة محددة للفرق بين عقلية وأخرى، وكان عبده هو المغترب داخلها.

ربما سيسجل عليه صديقه محسن الشامي والآخرون نقطة امتياز التحرر اللحظي، في كونهم لم يكرسوا جلسة رجعية مثل هذه، بدليل أنهم غائبون عنها. سخرية ومزاح و(تقشاب) يؤجله إلى حين، لكنه ما ينفك بالموازاة يستحضر أسلحة مواجهته، كذا تحليل سيناريوهات وقوعه. هكذا تعيشه عوالم داخل ذاته الوتر والمتوترة.

بين الابتسامة والسخرية يمر شبه لشخصية دون كيشوت كما تخيلها من خلال مقروءاته أو كما رآها مرسومة في إحدى السلسلات الكرتونية أو فوق صفحات الكتب والمجلات. ربما لضمور بطنه وجانبيه في هذه اللحظة الزمنية التي فرغت فيها أمعاؤه وكان في حاجة إلى ملئها، شعر بأنه هو دون كيشوت النحيف. لم لا. سيحارب طيف هذه الثقافة. ولكن، كيف يمكنه تحقيق ذلك؟ يرفع بصره للفتحة المتبقية في سماء الساحة من أجل رؤية أعلى الجبل، جبل الدكانة المقابل لجلسته. تختلط الألوان في عينيه فينزل عموديا لفظ (السوربالية) بألوان الطيف كأنه إشعاع نواراني أو هذيان فردي في حالة الشroud هذه. يخترقه اللفظ المهموس داخلها بصوت صديقه محسن لا بصوت آخر. تتزاحم التحليلات وتتداخل الأفكار والأصوات بسرعة وتنفلت من كل محاولة للقبض عليها.

يجول وضع الشعور بضعف الذات داخل هذا الزحام إلى انتزاع انتصار نسبي بانتزاع ابتسامته من شابة جالسة مع أسرته في المقهى المجاور لجلسته. هكذا يضيف أسلحة مواجهته لعصابة أصدقائه. على الأقل استطاع تحرير ابتسامته من سماء هذا الجمع الصاخب باحتفالياته. على الأقل أضاف ورقة جديدة لتحرر مشاعره وتطوير علاقاته مع الجنس الآخر المرغوبة في تبادل.

في ضم لباقي الأصابع ولف لها بالإبهام ينقر بظفر أصبعه الوسطى فوق الطاولة. يشكل به إيقاعاً أجم وأعمى لدندناته. تكون هذه سفينة هروبه من وتر لا يطربه فيما يشاهد ويرى ويسمع. لا تناغم لذاته مع هذه الثقافة المليئة بالضجيج. شيخ كبير يخترق كراسي المقاهي المنتشرة فوق جانب من الساحة. رزة بيضاء فوق رأسه، أوراق شجرية مغروسة بين ثناياها، لحية متدلّية بين بياض شيب واصفراره، سبحة صفراء كبيرة وأخرى خضراء متوسطة وعدد آخر منها مختلط الألوان ومتنوعه. كلها سبحات يعلقها على مدار عنقه. عباءته الخضراء جعل حولها حزاماً بنيّاً من الجلد العريض. أما "بلّغته" فهي حذاء مفتوح من الخلف عالي الكعب في شكل بلغة صنعت لتقاوم بنيته ومشيّه واجتراره لجسده المثقل ولعصاه التي يتكئ عليها عكازاً طويلاً هو وحمولة زاده وعتاده وثيابه.

يراه عبده كائناً وجودياً بامتياز. تمنى لو بقي واقفاً أمامه لمدة طويلة حتى يصارع به أنثروبولوجيا الثقافة التي لا تريد تحقيق تغيير جذري في مجتمعه.

لكن عبده لم يجرم من مشهده، خصوصا حينما دعت جماعة من ضيوف الموسم، جالسة بجواره، هذا الشيخ الكبير للجلوس وبدء الحوار معه بلطائف الأمثال والملاحظات والاستحضارات للسير والمقامات والذكريات والأذكار، وكذا أشكال الاستفزاز لاستنطاقه أكثر بما تيسر له من ذكر وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وكأنه أحد المجاذيب أو هو واحد منهم فعلا.

كان الشيخ الكبير وهو يتكلم، يصبو عينيه تجاه عبده الجالس في الطاولة المجاورة. لا يشارك جماعته إلا بسمعه ونطقه. شعر حينها عبده بأن الشيخ يقرأ دواخله ويعرف أسرارها.

اقشعرت مسام جلده بعض الشيء، لكنه تغلب عليها بتحويل اهتمامه البصري إلى إحدى الفتيات المارات أمامه مع أسرتها في حلتها التقليدية الخاشعة لباسا والمتهادية خطوا والساحرة ابتسامه والآخذة للب ضعاف العقول والقلوب في سواد شعرها المنسدل ومنابع عينها البراقة، إلى معركة التسليم. انضاف نصر عاطفي ناعم جديد للسابق وانشرح نسيبا من اغترابه الذي شعر به.

حينما اختفى مشهد اللوحة الفاتنة تجاوز معه ارتباك قدسية النظر الشيخية بجواره، لكن أذنيه اشتغلتا التقاطا لعجائب رواياته. لم تذهب جلسته المنفردة سدى. جمع كثيرا من النوادر والمشاهدات.

أخذ الوقت من عبده مأخذه في جلسته هذه. فجأة انتبه إلى ساعته اليدوية التي تشير إلى التاسعة والنصف مساءً. استيقظ من رحلة المكان ومناخه الموسمي. هذا المغرب الذي يسكنه بأشكاله وألوانه. تذكر أنه وعد أمه بإحضار مستلزمات وجبة العشاء. هناك ضيوف في المنزل. بين زحمة الخلق، بالكاد وصل إلى السوق المركزي حيث حضر له الجزار كيلوغراما من كفتة لحم البقر، اقتنى بعض أنواع الفواكه و كيلوغرامين من الطماطم، تسلل بين الدروب الجانبية حتى وصل في أقرب وقت لمنزل أسرته.

في اقترابه من الحي كانت شعلة عود الثقاب تضيء داخل عتمة الساحة مُعلّمةً بمجلساء الضريح الذين يعانقون الليل وسمفونية هدوئه المنسكبة على الجبال التي يقعد في قعرها مقام الضريح. كان البدر قد أرسل ضيائه الفضي مخبرا بقرب التحاقه بسهرة هذا المساء إذ أن الكل سيحتفل بالموسم على طريقته.



حضور مدينة وامتدادها يتجاوز إطارها المادي الذي يشكلها. ذلك أن المدينة بشر وثقافة وعادات وتاريخ وتواصلات وبعثات في الذهاب والإياب. كذلك مدينة مولاي إدريس زرهون، خلية جسم وطني وعالمي. تكون احتفالية الموسم مناسبة لحضور ضيوف من أماكن عدة، كما حضور أولاد مدينة زرهون وأسرهم والذين هاجروا لظروف عمل أو حياة زوجية أو دراسية أو غيرها. نسبة كبيرة منهم تُقسّم عطلتها الصيفية بين الاصطيف بمناطق ساحلية غالباً، وبين حضور البلدة أو البلاد أو البلدة، كما تحلو مناداتها عندهم معزة في قلوبهم، خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر غشت، والمناسبة مواسم مولاي إدريس زرهون في يوم خميس من كل أسبوع وبشكل متوالٍ.

ينفتح الحي كما جلسة الضريح على هذا الحضور وهؤلاء الضيوف. وسيأخذ السمر هذا المساء حلّة جديدة وابتساماً أكبر. وجديد ابّا الساحلي، الذي ندر حضوره لمقام سيدي محمد بن قاسم جرو صغير تبناه وجعله في قبّ جلبابه طول النهار. كرضيع صغير محمول في لونه البني الفاتح و فروه الرطب الناعم وأذنيه المنسدلين وداعة. بين مشهد الجرو الأنيق ولباس ابّا الساحلي الذي بدا رثاً وفي حاجة إلى اغتسال لَعَطت الألسن ولاكت، فشغلهم فضولهم واخترقهم الجديد عمّا يدور في ذهن ابّا الساحلي وما يرسمه لمسيره وغده !

أتى بصحن صغير قديم الاستعمال، ربما وجدته مرميا في الطريق. سكب فيه حليبا طريا من كيس بلاستيكي جاد عليه به أصحاب زريبة قريبة. كان لمشهد الجرو جمالية انضافت براءة و عطفًا وكرما في نفسيات المتابعين من بعيد أو الجالسين المحظوظين بهذا الحدث البسيط والكبير.

كان ابا الساحلي في استعداده الأخير لصعود الجبل حين اقتراب أذان فجر ذلك اليوم. توضحاً من العين (عين وليلي). استحضر قداستها وحكاياتها التي تعطيها تاريخًا وعزة عند الناس كما عنده. تبرك بمنبعها وطلب الشفاعة والمغفرة. كان طقسه المعتاد غالبًا. قد لا يصلي لأن ذهنه لا يستطيع التركيز على صلاة، ولأن دواخله لا تتصالح معه دائما. لم يجد من وسيلة تقربٍ لخالقه سوى بالمداومة على التوضي بالماء وعلى الاغتسال به في مجرى النهر وغُدرانه أو في مسبح الحامة الدافئ.

بعد انتهائه من مقام جلسة الضريح ومن هذا الاغتسال كانت جلسته أعلى الجبل، فوق صخرة بارزة كفرطاس منفلت من كدية عالية. بين مقام جلسته وبقايا بناية (سيدي عبدالكريم بن الرضي) مسافة طريق قصيرة ومستوية نسيبا. رأى بأمر عينيه اللتين لا تخدعان صاحبهما طيفَ سيارة وقد أطفأت أنوار مصابيحها بين المنعرجات حينما اقتربت من قنطرة عين وليلي.

حمل شخصان طيف كيس طويل. نقلاه إلى جهة ضريح سيدي محمد بن قاسم. سمع وقع الباب الخشبي الذي أقحم بالقوة وبكسر قفله. استنتج أن

جماعة ما أنت بشيء ما إلى داخل الضريح، وتساءل في دواخله إن كان مخدرات أو جثة أو هدية زرع؟ أجل جوابه وفضوله وصعد جبله اتجاه مقامه في القصر المهجور لسيدي عبدالكريم بن الرضي. لم يلتق بهذا المسمى سيدي عبدالكريم صاحب هذا القصر شخصيا، ولم يُنخ له ذلك. فصاحب القصر عاش في أوائل القرن العشرين وهو عهد لا يعيه أبّا الحارثي بقدر ما يعي الروايات المنسوجة والمسموعة. لم يكن ليقبل أية رواية. قد يصمت حين سماعها، وقد يبيخها باستنشاقه لمخدر الكيف في أداة السبسي وشقفه. يتكلف عقله حينئذ بغرلة الكلام دون حاجة لانفعاله مثلما غربل الزمن والتعرية بناية قصره فهدمها تدريجيا ولم يتركها إلاّ أطلالا مهابة.

يعتبر المسألة بركة جذب وفضل وميزة أن يكون الإنسان أحقق ومجنونا في نظر الناس. يجعل نفسه محايدا في جل مقامات الحوار والكلام والعلاقات، ما دام هو البوهالي أو صاحب الحال الذي يعيش حاله الداخلي الخاص. ما دام هو الاستثناء داخل جماعة المدينة وسكانها العقلاء، في لباسه ومشيه وسكنه وكلامه. مادام الناس لا يقتسمون معه أرباحهم وسعادتهم بقدر ما يقتسمون معه ترفيههم وبليتهم وهمومهم.

التفت في استراحة جديدة على جذع شجرة خروب معمّرة بدل تلك الصخرة التي أثرت بصلابتها وبرودتها على جسده. ماتزال السيارة راسية بجانب القنطرة ومتوارية عن طريق الضريح. يبدو أن الشخصين عادا بداخلها بعد

سماعه لصوت حديدي خفيف أفضل أبوابها ربما. بقدر رسوها المتواصل بقدر بقائه جامدا يرى أطياف التضاريس والخلائق التي بدأت تدب من جديد. حتى من نباح الكلاب لم يوقع لحدسها سماع أو رؤية ما وقع. قطعان الغنم والماعز لم ير لها خروجا إلى المراعي الجبلية كذلك.

قد عاد بعض الشيوخ من أداء صلاة الفجر. لا يمتلك من قوة هؤلاء الشيوخ ما يعزز به توازنه النفسي الداخلي. يبقى محترما لهم ومقدرا لتجربتهم الحياتية كما لقدرتهم على هذا الاستمرار اليومي في التزام صلاة الفجر الجماعية بالمسجد وهذه المسافة التي يعبرونها في كل فصول السنة. يغترب على نفسه في التفكير ويعترف داخليا بأنه لا قيمة له أمامهم. هم مرآته في التقصير وفي بلوغه درجة من الجنون. لكنه هو الحكيم الذي يدرك ما لا يدركه العاقل من جل الأنام الذين يعاشروهم أو يعرفهم من قريب أو بعيد.

شغل محرك السيارة وعادات أدراجها ببطء من حيث أتت. لم تعد المصابيح للإضاءة سوى مع أفولها بين المنعرجات الصاعدة تجاه طريق مسبح الحامة وتجاه وجهتها المجهولة التي أتت منها. زخرفت أنوارها العمودية ولونت الأشجار والطريق وأشباح هياكل الجبال. وما همّ أمر الأنام. وما همّهم أمر أبّا الساحلي المكتوي بجروح الأيام والزمان. فصل مستقطع من النهار هو، هذه اللحظة التي تصعد به أعلى الجبل في فصل الصيف هذا، والذي بدأ في

استشراق خريف جديد مع اقتراب بزوغ شمس جديدة. عمّا قريب ستشرق
وستبدأ الحكايات والمقامات.

~

مع بداية الصباح الجديد وبداية حركة الأرجل والأعضاء الباحثة عن وجبات فطور، عن نعناع أو خبز طري جديد أو حتى إسفنج سيأتون به من الدكان البعيد عن الحي، سُمع الأنين والطرق المستعصي خلف باب الضريح. استنتج الجل أن هناك شخص يطلب فتح الباب وأنه لا يقدر على الكلام. همهمات مستجدية ومستغيثة. هكذا فهم الصاحون هذا الصباح. بينما أوّل آخرون بالجاهز من معتقداتهم أن (سيدي محمد بن قاسم) ربما هو الذي استيقظ. مستعدون لتصديق معجزات مرتبطة بالضريح وإمكانية وقوعها. من سيتجرأ ويمتلك الشجاعة لأجل فتح باب الضريح وكسر قفله الذي بدا لامعا؟ يبدو أنه جديد !

في جلسته الصباحية المتجددة، كان ابا الساحلي يتابع من أعلى تجمهر الناس حول البناية. شاهد خروج الحاج القلعي من منزله وتوجهه مباشرة إلى باب الضريح. كيف بدت الحجرة الصماء بين يديه وهي تهوي على القفل فتكسره؟ لم يستطع رؤية ذلك ما دامت جلسته من جهة الشروق وما يقوم به الحاج القلعي من الجهة الغربية للأفول، وبينهما أطلال البناية ووقفتهما الشاحخة في صمت. إنما الاستنتاج اكتمل حينما رأى الناس تُخرج الكيس

وتفتحه لكي يساعدوا شخصا على التحرر من القيود التي كبتت رجليه ويديه إلى الخلف كما فمه.

سمع صراخ رجل كبير في صوت طفل صغير. استعاد تصوّره حول طريقة ردع وتخويف الأطفال الذين يأتون بهم ويغلقون عليهم باب الضريح لكي يغيّروا جموحهم وانفلاتهم السلوكي إلى هدوء حملٍ وديع. تذكّر في حسرة كيف كانوا يستعينون بجلسته هو (ابّا الحارثي) وليس (ابّا الساحلي) كما يلقبونه، وكما يستنجدون ببركته خوفا من تجربة حبس الأطفال داخل بناية الضريح. وكأنه هو الذي سيشفع عنده أو عند أصحاب الحال الذين يسكنون دواخله .. كيف ربطوا دوره بعالم التخويف وعالم الردع للنفسيات، حتى من تهديد النساء لأطفالهم أو بناتهم قد يكون مسموعا من طرفه في القول والتحذير: سيخطفك ابّا الساحلي ويأكلك ونهشك أعلى الجبل !

كثرت الأصوات واختلطت بين صراخ وتعليق غريب. وكثرت معها الأعمار التي مثلتها كما الجنسان اللذان جمعتهما بين ذكور وإناث.

هكذا إذن ! استنتاجه الذي لم يشاركه فيه أحد. استغرابه الذي يجد له تفسيراً. في نفس لحظات استنتاجاته التي زادته اغتراباً عن الجماعة، ما دام يعلم ما لا يعلمون، دثر الحاج القلعي السي الكبير بجلبابه الذي كان قد وضعه فوق كتفه الأيمن. ولجا باب منزل (أمي حدهوم) وأقفل على الحاضرين فرجة ومشاهدة هذا الصباح. بين ضحكات الأطفال واستحياء بعض الناس

وضعت أمي حدهوم كّفها على عينيها هي الأخرى استحياء من رؤية ملابس السبي الكبير مبللة بالبول غالبا. الكل يعلم أن جعل الشخص داخل بناية الضريح أمر مفرع وتجربة صعبة وخطيرة. قد يكون الأمر هينا في عقاب الأطفال أو علاجهم بهذه الطريقة في نظر الكبار، قد يكون متوافقا عليه وسهلا إذا ما كان يمثل جذبة وحضور تلك السيدة زوجة المرشح البرلماني وسط جمع غفير، إنما بغريب ما وقع للسيد الكبير لا أحد يتقبل وضعية الفرع والهلع والبكاء الصارخ مثلما بدت عنده، ولا هذا البلبل !

خلال قيلولة الناس وتحت أشعة شمس حارقة لما بعد الزوال، جاء عمال البلدية بَعْدَهم وعتادهم. هدموا المصطبة التي يتخذها الناس مقاما لجلساتهم خلف بناية الضريح التي تقيهم أشعة شمس ما بعد الزوال غالبا، وبلّطوا محيط البناية بمادة الرّفّت كما أغلقوا كل منافذ الدخول له بألواح خشبية تكلفت مسامير كبيرة بإحكام توقيعها بعلامة: ممنوع الاقتراب، ممنوع الجلوس.

كان جرو ابا الساحلي يجار ويلهو مع أشعة الشمس ونباتات الزهر والحشرات الطائرة، يشاكس تجربة حياة جديدة. كثر نباحه الصغير أمام سدره منسية في تاريخ هذا الجبل. بدا بين أعوادها الرقيقة أرنب برسي مفرع وجامد مكانه. ابتسم ابا الساحلي للمشهد وعلق ضاحكا معه: والله إنك مرزاق وصاحب بركة.

لم يندُ للناس نهاية ذلك اليوم وقبل غروب شمسهِ سوى دخان رقيق صاعد إلى السماء التي بدأت توَدِّع الأشعة اللاهبة. لم ينزل ابا الساحلي من أعلى قمته التي يرباط فيها. علّق بعد شبع وتقاسم وليمة شواء مع جروه:

- ستبقى غريبا أبا الحارثي مثل هذا الجرو الصغير ! حتى تسميتهم لك تجعلك متتميا لساحل ما وضة ما وليس للبلدة. حتى تسميتك الحقيقية (ابا الحارثي)، (هه)، من يكثرث لها !

مقام النهايات . مقام الروح

. لقد شُلَّ سي عبدالكبير !

. ماذا تقول آ سي الخياط؟

. لم نره منذ أسبوعين، وعندما سألنا عنه أخبرونا بمرضه وملازمته الفراش . شُلَّ لسانه كذلك، فلم يعد قادراً على الكلام . شافاه الله تعالى .

سمع (ابا الحارثي) الخبر من المعلم الخياط في هذا الصباح الباكر . كان الجو صحواً، وكانت الأزقة قد استنارت بضوء نهار جديد . مصايح البلدية وقد انطفأت قبل عشر دقائق تقريباً . بعض حميرٍ مرت صاعدة في اتجاه ما، محملة برمل من أجل البناء، بعض خطوات رافقتها أصوات احتجب متكلموها عن نظر زبناء بائع الإسفنج .

كان المعلم الخياط ينوي التصدق ببعض الإسفنج على (ابا الساحلي) لكنه استغرب لانصرافه وهو يردد: الله أكبر . داروها ولاذ حرام . دين الكلاب . ولاذ الحرام . دين لكلاب ...

(أويعلم ابا الساحلي شيئا عن الموضوع؟). سؤال بقي عالقا ومعلقا في ذهن المعلم الخياط. بابتسامته سمع الزبناء الثلاثة المنتظرون قوله:

- الله يشوف من حالو مسكين.

كان أحد المنتظرين رجل تعليم، وقد لفت انتباهه أمر القاعدة الإملائية في شكل الكلمة وجعل المكسور مرفوعا ومدد واو معها (من حالو). تساءل في غرابة حضوره ذهنيا: كيف يصبح المكسور مرفوعا؟ وكيف يصبح المرفوع هو المتوج في الكلمة ولو كان مجرورا؟ أجل البحث عن الجواب ربما لفرصة مقبلة، ما دام الجواب يحتاج إلى علوم ومعرفة وتحليل ومقارنة ومعاينة.

في منحدر الطريق سُمع صوت ابا الحارثي من جديد، لكن هذه المرة بشكل صارخ وقوي: ولأذ الحرام، بغاؤ يقتلوا الراجل. قتلته يا ولد الحرام !

قوس (البيان)، هذا المخرج والمدخل، للضريح كما للأحياء الموجودة حوله وبين كومتى جبلية اللذين اعترش فجّهما بينايتيه أو مركبه وصومعته الشامخة علوًا، ممر حيوي استطاع أن يجعل من الحاضرين ومن الجمهور المتابع لمشهد ابا الحارثي / ابا الساحلي عددا فاق العشرة في هذا الصباح الباكر. كانت قامة الرجل الذي صرخ في وجهه ابا الحارثي فارهة وكان صاحب بنية جسمية قوية وعضلات مفتولة. بمجرد ما سمع توجيه الكلام له وجّه لكمة قوية أردت ابا الحارثي أرضا في غيبوبة زادت من عدد الفضوليين والمتابعين. بين مستنكر ومتشوّق لمعرفة ما وقع كانت ردود فعل متناقضة في نشر خبر الحدث:

. ماذا وقع؟

. لا شيء. ابا الساحلي سبّ وشم شخصاً، خاف الآخر من أن يكون أحرقاً منفلتاً في عدوانيته. وجّه له لكمة ذهب معها في غيبوبة.

وبقي الخبر عادياً خلال هذا اليوم، وما بعده. ربما اعتاد الناس كل مرة على اختلال عقل أو عدم توازن نفسية مفاجيء عند فرد ما. الجل يشعر بأنه في أقصى درجات التحمل للواقع. يعيش على شفا جرف هاو. بعض أفكار راودت حميد ولد ابا علال الطالب الجامعي المستنير. حينما استجمع الحكاية وربط خيوط الخلل والاعتداء والتهديد، أسباب الأحداث وتائجها، كانت الأسئلة مرافقة ومتزاحمة مع الأجوبة، كأعناق متزامنة في الخروج من عنق زجاجة مع منفذ أحكم قطعها.

بينما كان خروج ابا الحارثي من المستشفى بعد استرجاعه لوعيه ويقظته معتلاً ومختلاً، بنفس لازمته، لكن بصوت جريح:

- ولاد الحرام، قتلوا الرجل. دين لكلاّب.

يبدو أن حالته حرجة. ويبدو أن المرض قد تخلّص منه مثلما تخلّص من مجموعة مرضى أنهكوه في العمل ما دام لا يمتلك من أدوات أو تجهيزات في المستوصف العمومي سوى بعض مواد أصبحت بدائية في الاستشفاء استطاع ابا الحارثي أن يستفيد من مادتها الحمراء المسماة: الدوا الأحمر.

إنما من يكون هذا الرجل التعس الذي صادف حظ زيارته للضريح انفعال وانفلات سلوك ابا الساحلي؟

سؤال، ولو أنه راود ذهن البعض، لكنه سرعان ما تبخر في سماء النسيان، ما دام الغرباء كثيرون في زيارتهم للضريح. مجرد حدث كسر رتابة الأخبار وأضاف شيئا خارقا فوق العادة سيؤثث حوارات الناس، رجالهم ونسائهم وأطفالهم وشيوخهم.

. ما بك ابا الساحلي؟ سؤال صادفه في كل تواصل ولقاء.

. ولد الحرام. نفس الكتاف. نفس العوجية.

أيكون ذلك الشخص هو نفس الشخص الذي بدا له طيفه من أعلى في غبش ذلك الثلث الأخير من الليل؟

سؤال لم يستطع حتى ابا الحارثي البقاء على يقينه بالإيجاب، ما دام الفرع تغلب على العقل في التحليل، وما دام الخوف قد تملك نفسية ابا الحارثي فعيب كل منطوق وكل زيادة شرح. فرع يمتلك النفوس مسبقا، فترتعد لكلمة الغيلان وترتعث لتهديد الشياطين. فما بال الإنسان اذا تسلط عليه هذا الفرع بسبب تعالى على الناس مع المقدس ومع مقام الأولياء الأضرحة.

لم يكن أبا الساحلي وحده من خضع لهذه الأحكام. فقد تسارعت الاستنتاجات للتساؤلات عند حول السي الكبير: اللعب مع الأضرحة مصيره الجنون والعته والموت.

"ها هو سي عبدالكبير الذي لم يحمد الله على نعمه، أراد أن يزاحم ويزعج مقام سيدي احمد بن قاسم. ها مصيره. الله يسترنا وينجيننا منه. هذا ما جناه على نفسه. ها هو ابا الساحلي أصابه غضب المقام ولعنه بشرور وآلام. الله يحفظ الجميع منه!"

بعد أيام مرت على حادث الاعتداء، طرق ابا الحارثي باب منزل السي الكبير. سمح له بالدخول وعيادة المريض طريح الفراش. آمن أهله ببركة المجذوب وأصحاب الحال. تركوه بجانبه للحظات وهو يردد لازمته:

. اصبر آ سي الكبير. أعوج الأكتاف ما يسلم من مولانا. ربّي غادي يخلصو.

كل فعل أصبح ممدودا وغاب معه الضمير في نهايته. تلك قاعدة الأستاذ التي أصبحت شاهدة على لغة القوم وقانون تصنيفهم للأفعال. لكنه بعد أسبوعين تقريبا، وكأن المدة الزمنية لازمت الأحداث في ترانبيتها ووقوعها. وجدوا ابا الساحلي مرميا بجانب الطريق قرب مركز البريد يتألم من شدة ارتطام جسده بحافة الرصيف. كان المعتدي سيارة وليس شخصا. وكانت السيارة بريئة في الاعتداء. غالبا ما تقع حوادث السير. وهذا قدر جديد مرتبط باحتمالات استعمال السيارات والشاحنات والحافلات. ولم الاستغراب؟

فحتى سائقي هذه الوسائل يتعرضون لإصابات بليغة أو لختفهم وموتهم بسببها لا قدر الله.

وبقي ابا الحارثي لمدة شهر وزيادة منسيا في منحدر شعاب اجتر جسده لها ابتعادا عن الأنام. لا يستطيع الوقوف ولا المشي. تفضّل عليه البعض ببعض ألبسة وأغطية. ذلك أضعف الإيمان، وذلك أكثر ما استطاعوا إليه سبيلا. وهو في ألمه وأنيته وآنية طعام على يمينه سمع نداءً صوتيا يخاطبه حيننا. لم يصدق ولم يحسم إن كان في غيب أو شهادة، في يقظة أو حلم:

. آبا الساحلي، ياك لا باس؟

جوابه أنيه.

كان السائل هو السيد عبده وصديقه حميد. استنتجا أنه في حاجة إلى علاج بالمستشفى. اتصلا بصديقهما عون السلطة. ذهبوا ثلاثتهم إلى مستشفى المدينة وإلى الوقاية المدنية. نُقل ابا الساحلي إلى المستشفى لمعاينة حالته. عجز الممرض عن فعل أي شيء، حتى الطبيب كذلك لا يستطيع فعلا شيء. الألام دالة على وجود كسر في عظام ما والمدينة لا تتوفر على لوازم العلاج.

استشهد عبده غضبا وثورية في خطاب استعاره لسانه من تحليلاته الطلابية الجامعية: ما هذا؟ بدل أن يتطور المستشفى إلى أفضل أصبح مجرد بناية وأطراف وزرات بيضاء؟ والله هذه هي الرجعية!

نُقل أبا الحارثي إلى مدينة مكناس. رفضوا تسلُّمَه في مستشفى محمد الخامس كإدارة وكمؤسسة. لا يمتلك بطاقة هوية. كان اتصال عبده بصديق له والذي رافقه في الدراسة الثانوية، والذي أصبح ممرضا بمستشفى محمد الخامس بمكناس. استطاعوا إدخاله وإخضاعه لعيادة الطبيب الذي في المداومة دون حاجة إلى مسطرة إدارية رسمية. شخّصوا حالته التي بينت وأظهرت وجود كسر في وركه. كلفة العملية والعلاج استخلصوها كقيمة مالية حينما ذهبوا بلائحة متطلباتها للصيدلية التي تبيع المواد الخاصة بالجراحة والجبر والمواد التي ستستعمل فيها.

سبعة وعشرون ألف درهم ! رقم وعدد لا يملك منه عبده إلا السماع. لكنه قدر التحدي الذي سيجعله يكتشفه كقدر مالي لا بد من جمعه والبحث عن طرق توفيره. وكان ابا الساحلي محظوظا هذه المرة في تعاطف جيل من الشباب والموظفين الذين عايشوا في مرحلة من شبابهم شخصية ابا الحارثي ومقاماته ونظمه. وكأنه حين يُشترى بهذا التعويض بين أضعف الإيمان وأكثره، خصوصا وأن نبأ نعي السيد عبدالكبير زاد من اجتراح الوعي وتأزيم جهله بسبب وقوع ما وقع، وبسبب ترابط هذا مع ذلك. صداقة السيد

عبدالكبير مع (ابا الساحلي). حالة الهذيان التي تسبب فيها خبر سماع ابا الساحلي لاستفحال صحة السيد عبدالكبير. عيادته له في منزله. حادث السيارة التي دهست ابا الحارثي قرب مركز البريد. عدم اعتقال أو متابعة أو ضبط السيارة أو صاحبها...

أحداث رافقها في الوقوع مجهول أو مجهولون. قد يفسر البعض كل هذا بمصيبة أو بقضاء وقدر أو بشرور توالى ونزلت وبالا على البشر. وقد يكون هؤلاء البشر في حاجة كل مرة إلى عقاب تاريخي بسبب زلاتهم ومعاصيهم. قد يحمد الله بعضهم على أن هذا السوء قد لحق اثنين منهم فقط وكون أحدهما هو ابا الساحلي فقط. وكأن قدر النوازل شرور على المغتربين في عيشتهم حمقا وجنونا وجذبا وهذيانا، وأمر عادي جدا. قد يفسر ذلك الأستاذ الأمر بقاعدة شرح وإعراب كلمة (قد): قد تكون للتحقيق أو للتقليل. وقد يكون الأمر تقييلا وتنقيصا لما وقع.

حالف الحظ ابا الحارثي واستطاع أصدقاؤه جمع ستة وعشرين ألف درهم. تمت العملية بعدها وخضع للنقاهاة والعلاج، احتاج بعد ذلك لمأوى خارج المستشفى. وكان الاتصال بالمؤسسة الخيرية بمدينة مكناس. لم تقبل إدارتها استقباله وهو في وضعية انتقالية لا تضمن عواقبها. هكذا اقتصرت الجماعة له بيتا مستقلا في إحدى دروب مدينة مولاي إدريس زرهون. بعد شفائه بقيت

خطواته في عرج لازمه وأقره الأطباء الذين عاينوا حالته، وبأن عملاً أخرى أصبحت مزمنة ومتورمة في بعض أعضاء جسده.

ربما فقد ذاكرته. لم يعد يكلم الناس ولم يعد يناديهم باسمهم. رُدّه على سلامهم يكون مبهماً، وجوابه على أسئلتهم يكون هذياناً. زاد انفعاله كلما ذكروا له قصة السيد عبدالكبير. وكان حظه تعسا من شقاوة الأطفال وبعض السفهاء الذين لا يراعون ظروفهم ولا قيماً. يتهمونه بقتل السيد عبدالكبير وبأن الله تعالى جازاه وعذبه في الدنيا قبل الآخرة. لا يرد ببيان، فقط بهذيان:

. ولد الحرام. طويل الاكتاف. العوج الاخر. سبب البلاء.

قدماه حافيتان صيف شتاء. نومه أصبح في عراء بعد تشرد وعناء. نظرتة للناس اتخذت مسافات بعيدة رغم قربها منهم. يطيل النظر في شيء ما وقد يكون هذا الشيء لا شيئاً، لكنه يكون انصرافاً إما مرتبطاً بسببٍ وشتيمة أو بابتسامة حزينة، ولا يعلم أحد حباتل النار التي يحترق بها تذكره وتفكيره.

قد يأتي أحدهم من سفر طويل أو في عطلة من مدينة أخرى فيصادف بصره رؤية أبّا الساحلي ماراً. قد يسأل مجاوره في المقهى:

. هاذا أبّا الساحلي ما يزال حيّاً؟.

وتمرّ السنون التي تختبر صبر هذا السائل وحال هذا المسؤول عنه وحوله.

سيرة مدينة ونسيج حياة

من سينتصر له القدر في قبض روحه بينهما؟

مقامات سيدي محمد بن قاسم

الملحق الأول:

من هو سيدي عبدالكريم بن الرضي؟

من أولياء مكناسة الزيتونة

-21 عبدالكريم بن الرضي بن محمد بن علي بن أحمد اليملحي الشريف
الوزاني.

نزيل زاوية جبل زرهون، ودفين مكناس.

حاله : مجذوب سالك، ذو أحوال خارقة، وكرامات باهرة ظاهرة، وسيرة
منورة طاهرة، كثير الانتقال، سكن أولا وزان ثم فاس ثم مكناس ثم زرهون،
وبه طاب له القرار مدة، ثم انتقل منه آخر عمره الى مكناس وبه كانت
ميتته.

يقول النقيب المورخ عبدالرحمان بن زيدان المتوفي سنة 1946:

(أخبرني العلامة الثبت ابن عمنا سيدي محمد ابن احمد، أنه أخيره صهره
الشريف الفقيه البركة منور الشيبية والوجه المنعم مولاي الفضيل بن الأمين
العلوي المتوفي في عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف، أن أول قدوم المترجم
للزاوية من فاس كان صحبتته، وأنه لما قدمها كان استقراره بأحد الأقواس التي

كانت قديما بالببيان المحل المعروف بالزاوية بين الحرم الإدريسي والسوق، وتلك الأقواس هي محل الحوانيت الآن بالمحل المذكور، وأنه ربما كان طبخ ما يأكله هناك، ومما طبخه في بعض الأيام مدة مقامه هناك بصارة الجلبان، وفيها فراخ الحمام، وأنه ذكر له عنه في ذلك قصة مضحكة غابت عنه الآن، وأنه أخبره هو أو غيره أنه بعد ذلك صار يتنقل تدريجيا للإستقرار بأماكن الحرم الادريسي إلى أن صار استقراره منه قرب الخصة الأولى الكائنة أمام المدرسة، وأنه كان ربما خرج بعض طابة المدرسة في جوف الليل فيجده واضعا رأسه أسفل الخصة وأنبوبها يصب عليه، يستمر على ذلك برهة من الزمن، هذه كانت بداية حاله هناك، ثم بعد ذلك صار له الظهور التام، وكثر غاشيه ومعتقده وزائره، وبني داره خارج الزاوية أعلى عين وليلي، تشتمل تلك الدار على مسجد وأماكن للأضياف والخدم، زيادة على أماكن سكنى الأهل والعيال، ولا زالت أطلالها شاخصة بالمحل المشار، عششت فيها الأفاعي والحشرات وباضت وفرخت، وكان ينزل منها للزاوية راكبا فرسا مسرجا وحوله وأمامه حشمه من العبيد وغيرهم حاملين للسلاح، ومعهم بعض الكلاب مقلدة الاعناق، هذه كانت صورة موكبه.

وكان يكثر من الذبائح على الضريح الادريسي وكان يدخل السوق على هذه الصورة ويقف على الحوانيت فيأخذ من أربابها من قماش ونحوه ما يحتاج إليه إما لنفسه أو عياله، وإما لمن استعطاه وتعلق به، ثم تارة يدفع لرب الحانوت في ذلك مايساوى أضعاف ثمنه، وتارة يعده بالدفع في وقت آخر، ثم قد

يحصل ذاك وقد لا يحصل، فلهذا صار كثير من أرباب الدكاكين إذا احسوا بموكبه أغلقوها قبل وصوله، فكان إذا وجد الدكاكين مغلقة يقول سيأتي أهل فاس ويعمرونها ودور أهلها، فكان الأمر كما قال وليس الخبر كالعيان.

وقد اتفقت مسغبة في وقته، فلما اشتد أمرها بالناس اتفق رأي جماعة عامة الزاوية الزرهونية على جمع هدية وتقديمها للمترجم وطلب الشفاعة منه إلى الله تعالى ففعلوا فبينما هم أثناء الطريق لداره وإذا هو قد نزل اليهم وأمرهم برد الهدية إلى الضريح الادريسي لينتفع بها ضعاف الأشراف، ثم سار معهم الى أن حلت محلها ثم التفت اليهم، وقال أين فلان؟ لرجل مجذوب هناك فلم يجده معهم فأمرهم بالإتيان به، فذهب بعضهم وجاء به إليه، فلما قابله المجذوب صار يستغيث منه ويقول له: أنت فضحك الله وأردت فضيحتنا، والمترجم لا يقبل له شكاية، بل أمر الجماعة بالإتيان بقميص ونعل فأتوا بهما فأمرهم بإلباسهما لذلك المجذوب ففعلوا جبراً عليه، وبعد ذلك أمرهم بإطلاقه فذهب ذلك المجذوب من ليلته تلك ميتاً.

قال مخبري وبلغني عن المترجم أنه أتى في بعض الليالي لبعض معتقديه من أهل الزاوية وطرق بابه بعنف، فلما خرج إليه أمره بإخراج أهله فوراً، فبمجرد خروجهم لباب الدار سقطت الأماكن التي كانوا بها، قال:

ولقد أدركته أنا في صغري ولما زالت صورته وموكبه بين عيني، إذ غالب مروره كان امام درب سكنائي.

وكان زائرو المترجم والمكثرون التردد عليه لداره يجدون عبيدا سودا حمر الأعين ذوي هياكل مفزعة بسجونه في سلاسل وأغلال لا يكلمون ولا يكلمون، ولا يعرفون في الخارج، ثم لما دنا أجله انتقل من زرهون إلى مكناسة الزيتون، وفيها أدركته منيته، وبالجملة آثار المترجم وأحواله الخارقة وكراماته الباهرة لا تكاد تنحصر.

مشيخته :

منهم ابن عمه سيدي الحاج العربي الوزاني المتوفي ليلة الأربعاء أول ليلة من المحرم عام سبعة وستين ومائتين وألف كما في بلوغ القصد والمرام تأليف البركة الصالح سيدي العربي الوزاني التهامي الرباطي.

الآخذون عنه :

أخذ عنه العلامة المجتهد البركة السيد الحاج أحمد عبابو، والمجذوب الساقط التكليف السيد محمد المدعو منصور آل السيد سعيد المشترائي.

وفاته : توفي بمكناس سنة خمس وتسعين ومائتين وألف ، ودفن بزاوية أسلافه من حومة باب البرادعيين قرب جناح الأمان وضريحه تم من أشهر المزارات أمام الزاوية التهامية مجاورا لمدخل درب أكومي.

*

*عبدالرحمن بن زيدان:

الإتحاف الجزء الخامس ،ص366.355.354.353

الكتاب: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس المؤلف: ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي (المتوفى: 1365)

نقلا عن صفحة علي زيان

* وفي شهادة المسمى بنحيدة من معمري مدينة مولاي إدريس زرهون أطل الله في عمره رواية عن أبيه وهو صغير السن أن سيدي عبدالكريم بن الرضي كان ينزل على متن حصانه فيصلي صلاة المغرب في مسجد لالة يطو بحي تازگة بنحيشو مع الجماعة .

* بالبحث عن التقويم الهجري نجد أن سنة 1295 هـ تأتي موافقة لسنة 1878 م.

لقد أوصى السيد عبدالكريم بن الرضي الوزاني بدفنه بزاوية بناها بالمدينة العتيقة بمكناس حيث يوجد ضريحه هناك. كانت له علاقات ونفوذ، كما كان السلطان الحسن الأول وأبوه يزورانه بمقامه بجبل زرهون. وطبعا ونظرا لجأه وقوة نفوذه وخدمه ورغد عيشه أحاطت به روايات تضيف إلى الواقعي ما هو اندهاش في متخيل كل من يروي ويسحره الحكيم. مثال ذلك أنه كان يروض السباع والحيوانات المفترسة. وهذا يدخل في قدرات التملك والتسخير بالمرافق وحملات الصيد وغيرها.

الملحق 2

سيرة سيدي محمد بن قاسم دفين فاس

في انتظار التحقيق

محمد ابن قاسم القادري

نشر بوساطة جمال بامي في ميثاق الرابطة يوم 14 - 03 - 2013

...فإن فهارس أخرى تعد بنفس الشيء خصوصا في مراحل تاريخية لم يعرف فيها التأريخ العلمي ازدهارا، ولا تخفى أهمية التأريخ العلمي في علاقته بالتاريخ الاجتماعي في حياة الأمم والحضارات، من هنا تغدو كتب الفهارس بيانات علمية وتاريخية وعمرانية وجب استثمارها بشكل علمي منهجي يساهم في إعادة كتابة تاريخنا العلمي.

وقد آثرت في هذه الحلقة التعريف بعلم كبير ينتمي إلى السادة القادريين، وهو صاحب فهرس: "إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية" [1]. يتعلق الأمر بالعلامة سيدي محمد ابن القاسم القادري.. والبيت القادري بيت شرف وعلم، ومجد وفضل، تعدد فيهم العلماء والصلحاء عبر تاريخ المغرب.

وقد تحدث العلامة سيدي عبد الحفيظ الفاسي [2]، عن محمد بن قاسم القادري وأسرته السادة القادريين فقال: "السادات القادريون بفاس، هم من

مشاهير آل البيت الشريف، وصلحائهم، حازوا من شهرة الذكر، وعلو القدر، وسمو الفخر ما هو في الدواوين معلوم وفي الضمائر مرسوم، وألف في نسبتهم الجم الغفير، وأثنى عليهم الجمع الكثير، كالإمام القصار وشيخه أبي النعيم رضوان الجنوي، والقاضي أبي مالك الحميدي، وأبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر العلوي، وأبي حامد الفاسي، وابن أخيه جدنا أبي السعود، وابنه الحافظ صاحب الابتهاج والأقنوم، وأبي الربيع سليمان الحوات وغيرهم.

وأوردهم صاحب درة التيجان، ووصفهم بقوله:

والقادريون سموا في النسب إلى سما القطب العلي المنصب

ما غيرت أنسابهم إلا على بيت المجادة إلى بيت العلا

من عالم لعالم وسيد لسيد إلى سماء السؤدد

ولد محمد بن قاسم القادري سنة 1259هـ بفاس، وقرأ على والده العلامة قاسم القادري الحسيني، قال ولده في إتحاف أهل الدراية في ترجمته: "والدنا ووسيلتنا إلى ربنا العالم العلامة المشارك المحقق الفهامة، الخطيب البليغ البركة، الموفق في السكون والحركة، ذو القدر العالي، والفضل المتوالي، الحائز قصبات السبق في كل مقام سني.. أخذت عنه توحيد المرشد المعين بشرح الطيب عليه، إلى قول ناظمه، وقوله: لا إله إلا الله.. لموته عند وصوله لذلك.."

وترجم له محمد الفاطمي الصقلي في وفيات الصقلي، ص: 93، فقال: "كان رضي الله عنه عالما عاملا خيرا فاضلا، أثر الخير عليه ظاهر، لإتباعه سنة رسول الله الطاهر وكان خطيبا بمسجد باب عجيصة.

قرأ محمد بن قاسم القادري على أبي العباس المرينسي، وأبي عبد الله كنون، وأبي عيسى بن سودة، وأبي العباس بناني، وأبي عبد الله القاضي العلوي، والتازي مسواك.

أثنى عليه كبار علماء المغرب منهم العلامة محمد بن الحسن الحجوي، قال في: مختصر العروة الوثقى، ص: 47 من طبعة دار ابن حزم: "هذا الطود العظيم من جلة أشياخي الأتقياء الأثبات المحققين الراسخين في العلم والدين.. أخذت عنه كثيرا وانتفعت بملازمته ومراجعته، وكان مسكني قريبا من مسكنه، فكانت تسهل علي مراجعته لاسيما مع مشاركتي للشيخ الوالد في الأخذ عنه، فكان يأتي لدارنا فأجد فرصة للتوسع معه ومراجعته ."

وقال الحجوي في الفكر السامي :

"الإمام النحرير النقاد، والعلم الذي تتضاءل له الأوطاد، الفقيه الأصولي المعقولي المشارك في العلوم، وقد تسنم منها الذرى التي تقصر عنها الفهوم إذا أظلم ليل عويصه واحتلك، كان فكره شمسا تمحو ذلك الحلك، وهبه الله ذهنا متوقدا، وفكرا متيقظا مهما خطأ لا يعرف الخطأ، إلى زهد وعفاف، ورضي

بالكفاف.. ودأب طول عمره للعلم ناشرا، فكان أحد أساطين القرويين العظام الذين عمروها بالدروس والتأليف الجسام."

وقال العلامة عبد الحفيظ الفاسي في معجم شيوخ: "كان صدرا عالما من أهل النظر والبحث، قائما على المسائل، مشاركا في كثير من الفنون.. ممن انتهت إليه الرياسة العلمية في وقته، وكان على طريقة مثلى جاريا على سنن سلفه من متانة الدين وحسن العقيدة والعفة والنزاهة ولين العريكة، راضيا بالدون زاهدا في تلقي الشهادات." ..

وقال سيدي عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس: "شيخنا الدراكة المشارك الفهامة البركة الماجد ابن الأماجد." ..

وقال العلامة القاضي محمد بن أحمد العلوي الإسماعيلي في فهرس شيوخه: "كان هذا السيد حلو الشمائل، طيب المفاكهة، آية في سرعة الإدراك، وتلخيص التقرير، يقرب العوبص إلى الأفهام بأسهل طريق وأقصرها، وينهض بهمم الطالبين إلى سلوك منهاج التحقيق والتمكين، له تأليف مبسوسة معروفة، لازمت دروسه في الفقه والأصلين، وجالسته، وفاوضته كثيرا، وأخرجت له بعض حاشيته على الشيخ الطيب من الميضة، وكان رحمه الله يجني ويجلني."

وصف دروسه عبد الحفيظ الفاسي في معجم شيوخه فقال: ". كثير البسط، حلة الدعابة، مليح الفكاهة، حاد النادرة يورد من ذلك في دروسه شيئا كثيرا إلا أنه لم يخل بوقاره، ولا بجلال منصبه لعظم ديانتته.

ملحق 3

دعوة للمشاركة في البحث عن سيرة (سيدي محمد بن قاسم) والذي له مقام بشرق مدينة مولاي إدريس زرهون.

هل يكون مدفونا بها أم هو مقامه قبل أن ينتقل منها؟

منذ مدة قاربت العشرين سنة وأنا أبحث عن سيرته. جل الاخوة والاخوات لم تسعفهم المعلومات مثلي. بعض المتخصصين في البحث اكااديميا لم نستطع أن نأخذ عنهم.

ما وجدته في دراسة يحتاج إلى إثبات أو إبعاد:

ونقرأ في معجم شيوخ سيدي عبد الحفيظ الفاسي أن سيدي محمد بن قاسم القادري تولى التدريس بجامع القرويين المبارك، فدرس الفقه والحديث والأصلين،

وكان رحمه الله تعالى زاهدا في تلقي الشهادات وتعاطي الإفتاء، دعي لتولية القضاء فامتنع، ثم أجبر فساعد ظاهرا،

***ولما سافر لحل مأموريته، ومر على الزاوية الزرهونية احترام بها إلى أن

أعفي، متباعدا عن السياسة مقبلا على شأنه،***

" توفى محمد بن قاسم القادري رحمه الله سنة 1331هـ، ومدفنه بروضة الصقليين داخل باب عجيصة، رحمه الله وجزاه عن فاس والمغرب خيرا، والله الموفق للخير والمعين عليه.

ما يوافق 1913 م.

1. فهرسة محمد بن قاسم القادري، إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية، محمد بن قاسم القادري الحسني، تحقيق محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء ودار ابن حزم بيروت. 2004.
2. معجم شيوخ عبد الحفيظ الفاسي، 52/1، ص: 53.

سيرة مدينة ونسيج حياة



الطيف والمرآة

*

سيرة مدينة ونسيج حياة

نبهان

نبهان، ظريف وسيم، رشيق خفيف، نحيف، لبق. هكذا كان منذ صغره. كبر نبهان بين أزقة الحي في اللعب والاندماج مع الجيران، ومساعدة الجميع فيما يحتاجونه إليه، سواء داخل دربه المحدود والذي يضم خمسة منازل تنزل إليها بدرج منحدر بأربع خطوات، أو داخل الزنقة الكبيرة التي يوجد بها درب نبهان ومنزل نبهان. لقي نبهان حنان أمومة، رغم أن أمه متقدمة في السن. فقد كان نبهان آخر من أنتجته وولدتها (امي صفية) كما يناديها الجميع. هي أم لثمانية أولاد، من زوجها الأول ثم من الثاني. أبو نبهان ..

عاش يتيما لأن أباه توفي وهو ابن ثلاث سنين. كبر الإخوة وتفرغوا للحرف والمهن. أربعة منهم غادروا البلدة إلى المدينة الكبيرة لأجل لقمة العيش. عباس

يشتغل كنادل مقهى. يزور أمه والعائلة كل نهاية شهر. أما بنعيسى فهو مساعد في حافلة للركاب بين الدار البيضاء وطنجة. اثنان آخران يشتغلان بالخياطة بمدينة الرباط حيث العروض كثيرة، وضمان دخل مناسب نظرا لنوعية الزبائن والربح العالي في الحرفة هناك. الرباطيان هما مجيدو وعبد السلام. يكتريان بيتا في أحد منازل المدينة العتيقة بالرباط. يشعران بالانتماء إلى الحياة العصرية من خلال هذا الاحتكاك، وهذا العمل، فتجدهما قليلا ما يحضران إلى البلدة، في المناسبات الرسمية الدينية منها على الخصوص.

أما أخته الغالية والتي تكبره بعشر سنوات، فقد تزوجت في سن صغيرة. كان عمرها خمس عشرة سنة. بنيتها كانت كبيرة. لذلك جذبت لها انتباه أم عبد الباقي، التاجر بالسوق البراني في المواد الغذائية والزيت البلدي وأنواع الزيتون على الخصوص. أما الباقي من الإخوة، فقد استسلم للقدر مع ظروف الولادة التقليدية، حيث لم يكتب لهم العيش والنمو، محمد البكر وعائشة التي كانت تسميتها على تسمية جدتها التي لم تعش إلا بضعة أيام قبل عقيقتها، والثالث الذي ولد ميتا غير مستهل.

وبقي نبهان هو رفيق أمه. لهما عالم خاص حميمي وأمومي وطفولي مشترك. ينعم بسعادته ويختلط بثقافته في مناداته: - نبهان، العربي ولد امي صافية.

حياته اليومية مركبة بين الذهاب للكتاب وحفظ القرآن وأخذ وصلة الخبز للفران، وتوصيل الأخبار وما هو مستعار بين جارات حيه وزنقته. هن جارات نبهان. كلهن كبيرات في السن إلا ما كان من ابنة أمي زهرة كما يناديها منذ نعومة أظفاره، لطيفة، فتاة لم يكتب لها الزواج.

بين سنته الأولى في الدراسة بالتعليم الابتدائي وحمولته من حكايات نساء الحي التي أتقنَ سماعها كما صنّف صاحباتها. وكان يختار ما يناسبه لتكرار سماعه والتمتع بخياله منها حتى إنه أصبح بارعا في إعادة حكيها وتخيّلها،، بنى عالما خاصا به. اعتمد عليه في تأويله للسماء وسُحُب السماء، وتأمّله لليل ونجومه وقمره الذي يظهر ويختفي في فهم التاريخ وصراع الجن والإنس فيه. حتى ما كان من بطولات سيف بن ذي يزن، ومقاومة الأشرار في بلاد السند والهند وعاقشة وعيروض وشخصيات بطولية أخرى، أحبّها إليه شخصية (حديدان الحرامي) الذي تحدى وتفوق على الشريرة التي تريد القضاء عليه وهو لصغر تسميته لا زال طفلا صغيرا يقاوم ظروف الحياة القاسية.

لم يجد نبهان ما يمتعته في قصص التلاوة المفسرة إلا النزر. لذلك لم يأخذ من المدرسة سوى ما تعلمه من قراءة وكتابة وطرق حساب أولية. ثلاث سنوات من التعلم، لم يستطع معها الاستمرار. أصبح لنبهان عوالم جديدة انضافت إلى جزيرته النسوية مع جارات الحي وأطفاله. عالم الحياكة والنسيج الذي

اخترق به المجتمع الذكوري مع أحد أخواله. عالم الخياطة الذي ربط ثوب الصوف ب"المحرّبة" المخيطة. عالم الأطفال الذي اكتشف داخله مغامرات الواقع واللعب واكتشاف البساتين ومنابع المياه والفرار من قبضة العسس فيما قد يقترفونه كأطفال، من سرقة لفواكه الربيع والصيف.

في سن العاشرة، كان مكتسبا لتجربة حياة، عائدا للكُتّاب لينوب عن الفقيه في مراقبة الصغار في حفظ القرآن. كانت تلك المهمة هي أجرته في عدم دفعه لقطعة النقود الحمراء التي تساوي عشرة ريات، مساء كل أربعاء. كما كانت له الحرية في عدم الذهاب باكرا كل صباح للمسيد، إلا حين تكون وصية الفقيه له بالحضور حتى يذهب للتسوق في السوق أو قضاء أغراض أخرى. في بعض الأحيان، يكون نبهان هو من يوصل قفة تسوق الفقيه إلى منزله البعيد والموجود بجانب ضريح سيدي محمد بن قاسم في طريق عين ويلي. ينال فطورا ثانيا من زوجة الفقيه، يرتبط غالبا بانتظار أن يخمر عجين الخبز، ويأخذ وصلتها إلى الفران في حي سيدي محمد بن قاسم. حينها يذكر المعلم الفران احتياطا حتى لا يحرق الخبز:

. قالت لك امرأة الفقيه إطرحها على اليمين كي لا تُحترق.

ازداد طوله وحافظ على نحافته. كان جلبابه المفضل ذلك الأزرق في لونه من ثوب (مليفا)، رغم أنه أصبح قصيرا يقترب من ركبته لنصف ساقه، لكنه كان صامدا معه في ما يتسخ به من دهن إسفننج أو كرة ممتزجة بالتراب

وغير ذلك من مخاطر اتساخ الثياب عند الأطفال في سنّه. كانت تساعدده لقصرها في تسريع الخطو وفي الجري حين يلجأ إليه. فالجري لازمة طفولية حركية لأجل الانطلاق في ذي الحياة ولأجل الإفلات من قبضة أحد اللّوم لفعلات الأطفال والتي تستحق عقوبة عند الكبار.

تحايّل في عدم الحصول على تعلم مكتمل أو البقاء في حرفة أو صنعة قارة منذ البداية. برّر ذلك باشتغاله بحفظ القرآن في الكتاب (الجامع)، والذي كان يعطيه حرية أكبر في الحضور والغياب، وتقديرا في التقرب من الفقيه وخدمته، والتزامه بتلاوة القرآن جماعة بعد صلاة المغرب، وأيام الجمعة كذلك، حيث يكون هو من يوزع المصاحف على المصلين ويجمعها. يكون ناجعا في ذلك وصارما، جاعلا الهيبة في نفوس من يعرفونه ويحضرون للمسجد الجامع يوم الجمعة. يختار البعض من أقرانه في جعل حكم قيمة نهائي حول شخصيته. يتردد في التهجم عليه أو يترك ذلك بالمرّة.

يوم السوق الأسبوعي، يرافق أمه وبعض جاراتها. يتكلف بإيصال جرّات الصوف التي تشترينها، ثم يعود لإيصال ففة الدوم المملوءة بالخضر والفواكه التي كتبت النقود شراءها حسب المستطاع.

في كل مرة تجتمع الجارات بيهو منزل إحداهن. وغالبا ما تجدهن في بهو منزل أم نهبان. تجتمعن للتعاون على نسج الصوف وحبكه بالمغزل والناعورة،

وجعله خيوطا مبرومة في كعب تراكمها حتى تباع في ساحة الدلالة بالسوق الداخلي، أو قد تجدن الطلب والوصية على البضاعة مسبقاً، إما من خال نبهان الدراز أو من طرف أحد المعلمين أو الوسطاء في الحرفة.

كان نبهان هو من يقوم بإيصال البضاعة أو المادة الخام. وكان هو من يوصلها محمولة إلى خيوط. وكان هو من يوصلها مصنعة في ثوب مطوي ملفوف إلى الخياط في (الدرازات) أو (الحويتات) سواء بحج تازكة أو الحفرة، وهي أماكن تواجد المصانع التقليدية للحياكة أو الحرفيين في الخياطة. وكان في بعض الأحيان هو من يوصلها مخرطة جاهزة كجلباب على مقاس لشخص ما معروف. بعض الأحيان لفقير الجامع أو لأحد المعلمين أو غيرها من سكان المدينة الذين تشغلهم تجارتهم أو عملهم عن الحجى عند الخياط. وطبعاً تكون له حلاوة السخرة غالباً ومكافآتها.

يسابق الزمن بسرعته وخفته وحيويته. لا يتأخر عن موعد أو سخرة، ولا يتفانى في مهمة. ما جعل الجميع يعول عليه في هذه المهام، وأية مهام هي؟ لم يُرد أن يعتكف على صنعة واحدة للتعلم، رغم دقة ملاحظته لها وتعلمه جل مراحلها. فالمغزل ألقنه كلعبة مع الصوف، حتى أصبحت خيوطها حرير بين يديه، وقد يؤدي المهمة إذا كانت أمه مريضة. والدرازة كان فيها خير معين لحاله.

أما الخياطة، فمن (البرشمان) *branchement* بالفرنسية، وهو مسك الخيوط الحريرية المركبة بين الأصابع لجعل الإبرة متابعة لتشابكها بين الخياط المعلم والصانع، إلى تبديل جنبات الثوب المخيط، كلها مراحل برع فيها كخياط كذلك. لكنه كان منفلتا كزئبق من كل تورط مهني ملزم. يتعايش بموازاة مع جميعها، في بحث مكتشف لجديدها. كانت حواسه وحركته على أهبة لالتقاط أي إشارة جديدة لم يرها في صغره في حيه أو مدينته.

حينما جاءت قافلة السينما للبلدة . والتي تنتقل بين المدن والقرى، وتجعل الناس يخرجون بصغارهم وكبارهم، نسائهم ورجالهم لأجل الفرحة العجيبة والصور الكبيرة الملونة، لأجل عالم يبهر ويدهش ويترك الأفواه مفتوحة .، حينما جاءت هذه القافلة، كان أول الجالسين بساحة الملعب أو ساحة الخيالة والفروسية بحسب وظيفة تسميتها في كل موسم . متأملا استعدادات الطاقم وحركة المخزن الخادمة له، ما دام حائط إدارة الباشوية هو ستار بث الفرحة للجمهور .

بين الشريط الوثائقي حول استقلال البلاد ورجوع ملكها وبناء السدود وموسيقى وأغاني عبدالوهاب الدكالي بمليون هكتار، والشريط الهندي الذي بث باللغة الدارجة المغربية بصوت الممثلين المغربيين الدغمي والمذكوري وغيرهما، كانت جماعات النسوة بالجلابيب والثلث أو (الحايك) المغلق الذي لا ترى منه سوى عين مسهمة ومركزة على المشاهدة، تساءل بعضهن:

. هل الهنود يتكلمون العربية مثلنا؟

سمع نيهان تساؤلهن وتابع المشاهدة دون أكثر من لقوس استفهامهن. أطفال ورجال ونساء، بين واقف وجالس مندهش، إما جلسة قرفصاء أو ممددا لرجليه متناولا لزريعة أو كاوكاو أو إسفنج عصري ظهر صاحبه فجأة كبائع في البلدة، فالتهمه الصغار والكبار، خصوصا وأنه محلى بالسكر المدقوق (سنيدا). كأن صاحبه أحد أفراد طاقم القافلة السينمائية مرافق له بين المدن والقرى. الكل ينادي:

. آمول البيني (الاسفنج) آمول البيني... مع تأكيدهم على نطقه بالفرنسية أو العرنسية (البيني).

بعد أسبوعين أصبح نيهان صاحب قاعة سينما. ريلان لمشاهدة ما أنتجه نيهان. في بهو المنزل، يستغل الجانب المظلم فيه. يجعل إزارا أبيض من الحائط إلى الحائط. يشعل شمعة خلفه. يجلس الأطفال بين ستة إلى عشرة أو أكثر. يتباهى بما ينجزه إشهارا لمنتوجه:

. تلك السينما التي رأيتهم على حائط الباشوية، كان الممثلون فيها خلف الإزار. فقط هم يستعملون الكهرباء وأنا استعمل شمعة.

يبقى الكل فاتحا فاه لما يقوم به نيهان.

يدخل نبهان خلف الإزار، يقوم بحركات وأصوات عجائبية وحوارات ارتجالية يسترقها من حكايات جارات الحي أو ما التقطته أذناه من مسلسلات بعد الظهر من المذيع. يتطلع الأطفال للمزيد. يعدهم بقصة جديدة بعد يومين أو ثلاثة. في المساء، ومع غروب الشمس، يكون عند نبهان ما يشتري به شاطر ومشطور وبينهما نقانق حارة في المذاق وحامية بسبب حرارة نار الشواية، لكنها لذيذة في المذاق ومغامرة في الأكل داخل بيت الأمعاء.

بعض المرات يلعب دور مدرب رياضي، يجمع أبناء الحي، يحدد من سيلعب ضمن الفريق. يرافقه إلى ساحة أسفل الحي، ما دام البناء منحدر جبلي متدرج. يحدد بعض الرياضات للمشاركة، ومن يسجل الأهداف يكون رفيقه في تناول وجبة النقانق التي قد تكفي للقسم أو تكون مجرد تذوق لطعمها فقط.

عالم جميل ومسؤوليات كبيرة ومهمة جرّبها وتحملها نبهان، داخل هذا المجتمع التقليدي الذي بالكاد أطل على التطور المعاصر بالكهرباء وكراء التلفاز من صاحب الدكان لمشاهدة بعض الأفلام والأخبار.

...

مع سن العنفوان والشباب، أصبح نبهان عارفا بعالم الجنس والمرأة وضرورتها في الحياة. فقد جرب مع ابنة الجيران، أو قل هي التي جربت معه. ما دام صغيرا عنها في السن. جلبته للعبة وهو طفل في الحادية عشرة من عمره. لكن خفقان قلبه واكتشاف خطورة دقائقه كانت خارج الحي مع ابنة خالته التي أحبها وقدم لها هدايا بسيطة أو نفيسة، فهي رمز لتعلقه بها، وهي التي تصغره بستتين فقط. تشاركها اللعب كما تشاركها تحولات الغدد والجسد والأشواق والأحلام.

يوم السوق الأسبوعي، كان يشتري كتب العشق والغرام. ومرة اشترى الروض العطر، أخطر الكتب التي قرأها معها فوق سطح أحد منزليهما. تتابعه بابتسامة واتكاء على كتفه، يشعره ذلك بأنه الفارس البطل الذي يجب أن يتابع المغامرة ويقودها. حتى كتاب الرسائل الغرامية اشتراه يوم السوق الأسبوعي، وجعله تحت جلبابه حتى لا يلاحظه أحد. ذهب مهرولا ليخبئه في الصالة التي في سطح منزله. حينما كان يقرأ عليها ولهما تلك الرسائل، كانت الأفكار تسافر عبر مسامعهما، وتخترق فهمهما بما جادت به الكلمات المتاحة للفهم. كانت الأفكار تتشكل من جديد، مكسبة لهما

أدوات التعبير عن الحب بلغة عربية فصيحة، بتشبيهات رائعة وأبيات شعرية يعاود قراءتها مرارًا ومرات حتى يؤثر طربها ولحنها ونظمها على وجدانيهما. تلتصق به عاشقته لشدة شوقها وخوفها من هذا المجهول الذي هو الغرام. وأكثر ما يسعده كذلك، حينما كانت تقشر له الليمون ليأكله بعد الغداء فوق سطح المنزل وهما يقرآن ويسمعان عجائب الصفحات المكتوبة. أما الأم والخالة، فتعليقهما يكون ب:

. تبارك الله، جمع الصنعة وحفظ القرآن والقراءة، الله يحفظه وينجيه.

سكن الشوق في الوجدان، وطُبع القلبان على الود، وأصبح تنفس كل واحد منهما بقلب الآخر المجاور له. ولكنه لم يكن بعدُ مستعدًا للزواج.

لم تنتبه الوالدتان لما انغرس في قلبي الشابين العاشقين. كان اسمها جميلة، اسم على مسمى. لم تلبث أن جذبت نظر من تزوج بها فيما بعد. قدر اجتماعي لا بد منه. لكن هناك قلبا مأخوذا، معتقلا في شوق ورغبة خارج القفص الذهبي. وتلك مشكلة أخرى عاشها نبهان.

الجميل في نبهان، أنه رغم زواج جميلة، حافظ على زيارة خالته. وكم كان عزيزا عليه تناول وجباتها اللذيذة من فلفل وطماطم مشرولة، وجزر حمض حار لذيذ جامع بين حلاوة وحر الفلفل السوداني.

لقد أصبح الوسيط التجاري بين تجار وبائعي الصوف والحياسة والخيطة. اکتري دکانا صغيرا بالفندق القديم الخاص بالحرف. وكان يشتري الصوف كل أسبوع ويوزعه على النساء اللاتي تقمن بغزله بالناعورة، ثم يعطيه للدراسة لكي ينسجوه ثوبا. فيبيعه بثمن مناسب، جعل له ربحا وراتبا ومدخولا استقل به ماديا، وساعده في إعالة أمه معتمدا على نفسه، خصوصا وأنه كبر ويعيش معها بالمنزل لوحدهما.

قصة التسمية - اللقب

نبهان صاحب الأجر الكبير والعمل التطوعي داخل المجتمع التقليدي بمدينته الصغيرة. تراه حاضرا في الجنائز متقدما صفوف قراءة القرآن وموكب الجنائز إلى المقبرة. هو من يفتح قنينات ماء الزهر، فيرش بها الحاضرين. هو من يدعم بنفسه القوي تلاوة القرآن الجماعية في ليالي الصدقات والولائم. ولا البردة والهمزية، فإنه ينشدهما بشكل يطرب به المسامع، حتى إن أصحاب المناسبات يلحون عليه في الحضور.

لنبهان جماعة أصدقاء يشتركون في ليالي سمر وأشياء أخرى. كان أمر (المصرية) المكترة سرا بينهم. هي شقة صغيرة، يخصصها الشباب أو العزاب على الخصوص للالتقاء والسهر ولعب الورق.

كان نبهان هو من يعد (الطنجية)، حيث يوصي الجزار بتوفير (الملح) من لحم العجل، ويعد معه في الدكان الطنجية بالسمن الحار والثوم والتوابل ورأس الحانوت، والتمر مرة أو الحمص والزبيب في أخرى. يأخذها لبيت النار

في الحمام البالي أو الحمام الجديد عند (الفرناتشي*) الساهر على اتقاد نار تدفئة ماء الحمام.

وغالبا ما يعطيها ل(فرناتشي) الحمام البالي الذي يعتني بوضعها منذ الزوال فوق رماد حام، ويعمل على تحريكها ليتأكد من اكتمال طهيها. يكون اللقاء بعد صلاة العشاء بنصف ساعة تقريبا. كلّ يحضر ما يشتهي ويدمن عليه في السهر.

لم يكن نبهان يحب الخمر ولا تدخين الكيف. كما أنه لم يكن يبحث عن غلام أو بائعة هوى. ذلك أن المدينة التقليدية معروفة بشدة مراقبتها لأخلاقيات الأشخاص ما يجعل تصريف الرغبات مكبوتات محرمة وشاذة في بعض الأحيان. فقد يكون كل هذا حاضرا، في حضرته، لكن نبهان يضحك ويغني وينكت، ولكن دون استعمال ما هو محرم. ما يفضله نبهان هو (الصائمّ). معجون مقوّ للحرارة الجسمية ووظائف الأعضاء، ومنها الوظيفة الجنسية، خصوصا أيام البرد والشتاء. الصامت مكوّن من نقلة الكيف أو وريقاته الصغيرة كما يسميها أصحاب البلية (النويني)، يوصي على توفيره صديقه الخياط المدمن على الكيف والحاضر في ليالي السمر والسهر، وكذلك

• من الكلمة الفرنسية **le Fournier**. وكلمة اوربية أصبحت متداولة في الدارجة المغربية مع تغيير في نطقها والعمل على تبيينتها مع اللهجة المحلية. تنضاف إليها كلمة **graisseur** والتي أصبح نطقها (الجريسون). وهو مساعد في حافلة النفل العمومي. أما كلمة الطنجية فتدل بالأساس على الوجبة التي تحضر داخل قدر طيني مغلق.

من العسل وما لذ من الفواكه اليابسة. يتناول منه ما يناسب، خصوصا في فصل الشتاء البارد.

...

لكل زمان عشيقته. فقبل زواجه، كان منظما لعلاقات عاطفية، خولتها له معاملاته التجارية. لم يكن تحريم الخلوة في الإسلام مجانبا للصواب، خصوصا مع البنية النفسية المركبة لشخصية المسلم المنغلقة في مجال ورقابة محاصرين، والذي يجعل الغياب للجنس الآخر سبيلا لتغيب التفكير في الرغبة وقهرها وتعويضها بانشغالات الصلاة والصيام والعمل. لكنها مراقبة كذلك، تجعل دفن الرغبة تحت ضغط الغياب، بحيث إذا حضر الجنس الآخر انفلتت هذه الرغبة وجعلت سبيلا للتحقق. وما هي إلا فرص يتم انتهازها ثم نسيانها وتجاهلها. هكذا يتعامل البعض مع الممنوع والمرغوب، وهكذا يتعامل نهبان مع الأمر بكل حذر وسرعة تحقيق. وقد يبرّر من يعرف الحديث بقوله: (إذا ابتليتم فاستتروا) !

...

يتذكر نهبان كيف اكتسب هذه التسمية . اللقب. ويعجبه كثيرا أن ينادى عليه بها، رمزا لبطولات الحكايات المروية في الطفولة والشباب. مرة ذهب التيار الكهربائي وانقطع. ما تزال المدينة تمتلك وسائل إنارتها القبل حدائية، كالفانوس والشمع، للحاجة أو لعدم الثقة والاعتماد الكلي على هذا

الكهرباء الذي يكلف أداء وضريبة وأوراق رسمية مع الإدارة، والذي يخلق النفور ممن أتى به إلى البلاد، وهو المستعمر. وهي مسألة لا شعورية.

دزينة شموع منزلة على رف في الحائط قرب باب (المصرية). وأخرى في صندوق خشبي أتى به الخياط بعد أن تقادم عند أسرته، والذي يضم بعض الأشياء التي يحتاجونها في سهرهم، متعلقة بلوحة خشبية لقص الكيف، وغربال من بقايا علبة سردين معدنية فارغة، وسكينين. كذا بعض وسائل التدخين كالسبسي المطوي أو الغليون غير السميك و(الشقف*)، بعددٍ احتياطيٍّ لأجل الاحتياج، إلى جانب بعض الأشرطة السمعية التي استحدثت للموسيقى مع بداية السبعينيات.

لكن أين هي الإنارة؟ لقد انقطع التيار الكهربائي. الحمد لله أن الطنجية قد أكلت. ولكن، لا يزال السهر مستمرا رغم أن مشروب الشاي قد نفذ، ولم يبق إلا البرتقال المعلق على الجدار بعيدانه وأوراقه كباقة متدلّية، حيث كل مرة تقشر واحدة لتحلية طعم الكيف.

حافظ نبهان على ذكره، فكان يطلب من فاطمة عشيقه الخياط في السهر، أن تقشر له شنانيف من الليمون. لعبت رائحة الكيف بدماع نبهان وهو

* - هي مصطلحات خاصة بأدوات تنقية وإعداد وتدخين القنب الهندي المشهور بتسمية الكيف.

يستحضر اسمه الحقيقي (العربي). كما أن معجونه من الصامت قد خمر عقله
ولسانه. مع ضوء الشموع، احتاج الجمع إلى حديث شيق ونكتة أخرى في
غياب الموسيقى. حكى لهم الجزار قصة طالبي القرآن وحفظته، اللذين جلسا
على مائدة دجاجة محمرة شهية. فجأة ذهبت الإنارة في ثوان معدودة. رجعت
هذه الإنارة بسرعة. علق أحدهما:

. ويجه ! لقد أخذ القط الدجاجة.

أجابه الطالب الآخر:

. أخضِرُ الدجاجة فالقط بين يدي !

احتكر العربي الكلمة، فقال من بين ما قاله:

. انتظروا، سأحكى لكم قصة سيف بن ذي نبهان حتى يطلع نور الصباح...

قهقهه الجمع حتى سالت الدموع لكثرة الضحك. وكح من كان يدخن الكيف
ماسكا بالسبسي لدرجة تدلي عينيه بسبب سعاله. علق عليه أحدهم:

. إنه سيف ذو يزن آ العربي وليس بن ذي نبهان. أنت هو النبهان والغفلان.

و استمر السمر مع النبهان:

. تابع الحكاية آ السي نبهان...

بقيت ذكرى الليلة البيضاء مرتبطة بحدث اللقب، أما حكاية سيف بن ذي يزن، فيعلمها الجميع، ويتابعون حلقاتها في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة بعد زوال كل يوم، ما عدا يوم الأحد.

قصة الألقاب، ثقافة اجتماعية فيها من التعليق والمدح والقدح، ومن التسجيل للأحداث التي تقع في حياة الناس اليومية، ما يجعل المادة دسمة للتناول والمناقشة. لقد حضر نيهان لكل من أصدقاء (المصرية) قصة تسمية أسرهم وحكاياتها. وما قام به أصحاب التسجيل في دفتر الحالة المدنية من اعتماد لألقاب أو كلام منفلت لتسمية الناس بأسماء غريبة:

. والحمد لله أنا نيهان. انظروا لهذا الكيايفي، جالس يدخن ويضحك، كأنه أصمّ. لماذا سمي (ليبان). أبوه ذهب لتسجيل دفتر الحالة المدنية، سأله الموظف:

. ماذا سأكتب؟

أجابه: . (لي بان ليك نعام سيدي). ما بدا لك سيدي.

. طيب. نكتب ليبان. سمّوه ليبان. يا الله، لقد سجلك في الحالة المدنية (الجيلالي ليبان).

. وأنت ألعلم الجزائر، تبيع لنا اللحم وتجيء تأكل الطنجية فابور (مجانا). داركم واحد النهار طبخوا الملاوي. وخرجت أختك الكبيرة تصرخ وتنادي:

. طيبنا الملاوي • ، طيبنا الملاوي.

وبقيت الحكاية بين اليور والمنازل. الآن داركم دار الملاوي. ياك آسي الجزار؟

يغضب الجزار وينهض:

. والله يوم الخميس لن أحضّر لكم أية طنجية، آ المساخيط. كلوا الملاوي،
عمروا بما المصارين.

قهقه الجميع من جديد. نبّههم أحدهم إلى خفض الصوت: . (الجيران نايمين
والحيطان تسمع حديثنا).

• - وجبة رقيق رقيق من الدقيق وتكون مدسمة بدهن او زيت. ربما سميت كذلك لأنها يمكن أن
تلوى لفائف وتؤكل.

...

الصناعة التقليدية، مهارة يدوية حرفية، تتنوع وتتوزع بين فئات مجتمعية ذكورية وأنثوية. اقتصاد مرتبط بحاجيات الناس ومتطلباتهم الحياتية في كل الفصول. لقد أليف نبهان منذ صغره التعامل مع السياح الأجانب. كانت أمه تقوم بطرز مناديل بحري تقليدي وألوان زرقاء وحمراء في الغالب، يسمونه الطرز الرباطي. يذهب نبهان لبيعها للسياح الذين يزورون المدينة. يتواصل معهم ببعض الكلمات والابتسامات:

- بونجور مادام. بونجور موسيو. لو موشوار، دو ديرهام...

بدأ يتعلم الحوار بالفرنسية مع أقرانه ومرشدي السياحة وسماعه لهم وهم في رفقة السائحين والسائحات في جولة عبر أزقة المدينة ودروبها. ففترة السبعينيات عرفت حركة سياحية مهمة، ارتبطت بمجاورة المدينة لآثار مدينة ويلي الرومانية. كذلك، كونها مدينة تقليدية على شاكله فاس ومكناس العتيقة ووزان، حتى إن صورة المدينة جعلها مكتب الإرشاد السياحي في إطار على جدران محطات القطار وغيرها. لكن، للأسف فوزارة السياحة بدل أن تكتب مدينة مولاي إدريس زرهون، كتبت مدينة شفشاون. ربما لجهل المسؤولين بما يعملون فيه وعليه. وربما لجهلهم بكون مدينة مولاي إدريس

زهون من أقدم المدن المغربية بل إن منطقتها تعتبر أول عاصمة مغربية للدولة الإدريسية التي بايعت فيها قبيلة أوربة إدريس بن عبد الله ملكا.

ما تلقاه نبهان في التعليم الابتدائي لم يكن كافيا للتكلم باللغة الفرنسية. هكذا فرضت الحياة بظروفها أن يزيد من تعلم اللغة ويتاجر بها. وليس هو الأول ممن سيكون عصاميا في تعلم اللغات، فكم من مرشد سياحي تعلم الإنجليزية والألمانية وغيرها بمجرد الاحتكاك، منذ الصغر، مع السياح.

لما كُتِبَ نبهان أو السي العربي، فكر في ترويج سلع الصناعة التقليدية مع السياح. فالبيع والشراء في الصوف والجلابيب لا يكفي. خصوصا وأن قطاع الصناعة التقليدية يعرف أزمة وتراجعا، نظرا لمنافسة السلع العصرية الجاهزة له.

هكذا كان دكانه الصغير مليئا بما يمكن أن يعرض لسياح يزورون الفندق القديم كلما سنحت الفرصة بذلك. بعض المرات يجعل السلعة بين أيدي مرشدي السياحة رسميين أو غير رسميين. ويجعل سقفا للربح والباقي للوسيط في التجارة.

ولم لا، تصدير السلعة الجيدة للمدينة الكبيرة. مادام الاختناق طال العرض والطلب. نعم. لقد خلق اتصالات تجارية من خلال موسم المدينة، ومن خلال التجار الذين يأتون للسوق الأسبوعي لشراء الصوف والجلابيب. هكذا أخذ يغامر بالسفر بالسلعة لأجل التمتع بالركوب في الحافلة والتجوال

في المدينة العصرية، وكذا لأجل فرض ثمن يحقق ربحا زيادة أفضل مما يحققه في سوق الدلالة للصوص بساحة السوق الداخلي للمدينة العتيقة أو في العرض مع السائحين.

يوم السفر للمدينة العصرية يلبس نبهان لباسا عصريا، سروالا ومعطفا. يمر أمام الجزائر (سي الملاوي)، يعلق عليه هذا الأخير وهو ماسك سكينه اللامع:

. هي المدينة هذا النهار يا نبهان؟

. تعال معي ورافقني في هذا السفر.

. على حسابك؟ كل شيء؟

. وأنت، تلك النقود، ماذا ستفعل بها؟ اتركها تأكلها الرطوبة أفضل.

. ليس هناك منينوب عني في الدكان. أما وإني قد مللت الجلوس هنا في الحانوت. ما كرهت نفوج معك.

. الله يعاونك. ولكن وجد الطنجية على حسابك هذه العشية.

...

هل يبقى القلب معلقا بشخص لا يميل لغيره. لا يبدله بآخر؟ لا تساوي عيونه وبسمته في قلبه أية عيون أخرى؟ مهما برقت وأزهت؟ ربما.

مع نبهان كذلك. يبدو أنه حب عذري انغرس في قلبه فوق السطوح منذ الصغر وعبر قراءاته وأكله للبريقال. لم تستمر بنت خالته في زواجها كثيرا. بعد طلاقها ومرور عدتها، بادر مفاحتها بالزواج. وكذلك كان. هكذا خرج من حياة العزوبية إلى دائرة الزواج. ازدادت حيويته في التجارة والوساطة بين التجار، حتى أصبح عنصرا مهما عند بعضهم، ضروريا في بيع منتوجاتهم. يعولون عليه فيما يحتاجون إليه من سلعة خام أو أدوات مصنعة من المدينتين الكبيرتين مكناس وفاس: حرير، خيط، أزرار، أثواب، عقيق، منتوجات سياحية...

حمولة في الذهاب وحمولة في الإياب، سفير بين جبل زرهون والمدينتين.

...

الحاج حمدان

شاءت الصدفة أن يكون لقب السي العربي كما يناديه تجار المدينة الذين يتعامل معهم على نفس وزن وتفعيله اسم أمين الحرفيين التقليديين (الحاج حمدان). لكن نبهان لم يذهب للحج بعد. ولا يفكر في هذه العملية الآن.

بدأ ينال احتراماً لشخصه مع من يتعامل معهم. خصوصاً وأنه كلما ازداد التواصل مع الناس كلما ازدادت بركة المتاجرة مع نبهان. فهو مفتاح سوق مدينة تستقبل سلعهم وما جد فيها ومنها.

الحاج حمدان، كان يخص نبهان بالترحاب، خصوصاً وأنه يأتي من مدينة مقدسة اجتماعياً عند أسرة الحاج حمدان. فأسرته تزور هذه المدينة كل سنة في موسمها الحافل. تكتري غرفة أو منزلاً صغيراً وتُحضر معها ما تحتاجه لقضاء أيام احتفالية ربانية. فقد استطاع الموسم أن يكون فضاءً تلتقي فيه الأسر من المدن العريقة في المغرب: فاس، وزان، سلا، الرباط، تطوان... واللائحة طويلة.

هي فرصة للتلاقي والتعارف وإثبات الذات وتبيان القدرات في التحضر والارتباط بالثقافة والعبادة وأثر نعمة الله على خلقه في التجارة واللباس وحسن العيش لمكونات الأسرة من أطفال إلى نساء ورجال.

أسرة الحاج حمدان تميل إلى ثقافة الطائفة العيساوية، ارتباطا كبيرا، تحكمه مجاورة ضريح الشيخ الكامل وعلاقات الحاج حمدان بساكنة مدينة مكناس وأعيانها. وكذلك الثقات في المعاملة والدقة في الصنعة التي اشتهر بها. مقامه في الصف الأول للطائفة العيساوية المكناسية حينما تكون بغيظتها وطبؤها وذكرها قاصدة في دخلتها ضريح المولى إدريس الأول. عباءة بيضاء ولحية بيضاء وكوفية صفراء اللون وسبحة تختصر في تسميتها بفعلها الذي هو التسبيح تكون على مدار العنق، ويدان متآزرتان مع أيدي أخرى، مرفوعة للدعاء والذكر: . الله دايماً...

تتكرر العبارة حتى تصعد إلى العلياء، فتخترق طبقاتها وسماواتها، ترافقها الغيطة وإيقاع الطبل والبندير الراقص. وتترك مهمة الحضرة السريعة للشبان القادرين على مسايرة إيقاعها بين مرحلة الذكر والتذكير وقراءة حزب سبحان الدائم، ومرحلة الحضرة، ثم المجرى وهو ذكر بدون آلات دف أو تزمير، والذي يتبدئ به الطائفة وتختتم به عشيتها، قبل أن تسرع في الإيقاع، حيث تتعالى معها أصوات وأصوات وزغاريد: آ الله الله، آ الله الله...

تتطاير الأجساد بشكل عمودي في الرقص، من طرف العيساويين والجمهور كذلك بعد أن تتمايل أفقيا متماوجة ومتماسكة الأيدي وكأنها تتعاون من أجل العروج الجماعي، كأنها تريد العروج فعلا وفك الارتباط بالأرض، خصوصا النساء اللاتي تُحَضِرْنَ وترقصن حتى درجة الإغماء وفقدان الوعي، فتذهبن في غيبوبة نسبية. لكن رقصتهن لا تعبر عن ذلك القفز المحب للعروج. أو يكون لطم أيديهن فوق صدورهن وتشعيث شعرهن ومحاولات التخلص من قيود اللباس والأزرار، تعبيرا عن رغبة في التخلص من نوع آخر؟

...

للحاج حمدان وشيوخ الطائفة العيساوية صفة المسؤولية والثبات والمراقبة مع خشوع في المهمة وطرب في الذكر يساير ويتعايش ويبارك الشباب العيساوي والجمهور العيساوي.

تكون هدية الطائفة للضريح وشرفاء الضريح عجلا سمينا أو زربية كبيرة تعلق على إطار مربع خشبي يجلب الناظرين من الحاضرين لمرور الطائفة التي تجعل لوحة تعرف بها بارزة عالية:

(الطائفة العيساوية المكناسية برئاسة الحاج حمدان).

شرف ثقافي لا يوازيه شرف. يأخذ شرعيته من ذلك الحضور الغفير لآلاف الناس للموسم السنوي، وتلك العناية الرسمية بهم من طرف السلطات وباشا المدينة والوفد المخزني... ذلك الاحترام الذي يوليه الناس طبقات وفتات وأعمار، يجعل اللاشعور يتعالى بالارتياح، يتوضع بالتحية والسلام، والحمد لله على كل نعمه ورضاه. والحمد لله على لحظة تكون آمنة من كل خوف!

الحاج حمدان رئيس الطائفة العيساوية، أمين الحرفيين والفخارين. كلمة مسموعة واستشارة مرفوعة. أبواب مفتوحة في مكاتب العمالة لاستقبال الحاج حمدان، وفي قصر البلدية والمصالح الإدارية الرسمية. واسطة أصحاب المال والمشاريع لتقديم البركة لأولياء الله الصالحين والأضرحة التي تزار وتقام فيها المواسم وتحضرها الطائفة العيساوية. راكمت التجربة في الثقة والحرفة والمعاملة شرعية كل ما سبق ذكره. كما طبعت الشخصية بالنجاح في طلب الدنيا والآخرة.

الحاج حمدان متزوج من امرأتين، تعيشان معه في رياضه بمدينة مكناس، تحت سقف واحد ورعاية واحدة داخل المدينة العتيقة، بالقرب من باب تيزيمي المؤدية إلى الفخارين مكان معمل الحاج حمدان لصناعة الفخار، والذي جعل ابنه البكر مسؤولا مباشرا عليه، في حين استفاد أولاده الآخرون من تعليم مناسب في مدينة مكناس والرباط، ما خول لهم الحصول على شهادات ومناصب شغل محترمة في التعليم والعدل.

الزوجة الأولى للحاج حمدان (الحاجة فضيلة العلوية)، لم ينجب معها أولادا. لذلك، وبعد ثمان سنوات من الزواج بها، تزوج للمرة الثانية وبمباركتها من فتاة اختارتها له الحاجة فضيلة من عائلة بالمدينة القديمة كانت تتعلم الطرز والطبخ عندها. ستصبح الحاجة كنزة بعد ذلك، وهي التي سينجب معها أولاده. شكلت الزوجتان معا أسرة واحدة في التربية والرعاية والتنشئة.

كلمة الحاج حمدان مسموعة مهيبة. لا مجال لوسوسة أو مكيدة. صرامته يعلمها الناس قبل التعامل معه. لذلك توفق فيما ذهب فيه وإليه. حتى ذهابه للحج للمرة الثانية، جعل رفقته فيه زوجتيه معا، مستفيدتين من بركة حج وعمرة مبرورتين.

ومع تكاثر المعاملات التجارية التي أقامها نبهان بمدينة مكناس، كان لقاءه مع الحاج حمدان، رغم اختلاف الحرفتين والبضاعتين. فقد كان يشتري من نبهان أو السي العربي ثوب الجلايب الشتوية والصيفية. وهو في تعامله معه يرغب في مباركة ابن المدينة التي يحترمها ويقدمها بترحمها بتعليقاته:

. (شايلاه آ مولاي إدريس) كل شيء لله تعالى. (الله ينفعنا ببركته). (سلم على الشرفاء كاملين). (بلاد زينة لا يأتينا منها إلا الخير)...

هكذا خلقت الصداقة بين الرجلين، رغم البون في العمر بينهما. الأول في الثلاثين والثاني في الثانية والسبعين من العمر. ولما كان موسم المولى إدريس،

كان الحاج حمدان ضيفا عند نبهان . السي العربي وأسرته، أمه امّية صافية وزوجته لالة جميلة وطفلهما الصغير أحمد.

لكن نبهان أو سي العربي، مع أية طائفة هو؟ هل هو عيساوي أم حمدوشي أو تُهامي أو كناوي أم ماذا؟

ما أَلَفَه خلال السنوات الماضية هو (فَصَارَةٌ) أو سهرات الملحون. وكذلك (هجهوج) كناوة. كان حافظا لقصائد الملحون، مادامت تلي وتغذي ثقافة كل إنسان بين مدح الرسول والتغزل بالمرأة وانتقاد أشكال العيش والمعاملات بين الناس. كانت ملكة الحفظ التي صقلها حفظ القرآن والسماع للحكايات والأحجيات، قوية عنده، حيث يجلس بجانب (ابّا عمر) صاحب العود. هذا الأخير يرافقه بالقسمات والأوتار مع تغنيه بقصائد الملحون: (فاطمة)، (الخلخال)، (الخاتم)، (باحمان الخريقي) وغيرها كثير.

كان نبهان من الجيل الثالث لرواد الملحون. لكنه كان من عشاق الحفظ والطرب أكثر من متقني العزف على آلاته وأدواته. عايش الأسماء الكبيرة كالحاج براشد والحاج إبراهيم ومولاي سليمان وغيرها. استلهم فلسفتهم عموما وثقافة عيشهم وتعايشهم مع هذا الفن العريق. نسج علاقات اجتماعية داخل وخارج المدينة بفضل هذا العشق الرقيق الذي يغذي وجدانه الغارق في العشق الحامي الذي يغلي في فؤاده لساكنة قلبه من النساء.

كؤوس الشاي وحلويات النشاط أو (كأطوه النشاط) . ممزوجة بمخدر الكيف وزريعته . وتدخين الكيف من طرف البعض، تكون هذه هي مرفقات الطقس الاحتفالي في ليالي الملحون، وأكثر ما تكون في أيام الموسم في فصل الصيف. فقد كانت هناك مقهى خاصة بالملحون، والتي لها زبائنها الخاصين، مثلما أن عيساوة أو حمادشة أو كناوة لها كمجموعات وألوان فنية وصوفية شعبية سهراتها داخل بعض المنازل ورياض المدينة... وكلّ يقصد ما يعيشه أو يتجول عبر الأماكن مستمتعا بساعة هنا وساعة هناك.

لكن سمر كناوة خاص جدا. فاستعماله ل(الصامت)، جعل رفاهه من هواة كناوة أكثر. يحضر ليايلها. يُحَضَّر ويرقص على قرباتها وطبلها. يستثير عيشة الكناوية ولالة مليكة من عالم الجن، ويخترق مجهول النفس واللاشعور الجمعي الذي يعيشه بثقافة مجتمعه وأحجياته وحكاياته، وعقلية مجتمعه القروسطية جدا.

وتكون رقصته المفضلة التي يستسلم فيها لحركات تدق أبواب الأرض قبل السماء لكي تجيبه عن سؤاله المستمر، ولكي تفسر له استمرار جرحه الدفين في الوجود. يرخي أطرافه مع الإيقاع البطيء متخلصا من قيود النفس وحكامه العقل ورقابته. يذرف دمعته التي تكون مشروعة في ذروة الوجد الذي يعيشه. ستفسر بأنها لأصحاب الحال، أو بكونها نوع شكوى من طرفهم لوجدان البشر الذي يتجاهل وجودهم ومعاناتهم.

...

يتذكر نبهان أو السي العربي، حيث أخذ يؤكد على ندائه بالسي العربي، يتذكر مع أصدقائه من مراحل عمرية مختلفة، طرائف موسمية كانوا أبطالها وخلدت في ذاكرتهم، يوم وقفوا بساحة السوق الداخلي أمام فرقة كناوية، جالسة في زاوية ومحاطة بجمهور يستمتع بدقاتها وطربها، كيف طلب منهم صديقهم الملاوي أن يدخل حلبة الحضرة على الموسيقى الكناوية، وعندما سيرونه يخرج السكين واضعا مديته له على ساعديه لبداية استعماله في تشريط جلده تقريبا بالدم للالة عيشة ولاالة مليكة الكناوية، سيشير إليهم لكي يتدخلوا لإيقافه وإخراجه بطلا كناويا من الحضرة دون مس جلده بالسكين. لكن، الطريف في الأمر أنه لما دخل للحضرة، تأمرت العصابة من أصدقائه على تركه متورطا مع السكين والحضرة. وأخذ الملاوي في غمزهم لكي يتدخلوا ويغمغم بسبهم لتأخرهم... فكان المشهد ممتعا لحصلته وتورطه.

واليوم الذي سرقوا فيه طنجية صديقهم الموساوي، والتي وضعها أب الموساوي في فرن الحمام، وبقيت العائلة تنتظر وصول الطنجية، لكن العصابة ذهبت بها إلى عرصة من بساتين عين القصر، متسللة دون علم الموساوي. والكارثة، أنهم بعد الانتهاء وضعوا بداخلها حجرا وماء حتى تبدو مملوءة ووضعوها أمام باب منزل الموساوي، ولما فتحها أهل الموساوي ظنًا منهم أنها فقط ضلت طريقها إلى البيت، قاموا بصبها في الصحن النفيس. انكسر صحن الطاووس

الغالي الثمن آنذاك. فازداد غضب الموساوي، واضعا سهام اتهامه لمعارفه من العصابة من الأصدقاء. لكن لخطورة ما قاموا به، تكتموا على فعلتهم حتى طواها النسيان.

الذكرى المرحمة الأخرى هي جلوسهم على سور بجانب الطريق الذي تمر منه طوائف عيساوة وحمادشة. ولما رأى أحدهم المخازنية قادمين في دوريتهم، كان قابضا على شيء في كفه، فتظاهر بالانفعال والخوف وشدَّ يده على يد، وجعلهما بين فخذه، ظن المخزني أنه يقوم بتحضير لفافة حشيش، ومخدر ممنوع. فوقف أمامه ودعاه إلى كشف ما بداخل كفه. أبدى الرفض في البداية، لكن حينما ألحَّ المخزني على أن يرافقه إلى مركز الحراسة، أظهر ما بكفه. كانت فقط (تنفيحة) من التبغ المدقوق، مسموح استعمالها واستهلاكها. فكان مشهدا أبدى الخوف للجمهور الحاضر، لكن مع انصراف المخازنية انقلب كل شيء إلى ضحك وتعليق ساخر. سجل صاحب التنفيحة ضربة جزاء في مرمى المخزني الذي غضب وأراد القيام بالواجب والقانون، وإن كان القانون غير مرغوب فيه من طرف العامة؟ ما العمل؟

مرة عيساوي، ومرة كناوي، ومرة من رواد الملحون. وكما يقول السي العربي معللا تعدد هواياته:

. (الراس ليّ ما يدور كدية).

قراءة اللطيف بلسم الوجدان وبر أمان

يسكن الناس في هذه المدينة العتيقة جو رباني، وطقس اجتماعي وثقافي إذًا. يؤمن بالجن وصرعه، بأهوال الآخرة، وحكايات منابع المياه وأسرار الأماكن المظلمة. تعايش غير رافض للتناقضات، لكنه داع إلى احترام الخصوصيات والاختلافات.

هكذا تجد الشخصية عند فرد ما مركبة في التكوين بألوان متعددة كلوحة تتغير معالمها مع تحول وتحرك أشعة الشمس اللامعة على سطحها. كل هذا تشكل في شخصية نبهان كما في أصدقائه وآخرين كذلك.

للشارع العام خصوصيات التحدي للمراقبة الأخلاقية العامة، ولسلوك الفرد لحظات الاختراق للثابت في ثقافة الناس. تجريب دائرة المحرم حتى يشفي غليل وفضول المجهول، حتى يجعل داعيا للندم وتحريك آلية الضمير والتكثير من سبل الاستغفار وطلب التوبة والتزام صلاة الجماعة. وخير الخطائين التوابون.

تجد الشباب متناولاً للمخدرات أو الخمر، منحرفاً في فضاء الموسيقى الكناوية أو الملحون، منجماً للنشوة والتعلق باللحن والطرب والكلمة فيه، وأخطر ما في ذلك، منصاعاً للخيال الذي يأخذه إلى الصور التي لا يحصرها شرع ولا قانون، طارداً لهوموم الدنيا خلال الجلسة والسمير. تساهل جماعي في الأمر، تولية بالظهر لأوامر الشرع. لكن، في الصباح، حمام ساخن يطهر كل البدن، ثياب نظيفة، ركعتان بالمسجد الأكبر، استعداد للصلاة، نسيان للأمس، تسليم بعد انتهاء الصلاة على جاره في صف الصلاة، ربما هو أنيسه في سهرة أمس. حديث مغيب لما سبق، متعلق بما لحق، منتقياً للمواضيع المناسبة لما بعد الصلاة. وعي جمعي أو سلوك جمعي، لم يكن نبهان بشاذ عنه كقاعدة.

(إذا ابتليتيم فاستتروا)، قاعدة حديث، سلاح كل نفس ضعيفة متعايشة مع رقابة الجماعة. لا حَاسَبْنَا اللهُ على أفعالنا، اللهم اغفر لنا وارحمنا وثب علينا واهدنا إلى الصراط المستقيم، يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

وإذا شئت قرأت اللطيف بعد صلاة العصر أو صلاة المغرب وتلاوة حزب القرآن بعدها. فباللطيف طردنا المستعمر، وبه نطرد كل الشرور والشياطين وكل الآثام. مطهر لكل ملوث في فضاء ومناخ المدينة التقليدية، وهذا المجتمع الرباني الدرويش:

ألا يا لطيف لك اللطف، فلولا فضل الله ما نزل اللطف.

لطيف يا لطيف بخلقه، إذا نزل القضاء يتبعه اللطف.

ألا يا لطيفُ يا لطيفُ لك اللطفُ * فأنت اللطيف ومنك يشمأنا اللطف

لطيف لطيف إنني متوسلٌ * بلطفك فالطف بي وقد نزل اللطف

بلطفك عُذنا يا لطيفُ وها نحنُ، دخلنا في وسط اللطف وانسدل اللطف

نجونا بلطف الله ذي اللطف إنّه * لطيف لطيف لطفه دائم اللطف

تداركنا باللطف الخفي يا ذا العطا، فأنت الذي تشفي وأنت الذي تعفو

أغثنا أغثنا يا لطيفاً بخلقه * إذا نزل القضاء يتبعه اللطف

بجاه إمام المرسلين محمدٍ * فلولاة عين اللطف ما نزل اللطف

عليه صلاة الله ما قال مُنشدٌ * ألا يا لطيفُ يا لطيفُ لك اللطفُ

عليه صلاة الله ما قال قائلٌ * ألا يا لطيفُ يا لطيفُ لك اللطفُ

عليه صلاة الله ما قال شاعرٌ * ألا يا لطيفُ يا لطيفُ لك اللطفُ •

...

أينما كنت جالسا في فضاء المسجد، تخلق مع نظم ولحن اللطيف والنشيد الرباني المناجي. ترتاح لتلاحم الأصوات جماعة لأجل تحقيقه وجعله صاعدا

قويا، مخترقا لكل الأبراج منبلجا بنور لأجل السمو إلى السماء العلاء، طاويا الأرض بالسماء. حتى مرورك بجانب المسجد يجعل روحك تسافر مع قارئ اللطيف، تاركة خطوك بين سلم درج وآخر وأزقة وصابة • في الطريق:

(بجاه نبي المرسلين محمد، فلولا عين اللطف ما نزل اللطف).

إنه البلسم اليومي الذي يجدد إيمان وإسلام المرء، ويصالحه مع خالقه بعد أن أغوته نفسه. لن تجد في المدينة العصرية هذه الروح وهذا المناخ. لذلك تراك باحثا لدخول المدينة العتيقة، في بحث روحي غير مرئي عن هذا الزاد وهذه الطهارة.

أترى، هل يلعب حضور المواسم الدينية والاجتماعية والاقتصادية هذا الدور؟ أكيد. فغالبية الناس تأتي صادقة مع دواخلها، جاعلة البحث عن الدنيا في إجازة نسبية، مستفيضة في الذكر والصلاة والتزام المسجد واستلطاف الضريح وأهل الضريح. إنها رياضة روحية بامتياز تخرج فوق الخشبة لأجل إعطاء المشهد الرائع في الإنجاز. هذا على الأقل حاضر مع زيارة الحاج حمدان لموسم المدينة.

من مذكرات محسن الشامي

تطبع المدينة خصوصية، ربما هي فريدة أو ربما هي مشتركة بين المدن المنغلقة جغرافيا واقتصاديا. فقد عرفت قبل الاستقلال حركة مقاومة وطنية واعية أو اندفاعية عفوية. ساهمت في صد قرارات بقاء المستعمر بالبلاد، وفي تصميمه على الانسحاب من الاحتلال المباشر لها.

هكذا، ومع بداية الاستقلال كان حزب الاستقلال رمزا للوطنية بدوره المشرف الذي دفع ثمن قضيته الناس أرواحهم لأجل رجوع ملك البلاد ولأجل الحرية. فقد كان الحزب هو الشعب المغربي الذي ناهض المستعمر وحرّر الإرادة من قيوده. داخل المدينة، أصبح مجموعة من الأعيان والمتقنين، تقليديين أو عصريين، رموزا داخل حزب الاستقلال. تشكل تنظيم الكشفية الشبابية الذي حمل شعارات الوطنية والاستقلال، وأناشيد البطولة والحرية وعود الإنجازات لتقدم البلاد.

تقام الاحتفالات في كل مناسبة. يُخرج التجار الأفرشة وأواني الشاي والحلويات. فتعرض على الأرصفة أمام الدكاكين. احتفاء واعتزاز بالنصر التاريخي على الاستعمار الكافر الذي أذل قلوب المومنين.

احتشدت الذكريات بمحاربة الخونة وقتل الفرنسي في الدرية واعتقال المقاومين وتحريرهم. أصبح رئيس البلدية من شرفاء وأعيان المدينة ومن رموز حزب الاستقلال كذلك. رغم أن المدن المغربية تأثرت بالانشقاقات داخل الحركة الوطنية وجيش التحرير، إلا أن المدينة حافظت على استمرار الاستقلاليين في تسيير شؤونها، ربما لكون شبابها المتعلم والمتقف والمواكب لتطورات الأحداث قد هاجر للمدن الكبرى للعمل والدراسة وغير ذلك. إلا ما كان من بعض من ارتبط بقيادات سياسية، حضرت موجات خطاباتهم في مناخ المدينة التقليدية المنغلقة.

بالنسبة لنبهان أو السي العربي فالأمور عادية. هناك حزب الاستقلال وملك للبلاد وعهد جديد. لهذا لما كبر نبهان، كان قد عاين في طفولته هذا الجو، وارتبط شبابه بالتعامل مع موجة حزب الاستقلال. خصوصا وأن جل شرفاء المدينة الأدراسة ارتبطوا برئيس البلدية، وهو شريف إدريسي. ولنا أن نستحضر ما تسهله العصبية والعلاقات العائلية من تحالفات ومصالح. فالعلاقات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وتواصلات موسم المولى إدريس، كل هذا يجعل شرعية سوسولوجية لحضور حزب الاستقلال بالمدينة واستمراريته. رغم ما يمكن أن يؤخذ عليه فيما بعد، في مسار نبهان الذي سار إليه والذي أقحم شرعية سيادة الحزب في دوامة جديدة، ودائرة من النسبية جعلته يتقاسم الأدوار مع أحزاب أخرى، اخترقت وعي الناس وحددت اختياراتهم.

...

لم يتلق نبهان تعليماً مناسباً لأجل اكتساب وعي سياسي خارج دائرة مدينته ومستواها الصغير. لذلك، كان يكفيه التواصل الاجتماعي والتجاري الذي يدعمه تعامله وانخراطه مع حزب الاستقلال. فجلسة المقهى تدمج مع الشرفاء الأدارسة ومن يقدرّون دورهم السوسيو-سياسي داخل المجتمع، مثل شرفاء آخرين، وقبائل متوزعة في المغرب، سواء في الجبال أو السهول أو الصحاري...

هكذا كان سقف طموح نبهان محدوداً في احتكاكه الحزبي والسياسي، باحثاً عن الاعتبار المعنوي والأمن الاجتماعي والاقتصادي والإداري... فربما حتى المولى إدريس المدفون في الضريح سيبارك اختيارات نبهان إلى جانب مرضاة السادات الآخرين كسيدي علي بن حمدوش، أو سيدي أحمد الدغوشي أو الشيخ الكامل أو مولاي التهامي بدار الضمانة.

فنبهان كذلك، حينما يمر بباب الضريح، يقف متكئاً على حاجز مدخله الخشبي والذي هو عبارة عن عمود يفصل أفقياً بين المدخل وممر الطريق خارجه، يُقبّله ويتوجه بالدعاء، لمن ومن؟ الله أعلم.

...

(يعتبر الضريح كرسي عرش الشرفاء وتاجهم ومصدر بركتهم ورزقهم وظلهم وحمايتهم. هكذا ينعمون بالعيش في فضاء قصره وقلعتهم، لا ينسلخون عنها غالباً. فيتحول الضعف إلى قوة، والمكانة إلى اعتبار. وينعم التاريخ ويجود

عليهم ببركته. فالسلاطين يقتطعون لهم الأراضي، ويُجسسون عليهم الخيرات، ويعتثون لهم بالهبات. والناس ترفق بهم تقربا من الولي المدفون. فهم (اولاد السيد). تقربا من الرسول الكريم ومن خالق مبارك في السماء لهذه الروابط في دنيا الفناء. ألم يوص الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأهل البيت وإكرام

أهل البيت؟ ألم يجعل الصلاة على آل البيت؟

ترى متى تم مدح آل البيت؟ ما هي المناسبة؟ كم كان التكرم عليهم؟ كيف تم الربط بين هذا الأدب والثقافة والحياة الاجتماعية والسياسة المرتبطة بآل البيت من طرف الناس والحكام؟ أسئلة عديدة لا تحتاج الى تنقيب الآن، المهم أنها تعطي شرعية التعامل معهم من منطلق امتيازات واحترام وتقديس في بعض الأحيان:

يأهل البيت رسول الله حبيكم***فرض من الله في القرآن أنزله.
يكفيكم من عظيم المجد أنكم***من لم يصل عليكم لاصلاة له.

...

الله خصكم بأفضل رتبة***العجز عن إدراكها إفصاح.
يا من بهم قد طابت حياتي***وتهمت فخرا على الوجود.

...

لن نتظر العلماء حتى يخللوا أكاديميا وفقهيا وليس شرعيا المراد بأهل البيت، ومدى استمرار العمل بالحديث. فالناس ضعفاء في الأرض، يهددهم الجفاف فيلجؤون لطلب الغيث. ويهددهم الخوف فيطلبون الأمان. يموت ولي الله

فيتبركون بقبره ويذكرون بدعائه لأجل طلب هذا الغيث وهذا الأمن. قد يستحضر لاشعورهم السورة القرآنية: (لإيلاف في قريش إيلاف رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). وربما لا يعلم السي العربي - نبهان سر تكرار العبارة الأخيرة مرتين: وآمنهم من خوف).

لقد روت الحكايات أن موسم المولى إدريس بدأ مع مجيء الناس لطلب الغيث، وانطلاقهم من عين جمجمة، والتي تبعد بحوالي ثلاثة كيلومترات عن البلدة، حافبي الأقدام، ذاكرين الله مستعينين بالأوراد والأحزاب في الدعاء، والتي انتجها الأولياء، سلاح المؤمنين في مواجهة إعصار الحياة وأقداره المجهولة، والنجاح في عبادة الله... حتى إذا وصلوا إلى باب الزهر وباب الحجر. المدخل الجنوب غربي للمدينة، بدأت أمطار الرحمة في التساقط، وأي بركة أكبر؟ وأي برهان أقوى من هذا؟...

...

الناس ضعفاء في الأرض. يهددهم المرض، وقد يكون مفاجئا غريبا. يمسهم الجن، تبور تجارتهم، تغور نفسيتهم مع كل هذه التهديدات... ويصعب التفسير ويصعب الحل والعلاج. تخاف النفسية من غيبوبة تذهب فيها روح صاحبها. تخاف من موت في الحياة، وعلى الأولاد والأزواج تخاف... الملجأ، ضريح كل ولي صالح، ترتبط وتقتنن به الكرامات والمعجزات. قادر على أن يجبس الشمس عن المغيب بفضل الله كما مع سيدي علي بن حمدوش.

هكذا هي الروايات والحكايات. قادر على معالجة العقم وإنجاب الأولاد بإذن الله، على شفاء المرضى والممسوسين، والشفاء من عند الله، على نزع الظلم وتطويع المخزن للعدل بحول الله وقوته...

ليس ببعيد عن زمن نبهان، يحكي الناس عن خروج الشريف بين الدور والقرى، وكيف يكرم ويزار وتقام له الخيمة الكبيرة التي ينزل بها. كيف تجعل البهائم مملوءة بالخيرات، فيعود بها إلى بيته. وفي بعض الأحيان، وخصوصا في مناطق أكثر فطرية وبدائية في التفكير السليم والبسيط، توهب له من يريدها امرأة مما ملكت الأيمان في بعض الاحيان. فبركة الشريف رزق حلال به نستغيث ونتقرب للسماء، لأجل نيل عطفها ورحمتها واتقاء شرور الزمان ومخاوفه. ويختلط الشعور بالخوف مع ذلك الذي بالأمان، فلا يجد الناس تفسيراً عقلانياً لما يقع.

فمن يمتلك هذا العرش ويجلس عليه وينعم بسلطه، كيف له ألا يشعر بالتميز والسعادة، وأن يحمد الله على هذا التشريف والتكريم. بين هذا وذاك، علو هذا بانحاء ذلك، أخلاق الفقراء والأغنياء، النبلاء والعوام، توافق على تقاسم أدوار والقناعة بما جادت به قسمة التاريخ، وإن كانت قسمة ضيزى، ففي الجنة سيتساوى الجميع، المالك والمملوك، كلٌ بمُتَعه سيسعد في جنات النعيم، غلمان وحوار عين. للذكر كما للأنتى، لا تحزن يا مسكين ويا مسكينة. فكما يقول نبهان: المسكين، حقه عند الله. هناك سيكون سعيدا ومنعما!.

يكون هذا التحليل مقروءاً في مذكرات السيد محسن الشامي. يعبر به عن ملاحظاته التي اعتمدت على تأويله وتحليله النفسي للشخصيات، والذي اختاره ضمن مشروع تطبيقي أرادته يجعل ملف لكل شخصية يرى أهمية دراستها داخل تأملاته الثقافية العموماً وال مستفيدة من شتى على ومعارف. تكون غرفة السيد محسن فوق سطح منزله بوابة للغوص في أطلال كل منزل او سطح من سطوح هذه المنازل التي يفتershها جبل زرهون فوق تلاله ومنحدراته. هو منظر منظر عام يمتلكه السيد محسن الشامي ويجعل التفاعل بين ذاته وبين سياق الموضوع الذي هو عبارة عن أسر وتاريخ وثقافات وأحداث وعلاقات وظواهر وخصائص مميزة، قد تكون بسيطة كما قد تكون معقدة.

تُرى، من سيكون محسن الشامي هذا الذي اختار شخصية نيهان لمعالجتها وتحليلها إلى جانب شخصيات أخرى من بلدته ومدينته؟ ولماذا قام بكل هذا؟ أسئلة ستبقى معلقة إلى حين سبر هذا الحكيم لشخصه وعيشه وتفاعله!

حزبية نبهان، تواصل اجتماعي، مباركة للضريح، سند لطائفة الشرفاء التي يجعل لها المخزن الحظوة في التبرع والهبة والحماية والكلمة المسموعة. حتى لمن احتسى بحرم الضريح واعتصم لأجل شكاية ظلم وقع فيه. كم من جماعة جعلت رد الظلم عنها وتحقيق مصلحتها في التوسل للضريح، وجلب المخزن ولفت انتباهه لأمرها داخل حرم الضريح. مكان اعتصام واحتجاج سياسي بامتياز. مكان محرم هذا، مثلما هناك أشهر حرم هناك. مثلما هناك قنصليات وسفارات تقام قوانين خاصة وراء أسوارها لا تخضع لقوانين الدولة المضيفة لها.

حزبية نبهان، تربية أمي الصافية على احترام شرفاء المدينة وضحيتها، وأصحاب السلطة في المدينة. حزبية نبهان، تداخل للعلاقات التجارية والدينية. اختلاط للسياسي بالمقدس، أو توظيف للاجتهد العقلي بالمباركة المولوية: شايلاه أمولاي ادريس.

حزبية نبهان، جلسات لعب ورق (الروندا)، (التريس)، (التوتي)... مهارة أداء وحساب الأوراق وتعليق مَرَح خلال كل مباراة أو جولة لعب. حزبية نبهان، تساهل في أئمة البيع والشراء مع الأعيان، وبعض الهدايا المناسبة بعض الأحيان... وقد أَلِف الشريف العطاء والهبة، فبركته تلم ذلك.

المدينة، توازن بين السماء والأرض، الروح والجسد، الأحياء في المنازل والأموال في المقابر المقابلة على منحدرات جبال الزيتون.

...

المدينة توازن بين ضريح وشرائح اجتماعية، بين شرفاء أدارسة وعلميين وعلويين بلغيثيين وعلويين وعامة الناس... بين تسمية عربي وريفية وصحراوي وعروبي... وإلا، فكلّ متداخل مع الآخر. حتى إنك لا تعرف من الأصل من الفرع، من المنحدر من الآخر الى آخر العنقود.

حزبية نبهان، تأقلم فرد داخل هذا التوازن. حكمة تاجر بما وهبه الله من قدرات ومهارات على التواصل مع هذه المكونات:
. طيّب خاطر كل واحد، اجعل له مباركة وجانب من الصواب في كلامه.
هكذا ينصح من يلجأ لتجربته وحكمته.

هذه هي حزبية نبهان. امتداد سوسولوجي له طابعه الخاص. حدس ينبه إلى نوع التصرف والكلام. زاوية عصرية للتشريف والذكر. هكذا هي الشخصية مركبة بأجزاء متعايشة بين الجلباب والمعطف العصري، نغم الطرب والذكر الحكيم، شرف العائلة وليالي الأانس بالمدينة العصرية.

...

الحاج حمدان، رئيس الطائفة العيساوية، ضيف عند السي العربي نبهان. يكتسب المرء داخل مدينة منغلقة مكانة معينة عند الجماعة باحتكاكه معها، وبالصورة التي ترسم في مجالها. وكذلك بنوعية تواصلاتها التي تبني فرص تطلعاتها وحظوظها. فخلال الموسم السنوي، تأتي فرصة المدينة المنغلقة للانفتاح على تواصل اجتماعي خارجي وليس محلي. تتجاذب الثقافات وترقى الديبلوماسية. تنفتح الأسر على سلوك مدني آخر. تجدد النساء تخرجن مع الضيفات، تتحررن من الحركة المسطرة والموجهة بسهام الأعين، حيث التجوال عبر شوارع المدينة الصغيرة واكتشاف فضاءاتها وجديدها. الأعين لامعة مع الرفقة الجديدة.

خلال الأيام العادية، يكون خروج السيدة جميلة، زوجة السي العربي نبهان، بمسافة يتقدمها زوجها بخطوات، حتى في أوقات الخروج للسفر. فاللقاء يكون بينهما في محطة الحافلات. يسبقها بدقائق، تلحق به بعد ذلك، درءاً للعين والتساؤلات وأشكال التجسس التي تراكمها أجهزة المخابرات الاجتماعية

المتطورة داخل المجتمع المغلق خصوصا، بالفضول والغيبة والنميمة. فقد ترى الأبواب مقفلة والنوافذ موصدة، لكن هناك أعين ترى، تتبع الخطوات، تلاحظ الحوارات. هناك سفهاء وسفیهات، لا يخلو تجمع منهم، يغرسون الفتن بالادعاءات. واتقَّ شرَّ فهمِ زيادة.

إنما، خلال أيام الموسم، تبقى النساء مع الضيفات على الخصوص حتى ساعات متأخرة في السوق أو في مشاهدة ليالي عيساوة أو حمادشة. ولكل قاعدة استثناء. لكن بالنسبة لهذا الموسم في هذه السنة، فحفلة عيساوة ستكون ليلة الجمعة بمنزل السي العربي نبهان. والدعوات تمت للأسر المرتبطة بأسرة نبهان ومعارف الحاج حمدان. وقبل الجمعة، هي الليلة الأولى من أيام الموسم الكبير، كانت فرصة الخروج لأسرتي السي العربي والحاج حمدان.

الموسم يقام أسبوعيا في أيام الخميس والجمعة خصوصا. موسم العلميين أو الموسم الصغير فيه موكب العلميين وأعيان المدن الكبيرة وشرفائها. الموسم الثاني أو الأسبوع الثاني هو موسم عيساوة وحمادشة وكناوة وكدارة وتهامة وليالي الحضرة... وهو الموسم الكبير. تليه مواسم القبائل التي تأتي لتبايع وتبارك وتبرك، ولتتقرب بالهدايا والقرايين في نهاية موسم الصيف غالبا، استعدادا وتفاؤلا لفصل خريف وشتاء، يتزامن حضور هذه القبائل مع آخر شتاء الصيف، وهي (شطابة الكياع) كما يسميها أهل البلدة.

وقد كان مما زوّد به السيد محسن الشامي السارد في حكيه وتحليله وارتباطا بالظواهر الثقافية والاجتماعية والفنية التي يعيشها الناس صفحات تحلل

وتحاول تفسير هذا الارتباط بين القبائل وضريح مولاي إدريس زرهون. يستغرب الحاكي من تلك الدقة التي يريد محسن الشامى أن يقعد بها تحليله وأن يجعل معها استنتاجاته صارمة وموجهة لتفسير كل سلوك أو علاقة، حتى إن اليومي يترجمه لمصطلحات التحليل النفسي ومفاهيم الدراسات الفلسفية والفكرية والثقافية. وكأنه مهندس أو باحث ميداني يجمع البيانات والمعلومات ويدونها لكي يرفعها لجهات أو مؤسسات. ولن تكون هذه المؤسسات سوى ترتيبات ذهنه وخندقة أحكام وتصنيفاته للناس.

ويستغرب السارد ويتساءل حول سرّ اختياره هو لكي يرسل ملفاته وينشرها.

كيف ستم صياغتها ودمجها داخل متن سردي معين؟

ما مآل الحديث عن قصة جده الذي اغتصبت أرضه ولماذا يتم تحيينها هنا؟

لقد توطدت العلاقة بين الأسترين وأصبح السي العربي نبهان يُعامل على أساس رصيده من المعارف . أي العلاقات الاجتماعية .. وهي عنده مهمة ومنتقاة في نفس الآن، في هذه المرحلة من تجارته وحياته الاجتماعية. فالكل مترابط.

وإحياء حفل ليلي لفرقة عيساوية أو حمدوشية ليس بالأمر الهين والعاير. إنه جو احتفالي واجتماعي يجلب مجّدا توصليا وثقافيا. كما أنه يخلق بهجة عند أصحاب المنزل، وكل البلدة تتودد إلى أهله... القيام بالحفل رمز لكرم وسعة حال، وتذوق فني وميل طقوسي لشعائر الزوايا وذكر الله والصلاة على النبي ونيل مباركة أولياء الله الصالحين، وكذلك رجال الحال، وهم هنا من الإنس والجن، خصوصا مع إحياء ليلة حمدوشية أو كناوية... ذلك أن سيرة الولي الصالح المدفون بالقرية المسماة باسمه: سيدي علي بن حمدوش، ارتبطت بأهل الجن أكثر من أهل الإنس. ف: لالة مليكة الكناوية، ولالة عيشة التي أتى بها من السودان سيدي أحمد الدغوشي خادم سيدي علي كما في الروايات، جنية كذلك. ما يزال مقام لالة عيشة في حفرة تمتلئ بالأوحال شتاء، مغطاة بأغصان خروب موحشة، مسيجة بحجرة منحدره كحائط بجاني الحفرة.

على العموم توقيت موسم مولاي إدريس زرهون ليس توقيت موسم سيدي علي بن حمدوش. توقيت موسم سيدي علي بن حمدوش يكون في السابع

من مناسبة عيد المولد النبوي 19 ربيع الأول، وبعد مرور أسبوع على موسم الشيخ الكامل الهادي بنعيسى بمدينة مكناس بتاريخ 12 ربيع الأول من كل سنة هجرية. وتلك تواريخ خاصة للزيارة يقوم بها الناس لهذه المواقع والمواسم. أما إحياء الحفل الليلي، فيكون بإحضار نفقة من السوق مكلفة مادياً. كيلوغرامات من اللحم ودرزينة من طيور الدجاج، بصل أحمر كبير وبرقوق مجفف وزبيب لتحلية مرق وخضرة الكسكس. تحضير الحلوى المناسبة التي توضع في طبق مصنوع من الدوم الملون والمزركش. وإذا لم تكف الزرابي الموجودة في المنزل لتفريشها في كل مساحته. حتى يجد الضيوف والمتفرجون مكانا للجلوس. تتم الاستعانة باستعارة بعضها من مقام الضريح ومن الساهرين على تجهيزاته، حيث تستعار الزرابي والمبخرة وتعطى بعض الشموع الكبيرة للإضاءة في دخول الفرقة العيساوية من باب المنزل الذي يقام به الحفل الليلي.

إنما ميزانية الحفل يشترك فيها صاحب المنزل ومقدم الطائفة العيساوية. وذلك لكون المقدم مكلف بجمع ميزانية كافية للنفقة على عناصر الفرقة خلال مقامها بمكان الموسم... هكذا تساهم مختلف الشرائح الاجتماعية والتجارية والإدارية في تمويل رحلة الطائفة لكل موسم جديد.

المنزل تقليدي في هندسته، مكون من طابق سفلي، وطابق علوي، وسطح. (السفلي) كما يسمى في البلدة تتوسطه ساحة هي (وسط الدار)، ومداخل مقوسة للبيوت المحيطة بها، تحرسها أبواب شاحخة في علوها مزركشة بنقش

فسيفسائي خشبي. هناك البيت الكبير والبيت الصغير. وهناك مدخل المنزل والمطبخ بجانبه. بالصعود مع منحرجات الدرج الملتوية، تجد أبوابا صغيرة مقفلة ل(الشقلابية)، (القوس)، الطارمة، الحمام... حتى تصل إلى (الدربوز)، وهو ممر يشبه شرفة داخلية يربط بين الدرج الصاعد وأبواب الصالات الموجودة في الطابق العلوي الذي يسمى (الفوقي). هناك الصالة الصغيرة والصالة الكبيرة، وكل واحدة حجمها يعطيها تسميتها. أما سطح المنزل، فتتوسطه حلقة هي (ضواية) تخترقها أشعة الشمس بحسب الفصول، فتتقلص في فصلي الخريف والشتاء، وتمتد لتصل إلى قعر السفلي ووسط ساحته في فصلي الربيع والصيف... والحلقة مزينة بنقوش على مدار خشبها المربع الذي يسيج هندستها. أشكال نقش وتجويف لثنايا وزوايا الحلقة يجعل مقامها مناسبا لطائر السنونو الذي يأتيها مع إطلالة فصل الربيع ليبنى عشه فيها، فيكون كضيف موسمي يحل بغناؤه وزقزقاته وتحليقاته السريعة، ومهامه في بناء العش الجديد ووضع بيض يفقس لأفراخ صغيرة... كما يكون موسما لقلق نساء المنزل على توسخ الجدران وأثاث المنزل وفراشه من طرف طيور السنونو. أما الحائر الأكبر في حلول هذا الصيف، فهو كل هر أو هرة قد يقيم أحدهما أو كلاهما بالمنزل. تحضرهما الفطرة في الافتراس الطبيعي، فتتحول من الحيوان الأليف إلى صاحب تاريخ موحش مفترس. وقد ينفر التعاطف معه في بعض الأحيان من طرف الأطفال الصغار وفتيات المنزل ونسائه، خصوصا إذا استطاع اصطيد أحد الأفراخ أو الطيور. لا يرحمها ولا تجد إلا ريشها متناثرا

متطائرا. وهكذا يحقق الهر بطولته وملحماته الطبيعية، يمر بعدها مزهوا بإنجازهم، متعاليا بكتفيه المتنمرين. كم من مرة تجده عالقا بين قطبان الحلقة الحديدية التي تكون على شكل مربعات صغيرة كشبكة ممتدة بخطوط الطول والعرض على مدار الحلقة المربعة، مُصدرا لمواء، مطالبها بالنجدة... كم من مرة يتشقّاه الكل بسبب جرائمه في افتراس طائر السنونو، فيدعون إلى تركه معلقا، عقابا له. ولكن، تحضر بعد ذلك الشفقة عليه كحيوان، وينقذ من سقوط مميت محقق سيهوي به عشرات الأمتار إلى قاع السفلي، ربما يصطدم به على أرضيته المزوجة الصلبة فيفقد كل أمل في الحياة.

لكن هذا الحفل العيساوي، يجعله آخذا الحذر من كثرة البشر الحاضرين في المنزل. يضطره للبقاء فوق سطح المنزل، في ذهاب وغياب بين سطوحه وسقفه العالية وباب المطبخ الذي يكون مباشرة لسطح المنزل (الكوشينة) كما تسميته اشتقاقا من اللغة الإسبانية، ثقافة المستعمر التي تجذرت ألفاظها في الحياة اليومية المغربية... تجد ثلاث نساء أو أربع وقد تجندن لعملية الطبخ والظهو للدجاج واللحم وكل ما يرتبط بوليمة الليلة العيساوية المباركة... ويكون الهر في طمع لجودهن بشحم أو رؤوس دجاج مقطوعة أو أجزاء لحم متصدق بما عليه... زردته فوق السطوح الآن، بينما زردة البشر الساهرين أسفل المنزل ينتظرونها...

ويبدأ الحفل بعد مجيء المدعوين بعد صلاة العشاء. غالبا ما تخصص غرفة في السفلي للنساء وأخرى للرجال.. وربما تجد النساء مطلين من الدربوز أو

الدرابزين الذي يشبه شرفة داخلية مطلة على وسط الدار السفلي، ونوافذ الصالات. حيث هندسة المنزل الإسلامي تجعل إطلالة النوافذ على وسط الدار، عكس الهندسة الأوربية المعاصرة التي تجعل النوافذ والشرفات مطلة على الأزقة والشوارع.

الحاج حمدان ليس شيخا عيساويا فقط، هو كذلك المتكلم باسم مهنيي وحرفيي الصناعة التقليدية إداريا في غرفة الصناعة التقليدية. إنما المرحلة بدأت تفرض تنظيما ديمقراطيا بلغة العصر الجديد، وانتخابيا لهذه التمثيلية... مراحل جديدة ستفرض على الحاج حمدان التأقلم معها والبحث عن حل لمكائنه التقليدية في القيام بوظيفته.

لقد عرفت هذه السنوات الأخيرة التي سبقت هذه الاستضافة في الموسم بمدينة المولى إدريس، تراكم عمليات تواصل وتجارة ومشاكل مرافقة لها جديدة على الناس. لا يمكن فصلها عن سياق مناخ اقتصادي وسياسي عام تعيشه البلاد.

فعلى صعيد المدينة الصغيرة، النشاط الذي تخلقه الصناعة التقليدية والذي يعتبر نشاطا شبه صناعي لأنه يقوم بعملية تحويل للمواد، أصبح متأزما إلى جانب النشاط الفلاحي الذي تأثر بمرحلة جفاف عصبية على البلاد. وحينما تتأثر الفلاحة يبور كل شيء فيها. فسبعون في المائة أو أكثر من السكان يعيشون على مداخيل الفلاحة والزراعة على الخصوص. حتى منابع المياه أخذت تجف وتنضب. وحتى وادي خومان الذي يبدأ من (وادي الميت) ومجرى مسبح الحامة ثم خومان، أصبح يجف كذلك. انقرضت منه أنواع السمك التي كانت تطعم عائلات بالبلدة وتضمن دخلا للمتاجر بصيدها.

أخذ الناس يهجرون البساتين لضعف مداخيلها ويذهبون إلى المدن الكبرى بحثاً عن بديل أو عمل، أو يجلسون معولين على بركة من توظف أو هاجر إلى أوروبا لكي يعين ويعيل الأسر المقاومة للحياة بالبلدة.

لقد تحول دور الصانع التقليدي، الذي كان يفرض منطق ثقافته على الجميع وشروطه في العمل والإنتاج، إلى موقع ضعيف، تسببت فيه البضائع العصرية المنتجة. هكذا تحول جزء منهم إلى المدن الكبيرة أو قعدوا عاطلين أو أصبحوا يدا عاملة رخيصة في شتى المجالات. وحتى محاولات خلق بدائل صناعية تحويلية بالمنطقة لم تفلح وتستمر، ليتأزم كل شيء متعلق بالصناعة التقليدية. فلا معمل الخروب، ولا معمل هضبة بورياح لإنتاج الشمع، لم تقاوم المشاكل المطروحة والمنافسة المفروضة من المدن الكبرى.

من هنا بدأت الوزارة الوصية في سياسة جديدة للنهوض بقطاع الصناعة التقليدية وهيكلته وتأهيله حتى يساهم في تنمية البلاد التي أصبحت وعياً جديداً يخرج من ثنايا المذكرات والبيانات والخطابات، والذي يوجه بمراقبة دولية في إطار سياسة توجيهية للبنوك العالمية الممولة والمتدخلة في اقتصاد البلدان النامية... سياسة تقويم هيكلية، ستعني بالقطاع ومنتوجاته ومشاكله... في مكناس مثلاً، أقيمت سبع تعاونيات للصناعة التقليدية تضم 280 منخرطاً.

أما في زرهون فيلاحظ التدهور الكبير الذي تعرفه الحرف والصناعات المحلية التقليدية. مثلاً (العوادون) تقلص عددهم من أربعة عشر قبل الاستقلال إلى

أربعة بعده. والقصابون أصبحوا منعدمين لا تجد صناعة إلا تحت طلب في أماكن غير قارة. وكذلك الشأن بالنسبة للخزفيين...

هكذا كان السي العربي نبهان أول المستفيدين من قرض من الغرفة، اکتري به دكانا جديدا، وجعله شبه معرض أو متحف يعرض فيه منتجات الصناعة التقليدية، ويشارك به في معارض إقليمية أو وطنية يختار من الحرفيين الماهرين من يرافقه إليها ليعرض منتوجاته، ويكون هو المسؤول عن الوفد الزهوي. زراي محمية، أغطية صوفية، حنابل مزركشة، أثواب جلابيب من منتوجات الدرزة، الطرز الفاسي والرباطي المحلي، أواني الفخار التي يبدع الحاج العلوي في صناعتها والتي تجذب السياح والعشاق أكثر... هكذا اصبح ينافس البازارات في ما يعرضه كنجارة، وأصبح له زبائن من المغاربة و"النصارى" بلغة أهل البلدة أو السياح. لقد كان حدثا لافتا للنظر داخل البلدة، خارجا عن المؤلف بالنسبة لبيع وشراء أهلها. فكم من الناس استحسنت هذا الجديد، واستغربت للقدرة على المغامرة فيه: آ سيدي تبارك الله عليك !

حتى لالة جميلة، أصبحت تُعامل بوضعها الجديد، الذي جعلها في خانة بورجوازية متطلعة بدت على لباسها وهداياها في زيارة معارف المدينة، على العناية التي تعرفها حين الذهاب إلى (الحمام البالي) أو غيره من المرافق النسوية.

وطبعا، بالمقربين فالمقربين فعامة الناس. قاعدة العلاقات الاجتماعية. ابتداء بعض الصناع (الصناعية) في الاستفادة من قروض صغرى من غرفة الصناعة

التقليدية. ظهرت آثارها بالإيجاب على البعض وبالسلب على الآخر بحسب الظروف الشخصية والاجتماعية لكل واحد منهم... فهناك من نمي تجارته وصنعتة وحرفته ومتوجه... وهناك من استهلك القرض دون استثمار. أضف إلى ذلك، تراجع قطاع السياحة والجفاف وغلاء الأسعار ونقص الطلب في السوق على البضاعة. هي مرحلة اقتصادية ومالية أثرت عليها ظروف سياسية محلية ودولية في نهاية السبعينيات ومرحلة الثمانينيات.

لقد أصبح الانخراط داخل غرفة الصناعة التقليدية مؤهلا لشكل تنظيمي مهني. أصبح لزاما على المنخرطين تتبع سياسة الغرفة وجعلها تراعي ظروفهم ومطالبهم، ما دامت منهم وإليهم وبهم.

كانت الانتخابات المهنية، ولم يكن أفضل في التمثيل فيها من السي العربي نبهان. ضامن معنوي للمنخرطين والمقترضين، وصاحب علاقات مع الحاج حمدان الذي تقدم به السن وتراجع عن الدور الميداني في تتبع شؤون الحرف والصناعات التقليدية. لكن دوره المعنوي وكلمته مسموعة ومحترمة في كل اجتماع، خصوصا وأن خبرته تلخص ما يحتاجه الجميع من قراءات واقتراحات:

. السي العربي، لن نجد أفضل منك في تمثيل منطقة زرهون. ما عليهم إلا تجديد الانخراطات والتصويت يوم الانتخابات. هكذا بارك الحاج حمدان لصديقه في الترشح لمهام جديدة.

محلّيا، لم يكن هناك منافس كبير. كان الجميع مدعما للسي العربي نبهان داخل منطقة زرهون وداخل المدينة خصوصا. حتى حزب الاستقلال، لا اعتراض له على ذلك. ففي ظل تراجع دوره التمثيلي خلال هذه الفترة، خصوصا مع ذهاب استحواذه على منصب رئاسة البلدية لعقود، ستكون هذه فرصة من بين فرص للتقوي والحضور.

لم يحتج نبهان لمزيد إلحاح في التصويت عليه داخل ديمقراطية بالكاد ناشئة، مصبوغة بثقافة اجتماعية فريدة من نوعها، لكنها كأي ثقافات تكون حاضرة في سلوك أصحابها يوميا في مجالات متعددة. أصبح السي العربي ممثلا لمنطقة زرهون داخل غرفة الصناعة التقليدية. جاءت الانتخابات البرلمانية، احتاج الحزب إلى مرشح مناسب. تجربة جديدة، تحرك فيها المعنيون إقليميا وجهويا. كانت مناسبة تاريخية لا تتاح للجميع. بعد عشرة أشهر من الترشيح الأول، أصبح السي نبهان ممثلا برلمانيا. كما أصبح بعدها رئيسا للغرفة، مسيرا لشؤونها بمباركة حزبية وبدعم الحاج حمدان الذي توأى للظل وتفرغ للعبادة والحفاظ على الصحة بقدر الإمكان مع تهديد نبض القلب ونصح الطبيب المختص.

ما يزال المرح الاجتماعي حاضرا بين جماعات أصدقائه في مدينته، خصوصا من طرف القدماء ومعهم، والذين شاركوه وشاركهم شباب المرحلة أو مرحلة

الشباب. يعلق صديقه الملاوي في إحدى جلسات الشاي بالمقهى، حيث لم يعد ذكرٌ للمصرية وما شابها:

. سبحان الله العظيم، كيف كنا وكيف أصبحنا !

يجيبه نبهان: . إيوا هذا فضل من الله، الله يكتر منه الخير. غير أمر أسي الملاوي. ياكما (هل) بغيتي شي ثور ديال النحاس؟ نوصي النحاسة ينقشوه ليك.

. بعنا الثور ديال اللحم في وقته، بقي غير ديال النحاس باش نبيعوه؟ هذا الطنز العكري ياك. وا طنز علي أسي نبهان.

في المساء، يكون اللقاء بين الأصدقاء، كما العادة خارج رتابة العيش اليومية التي قد تصبح وجودية شبه سرمدية إذا ما ارتبطت بمخدر الكيف أو الحشيش اللذين هما في متناول الناس منذ عقود وعقود، قبل أن تنافس السيجارة الغربية أنيس الناس في الغياب عن هموم الدنيا، وتذوق أقل جمالية مرتبطة بالموسيقى وما سنع به المحيط.

ميزة مولاي إدريس أنها تجعل الالتحام بين الأجيال بشكل متوافق عليه، وبحكم الاحتكاك في مجالات العمل والحرف وعلاقات القرابة. وبالخصوص رغبة الشباب اليافع في تسلق مراتب الرشد الاجتماعي، حين الرغبة في

مجالسة الكبار وتقاسم الكلام الذكي المرهون بحيل السؤال والجواب ومكائد (المحلة*) التي تطور الذكاء الاجتماعي وتجعل صاحبها قادرا على دخول الخطاب الرموز للكبار الذي يتكون معه الصغار في مسافة عن أسرارهم وتناقضاتهم، حتى يستطيعوا التحكم فيهم في التربية إلى حين. هكذا تجد الجلسة بين الشاب الذي بلغ العشرين من عمره بالكاد والآخر الذي بلغ الثلاثين، وحتى شيوخ في الستين من عمرهم بعض الأحيان.

* - هكذا تختصر لعبة فك الرموز الخفية لمسألة مطروحة كسؤال للعقل فتوصف بنهايتها وليس بحقيقتها أنه قد تكون مستعصية على الفهم وصعبة في الجواب... (حجتك، كون ما كانوا هما لا جيتك) - وامثلة أخرى تتدرج في تطوير الذكاء الفردي والجماعي داخل كل مجتمع.

البهاهاهاها...!

أو (الضحك الموشوم بطعم الحياة. حيث تداخل وظائف الحواس)

محمد البركة صديق المعلم الجزائر صاحب لقب الملاوي. ولن يسلم أحد من لقب طبعاً.

دوي ضحكاته وقهقهاته يسمع من بعيد. لا أحد يمتلك هذه القدرة على هذا الضحك ب(البهاهاهاها)... تعليقاته لا تخلو من استفزاز للجالسين. كأنه يريد بها أن يبقى جاذباً للانتباه ومستقطباً معارف جديدة. هذه نجوميته إذا. كل يوم يربط بها علاقات جديدة. كل واحد يود أن يتبادل معه مستملحات حتى يثير هذه القهقهات (البهاهاهاهاها...).

محمد البركة، اسمه الذي ارتبط به وإن كان اسمه الحقيقي محمد بنعلي. وباختصار اللقب: البركة. لقب جامع بين الشعبية وثقافة نداء: البركة. إذا

لم يرك جالسا في المقهى أو كنت مارا بجانبه ولم يلمحك، يكفي أن تنادي مخاطبا نفسك أو الآفاق دون النظر إليه: الله يقوي البركة. يلتفت، وقيس الرد المناسب بحسب الشخص والمقام ودرجة انفتاح الكلام بأشدّ ألفاظه أو ليّنها بينكما.

قد يراك لا تلتفت إليه حين دعائك الله يقوي البركة، يرد بصوت يسمعه الجميع، والجميع منتظر رده:

- البركة للمرضيين ليس لأولاد الحرام المساخيط...!

تعلو الابتسامات على محيا الكل، فينطلق رعد صوته ب:

- البهاهاهاهاهاها...!

لا يمكن أن نتصور جلسة سمر في غياب البركة ومستملحاته. حتى مفاجآتها تزيد بالحيل مع حضوره. أسأله عن العشاء الذي استدعي له عند صديقه مجيد، تسمع الحكايات تلو أخرى. وما لم يُرد روايته من وقوعه في نصب الحيلة، يضيفه الحضور ممن يعلمون حكاياته ويتابعونها كأنها سيرة مشهورة أصبحت خاصة بالبركة تروى على لسان الجميع:

. أولاد الحرام. دخلت لمنزل مجيد، وجدت (الطاوا) • تاتغلي وصفارة الكوكوط•، قالوا لي أحضر الخبز والمشروبات الغازية. أسرع، قلت هذه وليمة من اللحم مبرعة. اشتريت ستة من الخبز ولترين من المونادا. دخلت، وبقينا جالسين. نلعب الكارطا. كل مرة اطرح سؤالي:

- إيوا هاذ الوليمة ما زال ما وجدت؟

. اصبر أولد الحرام، واش جات بك غير كرشك. العب كارطا.

. واخا آسيدي.

. مرت ساعتان، والو. أفين العشاء؟ يا كما ماكاين والو؟ راه المعدة ديالي فيها الحرب العالمية.

قمتُ صحة عليهم، فتحت الطنجرة، ما وجدت غير الماء والزغاريد وعظم كبير ديال البقرة. وانا نرعرع: يا ولاد الحرام، يا الكلاب... المشكل هي أن

• الطاوا، الطاوة، tawa ; tavah ; tava، بتتبعاشتقاقات الكلمة نجدها تستعمل فيلغات عدة في القارات الثلاث المحيطة بحوض البحر الأبيض المتوسط. لكنها تمتد حتى بلدان آسيويو داخلية مثل الهند، وحتى في بلاد القوقاز؟ قد تعني المقلاة كما قد تسند في الوصف لأدوات طبخ أخرى. وهنا بالمغرب وبزرهون تعني قدر أو وعاء الطبخ المعدني الذي يطهى فيه الأكل فوق النار: الطنجرة. يمكن الرجوع إلى معلومات أخرى تتضاف إلى هذه. Cocotte الطنجرة أو وعاء الطبخ المضغوط.

الساعة كانت الواحدة ليلا تقريبا، وأن السوق ما بقي فيه أحد يبيع ويشترى... بِتّ غادي ناكل بادري •.

يرد مجيد على رواية الحكاية:

. صافي آخاي البركة غادي نفدي لك تلك الزردة بشي طنجية ديال العجل واعرة.

. أوفوقاش آخاي (متى)؟

. شوف ولد الحرام كرشه يمشي عليها للحبس غير باش ياكل الزردة.

. ابهاهاهاهاهاهاهاها .

. آسكت المجرم راك صدعتي عباد الله.

. ها أنا آخاي مجيد ساكت انتم اللي جبدتوني... ياك آخاي عبدو؟

. ابعدّ مني البركة أنا جالس ماخاصني صداع الراس ديالك.

. إيوا سير للطبيب أو المستشفى اذا اردت الراحة أو انهض لدراكم. هذه

الجلسة جئنا باش نضحكو ونفرغوا قلوبنا راها طاييا: بهاهاهاهاهاهاها.

. آمالك آ السي الملاوي؟ ياك ما غرقوا السفاين(السفن)، اطلق وجهك الله
يرحم الوالدين. نحن هنا لكي نضحك ونمرح، بلا ما تفجر لنا قلوبنا بالهم
والغم.

. ابتعد عنه آ سي البركة والا سيبيعك لحما في الحانوت... راه الثيران قلال
هذه الايام. يعلق مجيد، حيث أثار الغضب المشاكس للبركة.

ينقضّ البركة على مجيد ويجعل كفيه على استدارة عنقه خانقا له:

- أنا الآن وليت ثور أولد الحرام؟ وأنت حلوف... سر الله يحرقك في
جهنم.

. اتركونا من هذا الصداق. يهدئ السي الملاوي الجمع الجالس: راه اليوم
جاءت لجنة من الداخلية ومعهم الباشا.

. أش كاين؟ ياك ما بغاوا العسكر من جديد؟ يتساءل البركة.

. البيان • آ بنادم!

. ماها البيان؟ إنا في مكانها.

. يريدون هدمها. بغاوا يوسعوا الدخلة ديال الضريح.

. صباح الخير آ المعلم.

. صباح الخير آ سي البركة

. واش غادي تكمل الجلباب اليوم لصاحبه؟ سيأتي من أجله غدا من المدينة مكناس.

. هي الأولى آ المعلم. ولكن راني غادي نساfer الأسبوع المقبل للدار البيضاء. لازمني شي بركة ديال الفلوس.

. موجودة، غير كمل شغلك. أنت بركة وباغي بركة.

. الله يهديك آ المعلم، راني ما زال ما كمييت ما دخنت سيجارة ما شربت قهوة، ما كاين مزاج للضحك الآن. إنما قل لي: هل في علمك أنهم غادي يهدموا البيان؟ البارحة، المعلم الجزار قالها له الرئيس ديال البلدية.

. لا، هذه ليست في علمي. واش غادي يعملوا للقصر؟ حتى هو غادي يريبوه؟

. وا لا، غير الحوانيت ديال أصحاب الشمع والحلوة.

- إيوا هذه زوينة. البلاد عايشة بالبركة، كم من عائلة تقعات من البيبان، أين سيذهبون لكسب رزقهم؟

- راه المشروع قالك جاء من الرباط، والداخلية هي المكلفة به.

- الله أكبر، الرزق على الله. نحن محبتين في هذه الحفرة ومستورين، غادي يجيوا يقلعوا لنا الرزة من فوق رؤوسنا.

- حينما سيمر المقدم من هنا نسأله، شنو في راسه.

الدكان الذي يشتغل به البركة موجود في دروب ملتوية بحي الحفرة، تصل له من مداخل متعددة من البيبان أو من حي الرشاش، أو حينما تكون نازلا منحدرًا من أحياء خبير كالخطاطبة والقليلة وغيرهما، حيث تنتشر دكاكين الحرف التقليدية وبعضها الآخر للبقالة. تكون هذه الدكاكين مناسبة لمجيء النساء لأجل فصالة الألبسة التقليدية من قفاطين ومنصوريات وجلايب... إنما المعلم علال الخياط الذي يشتغل معه البركة معروف بإتقانه فصالة وخياطة (الجلاليب) التقليدية للرجال والنساء... وميزته كذلك أنه يرفض تشغيل الصناعية أو الصناع الذين يدمنون على الكيف لأنهم يتسبون في إحراق أجزاء من أثواب الخياطة. لذلك تجنبنا للمشاكل، يشترط على من يريد العمل عدم التدخين بالدكان.

في دار الثقافة، عرض مسرحية سقاية السوق الداخلي

ها هو (البركة)، بوجهه المربع، وخديه الفائرين حمرةً، والمتقدين، ببنيته العامرة والمربوعة، بنظرته الغرائبية الجادة والتي لا تترجم مرحه الطفولي الكبير بدواخله، وقد عاد للمدينة في حنين وتذكّر بعد أن تغيب عنها لمدة من الزمن.

يتذكر البركة ذلك الحوار مع المعلم الخياط ومع صديقه مجيد، بعد سنين على مروره، وهو جالس بقاعة دار الثقافة للعروض، يتابع لوحات مسرحية حول هدم السقاية والأبواب الرئيسية ذات الحمولة التاريخية والعمرانية الثقافية.

بالكاد أراد المجيء لمتابعة المسرحية التي أنجزها أفراد جمعية الأوراش، والتي ألفها أستاذ صديق لهم... لكنه لا يزال يحافظ على لقبه بعد عشرين سنة، وعلى مرحه وفقهاته التي جعلها لرحلة العودة هذه... حتى إن صديقه عبدالرحيم رئيس الجمعية كل مرة يستفزه في القاعة بكلام من مثل:

. كبر لك الشأن آ البركة، وأصبحت تتابع الأنشطة الثقافية. كاسترو هذا.
ذاك الموسطاش يشبه شوارب الجزارة عندك.

. آ بعدُ مني آ سي عبدالرحيم، أو سوف اذهب لحالي... هل انتم فقط
الذين تعرفون الثقافة، آش قضيتوا بها؟ ياالله.

...

ثلاث دقات سمعت من كواليس الخشبة.

(. ما لهؤلاء سوف بينون أم سيهدمون شيئاً ما؟)

. المسرحية ستبدأ الآن. تلك الإشارة دياها آ الكانبو⁶.

. آه، انتم الذين على علم بكل هذا، أنا مجرد خياط، اولد عمي اسمح لي.)

تنطفئ أنوار القاعة وينطلق نور باهت وسط خشبة المسرح بدار الثقافة
الجديدة بزهورون وتبدأ مشاهد المسرحية التي كانت من ثلاثة فصول تناولت
مراحل تاريخية مرتبطة بساحة السوق الداخلي وسقايته. كانت مراحل ما قبل
وخلال وما بعد الهدم الذي تعرضت له معالم وسط المدينة التاريخية سنة
1991.

⁶ كلمة اصلها بالأمازيغية تعني الضعيف أو المغفل الذي تهضم حقوقه. البليد.....

لم يبق من صوت عند البركة سوى زفير محمود مختلط برائحة السجائر التبغية التي احترقت بها شعيرات شواربه فوق شفته العليا. عيناه جاحظتان داخل عتمة القاعة ومشدودتان إلى أضواء الخشبة ومشاهدها ذات الثلاثة فصول.

حاول التتبع كتلميذ مجتهد لدرس لم يستطع أن يكون مهتما به خلال صغره. قابضا مرفقيه فوق صدره، منتشيا بجلسته المسترخية داخل قاعة طالما اعتبرها للكبار فقط من المثقفين والمتعلمين أو أصحاب السلطة، تابع كل لوحة منفعلا مع تذكُّراته الراجعة على واجهة ذهنه. لقد عاش المشاهد حية حينما كان مشكل التفكير في هدم معالم السوق التاريخية والأثرية، وحينما قامت عملية الهدم، وكذلك مشاكل توزيع الدكاكين.

معلوماته لم تنمح بعدُ. اعتبر نفسه مؤلفا لهذه المسرحية التي لم ينه مشاهدها ولم يعرف ما سيتوالى منها بعدُ. لكنه شعر بحدسه بألفة القضية وما يدور فيها. ربما ارتباطات وجدانية مع أشخاص تضرروا في عملية الهدم والتوزيع للدكاكين ما تزال حاضرة في فؤاده الجريح جرح غريبته التي فرّ خلالها بنفسيته من ضغط اليومى الحارق لدواخله وأشكال الحرمان التي تتراكم داخل مدينة محرومة هي الأخرى:

ويبدأ العرض!



الطيب والمرآة

(في سيرة مدينة)

يوم عادت المرأة لرؤية النور كان قدرا جديدا قد كتب لها. مرت حوالي خمسة عقود. عرفت فيها البلاد أحداثا كبيرة وصغيرة. قد تكون الكبيرة صغيرة في حين، كما قد تكون الصغيرة كبيرة في حين آخر... بقي منزل الجد أطلالا واقفة، ما دام مهجورا، فارغا. مات الكبار وتزوج الصغار، وانتقل من انتقل إلى جوار ربه، ورحل من ارتحل إلى مسكن جديد أو مدينة جديدة.

قرر (محسن) في صباح باكر، زيارة حي جده ومنزله. أخذ المفتاح الكبير والثقيل المعلق في خزانة في زاوية من غرفة نوم أمه، وخرج قاصدا حي بني يازغة، وهو المتخرج بإجازة في الدراسات الجامعية، المنتمي إلى ثقافة عصر جديد ولغة جديدة وعلوم جديدة.

عطلة صيفية جديدة يستحق معها كل شروط السعادة والشعور بالتفوق ما دام قد حقق فيها أمنيته الدراسية والعائلية. يشعر الآن بكبر التحدي وتضخمه. لن تكون اللحظة أو المرحلة كافية كإنجاز وعيش بنشوته ونخوته.

تحضره أفكار عديدة ووضعيات نفسية مركبة. قد لا يعي جملها، لكنه يعلم ما يأتي من الخطوات، وما سيكون مرغوبا عنده لتحقيقه كطموح.

هو الآن في سن الثالثة والعشرين، في ريعان شبابه. يمتلك من مواصفات جده من جهة أبيه أكثر مما يمتلك من مواصفات جده من جهة أمه. ورغم ذلك، تجد أثر التربية السلوكية التي تلقاها من أمه يجعل شخصية جده حاضرة في مجموعة من تصرفاته، ربما لم يعها بعد ولم يحللها بعد. ذلك أنه كجيل عصره المتعلم أراد الانتماء إلى ثقافة معاصرة، تشكيل شخصيته وميوله وأفكاره ورغبته في الأخذ بالقناعات الجديدة التي تلقاها من تعلمه ووعيه الجديدين، سواء مع الدراسة أو مع الحياة الجامعية التي عاشها بالمدينة الجامعية بظهر المهرار بمدينة فاس.

كان للسكن مع مجموعة من الطلبة، والتي تتغير كل سنة في تشكيلتها، أثر بالغ في الأفكار التي تلقاها واقتنع بها. كما كان للقراءات التي تشبع بها فكره دور كبير في التحولات التي طرأت على تفكيره وجعلت الاصطدامات مع أعراف وأفكار أسرته ومدينته ومجتمعه... في سنته الجامعية الأولى، حرص على النجاح فيها خوفا من التعثر والرسوب المخيف في البدايات من كل شيء. ذلك أن الطلبة يدركون حداثة التجربة وصعوبتها على كل فرد منهم داخل الحياة الجامعية. تجدهم يقولون حكما ونكاتا ومستملحات تحيط بذهن الطالب وتحسسه بضرورة الحيطة والحذر من دلالاتها ورسالاتها:

. أمران يتكرران، هما الصلاة على النبي والسنة الأولى جامعية.

و المستملحة الأخرى:

. السنة الأولى قد تكررها أربع مرات أو أكثر. أولاً، تستغرق منك زيارة المدينة فاس سنة بأكملها لتتعرف على معالمها وشوارعها وقرائنها، ولكي يطير الاندهاش من قوس شفتيك الذي يبقى مفتوحاً أمام بدائعها.

السنة الثانية، تستغرقها في البحث عن صديقة أو رفيقة. وقد تكون المسألة صعبة. فيكيف تنجح في ذلك؟ ربما تحتاج إلى تغيير في شخصيتك. وهذا الانقلاب الكبير في السلوك قد يحدث خللاً وانعدام توازن نفسي وسلوكي... وكم من الطلبة ضيع الدراسة بسبب عدم نجاحه في الحفاظ على هذا التوازن. منهم من ينطوي على نفسه ومشاعره فيعوض التفكير في الجنس والطرف الآخر بالعبادة والصلاة والرياضة. وقد يحتاج إلى رفقة في المجال، متطابقة. وهو مع ذلك قد يندمج مع جماعة مهتمة بالحقل الديني، لكنه قد يكون حقلاً سياسياً أصولياً، له صيرورة تاريخية تقحمه في وعي خاص واتجاهات مذهبية وقراءات إيدولوجية يصبح بها منظاره للحياة وتفسيره لأحداثها مغايراً لفلسفة الحياة الطبيعية عند الآخرين.

يفكر محسن الطالب في هذه الأمور بشكل متداخل مع الاختيارات اليومية في الدراسة والعلاقات والمناقشات، داخل قاعات التعلم أو مقاهي التجمع

أو داخل الحي الجامعي الذي احتجز فيه بداية تدرسه هناك سريرا في غرفة منه في الطابق الثاني مع ثلاثة طلبة آخرين.

هذا الاعتكاف التعبدي الذي يكون عند بعض الطلبة قد يساعد على التفرغ للدراسة، لكنه قد يبعد الطالب بعض الأحيان عن نفسه وعقله، لأنه يحتاج في مرحلة الشباب إلى تصفية مجموعة من الإشكاليات المعرفية وإلى منطقة مجموعة من الأمور. كما أن الإنسان لا بد أن تستثيره مجموعة من المشاعر تجاه جماليات الحياة والطلابات. وليس بين الطلبة طبعا من هو ملاك، فالكل بشر. كم من مرة جلستُ المجموعة groupe كما كان يسميها أعضاؤها، في هذيان طفولي وهم يغنون أغانٍ، مرةً ملتزمة، ومرةً عاطفية، وإن كان المد الجامعي يفرض الاهتمام بالملتزم كدليل على نضج الوعي عند الطالب. لكن لحظات المجموعة، تحتاج فيها للشroud والخروج عن المألوف، وإلى الاستثناء. يغنون بكل الأصوات الغليظة والرقيقة، وبالمطرب والميقّر في السمع. وتكون أغنية (ما أنا إلا بشر) لها حظها الوافر في الغناء... رغم أن الهر الذي يمر من الجوار في ظلمة الأشجار البعيدة عن الساحة الطلابية، قد يفر من نشاز الأصوات، خصوصا وأنه قد يكون شعبانا أكثر في معدته من معدة الطلبة، وهم الذين يؤجل جلهم تناول الحليب والجبن مع نصف رغيفهم (الكوميرا) حتى منتصف الليل، حفاظا على توازن يحارب الجوع الذي قد يسحق الأمعاء، مع وصفة الصودا التي يطبخ بها الأكل في المطعم الجامعي.

كل مرة يكون التذكير بسيرة الطالب الراسب في السنة الأولى من الدراسة الجامعية:

. السنة الثالثة في السنة الأولى الجامعية، تُخصص لنقل المقرر، وتكون محاولة إنجاز الامتحان والرسوب في الشفوي رغم نجاحك في الامتحان الكتابي. هكذا تأتي السنة الرابعة التي قد تنجح في امتحانها في السنة الأولى الجامعية. وهكذا لا تكرر إلا السنة الأولى الجامعية والصلاة على النبي.

. أوف وأخيرا.

يكون هذا التعليق لأحد أفراد المجموعة انطلاقة لضحكات المشهد المرسوم سوريليا في أذهانهم وعقولهم. وهي غرائبية ساخرة يصف بها الطلبة وضعهم وعيشهم في الجامعة. لكنها تبقى مرافقة في الحياة لأنك تستعين بها حتى في لحظات الخوف والتهديد الذي يكون مع انخراطك النضالي والمسيرات الاحتجاجية والشعارات القوية التي تقشعر لها الأبدان بعد عدم قدرة الأسماع على تقبلها (لن نركع أبدا لن نركع، لن يرهبنا صوت المدفع)...

حينما يتذكر محسن وحميد ولد بّا بوشعيب هذا الشعار، تجده يعلق على حميد:

. أما أنت فاسكت واضرب (الطمم••). فمجرد جرو صغير يبعدك هرولةً إذا نبج، أو بطة هاجمة عليك من بحيرة ماء. أتتذكر الرحلة إلى إيران والجولة في حي خبير؟ التاريخ شاهد على جنبك الكبير: سيرة جبااااان!

تتعالى القهقهات والتعاليق بين أفراد المجموعة. يعود حميد بصوت جهوري:

. الحمد لله لست بمفردى الجبان. تذكّر يوم بقيت في غرفة الحي الجامعي يومين متتابعين خوفاً من الخروج. يوم نهرتلك تلك الفتاة في الشارع فعدت طبقاً مغلقاً وفما مخيظاً بعد أن صدّعتنا بمرطقاتك طول المسير في ذلك التجوال. أضيف أم تراكم اكتفيتم بما قلت؟

كانت السنوات الأربع عند محسن وفي الجامعة نجاحاً بتفوق وميزات، خولت له الاستفادة من منحة للدراسات العليا. وكان مفخرة لوالده وأمه أولاً، ثم لإخوته وأخواته ثانياً. لكن الشخصية الجديدة لمحسن، غلب عليها ما تعلمته ودرسته وتشبعت به في الجامعة. قرأ التحليل النفسي وتعمق في إدراك قيمته وإضافاته العلمية والمعرفية والإنسانية. قرأ الفكر الثوري، فانخرط في النقاشات السياسية ومالاً للفكر اليساري باشتراكيه وشيوعيته. تفاعل مع معارف أصدقائه من الطلبة في تخصصات التاريخ وعلم النفس والفلسفة والدراسات الاجتماعية والإسلامية وغيرها.

•- الزم الصمت المطلق. ولعل وقع الحرفين مع تشديد نطقهما يفيد أكثر.

هكذا تشكلت شخصية محسن الجديدة. ربما لم يدرك حدود التماس والتقاطع مع بون التباعد بين هذه المكونات التي أثرت فيه. لكنه سيكون مثل غيره من الطلبة. ستكون له تركيبته الخاصة التي يتفاعل من خلالها مع الوسط والمحيط والحياة الجديدة بعد الانتهاء من الدراسة الجامعية. فبين التحليل النفسي والفكر الشيوعي والاشتراكي، سيبحث عن التقاطع والتوفيق. سيدرس أبحاث روزا لوكسمبورغ، وفيلهام رايبخ وغيرهما.

لكن محسن ولد بيئة مغربية وثقافة عربية إسلامية إلى جانب الامتدادات الأمازيغية في أسرته. والأكبر أثرا في كل هذا انتماءه لشجرة أشرف المدينة التي ينحدر منها، والتي تعطيه تميّزا في اللقب وكذا في التعامل والتفضيل. يعي جيدا ومجدسه وما تعلّمه نفسيات أفراد المجتمع والمدينة وساكنتها، كيف تؤثر عليهم ثقافة مركبة من الديني والسياسي. تجده يشرحها لصديقه حميد بطريقة علمية فيثیره بعبارة (متلازمة ستوكهولم*)، فيعلّق عليه هذا الأخير: بسّط تحليلاتك وكفاك غموضا وتعقيدا لها. أتظن أن الناس في حاجة إلى ثقافتك المركبة والغربية؟

وهو تفضيل تاريخي قديم قدم بناء هذه العلاقة بين الأشراف ودورهم في استقرار حكم السلاطين ببلاد المغرب. فبجدسه يدرك كل هذه التداخلات

* - - أطلق على هذه الحالة اسم "متلازمة ستوكهولم" نسبة إلى حادثة حدثت في ستوكهولم في السويد حيث سطا مجموعة من اللصوص على بنك كريديتبانكين Kreditbanken هناك في عام 1973، واتخذوا بعضاً من موظفي البنك رهائن لمدة ستة أيام، خلال تلك الفترة بدأ الرهائن يرتبطون عاطفياً مع الجناة، وقاموا بالدفاع عنهم بعد إطلاق سراحهم. وفي سياق تحليل السيد محسن الشامي ستعني قبول وتبرير الضعيف لاستغلال القوي له وربما الدفاع عنه...

والامتدادات، لكنه يعيشها بمفعولها الجزئي في كل مرحلة عمرية. فكيف سيكون هذا المفعول بعد تعمقه في البحث والدراسة ونضج شخصيته وتحقيقه لأشكال تحرر لها كثيرة؟

هناك من الطلبة من يتحول جذريا، فيصبح حاملا لخطاب يساري جذري يرافقه تغير سلوكي مرتبط بالموقف من الدين ومن طقوس العبادات، فيكون قد أبدى قوة شخصية وشجاعة كبيرة في هذا التحول. ذلك أنه ليس من السهل ولا بالهين الولوج فيه. يكفي استحضار البنية النفسية المرتبطة بنيويا بالخوف من عذاب الآخرة والتي اندمجت وانغرست مع الوجبات اليومية التي يتلقاها ويتغذى بها الإنسان منذ الصغر. لكن هذا التصرف الجديد، قد يكون عند البعض مسارا مأمونا للتحرر والحصول على ارتباط مع الجنس الآخر، فيصبحان رفيقا ورفيقة... ربما بداية سكينوفرينيا لن تتحول إلى ما هو مرضي إلا في مراحل عمرية أخرى. وربما هي بداية تحرر ضرورية، إيمانا بمقروئيات الطلبة بأن التحرر الاجتماعي يبدأ بالتحرر الفردي والجنسي أولا.

لكن من الطلبة من جعل الحل الجنسي، بالذهاب إلى أماكن المتعة الخاصة به، على حساب ميزانية العيش في الجامعة، حتى يتخلص من كبته هناك، ويعود لحياة عادية وسط الحرم الجامعي. فجدار المنع والرفض للتحرر يتصلب ضد هذا الجانب الجنسي، خصوصا مع الحمولة التربوية والنفسية التي تتركب بها شخصية كل طالب أو طالبة.

من أي صنف كان محسن في حياته الطلابية؟ نترك له أسرارها لكي يحكيها
لنا مع صديقه حميد ولد بّا بوشعيب، ومع المجموعة التي ينتمي إليها في
صداقته الجميلة والطلابية: le groupe.

وداخل الجيل والمجموعة التي توجهت مع محسن وحميد إلى الدراسة الجامعية،
تجد الأصناف المتنوعة المذكورة قبل قليل.



فكرة زيارة البيت المهجور . والذي يسجّل في ذكرياته وروايات أمه وخالاته وأحواله تاريخا حافلا بالأحداث والأخبار والشخصيات . جاءت مفاجئة في نهاية شهر يوليوز الصيفي الحار .

جو مدينة مولاي إدريس زرهون، صحي بامتياز، رغم الحرارة البادية في الصيف أو ذلك البرد القارس في الشتاء. فالجبل موطن الغابة والأشجار. حاضن لحياة بيئية متنوعة تغذي الطبيعة والبشر والمخلوقات... وفصل الصيف، متنوع في تغذيته بالفواكه اللذيذة المذاق والطعم. هناك التفاح البلدي الذي لن تجد له نظيرا في الأرجاء. وهناك الإجاص المحلي الشهى بحلاوته الطبيعية، و"البرقوق الشحمي"، وأنواع" الباكور" أو التين التي تذوب في اللسان طعما وحلاوة وتغذية...

احتفالية يتمتع بها صاحبها حينما يضع صحن متنوعا من كل هذا وذاك، وفوق الطاولة تكون (حليمة) . وهي تسمية الزلافة أو صحن الطين المقعر والمنقط من داخله بالقطران . تجعل الماء المشروب باردا وشافيا من العطش. وتكتمل الوجبة البلدية بكسرة خبز صلب، فتكون (التخريفة) كما تسميتها بالبلدة، وتعني أن تأكل من هذه الفواكه حتى التخمة والتي قد تشعرك بالدوخة كما قد تسبب لك في إسهال متفاوت في حدته.

لا يدري الإنسان لم يشعر بالحاجة لهذه الفواكه؟ أهى نداء طبيعي فطري أم شيء آخر؟ خصوصا وأن الفرد قد تعود على هذه الفواكه منذ الصغر،

فتصبح مثل لقاح فصلي وموسمي، لا بد لك أن تبحث عنها سواء بالذهاب إلى البساتين والجنان، أو بشرائها من الفلاحين الذين يأتون بها في (افراخ) وهي عبارة عن سلات طويلة ورقيقة خاصة تحفظها من التلف. تكون هذه الفراخ أو السلات من القصب الذي يحافظ على تهويتها وطراحتها.

ففي هذا الجو الطبيعي في الأكل والنوم والتنفس، تمتلك صحة وعافية، وتزيد وزنا، وتستغرق نوما فتستيقظ في صحة جيدة. فماذا عساك تفعل سوى التمتع بفصل الصيف والتفكير في اكتشاف أو تذكور الجديد أو القديم المنسي بين أرجاء المدينة.

إلى جانب الانتهاء من السنة الجامعية وبالنجاح فيها، شعر محسن براحة عصبية وذهنية كبيرة من توترات السنة الدراسية وكل مسؤولياتها التي تُوجت بالحصول على الإجازة، في انتظار ما ستسفر عنه طلبات المنحة للدراسات العليا أو خوض امتحانات معاهد التربية والتكوين أو غيرها من مباريات التوظيف. وبين هذا الانتظار والانتهاى من مشوار أربع سنوات رُسمت له شخصية جديدة وفكر جديد، ربما أراد التصالح مع أطلال هذا الماضي مع نفسيته ومع أسرته وتربيته الأمومية على الخصوص. لذلك رأى في زيارة دار الجد أمرا رمزيا يدل على اعتزاز بالانتماء، أو ربما على توصيل تقرير وجداني لروح المنزل الذي يسكن نفسيته:

. ها أنا جئت حاصلا على إجازة، متطلعا لمستقبل.

شريط حياة الطفولة حاضر وهو في طريقه إلى دار جده. ذكرياته التي تلاشت أيام لعبه بفضائه وهو طفل صغير تنتشلها روايات أمه وحكاياتها حول تاريخ العائلة وأجيالها، منذ كانت طفلة صغيرة هي الأخرى، ومنذ تيمت ووعيتها بأسباب هذا الحرمان الذي ارتبط باليتم.

هو تحدّ وشعور بامتلاك الشجاعة لولوج أطلال المنزل بمفرده إذا شاء، حيث لا عوائق ثقافية ستمنعه من اختراقه. لكن المغامرة التي بدت غريبة مع هذا اللون من التفكير، دفعته لطرق باب صديقه (حميد ولد بّا بوشعيب)، صديق الطفولة والدراسة والجامعة. رافقه في هذه الجولة وفي اكتشافاتها مثلما ترافقا في جولات ورحلات ومخيمات وأسفار سابقة:

. سوف تبحث عن كنز هناك؟

. إذا وجدت كنزا هناك سأقتسمه معك آ سيدي. أنت النصف وأنا النصف.

. إوا هي شي خاييا ديال اللويز. شي مشروع صحيح أو شي دراسة في مريكان.

ولجا المنزل، وصعدا إلى سطحه للتمتع بمنظر الجبال والغابة والوادي العميق ببساتينه المخضرة على ضفافه، وألوان أشجارها وأزهارها...

. شي قفزة مبرعة من فوق السطح حتى للوادي آ محسن. تكون شي كيلومتر في العلو؟

. وائيه... ما توصل لنصف الطريق حتى كان الله وباقي الله...

. راه الراس تايترضح بسبب العلو.

. تعال نبحت عن الكنز في الطابق السفلي .

. ههه عملتها بالصح. ويلا خرجوا شي جنون آش تعمل معهم؟

. الجن هو أنت... آجي كاينة واحد الطارمة في هذه الغرفة نشوفوا آش فيها.

. القفل صدئ آ محسن. هل عندك المفتاح؟

. انتظر آ بآ، نُجِّي نُورِّي ليك المفتاح. ها هي هذه الحديدة تقضي الغرض.

ضربة أو ثلاثة وها هو مفتوح.

. أنا آ خويا خليني بعيد. دار جدك هذه. اعمل فيها ما تريد. ربما تكون شي

لفعة هنا أو شي حاجة غريبة. ها أنا في باب المنزل، نتسناك على برسى في

خارجة.

فضول غريب رافق محسن وهو يكسر القفل أصدئ وهو يدفع الباب بقوة،

حتى تناثر الغبار من إطارها، وانسابت رائحة رطوبة دفينة في المكان.

الأركان مظلمة إلا ما سمح به شعاع الضوء المخترق لما انفتح من الباب، ولمّا انبلج من ألواح هذه الطارمة⁷ الخشبية التي تفصله عن باقي الغرفة.

نادى على صديقه (حميد) ليناوله عود ثقاب. استطاع أن يجد نصف شمعة منطفئة في إحدى الغرف المجاورة. وجد صعوبة في إيقاد فتيلها، وفي الأخير، استعادت الشمعة وظيفتها وشعلتها المتراقصة مع الأطلال والظلال، رغم الرائحة التي أزعجت محسن مع دخانها الأسود المتعالي بعد زرقة فحمرة فصفرة فسواد محتبئ وراء ظل المكان والأشياء. هو مشهد أحرّ شاعريته حتى ينتهي من مهمته الفضولية الغريبة. سمع صوت صديقه حميد من الباب:

. قلة الشغل وما تُدير.

استعان على خوفه من اختراق الطارمة برد بصوت عال:

. وايّ آخواف. أنت دائما حينما تكون شاعلة في الجامعة بالإضرابات تجيء عند ميمتك تجلس قربها مثل الفلّوس.

. واويه آ غيفارا. من يسمعك يقول إنك كنت انت هو الطالب (باينا) في النضال. هههه أنا لا أقدر على رائحة الغمولية والرطوبة، أختنق بها.

⁷ الطارمة بكسر الراء بيت من خشب، مأخوذة عن الفارسية الطارم.

. هههه، القلدة ديال السباع والخوف ديال الفأر. أنت غير دجاجة خلعتك
وهربت، أما إذا خرج شي جن، يمكن تقفز للوادي من هنا.

. آجي تشوف. دعاه محسن للمجيء والنظر لما وجده بالطارمة.

. وَا لَّا، اخرج أنت من هناك.

. هذا فنار ديال الغاز قديم. شوف ديكور واعر. وهذا إطار مغطي بهذه
الملاية المغبرة بزاف. انتظر لمر ما يوجد داخله.

. واو ! إنها مرآة رائعة. والإطار كذلك من العود المتين ومنقوش مزيان.

. سأجعلها ديكورا عندي في الغرفة في سطح المنزل. ما رأيك؟

. إيوا الوالدة ديالك غادي دّير لها بازار في الدار. تبارك الله على (بولو)
و(تيري*). هههه، أولًا : أنت نبهان*؟

. أنت أكبر خواف. الجنون راهم ما كينينش. نحن الذين نتوهم. ما تزال
الخرافات في دماغك.

. شوف، أنت وذاك التحليل النفسي ديالك سيروا بعدوا مني... خليتي آ
سيدي أنا خواف. بقيت على خاطرک؟

* - ألقاب لمرشدين سياحيين بالبلدة اشتهروا بها أكثر من اشتهارهم بأسمائهم الحقيقية والرسمية.
- اسم لشخصية حاضرة في رواية بنفس العنوان - الاسم: نبهان.

في عودتهما من هذه الزيارة لأطلال المنزل المنسي، تعاوننا على حمل المرأة. كل واحد يقبضها من جهة بإحدى يديه. كان الإطار ثقيل الحجم، ما جعلهما يتناوبان على الميمنة والميسرة:

. آجي من جهة الشّمال آ محسن لأنك شيوعي... ههه

. تبارك الله على الرجعي.

استغربا لرد فعل امرأة عجوز مفاجئ، كانت تطل من وراء باب منزلها الموارب، حيث لا ترى منه سوى نصف وجهها وعين باصرة جاحظة:

. آ لطيف، آ لطيف، هؤلاء جنون ولا حماق؟ ما كاين اللي يكسر هذه المرأة؟

. ما لهذه العجوز؟

. إنّها تحرف. قلة الشغل، مقابلة غير الباب وعباد الله.

. اسكت يمكن تسمعنا.

سمعاها من جديد، وهي تخاطبهما مباشرة:

. سلّم على الوالدة ديالك: (للا زهور). وقل لها : سلّمّت عليك (أمّي خديجة) جارتكم القديمة امرأة بآ سلام.

سيرة مدينة ونسيج حياة

. وا ناري آ المسخوط، راها سمعاتك.

. إن شاء الله آ مّي خديجة.

يعلق حميد على محسن:

. أنت هذه الهموز الحامضة ديالك دائما تورطني فيها. حينما تكون شي

تخريفة ديال الباكور أو التفاح والإجاص، لا تنادي على صاحبك حميد.

. حاول على كرشك، ديما مفكر غير فالأكل. يالله آسيدي العشية الحرشة

والرايب على حسابي.

. أة ساعة؟ اضبط معي الوقت.

. ههه الأكل عندك ديما مضبوط. نلتقي في السابعة مساء.

استطاع حميد ولد امي فاطمة، زوجة (ابا بوشعيب الخضار)، أن يحصل على

وظيفة بالجماعة الحضرية أو البلدية كما يسميها أهل البلدة.

في دراسته في شعبة الآداب، كان متفوقا. فقد استطاع قبلها، مع نباهته، الحصول على شهادة البكالوريا بميزة مستحسن. الطموح كبير والآمال مرسومة في جحوظ عينيه. كما أن المحيط شجعه على الاستمرار في الدراسة والتفائل له بمستقبل واعد وزاهر فيها.

كان أبوه (ابا بوشعيب)، كما يناديه الناس والتجار بالسوق المركزي (المارشسي)، يكتسي شعبية كبيرة وما يزال. قامت الطويلة ولحيته بيضاء تضيف بهاء ووقارا لرب الأسرة، هو الذي تفرغ لأكثر من ثلاثة عقود لتربية الأولاد والعمل الناجح في التجارة بجدية لم تَحُلْ منها حتى علاقته مع ابنه حميد وسائر إخوة حميد وأخواته. استطاع الابن الأكبر (عبدالرزاق) أن يصبح معلما بالتعليم الابتدائي، بمستوى السابعة ثانوي، يوم كان من الممكن الحصول على وظيفة صغيرة لا يقتضي الحصول على شهادة البكالوريا، فقط شهادة التخرج من السلك الإعدادي (البروفي)، وشهادة متابعة الدروس بمستويات السلك الثاني ثانوي وحيث كان يستفيد المرشح من تكوين لسنة أو سنتين، وإذا كان في مستوى السنة النهائية، يذهب في الغالب لوظائف صغرى وبالخصوص للتعليم بدون تكوين، فيستمر التدريب إلى أن يشهد له المفتش والمدير مع لجنة اجتياز امتحان الكفاءة المهنية باقتدار.

كان عبدالرزاق من هذا الجيل الذي اكتفى طموحه الحياتي بالاندماج داخل وظيفة صغيرة، مفخرة لأمه، واعتزازا لإخوته وأخواته، ومعونة في المسؤولية المعنوية أكثر لأبيه الذي بدأ يرى أمامه ثمرات تربيته الصارمة لأولاده، رغم

أنه كان أكثر الشخصيات حيوية ومزاحا (قشابة)، وانخراطاً في الثقافة الاجتماعية والدينية، حيث تكون صلاته الجماعية اليومية بجامع (النوالة)، وصلاته يوم الجمعة بجامع (مولاي اليزيد). لبسته الفوقية البيضاء وورثته الخضراء الباهتة اللون، واللحية المتدرجة من سواد إلى اختلاط تتركش مع بياض خلال عقود الخمسة التي مرت من حياته عامة، وعيناه الجاحظتان صرامة وابتسامة وانتباها خلال اليوم بأكمله، حتى في أدق التفاصيل، هي سمات هذه الشخصية التي يحترمها الجميع. جذور قبيلة أمازيغية لا تزال حية في العلاقة وتبادل الزيارات. ما يزال محصول الحبوب وشراكة قطع المواشي يوطد علاقة القرابة والمصاهرة مع أهله وأهل زوجته. إنما اختيار بّا بوشعيب الاستقرار بمدينة مولاي ادريس زرهون، كان تحدياً في حد ذاته، مميزاً لشخصيته التي استطاعت أن تندمج في وسط ثقافة دقيقة ومتنوعة، بطريقته التي يحكي بها (تزهونيته) كما يجب أن يصف بها هذا الاندماج، يجعل الوصفة صحية لكل من وجد عراقيل في الاندماج الاجتماعي والثقافي. لو أنه تزوج قبل الخروج من قبيلته، ما ذهب إلى بلد آخر بعيد عنها. لكن، شاءت الظروف الحياتية ومرحلة الاستعمار أن تلعب دورها في هذا القدر الحياتي.

...

حينما يجلس حميد في لحظات بمفرده، يمر شريط حياة اجتماعية وأسرية تاريخية بسرعة كبيرة، يجعله سابحا وسارحا في مشاهد لا واعية ولا شعورية، تترك

لكونه الوجداني والنفسي الوقت للصمت الطويل المتأمل لهذا الماء الراكد في دواخل محيطه الهائج. يتحول هذا الخليط، حيث لا مجال لبرزخ بين مكوناته ومشاركه وأنهاره التي تصب في عمقه، إلى تنفس ودق بالأنامل على طاولة مقهى، أو بكف على فخذه في امتداد الجلسة الانفرادية تحت أشعة شمس صباحية يستحليها وتنعش جلده، والتي سرعان ما يقاطعها رنين هاتف أو سلام عابر أو جلوس صديق أو أحد المعارف.

يحاور نفسه في هذه اللحظات العمرية وهو موظف بالجماعة الحضرية:

. تُرى، أية إخفاقات تعرضت لها في الدراسة وفي الحياة؟ أيّ هدر ارتكبته وأيّ جهد قصرت فيه، فكان سببا في انسداد آفاق أفضل من هذه؟

هي أسئلة لحظات شعور بالذنب أو النقص أو العجز. نادرا ما يفتح قلبه للآخر لكي ييوح بها، خصوصا وأنها نقاط ضعف قد تكون مدمرة في شخصية كل إنسان.

في اجتماعات أعضاء المجلس البلدي، كما في عمليات تصفية الحساب الإداري وغيره، يكون حميد ولد بابوشعيب هو المعوّل عليه من طرف الرئيس. يُحضر الملفات والمستندات، ويسجل وقائع الجلسات، وتجد الأغلبية كما المعارضة معولة عليه وعلى أمانته، واضعة الثقة فيه مجاملة أو عجزاً، بالحالتين المتناقضتين معا.

...

. تبارك الله على سي حميد. الله يبارك في ابا بوشعيب ويطول عمره. راه ابا نا
كاملين وأخونا وصديقنا، وحتى أنت آ سي حميد .

. شوف آ سي حميد، راه ناكلوا بعضنا البعض، ولكن أنت حاجة أخرى.
بعيد عن المشاكل بيننا نحن الأعضاء.

. أنا هنا لكي أدون ما تقولونه وتقرحونه. والتقرير سيكون بين يدي كل
واحد منكم كما تعلمون. إذا كانت هناك ملاحظات ستؤخذ بعين الاعتبار.
ماذا تقرحون؟ سماع التقرير جماعة أو تسلم نسخة منه لكل واحد.

. آ سي حميد، الاثنان معا، حتى لا يبقى لوم بيننا.

يفتتح السي نبهان الجلسة كرئيس للجماعة الحضرية، وبعدها يطرح جدول
الأعمال والتعديلات المقترحة بشأنه.

يسجل حميد جدول الاعمال:

- 1 . توزيع الدكاكين بالقيساريتين الجديدتين.
- 2 . ترخيص استغلال المرافق العمومية المرتبطة بهما: حراسة . مراحيض . نظافة.
- 3 . تنظيم الطوابق مهنيا وحرفيا وتجاريا.
- 4 . تدبير مشكل السقايات وقلة المياه الصالحة للشرب.

5 . مختلفات :

أ . السيد (ادريس المختلق)، طلب رفع دعوى قضائية ضد صاحب مقهى أهان موظفي وأعوان ومستشار البلدية.

ب . السيد (حسن البركي)، طلب منحة لجمعية فنية.

ج . السيد (عبد الحق بوهنده)، مشكل الإنارة بحي الدرازاات.

يقترح النائب الثالث للرئيس تقسيم جدول الأعمال، وتخصيص جلسة أولى لمناقشة النقاط الثلاث الأولى.

يعارضه السيد عبدالحق بوهنده:

. والناس؟ هل سيبقون في الظلام وبدون ماء حتى ننتهي من القيسارية؟

يسجل حميد ولد بابوشعيب الوقائع وينتظر. يعود الرئيس لمساءلة الحضور:

. ماذا تقترحون، نصوت على مناقشة جميع العناصر أو على اقتراح النائب الثالث؟

يتدخل حسن البركي ملاحظا:

. أتساءل عن السر في حضور جميع الأعضاء لهذه الجلسة. كيف كان الجل

يتغيب عن مهامه ومسؤولياته، واليوم الجميع حاضر هنا؟

الرئيس:

. من فضلك آ سي حسن، دعنا نقوم بعملنا بشكل منظم. تفضل آ سي حميد سجل عدد المصوتين على جدول الأعمال الأول وعلى الثاني.

. 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7.

. 1، 2، 3، 4، 5.

. سبعة من أصل 17 مع الاقتراح الأول.

. خمسة من أصل 17 مع الاقتراح الثاني.

. خمسة لم يصوتوا لا مع الأول ولا مع الثاني.

يعلق حسن البركي من جديد على غير المصوتين:

. وأنتم لماذا جئتم؟ هل جئتم للفراجة؟

. أدخل سوق راسك آ البركي. بلهجة شديدة ردّ عليه أصغر أعضاء المجلس

البلدي سنا: نحن هنا من أجل المصلحة العامة، وإذا أردت أن نفرقع هذه

الرمانة نحن مستعدون من الآن.

يطقطق ممثل السلطات المحلية بجهة غشاء قلمه المدادي فوق الطاولة:

. من فضلكم، نلتزم بطريقة عمل منظمة، ولنختزّ جدول أعمال محدد.

. سي المفضل، أنت باشا ومسؤول عارف بالقانون. النائب الثالث ليس من

حقه التعليق على اختيارنا. ونسجل ونندد أسلوب الضغط الذي يمارسه على

الاجتماع. نحن مع القانون والنظام، من أجل الدفاع عن مصالح الطبقة الكادحة والبرولتاريا.

تشوَّك رأس (عبدالحق بوهندة)، فقطب حاجبيه، وهو الذي لم يلج مدرسة قط ولا قرأ كتابا بالمرّة. انحنى على كتف مقرر الجلسة الجالس بجانبه (حميد ولد بابوشعيب) هامسا:

. آولد بآبو شعيب، ماذا يعني بهذا البرولتاريا؟ راه هذا راسه قاسه وكلامه قاسح وغلليظ بزاف.

رد عليه حميد مبتسما وهامسا كذلك:

. يعني بهم فقط العمال والفلاحين.

. ياك آخاي. هو الآن (عزيز اليدوي) الذي يخدم في النظافة، حتى هو عامل؟

. نعم.

. إيوا عزيز اليدوي، راه بنى داره منذ سنتين، وهذا الشاب ما زال حتى الوظيفة لم يجدها بعد. لو ما كان راسه قاسح، كنت دبرّت له في خدمة بالعمالة أو الولاية، بالإجازة التعليمية التي يحملها.

يبتسم حميد متحسرا على ما سمع، ويحول الاهتمام إلى عيني الرئيس حتى يرجع إلى النظام والهدوء بعد الوشوشات والأحاديث الثنائية والثلاثية التي اضطرب بها مناخ الاجتماع.

. المرجو التزام الصمت. بناء على نتائج التصويت، سنعتمد على الاتفاق الأول من مناقشة جميع النقاط. مرت الآن ساعة وزيادة ولم نبدأ بعد. وهذه الآن الحادية عشرة صباحا.

يطلب (حسن البركي) نقطة نظام، بإيعاز من أحد الأعضاء الممتنعين عن التصويت:

. أطلب الالتزام بمناقشة جميع النقاط، دون تسرع أو تأجيل، ودون انسحابات.

يطلب رئيس المجلس من حميد تدوين الملاحظة . نقطة نظام ..

. طيب، نبدأ بالنقطة الأولى من جدول الاعمال.

1 - توزيع الدكاكين بالقيسارية الجديدة.

سأنادي على الموظف المسؤول بالمصلحة لكي يقرأ عليكم التقرير الذي بين أيديكم، ولكي يرد على استفساراتكم، التقرير الذي يبدو معه أن نصف الدكاكين الجديدة موضع نزاع.

يأخذ الكلمة أصغر الأعضاء سنا (عزيز الرماني):

. فيما يخص هذه النقطة، سأتكلم أصالة عن نفسي ونيابة عن فريقتي ودفاعا عن المصلحة العامة وحقوق الشعب الزهوني.

تمر عبارة عابرة (الله أكبر !)، صادرة عن عبدالحق بوهندة، لا يكثر لها عزيز الرماني...

. المشروع أساسا أقيم لصالح التجار والحرفيين الذين هدمت حوانيتهم ومبانيهم. ومنذ البداية علقنا برفضنا العملية، لأنها اغتيال تاريخي للتراث العمراني والثقافة والذاكرة الزرهونية. ولكن بما أن المشروع كان بأوامر عليا من جهات عليا فوق إرادة الجميع، وبما أنه لا يمكن الاعتراض عليها وها قد وقع ما وقع، فإنني سأبدأ بملاحظة حول العشرة حوانيت التي هي في واجهة القيسارية على قارعة الطريق الرئيسي المهم والوحيد الذي يمر في سوق المدينة. ويوم أمس سمعنا بتشاجرٍ حول أرقام هذه الدكاكين بين أعضاء من هذا المجلس الموقر. ونعلم أن هؤلاء يريدون الاستحواذ عليها بغير وجه حق، حيث لم تضع لهم دكاكين خلال عملية الهدم، لكنهم يريدون الحصول على امتياز في اقتنائها. لئلا...

يعترض أحد الأعضاء بنقطة نظام ويقاطع تدخل عزيز الرماني:

. حدّد الأسماء وتحمل المسؤولية آ سي عزيز، هذا اتهام خطير بمحاولة السطو أو السطو على ممتلكات عمومية.

. لن أذكر الأسماء الآن، فالعملية معقدة. إنما الثابت أن القرعة التي وضعت للتجار، استثنيت منها أرقام من 7 الى 19، إذا استثنينا رقمي 9 و12.

الذين جعلوا للحاج عبدالسلام التاجر والميموني مول الكتان خارج القرعة. وهذا مشكل ثان.

يطلب الرئيس من عزيز الاختصار، كما يطلب من كاتب الجلسة تدوين الملاحظات. يعود عزيز ليؤكد:

. بحضور السلطات المحلية، راه يلا كان التلاعب في توزيع الدكاكين، غادي تولى وتوض الفوضى مثل انتفاضات شعبية سابقة، وتلك الساعة فليتحمل نار الفتنة من أشعل فتيلها الآن...

يتدخل النائب الثالث للرئيس (السي حسن):

. لا ننس أن البلدية تمتلك بعض الدكاكين في القيساريتين، والتي وضعت تحت تصرفها. وهذا داخل في المشروع منذ البداية. يمكن السي عزيز اختلطت عليه الأمور. عشرة حوانيت لن تقوم عليها القيامة بهذا الشكل، وخصوصا أنها في ملك البلدية.

تدور قهقهات تهكمية واستهزائية، تُبدي تموقفا من رأي ما. ما هو هذا الرأي؟ هل هو رأي سي عزيز أو رأي سي حسن؟

الأول قهقهه وحرّك كامل صدره وبطنه المنتفخين، ووضع كف يده على شاربه وشفتيه، فيما إبهامه بقي مدعّمًا لكتلة خده المتدبّدة بالضحك، فلم يبق ظاهرا منه سوى جبهته وحدقتيه من أعلى مع غبغه من أسفل.

الثاني، عكس الأول. فإذا كان الأول مستلقيا بكامل ظهره على أريكة الاجتماع، والتي ما فتئ يتمايل بها يمنا وشمالا . لعبا أم زيادة انتباه؟ الله أعلم . حتى إن صدره أمامه بادٍ قبل وجهه، فإن الثاني، واضعا مرفقيه على مائدة الاجتماع المستطيلة، جاعلا نظارتيه على مارن أنفه، حيث إن عينيه يحفظ بهما فوق إطار النظارتين، مستميلا يمنا وشمالا كأنه كاميرا غواصة مستكشفة، بطول قامته، وببُدُوّ نحافة جسمه، حيث وزنه بعظامه أكثر من لحمه وشحمه، فكانت ضحكاته تحريكا لكتفيه وطأطة لرأسه...

وضيعات ضحك متناقضة تحاول اختراق شيء ما أو التغطية على أمر ما... هناك كذلك الضحكات المقلدة والمتموجة والمتابعة لتموجات ودرجات الزيادة والنقصان في ضحكات آخرين، تدل على أن السياسة كذلك هي دعم لمناسبات ضحك زعماء الفرق والمصالح، وتطويل ومساندة من طرف الإمعة الأتباع... حتى إن الضحك يعطي الفروق بين صغار القوم وكبارهم... إنما لم تمض الضحكات إلى ما لا نهاية، كما أنها لم تمض إلى هدف ما ونتيجة. قاطعها طلب تدخل من طرف مستشار جماعي آخر لم يتكلم بعد، هو (عبد الحق بوهنده):

. للتوضيح السيد الرئيس، ممتلكات الجماعة في القيساريتين تدخل فيها مصلحة المرافق العمومية، ومركزي الحراسة، وثمانية دكاكين لا زلت أتذكر اتفاقية الشراكة التي أجرتها البلدية، عهد الرئيس السابق، مع الجهات المسؤولة على بناء القيساريتين. والثمانية دكاكين موجودة في الطابق الأول من

القيسارية الأولى. يعني العشرة دكاكين المتحدث عنها بهذه الأرقام والموجودة بواجهة الشارع، ليست في ملك البلدية. وإذا تنازع عليها بعض الأعضاء، فالمسألة فيها نقاش. ما مصلحتهم في إخراجها من القرعة بين التجار وملاك الدكاكين؟ هل يريدون تفويتها لأنفسهم؟ هذا أمر خطير. أنا أطلب استحضار وثائق الشراكة والتعهدات مع الوزارات المعنية بالمشروع. وأطلب شفافية في القرعة بحضور جميع التجار المعنيين ووضع معايير بين التجار الكبار والحرفيين وغيرهم، والمساحات التي ضاعت منهم في الذي هدمناه من ممتلكاتهم. نضع تخطيطا هندسيا في الجدار أو على الشاشة الحائطية، ونأتي بموثقين يقومون بعملية القرعة.

يعود الهرج والمرج من جديد... تتعالى الأصوات المعرقلة:

. أشدانا لشي موثق؟ واش احنا ما قادرين على شغلنا؟ واش احنا ما فينا ثقة؟

. في من وضع المواطنين ثقتهم هنا دفاعا عنهم نحن أم الموثق؟

يتأمل حميد ولد بابوشعيب هذه التدخلات الصارخة، ويقارنها مع واقع حال الثقة التي وضعت في الميزان. وهو ابن البلدة الصغيرة التي هي مثل صندوق عود ثقاب، أو مثل زجاجة، ريال من بخور الجاوي ييخرها بأكملها. كل أسرارها تعود في الصباح للتناول على موائد إفطارها قبل غدائها. يعلم كيف استعمل الأول الزيت البلدي (زيت الزيتون) في توزيعها على المتعودين في

التصويت عليه، والآخر كيف كان يوزع غلة الفواكه الطازجة من بساتينه على سكان حيه، والثالث ارتبطت به النكتة إلى جانب الحجة، في توزيع إحدى النعلين من الشربيل أو البلغة على المصوت، حتى إذا أتاه بأوراق التصويت التي لم توضع في صندوق الاقتراع، ناوله النعل الثاني... ربما تأتيك في نصيبك فردتان مزدوجتان من قياس واحد بالرجل اليمنى دون اليسرى... نكات ساخرة من واقع الحال الذي ينزل بكرامة الإنسان إلى استعمال المصحف القرآني في القسّم على عملية انتخاب تفترض الرأي الحر ومحاربة نوع شراء الذمم والأصوات.

لكن ما العمل؟ منذ دراساته الجامعية، كان حميد وأصدقاؤه ينتقدون تربية وزارة الداخلية للمواطنين على البيع والشراء في أصوات الانتخابات: (ضاعت الكرامة وانتشرت المذلة معها. انتصرت القيم المادية الرخيصة والمهينة على شرف القيم الروحية المشرفة. ضاعت فرصة التاريخ في تربية الأمة على نُبل القيم مع سياسة محتقرة للمواطنين، تنظر لهم نظرة الرعاع والقطيع. سحقاً لهذا الوعي السياسي الذي يخلق المرارة في الحلق والتنفس، ويتركك بدون راحة بال. يدمرك في توازنك تجاه مشاهد الحياة مثل هذه التي يتفوّه فيها المنتخبون بهذا الكلام القبيح والكاذب والنهب الوضع...).

لم يأت وقت التفريغ بعد. سينتظر ذهابه حتى المقهى. سيكون الوقت مناسباً لحميد ولد بّا بوشعيب لكي يفجر تدمره مع أصدقائه من خريجي الجامعة

وعاطليها. إنما كانت هذه شجون وحرقة تفكير تعترك في دواخله همسا صامتا وحادقا.

...

. رجعنا مجرمين آسي عبدالحق. يتعالى استنكار من زاوية ما.

. لم أتهم أحدا، و(اللّي فيه الفز تيقفز). أنا لم أسمّ أحدا باسمه. سجّل آسي حميد أقوالي، أتحمّل مسؤوليتي فيما أقول.

يقف ستة أعضاء غاضبين، مستشيطين:

. هذا ليس اجتماعا، هذه محاكمة واتهامات... نحن ننسحب من هذا الاجتماع.

يتدخل الرئيس:

. تحملوا المسؤولية. الاجتماع لا يزال قائما، ونحن في النقطة الأولى من جدول الأعمال... مرت الآن ساعتان على وقت بداية الاجتماع ولم نبدأ بعد ما هو مهم في هذا الاجتماع. ما رأيكم نتابع بعد الغداء وصلاة الظهر؟

....

ربع ساعة من الأخذ والرد، شفع لها أذان صلاة الظهر في قبول الاقتراح، وكان الديني شفيعا للقانوني والسياسي، ماصّا غضب اللحظة والنزاعات والنيات المتناقضة والمصالح المتنازعة. هكذا مرت الأفكار من جديد في ذهن

حميد ولد بّا بوشعيب، وهو صامت ومتابع بعينيه وتدوينه للمهم من أقوال هذا الاجتماع الذي رأى فيه صراع ذئاب فيما بينها حول فريسة إسمنتية، وإن كان يعلم من هم الذئاب من دونهم في هذا المجلس. إنما، ما استغرب له، هو لماذا لم يكن الرئيس طامعا في إحدى هذه الدكاكين؟ لماذا لم يكن مثله مثل هؤلاء الأعضاء، والذين ينتمي بعضهم لحزبه وأغلبيته في تحيّن الفرص واستغلالها؟

سيكون هذا محور نقاشه مع صديقه في الجامعة الذي أصبح محاميا بهيئة مدينة مكناس، حين عودته مساء منها حيث إنهما لا تبعد عن مدينته الأصلية سوى بأربعة وعشرين كيلومترا. وكم من الموظفين والطلبة يتخذون رحلة الذهاب والإياب بين المدينتين. مناقشة مع صديقه هي مجال معارضته التي يمارسها على مهامه المهنية التي يؤديها. فالعمل يفرض عليه التكنم والتعاش وحفظ أسرار المهنة وعدم الوقوف ضدها حفاظا على لقمة العيش، وحفاظا على صورة العائلة التي بقي أبوه (بّا بوشعيب) مدافعا عنها وصارما مع جميع أفراد الأسرة حولها. هامش غرابة أسرية وثقافية يفرضها التعاش الاجتماعي والثقافي باعتبار المشارب السوسيو ثقافية والتاريخية التي تؤثر مكونات المجتمع الزرهوني.

ويتدخل حسن البركي من جديد:

. ألا نستحق غداء على حساب البلدية هنا؟ خصوصا وأن السيد الباشا ضيف عندنا، ترك مكتبه وشغله وأتى لسماع صداعنا؟

مجاملات تَوافقَ عليها الكل، وترك للموظف المسؤول الاتصالَ بالميمون لكي يتدبر أمر إرسال وجبات غداء لخمسة وعشرين شخصا، بمن فيهم حارس الباب طبعاً.

المسرحية

سقاية السوق الداخلي

الفصل الأول

الفضاء:

ساحة بمدينة تقليدية وبخصائص عمرانية تقليدية كذلك، تعود في بنائها لقرون خلت. تحتفظ بأقواسها السميكة والمبنية بتموجات متسلسلة ومستديرة حول الساحة التي تعتبر دائرة داخلية للحركة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمدينة. بينما جوانبها تتفرع لتشمل رحبة لبيع الحبوب ومداخل بدرج لطابق فوقي هنا وهناك، قد يكون محلات لأصحاب الدرازة والنسيج أو محلات للمبيت تابعة لمقاهي داخل دكاكين واسعة... تعتبر السقاية بملفوظ المجتمع الزرهوني المحلي مورد الماء ومستقطبة العطشى وكل من يريد التزود منها ارتواء أو غسلا لمنتوج أو ما شابه. تعتبر من المياه المفضلة عند الساكنة كما عند الزائرين. كونها موقوفة للنفع العام، وكونها من مياه عين خيبر التي تمد مجموعة من النافورات والمنازل والمساجد بالماء اللازم. ولأن الماء جعل الله منه كل شيء حي، فإن ماء هذه السقاية ارتبطت به أشكال حياة داخل ساحة السوق الداخلي كما يتم تمييزه به كتسمية عن السوق الخارجي أو البراني الذي يمتد خارجها وخارج حزام عمرانها وقوسها الغربي.

سقاية السوق الداخلي:

قبل الهدم:

أغنية لفيروز (يا زمان الوصل بالاندلس •):

جارك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالاندلس

لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى ننقل الخطو على ماترسم

زمر بين فرادى وثنا مثلما يدعو الحجيج الموسم

...

مصاحبةً موسيقاها لحوارات المشهد الأول:

فتاة في حلة سقاية تناول مريديها ماء.

•- موشحات: لسان الدين بن الخطيب (1374/1313)

فلاح بعقاد زراعته على كتفه يتقدم:

. الحمد لله، السقاية ترويني وتطفئ عطشي . الحمد لله . نعمة من عند مولانا .

زوار للمدينة:

. أكثر ما يعجبني في زيارة مدينة مولاي إدريس زرهون هو هذه السقاية .
تستقبلك بكرم مائها وعدوبته . لا نتوفر عليه في مدينتنا .

+ كل تعب الطريق انمحي .

. سنأخذ بركة هذه السقاية إلى ديارنا .

مشتري نعناع يغني (والماء يجري قدامي) ويرش نعناعه بماء السقاية ويمر .

تتقدم السقاية / الفتاة وسط خشبة المسرح . تنشد نشيدها (نشيد البهاء):

أنا نبع الماء من خيبر جاء** أنا فيض الخير الذي عمّ الأرجاء

أروي العطشان أسقي الوهان** نبض حياة جارية صباح مساء

لا تنس رشّ نعناعك وفجلك** تبليل فرخك وسلتك بذا الماء

اغسل قدميك وذراعيك بنبعي** تستعيد راحة بعد تعب ومشاقّ

يا زائر الضريح والديار إليك ** أتوجه بشرابي ... أشفي الداء

إحمله معك بركة لديارك ** اجعله مفتتح فرق الصيام وجاء

أنا عروسة السوق الداخلي معشو ** قة كل صغير وكبير من كل الانحاء

أنا شهادة التاريخ الجميل، إكسير ** بلسم مستمر في مداواة الرمضاء

صورتني مشهورة ومعمره ** في كل بقاع الأرض وقّعت البهاء

في كل بيت رقاقة هي سيرتي ** في كل قول أنال الشكر والثناء

بي يتذكر العطشان والولهان ** زيارة الديار لأجل العشق والسقاء

(يخترق صوت البركة الحشن غناء الفتاة السقاية:

. هذه الفتاة، أليست بنت المعطي بائع الدجاج؟

يلكزه صديقه عبدالرحيم:

. أسكت آ المسخوط. دعنا نتابع ونستمع. كن متحضرًا بعض الشيء.

. يلعن ملة أبيك أولد الحرام.

يكتمان ضحكات متفجرة مع أنفاسهما تبرز معها عيونهما).
...

(غارث فأرسلت أشعتها * * * مَبْحَرَةٌ دمعي متغذية بنبعي السماء

ما لي بغيرك، ما لي بحبس نبع * * * ما لي بقطع فيض، لست من البخلاء

وجعلنا من الماء كل شيء حي * * * كنتُ سرّاً أنتج الأرض والسماء)

. صدق الله العظيم. يأتي صوت البركة مخترقاً الأداء.

. أسكت آ البركة. هل سنتابع المسرحية أم نتابعك أيها البهلوان؟

يحملق في الظلام كأن كلام صديقه عبد الرحيم لا يعنيه وكأنه لم يتكلم قط
أو يعلق، بينما المجاورون لهما يسترقون من مستملحاتهما مثلما يحاولون التركيز
مع الفتاة السقاية في إنشادها:

(كنت حلماً يتسلقه الحجاج * * * كنت فجراً... للطائر والحمام
رداءً

هللوا وافرحوا وارقصوا * * * سَبَّحُوا واحمدوا واشكروا العلياء).

يصفق الجمهور بعد انتهاء الفتاة من إنشادها وانحناءتها أمامهم. تلي هذه القراءة المتغنية بالسقاية مقاطع ذكر، ونعمات عيساوة وغيطة مسموعة، وتصفيق.

مشهد احتفالي للسقاية. يحيط الذاكرون والموسيقيون العازفون بالفتاة . السقاية. يتداخل الكل فوق الخشبة مع الجمهور في الرقص والتصفيق. يقف البركة هو الآخر داخل القاعة. يتعالى صوته الجمهوري ويتميز بقوته بين هتاف الحاضرين. يبارك معارفه بنشوة عارمة احتفاليته الفطرية والتلقائية والمندمجة. ويُسمع داخل القاعة نداؤه باسمه. يلتفت لصديقه معلقاً:

. شفتُ، أنا شخصية مهمة ومشهورة، يّمّاك... بهاهاهاها...

يأفل صوت الموسيقى. بعد هدوء ملفت، تدق طبول متقطّعة يسود معها صمت رهيب.

تنطفئ الأنوار حتى تصبح القاعة والخشبة شبه مظلمة.

تصرخ الفتاة:

. و!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!! و!!!!!!!!!!!!!!

(. ما ذا يقع؟)

يتمللم البركة في كرسية خائفا كطفل كبير. منذ مدة لم تثره مشاهد مثل هذه. فكم بكى مع الأفلام الهندية والمصرية).

يعود مصباح فريد لإضاءة دائرة متحركة فوق بساط الخشبة. يتقدم داخلها شخص مُكشّر صارخا:

. سنغيّر معالم السوق وال عمران. وأنتِ... عليك أن تغوري وتنمحي. لقد استغينا عنك وعن خدماتك. الآن، سنقوم بردمك ودفنك خلف سور جديد. لا حاجة لنا بك.

يصدر الممثل. الشخص صوت قهقهة شبيهة بتلك التي هي عند البركة، ما يثير هذا الأخير ويجعله يضحك من عينيه، فيصدر (الهاها) الخاصة به دون أن يشعر. ينقلب جو القاعة إلى ضحك جماعي من طرف الجمهور، معلنا تعرّفه على توقيع البركة بحضوره وبضحكته (الهاهاهاهاهاهاها).

...

يدخل إلى الخشبة عسكري ومهندس بشاربه الطويل وأدوات هندسته، (فيتلمس البركة شواريه متأكدا من حضورها وثبوتها فوق شفته العليا).

تتقدم الفتاة وتحتج:

. ألا تعلمون أهمية السقاية وأهمية المعالم التاريخية ووظيفتها في حياة الناس؟ أنا السقاية. أنا نبع الماء. معي يشفى بدوائي الملاء من كل داء.

تردد نداءها وتعريفها بهويتها مرات متعددة وهي في تراقص دائري يجوب زوايا الخشبة ويجعلها كل مرة تقف أمام الجمهور في هذا النداء.

يدخل الفلاح من جديد بمحنته وفأسه. يتأمل الحوار في حينه ويتدخل مستغربا:

. كيفاش؟ تريدون هدم السقاية؟ أما في قلوبكم رحمة؟

يعود السائحان للاحتجاج كذلك باللغة الفرنسية :

.Oh, mais c'est pas vrai. C'est horrible.

يتقدم العسكري أمام الفلاح والسياح:

. تنحوا جانبا. سنبدأ الهدم.

يتكلم المهندس:

. أنتم، لا تعرفون شيئا. لقد جلبنا لكم الحضارة والبناء المعماري الحديث والجديد. سنزين لكم كل شيء ويصبح جميلا. سنزلج الحيطان.

(يُسمع صوت البركة من جديد من داخل ظلمة القاعة:

. لا، تبارك الله عليك آ السي المهندس.

يردّ عليه صوت من زاوية أمامية:

. آ اسكت آ البركة ولاّ يدّيوك•).

يخفض العسكري صوته في إيجاء:

. هذا المهندس فنان كبير ورسام مشهور، سوف يجعل لكم ديكورا رائعا للمدينة. هكذا سمعته يكلم السيد الباشا. غادي يقادّ البلاد كاملة.

يتدخل صاحب النعناع:

. وا يقادّ غي الموسطاش ديالو. هذه المدينة راها روحنا لي تنعيشوا بها. شفتم هذا الرجل الذي هو مكفوف، وهذه المرأة كذلك. يقبض بكمي جلبابيهما ويقودهما لوسط الخشبة . ولو أنه لا يبصر يخرج في الصباح ويقضي أغراضه وحوائجه كل صباح، بدون حاجة لعينين ليرى بهما. الرجل يرى بقلبه كل شيء. حافظ كل درج وعارف كل سارية وخشبة. وهذه المرأة، لم ترفع بصرها يوما لرؤية شخص ما في

•- يقصد باللفظة: ياخذك رجال الأمن للاعتقال والتحقيق وما ينتج عنهما...

و يُمحي فينا التذكار ** ينغرس النسيان مثل البوار
مات فينا التذكار ** حتى ما نخلّده من آثار
غربتنا في هذا الزمن السيّار ** زادت وازداد الإنذار
أصبح المسؤول سمسارا * والمهندس بحقيته قصد المطار
مدينة لم تحتج لمزايد فازّ ** لأجل قتل تاريخ أمة وبشر
حروف التاريخ على ألسنة نار ** حياة مدينتي دمار في دمار

تتقدم السقاية بالصراخ والتذمر.

الفصل الثاني:

مرحلة الهدم:

هدم السقاية

يوضع على الفتاة/السقاية ستار بلاستيكي، يُذر التراب فوقها، تصرخ:

ما همكم بزوالي، دياركم ديارى

ما قارئكم، ما مهندسكم قارى

ما خطبكم، عاركم عارى

نسيتم عهدكم، تخليتكم عن مسارى

أنا عمرانكم، انا زخرفتكم، نارى نارى

أنا ذاكرتكم، أجداد أجدادكم فى مجارى

أنا مرآتكم فى العالم، فى كل الأقطار

أنا سقايتكم، فتكثتم قلبى بالأسحار

أنا سقايتكم، فتكنتم قلبى بالنهار.

...

مشهد الكل وقد غطى وجهه، دفن رأسه مثل النعامة. مشهد خجل، ارتعاش، جنون، خوف، دمع يسري، موسيقى حزينة مرافقة للمقطع الأخير الذي يتردد في النهاية الآفلة صوتيا.

مشهد المهندس، بأدوات هندسته، وشاربه، كأنه سالفادور دالي، وما هو بمثله بحركاته المطبوعة لأوامر رجل السلطة بلباسه الرسمي. بعينيه الطامعتين في الحقيبة الديبلوماسية المرئية أمامه في يد المسؤول الرسمي.

مشهد نخبه الهدم التي تخطو فوق أجساد الحاضرين، المنكمشين فوق أرض الخشبية، نخبه الهدم التي لا تأخذ بالها من وجود بشر يئنون مع هدم السقاية. يعود صوت السقاية حزينا متألما خافتا:

(. أنا سقايتكم فتكتم قلبي باللعار

أنا سقايتكم فتكتم قلبي بالنهار الجهار

أنا سقايتكم طمرتم معالمكم في إقبار)

يهيج صوت المسؤول، يتبعه صوت المهندس مرددا:

. أوقفوا هذه المجنونة البلهاء، أسكتوا مجراها.

سيرة مدينة ونسيج حياة

وجثوثُ عندَ قبورِ أحبائي

وأعينُهُم مصابيحُ القبور

ما أطفأتها الريحَ عبرَ موانئِ الليلِ الضرير

وشممتُ ريحَ القمحِ والعرقِ المخترِّ والبيادر

ومعالفَ البقراتِ والصيفِ المهاجر

وعلى مدى الطرقاتِ رعياناً وأشواقُ دفينه

وحناجرٌ تلهو بأغنيةٍ حزينه.

بينما الأغنية مسموعة بخشوع، تتماوج أجساد الممثلين في كوريفيا تترجم أدوارهم بين عنف واحتجاج واجتراح وتخريب... فجأة تتوحد أصوات الممثلين مع الجمهور في إنشاد الأغنية وآهاتها.

...

يتقدم أحد الزائرين:

. لقد تعودنا على زيارة هذه المدينة لوجود هذه السقاية والمعالم العمرانية التاريخية بها في كل عطلة وكل مناسبة. كم من صورة تذكارية لنا في هذا المكان. أظن، إذا غابت السقاية لن يبقى دافع للمجيء إلى هنا مرة ثانية.

تتقدم سائحة بالفرنسية:

- Si nous venons visiter My Idriss, c'est pour ses monuments historiques.
- L'identité des gens c'est leur patrimoine monumental.

نداء جماعي:

. هويتنا هي معالمنا العمرانية والتاريخية . لا حضارة إلا سمنت الصماء .

موسيقى ارتجاج، اضطراب ضوئي مرفوق بموسيقى تغيير. تماوج السقاية من وراء الستار. نفضها للغبار. تقدم الجميع لنزع الستار. مسح السقاية من الغبار (وقد تولى أحد الأفراد طلي وجه السقاية . الفتاة بلون ما وراء الستار خلال مشهد الطمر والاحتجاج).

...

تتقدم السقاية إلى وسط الخشبية. معاودتها نشيد بهائها. تغنى الجميع به على نغمات عيساوة وحمادشة مع التصفيق . نهاية المشاهد.

يخرج البركة من قاعة العرض المسرحي جاحظ العينين. يسأله السيد عبد الرحيم عضو الجمعية المنظمة للعرض:

. كيف وجدت المسرحية آ سي البركة؟

يجيبه البركة:

. نفختم لي رأسي. ولكن، الواقع أنها ترجمت ما وقع. ذاك المجرم. المهندس لو كان موجودا الآن لقتلته. جناية كبيرة في حق المدينة وعمرانها. المشكل أن رئيس البلدية السيد نبهان ما كان ليعمل شيئا يوقف مشروع الهدم، ولا من أتى بعده. اللهم الوزير ولد المدينة الذي قام بإصلاح الساحة والأقواس وترقيع المشهد. ولكن، فات الفوت تلك الساعة. ذهبت الأقواس المدورة بالخشب والعريضة في أعمدتها والظليلة بسمكها وقصرها. الآن رجعت مثل مشاهد فيلم كارتوني. الإسمنت المصفح والسلام.

. رجعت فيلسوفا آ البركة. تبارك الله عليك (حتى فات الفوت عاذ سولني كيف بقيت).

. الشكوى بكم لله، أنا جئت لكي أفوج بمسرحية وأضحك، وأنتم نفختم لي رأسى بالمشاكل. أنا قلبي طايب وزدتموه غليانا. وأصحاب الحال مثل الأشباح يمرون ويختفون بالمرّة. قل لي أين هو نبهان؟ أين هو المهندس ديال ذاك الوقت الذي هدم ودك تاريخ المدينة؟؟ وزد الآخرين؟

. من هم؟ يستفزه السيد عبدالرحيم.

. إبعد عني، أنا ما قلت والو، وما تعرفني وما تعرفك. السلام عليكم. نلتقي في المقهى. الماتش ديال ريال مدريد راه بدأ منذ نصف ساعة.

. الكرة هي التي تركتنا بلا عقل.

. سِرْ افهم على رأسك. بالحق، أنت بارصاوي ما غاديش يعجبك الماتش ديال دابا... بهاهاهاهاهاهاها .

. الله يلعن ولاد الحرام.

. أنت كبيرهم آ المجرم... بهاهاهاهاهاهاهاهاها .

حينما جلس الشاب البركة بجانب محسن الشامي بمقهى ويلي بالساحة الكبرى المؤدية لمدخل ضريح مولاي إدريس كانت مباراة كرة القدم قد انتهت، والنتيجة قد حسمت للفريق الخضم الذي لا يشجعه (البركة). كانت حسرته عليها هي التي جعلته يفر من مقعده الخلفي من أمام التلفاز ومن ورطة تعليق زبناء المقهى الذين وجدوا فرصة السخرية منه ومن فريقه المحبوب. يناديه أحدهم من الخلف:

. البركة، آجي كمل متابعة تحليل المباراة.

. كل ذلك التحليل. اسمح لي أنا الآن جالس مع الناس الكبار والمتقنين. لا يهمهم زباله ما تتابعونه.

. ياك أولد الحرام، أصبحت مثقفا وتفرجت في المسرحية! كبر لك الشأن.

لا يجيبه حتى يبقى وقع الملاحظة ورقة انتصار نفسية على خصومه في مستملحات يومي المقهى. لكن السيد محسن الشامي يسأله:

. أية مسرحية شاهدت آسي البركة؟

يستقيم في جلسته ويتحول من صاحب وباحث عن المشاكسات الكلامية والفقهات المدوية إلى محاور هادئ. قد يشعر بجدسه أن أصدقائه خلفه

يتابعون تحولاته السلوكية والحركية والرمزية داخلها، ما يجعله يزيد من هذا التحول في مجالسته للسيد محسن.

. سي محسن، تكلموا عن قصة هدم السوق الداخلي وطمر سقايته. مجرمين ولاد الحرام.

. آه. أظن تناولت موضوع الهدم وسببه.

. وايبه آ خاي. أنت الذي تفهم هذه الأمور. إذا أردنا أن نرجع السوق الداخلي كما كان، هل من الممكن ذلك؟

يضحك محسن الشامي من فكرة البركة لكنه يقدرها في الإنصات الهادئ وفي متابعة الحوار والجواب على سؤاله. لكنه قبل ذلك يطلب منه أن يشرب شيئاً ما على حسابه. رغم تردده في البداية إلا أنه وجدها فرصة لكي يسجل انتصاراً جديداً على أصدقائه الخصوم في المزاح والفرجة الرياضية، فينادي بصوت عالٍ:

. هات قهوة سوداء خفيفة آ (الجارسون) وتعال امسح هذه الطاولة من فضلك. هذه جلسة الناس الكرام وليست جلسة زبالة التي كنت معهم.

تسمع فقهته: بهاهاهاهاهاها...

تنفجر المقهى بالضحك والتعاليق التي تتوزع بين تحيته وبين سبه واستنكار حربائيته. يصم أذنيه ويتابع كتلميذ مجتهد مع جلسه الجديد السيد محسن الشامي:

. كما تعلم، البناء التقليدي ليس هو المعاصر. جمالية ذلك العمران الذي لم يبق منه سوى القليل قائما، أنه بُني بمواد مثل الجير والحجر والتراب الأحمر والألواح الخشبية وحتى أصفر البيض الذي قد يستعمل لجبر اللبنة ومسك الأشكال الهندسية.

. ياك آ خاي ! يعلق البركة مستغريا. هي حتى منزل أسرتي ودارنا فيها هذه المواد التي ذكرت؟

. أكيد. اسمع آ البركة: أنت يدوخذك كلام الناس. لا تشغل بالك بما يرددونه خلفك وانظر للأمام دائما. ماذا تريد في المستقبل. ما وقع وقع. الناس كانت عندهم مصالح قضوها واستفادوا معها.

. كلامك صواب آ سي محسن. حتى المهندس في المسرحية أخذ حقيبة ملامى بالأوراق المالية ولد الحرام.

يضحك محسن الشامي حتى أدمعت عيناه، ويعلق على البركة:

. آراك مسخوط والسلام.

. لا، والله العظيم راني مرضي الوالدين، غير الظروف هي التي جعلتني أغترب في مدينة أخرى.

. تذكرني بشخصية ممثل مصري مشهور. في الحقيقة لو أتاحوا لك فرصة التمثيل في السينما لكنت من الممثلين الكبار. هل تعرف ممثل اسمه (طلعت زكريا)؟ من يراك من بعيد يظنك هو. نفس الملامح والشارب والهيئة والصوت وربما حتى المرحلة العمرية.

. نسيت الضحكة آسي محسن.

يضحك قبل أن يعلق: . آه، وهي المميزة عندكما.

ينفجر البركة: . بهاهاهاهاهاهاها...

يلتفت الزبناء والمارة لتوقيع البركة الصوتي، كلُّ بطريفة رد قوله وفعله.

. انتظري هنا لربع ساعة تقريبا. سترافقي لمدينة مكناس لاحتساء كوب شاي أو قهوة إذا أردت. سأعود بعد قليل.



ستكون عودة السيد محسن الشامي بعد خمس وأربعين دقيقة تقريبا. لم يلتفت لجلسة البركة في المقهى. مرّ بجانبه وربما لمح مع رفقة أخرى. لكنه حين وصل إلى موقف السيارات أرسل وراءه أحد الأشخاص. فالتوصية داخل دائرة مدينة صغيرة قد تكون سهلة في إيصالها: (إذا مررت بمقهى ويلي قل للسيد البركة إن السيد محسن ينتظره في موقف السيارات. شكرا).

حينما التحق به البركة لم يجد اعتذارا بل لوما على تأخره هو. لمس مفارقة التعليق وتناقض صاحبه، لكنه خجل من معارضة شخصية السيد محسن. فارق التعلم والثقافة، كما لحظة التكرم والاستضافة. أجل كل تحليل وذهب في جولة مع هذا الرفيق الجديد. طبعاً، سيكون حظه مساءً، حين عودتهما من مدينة مكناس، سيجلس السيد محسن بمكتبه في غرفته فوق سطح المنزل. سيأخذ قلمه الأسود ويفتح صفحة جديدة يكتب فيها عن شخصية البركة. هكذا ستصبح محورية في توزيع علاقاته اليومية داخل الحياة الاجتماعية وتفاعلاتها. ربما سيبدأ قوساً في انتظار أن يغلق.

يتعجب السارد حينما يقرأ ما كتبه السيد محسن. يستفهم ذاته عن سرّ القوس الذي سيفتح والذي سيعلق. ويتساءل: هل يمكن أن نجعل الحياة بين الناس كأنها داخل رقعة شطرنج؟ نخدق كل واحد في دور نريده ونتحكم فيه، ونزيله منه كما نمحي وجوده متى أردنا ذلك؟ بمقاسنا ومزاجنا وبما نراه مناسبا في توقعات موافقنا وسلوكنا؟

ويعيد قراءة الفقرة التي أدهشته في جرأتها:

(أن تجعل الآخر ينتظر في عملية اختبار لما سيأتي من درجات تحمله. اقتطاع جزء من وجوده في عملية الانتظار. قد يكون التحليل النفسي صائبا في كون الشخص تحضره أمانيه ومعاناته وأحلامه وأشكال يأسه وإحباطه خلال عمليات الانتظار. قد تقوم بصهر ثوابته خلالها، وحينما تحوّل كل ذلك التحمل إلى توجيه ذهني وسلوكي جديد فإنك قد نجحت في صهر ثوابت الشخصية الخفية والتي قد يعيها ولا يدركها صاحبها. نجحت في غسل دماغه.

البركة مثل باقي الشخصيات العادية داخل هذا المجتمع المصغر. آفاقها وأحلامها محدودة. ترتبط بالماديات ولا تستجلي مشاريع حياة أبعد منها. غير مستقل في حياته ونفقتة. حربي له دخل محدود. وكل فرصة عيش رفاهية تكون تعويضا من حرمان وتحقيقا لإنجاز ما بعده إنجاز.

بدأت عليه آثار توتر خلال رحلة الذهاب إلى مكناس. بعض الصمت الذي طمر طاقات الضحك البركانية التي تفجر دواخله تنفيسا. طبعاً، لا أراها ميزة في شخصيته بقدر ما أراها تعويضاً أو عملية إخفاء لما يوتر النفس وما يذكر بعقدها التي تنغص عليه وعيه وسعادته اليومية البسيطة. مثله مثل مجموعة من الشباب الذين انحصر حظهم في الحياة، وانغلقت فرص تألقهم فيها.

في رحلة الإياب انطلقت قهقهاته بشكل طفولي مرح. انشرح لعصير الفواكه وجلسة مقهى تأثت بفتيات جميلات هنا وهناك. ابتسامات منطلقة نال حظها منها. حتى من قبلة على الخد جادت عليه بها صديقة جديدة والتي التقيناها في متجر للعطور.

وما كان منتظراً وقع: انبهاره بشخصيتي. حبه لأذواق وطريقة عيشي. تمنيه لي بالنجاح الدائم والتألق. دعاؤه لي بإبعاد الحساد والعين الشريرة عني. وكنت كل مرة أتخفه بأغانٍ جميلة غربية وشرقية. أطلعته على أسماء جديدة وألحان اكتشفها لأول مرة ربما. شرحت له كلمات أغانيها التي تستعصي عليه ما دامت بلغة أجنبية وهو الذي لم يحصل على تعليم مناسب فيها.

يبقى التحكم في ما سيأتي كيف سيكون؟ تغيير مواقع جلوسه، علاقاته، تطوره في الآتي في المواقف والأحكام الجديدة حول قضايا متعددة؟

الرخ لان. الرخ انتفخ وانبعث. الرخ مستعد للتحريك داخل رقعة الشطرنج.

سيرة مدينة ونسيج حياة

صفحة جديدة الآن).

ينبهر السارد مما يقرأ ويعتبره أخطر تديير يمكن أن يقوم به المرء. يسأل نفسه:

(أيمكن أن تكون عملية الكتابة عنده وقد تورط فيها، تحت ضغط وتوجيه

ما؟ أو توجيهات هي؟).

ينفلت الذاتي من الموضوعي في اجتهاده الذهني وفي محاولة إجابته على أسئلته

التي طرحها على نفسه.

لا يقدر أحد على اختراق غرفته ما لم يكن ذلك بإذنه وطلبه. كل أفراد الأسرة وقد خضعوا لتوترات في محاولات كسر عصبية وتصلبه هذا، وفي الأخير استسلموا لإرادته في جعل الغرفة مقدسة. لم يفهموا ولم يستسيغوا إقدامه على دفع الاستقالة من عمله كطبيب نفساني، وهي مهنة بقدر مهابتها بقدر قيمتها داخل المجتمع. نادرا ما نجد طبيبا نفسانيا يعيش بنا كأفراد مجتمع. ولا إقدامه على خوض الانتخابات في المرة الأولى ثم الثانية، المحلية والبرلمانية، ولو أنهما تجربتان متباعدتان زمنيا. تبقى طلاس تحليله مستحيلة عند الجل. لكنه يمتلك من التحليل لكل من يتفاعل معهم ومن يناقشونه ومن يعاشرونه.

قد يجتهد بعضهم ويسمع صديقه حميد ولد ابّا بوشعيب إنذارا توصلوا إليه استنتاجا: احذر حالة صديقك! قد يفكر في الانتحار! إننا لا نفهم كيف يتخلى المرء عن منصب طبيب ويستقيل من مهنته ليجلس في تأمل وحياة غريبة.

ويجلس أمام مرآته، رافعا التحدي المتجدد رغم ما قد يسمعه من كل هذا. رغم ما قد يتحول منه إلى تهكم وسخرية. لكنه رهانه الذي يعيش به ويحفظ بأسراره له وحده. لقد تغيرَ إطار المرأة فعلا، لكن النجار الذي تكلف بالمهمة دعاه السيد محسن الشامي لكي يترك الإطار القديم ملتصقا، مشمعا بدهن لاصق حتى لا يصدأ أو يهترىء، جاعلا الإطار الجديد ملتصقا فوقه بشكل منسجم وجميل في مظهره. تبقى المرأة ربما خير من يفهم السيد محسن وأكبر من يستوعب مناجاته ولحظات بوحه وفتنات لسانه. أليست هي الخبيرة بجسده وحركاته ورقصاته. أليست هي المترجمة لمشاهده و لها. والأخطر من ذلك، أليست هي الكاتمة لعالم أسراره وغرامياته. وهو المولع بالنظر إليها وتوقيع شهادتها في كل نجاح عشقي أو اكتمال جسماني يحققه تمرنه الرياضي المستمر.

يبقى خوفه من هذه المرأة صراعا معها وتحديا لها. فواجهتها الزجاجية متموجة في عكس الصورة، ساحرة في تمويهاتها. حينما يقف بكامل قامته أمامها يرى نفسه طويلا زيادة، متماسكا بنية وقوة. وحينما ينتصف بأعلى صدره أمامها يتحول الأمر إلى وسوسة متنامية. لعلها سرّ لعنة هذه المرأة. لعلها سرّ تخوف الجل منها وطمرهم لها في دهليز أو طارمة لعقود وعقود. فمنذ اشتراها جده لم تجلب للعائلة آنذاك إلا القلق والمرض والموت. لكنها توصية الجد بعدم لمس المرأة أو كسرها أو تضييعها سواء في حضوره أو غيابه، سفره أو إقامته، حياته أو موته. حينما سمعت نساء العائلة درجة التحدي مقرونا بالموت

استشعرن إنذارات ولجان لبركة الفقهاء وحفظة القرآن والعلماء. لكن أمرا قضى بقضاء الله وقدره، وأمرا آخر انبعث بإرادة وتصميم السيد محسن الشامي المولع بفلسفة نيتشه وإرادة القوة وحب الذات وتحطيم أصنام الواقع. وهي عنده ليست أصنام الوثنيات، فتلك حكايات يهمشها في سياق وعيه وسلوكه وتحليله. أصنام الواقع كما قرأها السارد في سجلات ملفاته التي جعلها أمانة عنده ووديعة، والتي لم يحسم في مآلها حين اتخاذه لقراره هذا قبل أن يغادر البلد والبلاد ويختار العيش خارج الوطن، ببلاد كندا بالتحديد:

(أصنام الواقع، أو الدوكسا⁸ الشعبية: ...).

لائحة الأصدقاء. لائحة المرشحين الذين تناوبوا على تسيير بلدية مولاي إدريس زرهون. لائحة أعيان المدينة وشخصيات اجتماعية مشهورة... لائحة الصديقات والعلاقات الجنسية العابرة ومغامراتها!

أثاره العنوان الأخير فبحث عن ملقّه بين رمانة الوديعة والأمانة. لم يجد له أثرا. شعر السارد بالخجل حينما علم أن ما يقوم به خيانة للأمانة وأسرارها. ألا يقول المثل الشعبي: من أطل على الأمانة أطل على جهنّم! لكنه تذكر الضوء الأخضر الذي أعطي له حين رغبة السيد محسن الشامي في أن يكتب

8 • الدوكسا: المعتقد المسلم به. وعند بيير بورديو (سوسيولوجي فرنسي) هي مجموع الاعتقادات المرتبطة بنظام الأشياء الخاصة بكون اجتماعي معطى، وتفرض نفسها بطريقة لا جدال فيها، مسلم بها ولا تناقش في قيمتها ومدى صدقها وحقيقتها.

عن القضية التي يريد تفجيرها من جديد داخل الوعي التاريخي للبلدة وربما داخل سجلات وثائق العدول ومكاتب العدل والقضاء.

في تحليله للمرأة السحرية التي يمتلكها يبين لنا السيد محسن الشامي كيف تبدو صورته مكتملة منضورة مستقيمة من جهة اليمين وحينما يقف على يمينه، وكيف تعوج القسماات وتظهر عيوب الذات حين يتحول لجهة ذراعه اليسرى. يراوغها بسرعة استدارة. يحول مواقعها رغم ثقل حملها بسبب إطارها الذي أصبح أكثر حمولة وثقلا. يعكس الإنارة وأشعة الشمس عليها. وكل مرة تفاجئه بأشكالها الغريبة. قد يبدو طويلا، وقد يبدو قصيرا، عريضا، نحيفا...

بين جماليات وأشكال قبح تطورت عقدة المرأة في دواخله. في يوم من الأيام أخرجها أمام الغرفة وأراد تكسيرها بقبضة مهراس أو هاؤن. خاف على يده من جرحها بشظايا هذه المرأة اللعينة، وهو الحريص على سلامة بدنه من كل خدش، وعلى دهنه وترييضه بآلات وأدوات كمال الجسم. استعاض عنه بعضا بيسبول امتلكها وتمرن بها لمرات أمام نفس المرأة، لكن قدر مناداة أمه عليه حدس معه احتساب شرّ ما سيقدم عليه.

لأول مرة شعر بامتلاك نحس شيء ما مادي. وهو الذي جوّف وأفرج ما جوّف من أصنام ثقافية أو اجتماعية أو سياسية. منذ امتلك فهمه لكتاب الطوطم والتابو لسيغموند فرويد، منذ أفرج بنايات المعابد من روحانياتها التي

بنتها عبر قرون، وفسّرها بشكلانية جوفتها من كل حمولة تاريخية لكي يعطيها تفسيراً رمزياً سيميائياً جديداً، أصبح منطقها بعد كل هذا حاكم على عقله، مانع لكل تفسير مثالي أو خرافي. لكنه هنا شعر بالخضوع لفرع ما. خوف ما مرعب. سلّم لمنطق الأولين البدائيين الذين كان يرى في صنميتهم وأسطوريتهم خرافات. ها هو اليوم يعذرهم ويبرر سلوكهم مثلما يعذر نفسه التي امتلكها الخوف من هذه المرأة.

أو تكون تلك المرأة اللعينة هي سبب تهوره وتركه لمهنته المشرفة جداً له ولأسرته؟ قد يطرق أذني صديقه حميد ولد الأب وشعيب مثل هذا السؤال. وقد يكون من طرف أمه التي هوّها ما يقوم به السيد محسن الشامي صديق ابنها حميد.

في زيارات لغرفته يلاحظ حميد ما يؤثتها. يعي حبه في تملك ما عند الآخرين. ما يميّزهم داخل المدينة. حتى من عصا البيسبول، فهي آتية من أستراليا. حتى من الساعة اليدوية الرفيعة، فهي هدية على هدية من سويسرا. حتى من غليون المرشد السياحي الذي اشتهر به وتميّزت به شخصيته سواء مع السائحين أو داخل المدينة، استطاع أن يحصل عليه هدية من صاحبه... ولا ينس إن كان سينسى ما تكرم به حميد هذا في تذكره على صديقه محسن فأصبح ديكورا داخل الغرفة فوق رف بجانب المرأة. قد يوتره ضغط كل هذا

التحليل والاستنتاج فيسرع لإيجاد مبرر لكي يخرجنا من الغرفة ومن المنزل ككل. فدائماً ما تكون المقهى هي المحج الجامع للجميع.

قد يختار القارىء، ويتوتّر ويتساءل: من يمكنه أن يكون هو السارد هنا؟ حميد، أو عبده، أو محسن بنفسه؟ وهل يستطيع التلاعب بالقارىء لهذه الدرجة فيوهمه بغير ما يريد ويورّطه في وعي جديد؟ ربما إذا وجد القارىء شيئاً ما أهداه للسيد محسن في غرفته، لأمكنه إيجاد جواب ما. لكن الغرفة بقيت مغلقة منذ تركها مهاجراً إلى كندا. أحكم إقفالها ولم يسمح لأحد بالدخول إليها أو التفكير في ولوجها. وبقيت المرأة هناك، داخلها، فوق السطح. كل الفصول تشعر بها، وكل درجات الحرارة تعيشها. كل الأصوات والأشياء تستحضرها إذا ما انعكس ديبب أو شعاع ضوء أو ظل خارجي. فوق المرأة، كانت القبعة المكسيكية التي أهداها له السيد البركة يوم استحسناها ونوّه بوجودها وجمالها، معلقة على الجدار كرأس يحيي المرأة اللعينة:

. هو كريم معي ويستضيفني كل مرة. لم أجد ما أقول له وأرد له كهديّة ثواب سوى هذه القبعة. كنت قد شبتت من وضعها والتباهي بشخصيتي بها كمكسيكي أو ك(كوبوي)، كراعي من رعاة البقر الأمريكيين.

هكذا كان تفسيره لإعطاء هديته حينما جاء الحديث عن القبعة مع السيد حميد ولد ابّا بوشعيب.

. لعله أخذها معه إلى كندا. أصبحت أُمّياً مشهوراً آ البركة.

"أليس خالك هو الذي كان يبيع بجانب دكان التبغ بالسوق البراني؟ من خلال ما حكيت لي مما شاهدته في المسرحية فإن خالك رحمه الله قد استفاد في القرعة في توزيع الدكاكين الجديدة من رقم يجعله يحصل على دكان في واجهة القيسارة وعلى ممز الشارع الذي يسمى شارع بئر إنزران. المشكل وكما قيل في المسرحية أنه كانت مسرحية فعلا في الواقع. لقد غيروا رقم الدكان الذي استفاد منه في القرعة وجعلوه في دكان آخر مطمور وبعيد عن الأنظار في الطابق تحت أرضي من القيسارية.

. هل تعلم بأنه باع خلال مدة ستة أشهر صندالا واحدا بثلاثين درهما؟ لقد استغلوا طبيوبته وعفته واغتصبوا حقه ولاد الحرام. الأزمة هي التي سببت له الموت. تعلم آسي محسن لو كنت هنا في تلك الفترة لقتلت ولاد الحرام. وينفجر البركة في بكاء وهما في جولة بالسيارة في ضواحي المدينة. تحمر عيناه مثل طفل صغير فيناوله السيد محسن الشامي مناديل ورقية.

. لا تبك. لا داعي لذلك الآن. يمكنك المطالبة بحقك. أنت لا تعلم بأن السياسة دائما تتشكل من جماعة عصابات يقتسمون فيما بينهم ما يغتصبونه. لقد استفادوا من تحويلات مهمة من تلك العملية. وما يدور في الجلسات المفتوحة لمناقشة قضايا المجلس البلدي إلا إشارة سريعة تنبه لذلك. لكن لا بأس. ما رأيك أن نذهب الآن لمدينة مكناس؟"

...

. مباشرة آسي حميد ذهبنا للمدينة الجديدة وعرفني على أصدقائه واشترى لي بطاقة داخل جمعية لحقوق الإنسان ونبّهني إلى ضرورة استرجاع حقي. لأول مرة شعرت بأنني يمكنني أن أقوم بشيء كبير وفيه تحدّ.

. وما الذي قمت به آسي البركة؟ ألم أكن حاضرا يوم اقتحمت مكتب السيد رئيس المجلس البلدي وصوتك مرعب والزيد على جانبي شفتيك؟ كدت تحنقه. تعلم، كان بإمكانه أن يرسلك للسجن.

. يستحق القتل آسي حميد.

. ما هكذا يؤخذ الحق آ صاحبي. يلزمك إقامة دعوة ومتابعته في المحكمة أمام القضاء لاسترجاع حقل.

. كانت بطاقة الجمعية في جيب قميصي وكنت فائرا والدم يغلي في عروقي وشرائيني.

. المهم البركة حضرت مع السي البركة. لولا شعبيتك وشهرة شخصيتك وضحكتك لكنت قابعا في السجن آ المجرم.

. تسخر مني آ ولد الحرام. أنت معي أم معهم؟

. تلك البطاقة الآن كُلهَا.

. جّهاهاهاهاهاها... أقسمها معك. أليس الأكل عزيز عليك آ الوكّال؟

سيرة مدينة ونسيج حياة

بهاهاهاهاهاها...

كان حميد ولد ابا بوشعيب هو الأعلام بما وقع في تجربة السيد محسن الشامي في الانتخابات، سواء في تجربته البرلمانية أو في تجربته المحلية. فإذا كان باستطاعته التحكم في علاقات الصداقة واختيار ما يطاوع تدبيره لها فيها، فإن ذلك لم ينجح فيه حينما جرب الانتخابات والتواصل مع فئات عريضة من سكان البلدة. والأمر كان جليا في تجربة الانتخابات المحلية حيث تنافس مع مرشح لم يلج المدرسة. كانت الحملة في أبعث مراحلها ومقارناتها، طيب نفساني مع تاجر بسيط لم يلج المدرسة. قليلا ما ارتقت الشهادات لكي تشرف العملية الانتخابية داخل البلدة. نال التشريف والتنويه والمباركة والتشجيع وكل أشكال الكلام المعسول. لكن نتيجة الانتخابات كانت لصالح التاجر البسيط.

ليلة الانتخابات ونائجها أخذ حقيته وسافر إلى مدينة الدار البيضاء. بعد خمسة أشهر توصل صديقه حميد برسالة يخبره فيها بأنه حلّ بالديار الكندية على أساس الإقامة ونيل الجنسية هناك. بداية دراسة جديدة للطب النفسي ومرحلة قيام بأعمال مؤقتة تضمن له مدخولا مناسباً للعيش.

قد تكون التفاصيل مهمة في الحكيم والسرد والتحليل. لكن السارد ارتضى وارتأى نسجها بنهاياتها. قد لا يمتلك أسراراً أكثر أو لا يريد الكشف عنها.

حينما يجلس السيد حميد مع السيد نبهان، يسأله في مناسبات عن صديقه وابن بلدتهما السيد محسن الشامي. يتأسف لغيابه الطويل، لكنه قد يدخل في صمت داخل حوارهما يوحى بما يوحى به، ربما بأن الأمور بخواتمها: (ما علاقته بالانتخابات ولماذا أراد إقحام نفسه فيها؟). لا يملك آلياتها وسحرها سوى أصحاب الحال وهو منهم طبعاً. ويجلس حميد دائماً بأن الجماعة المسيّرة لحظتها للجماعة الحضرية كانت متفقة ومتعاونة على عرقلة نجاحه في الانتخابات. السياسة ليست هي المبادئ طبعاً !

في هذا الصباح الباكر فرشت أشعة الشمس خيوطها كنسيج حرير متأرجح بين دفة مرغوب وقشعريرة. ما يزال الغبش يسكن العيون. بالكاد تستيقظ الأذهان لنداءات حياة جديدة ويوم جديد. قد تكون العادة هي سر الاستمرار والثبات والقبول لغدٍ والأمل في كل موعود. ورغم هذا وذاك، يبقى لحديث كل صباح اشتياق في الأفضل، تلمع معه ابتسامات بارقة على محيا الوجوه ونظرات المرايا. هذه التي قد يجرحها كل تشظٍ لمعارك فائتة أو تجارب فاشلة.

في هذا الصباح استيقظ السيد حميد على غير عادته باكرا. جو صباح وذهن أصحى. لكن شاشة الحاسوب رسمت إشارة لرسالة جديدة سأتعجل في قراءتها، خصوصا مع عنوانها البارز والمثير: المفارقات الهاربة:

(رسالة مكتوبة بسائل الحبل السري. وحيث يكون القلم الخاطّ للحروف والناسج للكلمات هو المقص الحاسم والفاصل والقاطع والباتر. لا أحد ينوب عن الطفل المولود في صراخه وبكائه، في ألمه وشعوره. قد نتضامن معه، قد نتقاسم، قد نُسقط تجاربنا المنسية، أو تلك المنطوية في اللاشعور. لكنه حبل سري جغرافي الآن. تفصله مياه البحار والمحيطات المالحة والهائجة، فيها يتخلص من فضلاته وبقايا تغذيته السابقة والآنية. ولن جرّب مغامرات

السفن الشراعية أو غيرها البدائية، قد كانت له ولادات متجددة. سراب الحياة الذي يلف السديم. وكل سديم يكون تابوتا ناعما يرخس لحواسنا متابعة المشاهد وأخذ تنفساتنا حتى نسجل ونوقع على ما سيقع.

هذه رسالتي لك. ربما تكون الأخيرة، وربما أستم بحسب شروط نجاحها. لم أستطع العيش في مفارقات الوعي. لم تسعفني ذاتي ولا نفسي في الصمود أو في محاولاتي في كل تأقلم. ربما أنني أتشافي الآن بهذا الفراق الذي هو بدرجات الاحتراق. لا أدري لماذا أرسلك أنت بالذات. حميد ولد ابًا بوشعيب. وكم أحب أن أناديك بهذه العبارة الجامعة. قد تعبر عن لمسة ناجحة في التشكيل داخل لوحة كبيرة. قد أعتبرها شجرة نضرة ساحرة للعيون، أخاذة في لفت انتباه كلِّ راءٍ داخل أجمة شاحبة معبرة عن خريف عمر، هو خريف مجتمع يعيش انتكاسات النهايات بذكريات ولّت غابرة.

سأجعل مفارقاتي عارية أمامك. ربما تكون أنت آخر شاطئ أتعرى فيه فأتلّص من ألبستي البالية، الداخلية والخارجية. وتكون وظيفة هذا الحبر، هذا الحبل السري الذي يستمر في البتر والفصل والقطع. سأتحدث عن المرأة اللعينة التي جلبناها معًا من المنزل المهجور، وما تقاسمناه كتعلم، كوعي، كتحدٍّ، كأشكال قطيعة مع التاريخ والوجود والمجتمع والثقافة.

كيف أفسر كل خطواتي التي قمت بها؟ وها أنا مستمر داخل تيه إبحارها. لا أدري إن كانت ستسعفني المجاديف. وممّ سأصنعها إن تكسّرت أو

ضاعت؟ وهل أمتلك من مادتها سوى هذا البحر وهذه السماء؟ وأطراف جسدي وصوتي في صراخ، وصدر في مواجهة الموج؟

ولا أخفيك أنني أجد الموج أحنّ من تلك المرأة. كلما دخلت الغرفة امتلكتني في جسدي. جردتني من ثوبي. حتى من كل عملية إنارة للغرفة، فإنني لا أشعر كيف تتم. ربما هي التي تختار نوع الموسيقى فتراقصني، وإذا ما قمت بالتحدي والمخالفة، كانت كل مرة تصنع في دواخلي أشكال الاندهاش. إشارات ضوئية متسارعة أو إطفاء نور لدقائق أو رقصات ظلال الأشياء وشريط تدلي المصباح. ولا أرفض، بل اجاري وأضحك وأبتسم. لا أبدي الخوف بل أحابي وأجاملها. أبسط سلاح العقل وتلك العناوين التي تستعرض جيش العلم والمعرفة والتحليل النفسي في مواجهة شطحاتها وشطحاتي في مجاراتها. في مواجهة غيلان كهوفها الغريبة.

أنت تعرف تفاصيل الغرفة. وأنا أصفها الآن من بعيد ككتاب مفتوح برؤية مجهرية. وتتذكر معي البورتديات المكبرة ل(تشي غيفارا) و(فريدريك نيتشه) و(سيغموند فرويد)، ورسم (ف. لينين) الذي أهدانيه صديقنا عبده ولد ابًا علال. كل شيء في الغرفة له وظيفة في النفس كما مع الأشخاص. كل امتلاك جديد عبارة عن رابط مادي يجعل حضور الآخر في حياتي بالقوة أو الكره، بالقرب أو البعد، بالوصال أو الفراق... كل شيء رمز، وكل رمز له وظيفته في لعبة جديدة.

أعلم أن جزءاً من وجدان الأشخاص ومن أرواحهم متعلق بهذه الغرفة، ومتشوّق لها كلما تذكر ما أهداه أو ما اشتهيته طلباً منهم ووضعتهم فيها. قد تكون المرأة بلوعة تتغذى بكل مكونات الغرفة. وما استطعتُ النجاة إلا بنفسى. حاولتُ امتلاكها فحاولتُ امتلاكى. قد لا أستطيع الشفاء منها إلا بعد سنين. وقد لا أتشفى. لكنها متعة الصراع والتحدي والمراوغة للمجهول والعدم. ما دمت بعيداً سيكون التخلص جميلاً ووديعاً. حتى من روابطى العائلية.

لو تذكرتُ كم راهناً كطلبة على هذا التخلص من عقد الارتباطات العائلية التي تقيدنا بالماضي وبالعادة والتقاليد والمسلمات الخاطئة والمتخلفة عن ركب الوعي والعلم والحضارة. أجديني في عملية التخلص هذه داخل سباحتي الجديدة.

وماذا تعتبر لعبة الشطرنج التي كنا نتقاسم أوقات جولاتها في باب الغرفة، مشكّلين بها فضاء المنظر العام للمدينة المشرفة علينا بنوافذها وسطوحها وشخصها وأطلالها الحية والغابرة، وعاشقاتها ومعشوقاتها؟ مدينة تنوب عنا صوامعها في جس نبض حيّ مع السماء، في نداء روحي يعدُّ ساكنتها كل حين لطهارة الماء، وهرولة الاصطفاف وتلويحة التحية التي تسافر بالجميع خارج الواقع، بينما الواقع يلاعبها لكي يرتب منطقته في ذهنها. تجد المدينة

مسافرة في طهارة الخشوع، ومحاولة التخلص من الشرط المادي في الوجود،
ماسكة بعناصر الحياة خارج المدار.

أتذكر يوم جلست مسترخيا فوق السرير الموضب بالغرفة. وذلك الجيب
الذي انفلتت منه قطع نقدية، وكيف قمت بسرعة لأداء الصلاة، في جانب
مظلل من فضاء وسطح المنزل، قبل أن تظن لقطعك النقدية، أظنها صلاة
العصر. وبعد أن استجمعت القطع النقدية من فوق السرير بدأت في
خشوعك وسفرك الروحي، وبدأت في عدها قطعة قطعة بأناملك، متحسسا
لها ولمعدتها، ربما مميزا بين القيمة منها من دونها.

يومها ورطتُك مع شخصية زهوية بامتياز في التشبيه. إنها شخصية (حيدر)،
والتي أستغرب لعدم امتلاكها لملف خاص بها، مستجمعا ملاحظات حولها،
محللا لها. ما أزال في محاولة فهم سر استبعادي لتلك المهمة حولها. لكنني في
هذه الرسالة أعود إليها أو يعود بي القلم لتناولها. قد أجد المحاولة مرتبطة
بالمرأة التي أفقلت عليها داخل الغرفة، ودثرتُها حاجبا لها عن كل نور حتى لا
تحدث تأثيرها ولا تمارس سحرها.

قد أخاف من شخصية حيدر. قد أفسر أوليا ذلك بكونها شخصية لا تخاف
الموت، ولا تهاب الغيلان التي صنعتها ثقافتنا فركبتُ بها نفسياتنا وأشكال
وأنواع الفوبيات المتراقصة في عوالم ذواتنا. وبالمناسبة حتى لا أنسى، يمكنني أن
أهاتف الأسرة وأطلب منها إعطاءك تلك المرأة هدية. ههه... أستشعر

خوفك من هذا الاقتراح. لكنني سأطلب منك أنت شخصيا أن تكون من سيتولى الدخول للغرفة ومسح الغبار عن مكوناتها. وإذا شئت مراقصة المرأة. (لك ذلك).

. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! اللهم قِنَا شرور الدنيا وشرور خلقها.

يكون هذا التعوذ مصحوبا بتنفس عميق وتنهيدة مصاحبة استراح معها أو بسببها مؤقتا (حميد ولد ابا بوشعيب) من عملية القراءة للنص المرسل من طرف صاحبه وصديق طفولته وشبابه: السيد محسن الشامي.

ودّ لو توقف عن متابعة القراءة، خصوصا وأن الخطافا شعوريا سريعا استلهم بجدسه ما يمكن أن يقع مع افتراض تملكه المرأة. ربما اعتبرها كلعنة، كرمز شر، كسوء طالع مكشر ومكسر لكل حظ طيب. استحضر وهو يعترض كلامه قياسا ومقارنة بين نفسيته وشخصيته، وكلتيهما عند صديق عمره محسن الشامي. اعترف في قرارة نفسه بعدم امتلاكه لشجاعة والجرأة وتهور محسن. أنزل كيان حميد الممثل لشخصه وكيان محسن الممثل لصديقه فوق حبل الزمن والتاريخ والاجتماع والاعتبار والحكم الأخلاقي والتربوي. شعر بأن سحر كلام محسن يمتلكه ويشتعل ويشتعل كاحتمالات حلول أو تناسخ واقع بينهما مثلما يقع بين جل الأنام. رغم أن الجبل قد لا يعي ذلك. تذكر ليلة قمرية جلساها معا على جانب الطريق الجبلي المقابل للمدينة، طريق جبل الدكانة. في منظر ليلي خلّابّ وساحر جمع بين السكون وبين لغة المصايح

والأطلال وتشكيل لوحة سفينة راسية ومستريحة من هدير النهار الصاخب بنوره وأشعته وحركته. وقد يرى الإنسان بالليل ما لا يراه بالنهار. وأية رؤية هي أو رؤيا؟ تمتازان داخل السؤال وتداخلان في كل جواب.

استغريا من ملاحظات استنتاجها معا داخل نقاشهما ومزاحهما. هو، كحميد يقضم زريعة بين ثنايا فمه، والآخر كمحسن يدخن سيجارة شقراء. هو، كحميد، يركز ببصر مسهّم على نقطة ضوء بعيدة ومقابلة ينعكس فيها طيف جسد متحرك، تلوّح رشاقتة الدالة على أنثويته. الآخر، كمحسن، يتابع معه ويشاركه نفس اللعبة البصرية والذهنية والتذكيرية. يوم أجابت تلك الفتاة حميد ولد ابا بوشعيب على طلب صداقة مقرّبة بينهما:

. أنت مثل أخي، وأسرتك أحترمها وأعتز بذلك وأتشرّف بحضورها. وكم أحتاج لأخ مثلك.

ويوم أجابت بعد شهر ونصف تقريبا على طلب صداقة هيّا لها محسن شروط طلبها:

. أحتاج مثلك لحرية أتحرك بها من قيود هذا المجتمع ورقابته وقمعه وكتبته. عسانا نوثث لصداقتنا مناخا أوسع خارج دائرة البلدة أكثر وأكثر.

كيف كان حميد، هو، يعيش التراجيديا، وكيف كان محسن، الآخر، يعيش الرومانسية والكوميديا. جعلها لوحة مسرحية وجدلية قائمة اختبراها في

درجات التناقض ودرجات المعاناة الغرامية بين من كان ضحية المشاعر وآخر متلاعب بها.

ليلتها غنيًا من جديد أميمة الخليل وردّدا: عصفور طلّ من الشباك... ليلتها تحول رمز العصفور من قضية قومية أو إنسانية، إلى قضية عاطفية، أسقط حميد على محسن فيها لقب المجرم، الصهيوني، بينما أسقط محسن على حميد وصف الجبان الخجول وغير المتحرر:

. أنت الخجول، المراعي لأخلاق المجتمع وسمعة شخصيتك العظيمة. تريد أن تكون نبيا أو ملاكا، وأنا أريد أن أحلّ مع كل ملاك.

ضحكا. تحسّرا. تناقشا. تنفّسا الصعداء في استراحة محاربين من معركة نفسيّتين، في ساحة وغى هذا الليل الساحر:

. حينما ناولتك كتاب نيتشه (جينالوجيا الأخلاق) أردتُك أن تفهم هذا الأمر: الأخلاق توزيع طبقي، ونحن الذين نقيّد أنفسنا داخل أدوارها. لا نخدمنا بقدر ما نخدمها وبقدر ما تكون هي استغلالا طبقيًا وخضوعا سياسيا وقيدا من حرية.

. أنت مجرم حتى في علمك ومعرفتك التي تعلمتها آسي محسن.

لمعت عينا حميد دمعا محبسا ومحروما من تعبير ومن كل انسكاب على خدّ يراقص الحياة بمشاعر. ربما حنين صداقة تباعد أصحابها. ربما أنين أشواق لم

تتحقق أحلامها. ربما سيفسره في هذا الحين بالحنين ويؤكد على مفهومه المنطوق: نوستالجيا. هكذا تكون كل لغة بمقاس الثقافة.

استنتاج شجعه على الاستمرار في قراءة الرسالة وعلى التراجع عن فكرة عدم القيام بذلك:

(صديقي حميد، أنت الآن هو خيطي الرابط الذي يصلني مع زمن مضى من حياتي، ومع مكان بُعد عن مجال هذا الماضي. أنا الآن في تجربة حياة جديدة. وسأحاول خلال رسائلي أن أفسّر لك ذلك، وأن أفسّر نفسي لنفسي من خلال ذلك. إنما أختصر القول لما سيأتي في الآتي وأقول: إن استئصال قيم المجتمع وأدوارها ودرجات خنوعها وخضوعها وعقدها النفسية وأشكال الاستغلال القائمة داخلها بشكل مرعب ومخيف، هو استئصال جعلني في حاجة إلى هواء جديد وبيئة جديدة ومجرى نهر وماء جديدين. فليس من السهل على شخص أصبح طبييا نفسيا أن يترك مجال عمله وأجرته لكي يبدأ حياة جديدة. لن أطيل في هذه النقطة لأنها كلفني كقرار جراحاتي وتضحية بآلامها. وحتى لا تنقلب الكتابة انكتابا وتورطا في أي انجراح جديد، فكل ولادة جديدة يكون معها حرمان من التي قبلها، من مشيمية نفسية ووجدانية. ولعلي بدأت رسالتي بالحديث عن الحبل السري.

وأعود لأهاجمك الآن. ألم أعدك بالكتابة عنك وعن مفارقاتك وعن مقارنتك مع شخصية حيدر؟ إنما سأقتصر على مستملحة واحدة جامعة الآن، تجعلكما متشابهين رغم تباعد طبعكما. فليتك امتكلت طبع حيدر !

أو تعلم؟ الدموع تذرف ضحكا وأنا أحاول توريطك في تشبيه الكتابة. أتخيلك مثل حيدر بنظارتين سميكتين تقليديتين وآلة العود وأنت تغني مع جماعة بجانب دكان الحي (يا فؤادي) لأم كلثوم أو أغنيته المفضلة التي لم نعطيها قيمتها الجمالية آنذاك: (والماء يجري قدامي... مكوي بالنار وعطشان...)، والساعة تشير إلى الواحدة صباحا في فصل الصيف، وعلبة الرز التي كان من المفروض أن توصلها بعد صلاة العشاء لمطبخ المنزل من أجل وجبة المساء وقد بقيت هي الأخرى متورطة في سماع طربك رغما عنها، متمنية لو أنها ألقيت في ماء طنجرة ساخن مع ملح وبعض زيت بدل هذا المهرج الذي سببته أنت كحيدر وجماعة عصابتك.

وأتحيل مزجا بين الصورتين: (ابا بوشعيب) وقد هجم على جلسة سمرم بحزامه الجلدي معاقبا على هذا التهور. وفجأة أدرك أنه مجرد تصور افتراضي. فحيدر هو الفنان وأنت مجرد عاشق ولهان. أما تزال تستعرض عضلاتك من نافذة غرفتك لمعشوقتك؟ لن أبحث عن جواب. أعلم أن طرّق موضوع الغرام أخطر ما أسأل الدماء بالخناجر بين القبائل في تاريخنا المجيد، أيها الصديق المجيد.

تَقَبَّلْ مستملحاتي صديقي حميد.

هذه الرسالة رابط روحى بين عالمين ومرحلتين، جهاز أكسجين للتنفس أحتاجه كل حين، كلما تورطت غرقا وقد طغى الموج العاتى على سفينتي فغارت في غيابات وغياهب...

تتذكر معي قصة الشابين: لطفي وعلي، على ما أظن. كيف تنازعا على مصاحبة فتاة فكان ذلك سببا في خصومة ونزاع بين صديقين. وكيف فكر كل واحد في حسم الاشتراك وفضه في المنزل المكترى بينهما. تلك (المصرية) أو الشقة الصغيرة الخاصة بالعزاب ومغامراتهم، وكيف ذهب كل واحد بمفرده عند حيدر الحداد فاشتري الأول قفلا جديدا وطلب من حيدر تكسير القديم وتركيب الجديد. ونفس الأمر قام به وطلبه الثاني من الحداد حيدر حينما وجد القفل قد غيرَه الشريك القديم في الشقة.

لم يكن ليرفض حيدر لا طلب الأول ولا طلب الثاني. نفذ الاثنان معا دون أن يتساءل ودون أن يخبر ودون أن يتدخل في شؤون غيره. اعتبر مهمته كحداد تطالبه بالعمل دون سؤال: لماذا؟

الكل في البلدة يعرف سيرة حيدر. لو جمعها أحد المهتمين بالتصوير السينمائي لكانت فيلما رائعا في الإخراج. لكن الجل يبخرس قيمة ثقافته مجتمعه. وقد تلومني أنا كذلك في هذا الأمر.

وأتحيلك الآن وأنا أحتزل قصة حيدر بقدر ما استطعت تذكره وأنت تتساءل:

. ما علاقتي أنا، حميد، بهذه القصة؟

وتنتظر الجواب.

هل أتم الرسالة أم أتركك في غليان فضول وتساؤل؟

ما يزال سحر الخبر متحكِّمًا في البحث عن جواب.

انتظر !

سأجعل الأمر والجواب في صيغة المسرحية المقدّمة سابقا حول (سقاية السوق الداخلي). ما رأيك؟ أو اعتبرها الجزء الثاني من المسرحية، لأننا غالبا ما نهض الوعي ونقرّمه في خناق تاريخي كأن ما وقع لم يقع، أو كأن ما وقع لا علاقة له بما يقع. وما الوعي؟ رابط منطقي بين السابق واللاحق، بين السبب والنتيجة، بين العنصر ومجموعات المركبات النسقية المتفاعلة معه داخل الجهاز العصبي وفي ملاحظات وتفاعلات مع الواقع الخارجي أو الموضوع المشتغل عليه داخل الذهن... وهلم استنتاجات.

لا أدري إن كنت تطيق هذه القراءة لهذه الرسالة أو شبه رسالة. أعلم أنني في هجرتي هذه ربما هجرت نفسي من نفسي، أو ذاتي من أناي. هل يمكنني القول إنني لم أعد أطيق أناي السابقة فبحثت لها عن اغتسال جديد وتطهير جديد وتجريد من السابق من أجل لاحق مأمول؟

إنما ما أطلبه منك صديقي العزيز هو أن تقرأ هذه الرسالة بمفردك أو قُم
بمحوها حين الانتهاء. شكرا لك).

...

المسرحية

المشهد الاول:

جدارية نصف مستديرة تمثل امتداد خريطة العالم العربي الإسلامي . وأعتذر
لباقى مواقع هذا العالم .، تتماوج جوانبها تداخلا وتمازجا بين زرقة بحرية
واصفار ترابي، بين يابسة وماء، بين بحر وبرّ...

الجدارية، تلايبب كبيرة نازلة من أعلى كلوحات ورقية مستطيلة.

الإنارة مطفأة، إلا ما كان من بصيص مصباح صغير تائه كشمعة صغيرة
داخل إناء زجاجي. لا تكاد تضيء طريقها، لا تكاد تنفلت من اصطدام
بجوانب الجدار المتماوج والهادر...

الصوت المرافق للانعكاس مشكل لسخرية من تيه، ولقهقهة من كل احتمال
ارتطام، ولحالات هلع مصاحب وصاخب ولأنين وصراخ متولد عن كل
صدمة أو اصطدام...

كوريغرافيا شبح متحرك ومتفاعل وفاعل في تمثيل المشهد...

ثلاثة أصوات للانكسار. للتشظي. لسقوط جسد الشبح. لانطفاء بصيص مصباحه الصغير.

مع الصوت المتشظي الأخير تتحول الخشبة من ظلمة حالكة إلى ضوء فاضح يعري ويصدم البصر.

يقف الشبح. يرفع ذراعيه للسماء. ينظر للجمهور. يُلخّص أطرافه بنظرة متأملة لها يمنة وشمالا، نزولا عموديا بها إلى أسفل، إلى حركة أصابع رجليه العاريتين وقد فركها، وصوت الشفتين المصاحب لهذا السلوك الجنوبي. ويتوجه بالخطاب للجمهور:

. سأسألكم... كم من عري تحبون مشاهدته؟ كم من قناع تودون التخلص منه؟ وهل أنتم قادرون؟

. بهاهاهاهاها...

(أتحيل صديقنا السي البركة جالسا في القاعة ومنفعلا مع الضحكة، وأتحيل الجمهور مجاريا له في ضحكته، لكنه خاتم ال(بهاهاها) بعبارة: ولاد الحرام، حتى الضحكة شاركوني فيها... بهاهاهاهاهاها...).

. وماذا بعد؟ ماذا وقع؟ ما الذي يقع؟ يتساءل الشبح العاري إلا من ثوب لاصق.

ظلمة جديدة ودائرة ضوء من موقع الخريطة وموقع بلاد الحجاز في شبه الجزيرة وإيقاع دفوف تقليدي مجرد من كل آلة مصاحبة.

. من هنا أعادت البشرية صياغة الحياة وأعطت الانطلاقة لدين جديد وحضارة جديدة.

أصوات متداخلة: ماء . تراب . نار . حديد . مداد...

ظلمة جديدة ودائرة ضوء من موقع الخريطة وموقع بلاد الرافدين وبلاد الشام: تشكيل الهلال بضوء خلف الثوب . الجدارية.

. ومن هنا وهنا . مع إشارة باليد . كان الإشعاع الحضاري والعلمي والفلسفي، ملتقى الشرق والغرب، الذي أنار من جديد عتبات التاريخ البشري.

إيقاع موسيقى بدبكة عراقية فشمالية فمتوسطة، قد ترفق كل واحدة آلة مميزة للعراق فالشام فاليونان أو غيرها... يمكن للشبح أن يستدعي أفراداً من الجمهور، ثلاثة أو أربعة يرافقونه في رقصة على الإيقاع... قد يوصل كل واحد إلى جانب الدرج الجانبي للخشبة حتى ينزل منزلها مع حركة انحناء دالة على شكره.

يتم نثر نجمات لامعة من فوهة ألعاب متفجرة حين فتحها كالتى تستعمل في أعياد الميلاد. والغرض هو تحقيق رقص إضاءة وألوان ودخان وضجيج أصوات مع هذه المنثورات والقطيعات أو القصاصات الورقية...

نثر رذاذ الماء مع تراقص أشعة ضوئية ملونة عمودية وأفقية ومستديرة فوق الجمهور وعلى امتداد قاعة المسرح، بالإضافة إلى إيقاعات تصفيقات مطربة في لحنها...

ظلمة جديدة بعد هذه الاحتفالية وصوت الشبح من جديد:

. يا سادة، يا كرام. سيداتي سادتي. مرحبا بكم في عصر الظلمات. كيف يصبح النور عتمة؟ كيف لا ننجل من قوله تعالى (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والارض انفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)*.

مفرقات صوتية مصاحبة لتشظي دوائر ضوئية عبر مواقع الخريطة. الجدارية، وصوت الشبح المرافق لحركة تجواله التائه فوق الخشبة:

. استعمار . استحمار . استعمار . استحمار... آآآآآآه! آآآآآآه! أطفئوا الأنوار! لا أقدر على رؤية الواقع، الحقيقة، رؤية هذا العري الجديد. أنا أعمى، أنا أعمى. أنا... ع... ع... م... م... ع... آآآآآآه!

سقوط الشبح وإغماء جديد.

ظلمة جديدة. إزاحة الخريطة الجدار. ظهور جدار جديد لساحة وأقواس
خضراء بأعمدة ودكاكين داخلها:

. مرة أخرى، أعود بكم إلى السوق الداخلي الذي أصبح ساحة جرداء. لقد
كان، ذاك، عريككم الخارجي. فكيف هو لباسكم الداخلي؟
(بهاهاهاهاها... بسخرية سوداء تستهزئ من عيون الجمهور.

...

في سيرة حيدر تمتلك ثقافة المدينة أحداثا وقصصا طريفة وغريبة. ربما هي غير مألوفا ولا يستطيع جل الناس أن يقوموا بالخوض في مثلها. وقد يكون حدير اسما مستعارا أو لقبا ينوب عن شخص ما، إنما من يتتبع سيرته التي سجلتها شخصيته ومسيرة حياته خلال عيشها سيلاحظ أن الإنسان مركز حضارة وثقافة يستقطب الاهتمام في الأب الإنساني أينما كان. ربما لأجل ذلك اهتم السيد محسن الشامي بذكر بعض تفاصيل الحكيم حول شخصية عنتر وحول شخصيته في هذا العرض الحوار المسرحي الذي أراده في رسالته.

كما يمتلك السيد حميد معلومات أخرى إضافية حول سيرة حيدر. لذلك، حين قراءته لما أدرجه محسن الشامي استحضر هو الآخر ما يعلمه. وما يعلمه سوى ما روته المدينة وسجلته وتداولته. حيدر الذي أتحف المدينة بدخلته من بوابة شارعها الرئيسي المؤدية إلى وسطها ومركزها. يوم كانت المدينة في سبعينيات القرن العشرين تستعد لاستقبال ملكي تنتظر فيه الحسن الثاني ملك المغرب في حشود مصطفة لساعات على جوانب الطريق، وكانت مهمة رجال الأمن والدرك والاستخبارات مكثفة ومنتشرة بين الشوارع والأزقة وفوق سطوح المنازل كذلك، ما دامت المنازل تتدرج فوق تلال متقابلة يطل بعضها

على البعض الآخر كما تطل على الشارع العام أو ساحتي السوق الداخلي والبراني بلغة أهل البلدة.

وطال الانتظار، وسمع دوي محرك لدراجة نارية كبيرة يقتحم مدخل المدينة، واشتاق الناس لهذه الطلعة بسياراتها الضخمة ودراجاتها الفخمة. لكن الدراجة النارية التي أدهشن الجميع وجعلتهم فاتحي أفواههم ومجمّدين من كل حركة استغرابا وتشابها، لم تكن سوى الدراجة النارية للمسمى قيد حياته حيدر. دخل المدينة مؤدية لحركات استعراضية فوق دراجته. مرة يمد يديه وذراعيه أفقيا تاركا عجلات الدراجة لتحكم رجليه. ومرة يقف فوق الدراجة ويؤدي التحية للجمهور الذي يبدأ في التصفيق والتحية والدعاء بالحياة والعيش. لكن هذا الدعاء سرعان ما اختلط بين الأصوات بين من تعرف على شخصية حيدر رغم الخوذة التي تغطي رأسه وبين من ظن أنه منتهم للموكب الملكي وفي مقدمته. حين توقفه وترجله من دراجته، وحين نزعه للخوذة اكتملت الصورة واكتمل التحدي مثلما اكتمل الابتهاج والفرح والسعادة والضحك عند الناس، رغم أن مجال الأمن ارتبكوا وارتعدوا واستنفروا: كيف يعقل أن يخترق بروتوكول الاستقبال ويصل إلى موقع تحفقه ترجلا؟

تدارك الكل الحل المناسب الذي سيستر ما وقع واعتبروا المسألة حفلا تقديميا يسبق طلعة جلاله الملك. سارعوا لجعله يخرج من سياج حزام الأمان وإخلاء

الشارع من وقعته وضجته. كان ردّ حيدر أنه فرحان بمجيء سيد البلاد ومعبّرًا عن سعادته. كان حميد ولد ابا بوشعيب متابعا من فوق سطح من سطوح منازل البلدة. أدرك بجدسه من بعيد أن هذا الآتي هو حيدر، وأن مقلبه انقلب على رجال الأمن. فرح الساكنة لهذه المغامرة التي قام بها أحد شباب بلدتهم، وفي دواخلهم كان الخوف من مجرد التفكير في القيام بمثلها. ماذا لو لم تنجح؟

حيدر الذي عمّر أبوه وأقعده المرض، استنتج يوما أن الأب لم يجبه على تحيته. فكّر في احتمال أن صاحب الأمانة قد أخذ أمانته، ان الله تعالى قد اختار روحه التي خلقها لكي يرفعها إلى السماء، لتعود لبارئها. حينما لم يجبه الأب خرج وأحضر من عند نجار صندوقا خشبيا، تابوتا لجعل جثمان أبيه مكرّما إلى مثواه الأخير بداخله. حين عودته من عند النجار سمع نداء الأب المقعد في زاوية من المنزل: امحمد ! امحمد !

لم يمت بعد، وبقي الصندوق في داخل دكان الحدادة. عاش بعدها الأب لمدة زادت على الأربعين يوما قبل أن يلتحق بالفريق الأعلى. وخلال تلك المدة كان حيدر يشتري كل مرة صورا تباع وتترج قصص الأنبياء وسيرة شخصيات كبيرة، سيدنا إبراهيم وهو يستعد لنحر ابنه تحقيقا للرؤيا والملاك ينزل كبشا أقرن أملح فداء وتخليصا... سيدنا علي كرم الله وجهه وهو يحارب الأفعى ذات السبعة رؤوس بشجاعته وإقدامه وهي في هلع وتورّط تأدية ثمن تجرّؤها...

سيدنا آدم وأمنا حواء وهما بقفان بجانب شجرة التوت الوارفة وقد التفت الحية على جذعها وورقتي التوت قد غطيتا موقع تمييزهما الجنسي...

كلما اشترى صورة جديدة ألصقها داخل التابوت. حين ينتهي حيدر من رواية قصة الصندوق الخشبي يعلق قائلاً: لقد ذهب الوالد رحمه الله تعالى مستأنساً بألبوم صور جميلة لن يقنط في عزلته وغربته داخل القبر. بقيت الموسيقى، ها أنا أبثها بمكبر صوت من أمام الدكان كل مساء تجاه المقبرة وأضيء الإرسال بمصباح أحمر صغير.

كل ليلة تكون أغاني أم كلثوم مرسلة بين تلة الدكان وتلة المقبرة المقابلة له. إلا ما كان من كون حيدر حينم وفاة أمه أنه ازداد شجنا وحنينا فكان يذهب لجوار قبرها وآلة العود في يده فيقوم بعزف ما تيسر من أغاني يحفظها وكانت عزيزة عليها قيد حياتها.

يستحضر السيد حميد ولد ابا بوشعيب مثل هذه القصة فتختلط الدموع في عينيه بين أسى على زمنٍ يعتبره جيماً وقد ولى، وبين أسى على رسالة بقدر ما عبّرت عن دواخل ومشاعر صديق قديم عنده بقدر ما أحيت شجوننا وحسرات مجهولة في نفسه. لكن القوس في التذكر ما يزال مفتوحاً، وما يزال يتقاسم مع اللوحة - المسرحية بعضاً من فصولها:

قصة الدراجة النارية في حدّ ذاتها سيرة خاصة بها. تجمع الروايات على أنه جعلها تستعمل مادة الغاز السائل في تشغيلها بدل البنزين أو المازوت. وهو

أمر قد يخيف البعض لكونه تحدّي للمتحمك فيه كطاقة وكاقتصاد مشروع. فهل كان اختراع حيدر غير مشروع وغير مرخص به؟ هكذا كان يستعملها ذهابا وإيابا بين مدينتي مكناس ومولاي إدريس زهون. يوم أشار إليه رجل الأمن ومراقب المرور بالتوقف وهو خارج من مدينة مكناس، لم يتوقف بدراجه إلا بعد مسافة طويلة من المنحدر. رجع مترجلا صاعدا عند رجل الأمن. استفسره على عدم التوقف في الحين، أجابه: (احمد الله أن الدراجة توقفت هناك وإلا فلن تستطيع ذلك في المنحدر). ربما اكتشف المراقب غرابة الشخصية وغرابة ما يشاهد. ابتسم ودعا لمتبعة طريقه وسفره.

ويوم لم يجد سائحان ألمانيان من يصلح لهما عطب دراجتهما النارية سوى دكان حيدر المفتوح دائما، طلب منه الدليل السياحي أن يساعدهما في إصلاحها. دعاهما لتتمة جولتهما الاستكشافية للمدينة وحينما عادا وجداها وقد أصلحت. بقدر الفرح بقدر الاستغراب خصوصا حينما قال لهم حيدر: . هذه قطع إضافية نزعت من الدراجة لا حاجة لكما بها الآن.

بقيت البلدة تسجل أن حيدر مخترع بارع تحدى حتى الشركات الألمانية في تركيباتها الميكانيكية. وفعلا هو في نظر السيد حميد مخترع ما دام قد جعل طابعا علويا فوق الدكان مرفوعا وراسيا برافعة ميكانيكية فقط كان يستعملها في إصلاح السيارات. لكنه قام بسلوك متهور بمجرد ما فكر في جعل الحائط بين دكانه وبين مسجد الحي أعلى الدكان مشتركا في الضم. فقد جعل ثقباً

في الحائط ليضم محراب المسجد المقفل عن الاستعمال توسعة للغرفة العلوية الراسية بالرافعة الميكانيكية.

حيدر هذا هو الذي استدرك السيد محسن الشامي سيرته في تفاصيل رسالته بفضول من مسرحية مركبة بين المدينة وباقي قضايا العالم المحيط.

لم يعجبهُ التشبيه الذي قارنه مع شخصية حيدر. فالصداقة تفرض حين تسجيل المكتوب التزام درجات وحدود. فحميد ليس هو حيدر. ربما شعور بانتقاص كرامة. لكن الكرامة للجميع. نازعه منطقته الداخلي هذه المعادلة والمرافعة، وجعله يتجاوز هذا التوتر القائم. لكن حيرة السيد حميد حيرة عيش محصور ومحتق داخل بلدة صغيرة. يصعب تحقيق التوازن والعيش بحرية خاصة داخلها، ما دام اليومي والاجتماعي والثقافي والمهني المرتبط بهذا الكل يفرض عليه تنازلات وصبرا جميلا كما في التعبير والحكايات.

وما نسبه السيد محسن في مكتوبه تذكره حميد لحظة قراءته. يوم استدعاه الباشا بسبب شكاية من طرف أحد الأعيان. قبل دخول مكتب السيد الباشا وجد السيد حيدر ثلاثة من معارف الحي في قاعة الانتظار. وحينما استشهد عليه الباشا في هذا الادعاء و التهمة بجماعة المنتظرين علق بمستملحاته المعهودة:

- سيدي الباشا، لو أعطيت لي عشرون في يدي كنت سأشهد أنا الآخر ضد نفسي!

يضحك حميد مع هذا الاستحضر الجميل، لكنه لا ينفي احتمال وإمكانية قيام حيدر بالمنسوب له في تلك القضية.

قصة السيد حميد ولد ابّا بوشعيب، والتي لم يرد جعلها مسرودة بطريقة مسرحية كما طرحها صديقه محسن، تعود لعلاقتها بالساحة الجديدة والتوزيع الجديد للدكاكين حولها. ارتأت الاجتهادات أن تصبح ساحة متميزة سياحيا واجتماعيا. كلما زارها أحد انبهر لنظافتها وهندستها. ساحة تحتضن الزائر وتجعل المدخل الرئيسي للضريح مستقطبا كما تجعله ملتحما وجدانيا ما أمكن مع مناخ عيشها وحركيتها. جل تجار هذه الدكاكين من معارف جيله أو معارف جيل والده أطال الله تعالى في عمره. يوم فكّر التجار في تنظيم قطاعهم داخل ودادية وتنظيم مطالبهم معها، لم يجدوا من سيساعدهم على تأسيسها وجعل قانون أساسي وداخلي تنظيمي مرفق بالوثائق اللازمة سوى السيد حميد ولد ابّ بوشعيب الخبير في الإدارة والقانون والثقة الذي يمكنهم ان يعولوا عليه أمانة وإخلاصا. لكن مهمته أصبحت مزدوجة بين ودادية التجار والإدارة. فهو الذي يكتب مراسلات الشكاية والمطالب للتجار، وهو الذي يكلفه رئيس المجلس البلدي كما باشا المدينة بالردّ على الودادية في مطالبها ومحاورتها في ما تريده منها...

اكتشف على أنه يستفسر خطابه هنا ويقوم بالرد عليه هناك. قرّر جعل حدّ هذه المتاهة بطلب مقابلة التجار لباشا المدينة ورئيس بلديتها. حسم المشكل

وحصره في برجة لقاءات متجددة بين الطرفين. هكذا خلّص عقله وشخصيته من مهامين ودورين كان عقم التنمية للمدينة نتيجة الواقع المستمر (هكذا حال). فهل يمكنه تشبيه ما قام به بمثل ما قام به حيدر في تغيير قفل الشقة بين الصديقين العازين؟ هذا ما أغضبه في هدوء وحاول تجاوزه بحكمة صبره وتأمل جعله يمر مرور الكرام مثلما تمر أمور كثيرة مروراً يحتاج للنسيان في الحال وإلا كان التوتر الذي يصاب معه الإنسان بمرض أعصاب أو ضغط منفجر...

بين نظرة السياحة المثالية ونظرة الحياة الواقعية للسكان كانت التناقضات تتفجر وتستفحل في المعيش اليومي للمدينة إلى درجة أن السلطات اعتبرته وراء مقال نشر حول الساحة تحت عنوان: *الساحة المقدسة*. وفي ردّ ظنهم ساء لهم: هل تظنون أنني بمفدري الذي يقرأ ويكتب والذي يعيش في هذه المدينة؟ صاحب المقال، يمكن أن يكون مجرد زائر أو من أبناء المدينة الذين يعيشون خارجها أو أيا كان!

(وقفت السيارة الفاخرة وسط الساحة. محيط مليء بأقواس الدكاكين الغائرة. أعين مسهمة في الآتي لزيارة الضريح أو تجوال مريح... أشعة الشمس تكاد تفرغ الساحة من بشر فيها. فجأة يخرج أفراد متناثرين من هنا وهناك، كأنها لعبة المد والجزر، لعبة الجذب لكل محرك متوقف داخل هذه الساحة.

بنزولك من السيارة تسرح العين / البصر لرؤية المجال، أقواس كبيرة هي مداخل ومخارج هذه الساحة الوسطية. تلال منازل إسمنتية تكسو ما تعالى مما وراء محيط الدكاكين والأقواس المنضودة أنصاف دوائر تسلسلية.

نساء عجائز وشيوخ مسنين وأطفال في زهرة الأعمار يطلبون بركة الزائرين، يدعون بتلبية الضريح لقصد الآتين... يتحول الزائر إلى غني مطلوب البركة، قد تضيق النفس بإلحاح السؤال وكثرة عدد المتسولين. قد تفكر حياء في الانسحاب من نية الزيارة. كيف ألج الضريح وسط السائلين عن بركات نقود؟

يراقب الشرطي الواقف في ظل هذا المشهد. هو مسرحية متكررة كل يوم. قد يباغتك بطلب الأوراق الخاصة بالسيارة. فيزيد السؤال على السؤال. ربما تكون قد دخلت بسيارتك من أمام علامة ممنوع المرور، تلك مخالفة مضاعفة داخل هذه الساحة المقدسة. خصوصا إذا كان ممنوعا دخول السيارات لها، فالقانون موسمي عندنا ولو بحسب المزاج أحيانا أخرى: ممنوع، مباح، مؤقت، أبدا...

الجالسون بالمقاهي المحيطة بالساحة جمهور اعتاد على أشكال وأدوار المسرحية. هناك من تكون ابتسامته جاهزة مع رفع ستار خشبة هذه الساحة المقدسة لتخمين نتائج المشاهد في هذه المسرحية. أو كأنه شريط لرعاة البقر في ساحة مكسيكية مليئة بالمخاطر للجاهل بها...

مخدر الكيف والحشيش بلسم وجودي للإقامة الجبرية حول الساحة المقدسة، التي هي أكثر من (ساحة عبدالقادر الشاوي الشرفية)*. ولكن لا بأس، فلنتنافس حول هذه الساحات النموذجية.

يكفي فنجان القهوة/ الدكة/ التلصيقة.. فتلك مراحلها التحولية... إضافة إلى (سبسي وهو غليون الفقراء والأغنياء منهم) أو ملفوف تبغ ممزوج بحشيش يرفع الذهن عن الانتماء للمكان وقياس الزمان وملل البصر بثوابت الجبال والأقواس والجلابيب والسعيان... في هذا العيش غير الفنان.

انحناء المدخل، الدعاء المقدس للشرفاء يزيد من حدة السؤال والسؤال... ترتفع قيمة العملة مع لمس جدار الضريح وطلب بركة أهل المكان... قد تكون متوترا من كل هذا... فبقدر القصد والنية تنال البركة وتقضي الحوائج بالصدقة، وهذه بركة وصدقة.

أغلب الزائرين من النساء والفتيات، وهن في جو العائلات، ينال الابن رضا الوالدات، والرجل راحة الزوجات... وبقدر العزائم تتحقق الأمنيات، كما بقدر المشاكل والعقد والأمراض تتنوع أشكال الزيارات... هو طقس مهدهُ الساحة المقدسة، منطلقه في الزيارة.

مع المزاج المخدر والعطالة عن العمل ترى من كرسيك في إحدى مقاهي الساحة المقدسة قرايين وشموع وغيرها من أشكال التقرب مهداة للضريح رحمه الله، ما تزال البركة تتبعه حتى في قبره. قد تصل بذهنك إلى مرحلة التفكير

*- إشارة إلى رواية (الساحة الشرفية) لعبدالقادر الشاوي.

العبي حيث لا منطق واقعي بين الأحياء يسري، والحمد لله أن هذا المخدر ينسي.

لا تلموا الساحة المقدسة، فهي قطب السياحة ورواج التجارة، رغم أن الأطفال يرون فيها بجرهم ومحيطهم حيث لا بحر، متنفسهم في اللعب والمرح حيث لا ملاعب، يعانون ويجربون المنع والحظر منذ صغرهم. وحينما يرتبط الحرمان بالمنع تبدأ المعاناة. وقد تكون جميلة في الصغر، لغة للمعاناة والتحدي في تجربة للكبر... ما جعلها تربية اجتماعية لأطفال الغد. فكل شيء لعب وسرقة لحظات مرح وبناء الذات... ترقب المقدم أو الشرطي مع كل سياقة لدراجة أو لعب لكرة... لعبة تضاف إلى اللعب، وتختلط السعادة بالمعاناة عند هؤلاء الأطفال منذ البدايات. لا عليهم فمعاناة الكبار تهون أمامها هموم الصغار... تاريخ من الحسرات يطوي الزمن تراكمها لفافات وسقطات... في الساحة المقدسة تم الإعدام. تاريخ عمران وذاكرة الثقافة المغربية والمحلية وتراث الإنسانية، تم الإعدام. حَظ (البرصي) ومعه مهندس المقاولات لحلب بقرة البلاد حتى تجود باللبن والجبن والزبد... سيق الجمع لخدمة الساحة المقدسة. هدم التراث العمراني بأقواسه القروسطية ودكاينه الحرفية... بنيت قيسارية إسمنتية بطوابقها، أقحم فيها التاجر والخياط والإسكافي والحداد... خارجها نوافذ ضيقة أفقية مستعصية، وداخلها عالم مغلق كأنه (ألكتراز) سجن كبير لحياة أمة... بائع الأحذية البلاستيكية قضى داخل القيسارية ثلاثة اشهر، باع فيها حذاء واحدا بثلاثين درهم... بعد ثلاثة أشهر قضى

البائع نخبه. التحق برفيقه الأعلى ربه. لا عليك فنحن واقفون موتى، فارغون من الذاكرة و الحياة المثلى. أما أنت فقد استرحت ألقيت بمك علينا حملتنا مسؤولية الآتي والمحيا...

فُتلت الذاكرة، وأسكنت نبضات القلب البشرية بفضل الساحة المقدسة الشرفية... وتستمر الحكاية العبيثة.
في الساحة المقدسة:

. ممنوع وقوف السيارات حيث لا مرفأ للسيارات، وحيث تم تدشين كم من مشروع ابتلعه النسيان كما ابتلعه جيوب قراصنة الإدارات...
. ممنوع لعب الأطفال حيث لا ملاعب أو فضاءات للأطفال ، وحتى ما كان من ساحات حُول إلى بنايات أو صودر من طرف جماعات. حتى الخزانة البلدية ويا لعبت الحكاية وسخرية القدر منذ البداية، تقاسم إرثها في عهد ما أعضاء (المنتخب البلدي)، فأثثوا بها فضاءات منازلهم نشوة ثقافية حيث لا يعلمون كتابة أسطر أدبية أو شعرية، أو ربما لا يعلمون خط الأحرف والكلمات والعبارات. وهكذا تكون السرقة الأدبية.

فيكيفها فخرا أن تنال القداسة والحصانة، وتملك القلوب وتحتل المكانة فهي من صنع البشر. فأيهما أفضل؟ الساحة أم البشر؟ لا تلوموا الساحة المقدسة، فهي ليست وحدها، فإنها تحتل المكانة رغم أنها قد تكون معبرا للمدس بغلاف المقدس... فكل مقامات الأضرحة اختلط بل تغلف فيها المدس بالمقدس. وتلك حيلة البشر لتهديب رقابة وغلظة وغضب الأرض والسماء..

والسماح بتلبية مكونات النفوس والغرائز. فهي إحدى الساحات المقدسة،
هذه: الساحة المقدسة).

يعيد عليه المسؤول الإداري في السلطة قراءة المقال للمرة الثالثة في جلسة
واحدة. ربما يحتاج لمن يساعده على تأويل الشيفرات المرسله فيه. هذا ما
استنتجه حميد ولد ابا بوشعيب، وكأنه من يمتلك الأرقام السرية لفتحات
أزرارها وأسرارها.

بقي توقيع المقال سرا في مكاتب الجريدة. وبقي اختتام السيد محسن الشامي
للوحتة المسرحية الطويلة مفتاحا لكل سؤال واحتمال أن يكون هو الكاتب
لكل هذا...

في ختام الرسالة، سأل محسن صديقه حميد: (إنما قل لي يا صديقي حميد ولد
ابا بوشعيب:

. من كتب المسرحية الأولى؟).

...

يوم عرض المسرحية فوق خشبة المسرح، بنفس قاعة العروض بالمركب الثقافي
بمولاي إدريس زرهون كان الاندهاش أكبر:

(أُدخِلتُ مرآة سميكة الإطار، متموجة الانعكاس، عميقة الظل والامتثال والتمثل، انعكست مصابيح بألوان قزحية أفرزت الجمهور. رافقها طنين موسيقى مدوية. دخل الشبح من جديد:

. هذه المرآة تعكس عريكم التاريخي. هذا طيفكم. عمرها أكثر من ثمانية عقود، زهاء القرن من الزمان. والقرن كافٍ كشهادة تاريخية. هذا شاربي . وينزع الشارب من فوق شفته العلوية ويضعه لاصقا على المرآة .. هكذا أكون قد تخلصتُ من تاريخ خادع سكتتُ عنه كل المرايا، إلا هذه.
. وجمع . وجمع . وجمع ... بَّهاهاهاها.

في لباس عصري وبربطة عنق بهيمة ونظارات شمسية راقية وتحية آسيوية:
. سيداتي سادتي، شكرا على حضوركم وصبركم ومتابعتكم).

في سلم الجنون

لا تُعزِّد لدلالة الجنون أهمية. لن تكون بالمعنى السلبي الذي توافقت عليه الشعوب منذ القدم. ولن يكون اختلالاً في الموضوع أو الذات، بقدر ما هو اختلال في الفهم وفي الإدراك.

لقد دفعني توتر المرأة إلى آفاق جديدة. وكأنها اختارتني في تخصص التحليل النفسي، اختارتني في شخصيتي، في شراء جَدِّي لها منذ عقود.

أتساءل إن كانت تخضع لمقاييسنا في الوجود الواقعي والزمكاني والمادي الفيزيائي. هل لها ما لنا من متوسط عمر أو من خلوده أو عدمه؟ هل كانت تنتظر جيلنا لكي تختارني أنا؟ وقبل ذلك، كيف وصلت إلى مدينتي وإلى سوقها الأسبوعي؟ كيف اختارت جدي في الاقتناء؟ هل هي التي اقتنته أو العكس؟ لماذا تشاءم منها البعض في عهده وفي عهدنا؟

ها أنا في تخصص جديد. داخل تخصص آخر هو علم النفس المرضي وعلم نفس الخوارق. أضع الفرضيات وأتبع آثارها وتحسدها مع فريق بحث وعمل مختص. مصطلحاتي الجديدة هي: الأنفرازون، الأنفرازونوس أو حس...

لك أن ترفض هذه التفاصيل. لكنني على علم بأنك في شخصيتك وكيانك الثقافي جزء من كل، مثلما كوني أنا جزء من كل كذلك. كاللانا تشكيل مركب في كائن واحد رغم الخصوصيات. بمراسلتك أرسل نفسي وذاتي، وبمحاورتك اخترق دواخلي وأزنع الحجب عن الحجب، عن العتمات.

وكأنني الطيف وأنت المرأة! لكنها موجودة ومحجوبة عن الأنظار، تستوعب فكرنا وذكرا وحياتنا حتى نشكل طيفها، تلك المرأة!

هل هناك كائنات خارج التشكيل المادي المرئي والحسي أو المجهرى؟ هل هناك كائنات ظل متشكل من لا ذرة، من لا صوت، من لا ضوء؟ أي قدرات وأية مقاييس ستكون عندها وتعيش بها؟

تلك المرأة ملهمة لفلسفة وجود جديدة، فلسفة تاريخ أخرى. لذلك، أترك لك هذه الرسالة وديعة، وأعنوانها/ رسالة بدون تاريخ، في وجود الطيف والمرأة.

كم قرأت لها ما أكتبه، وخصوصا ما كنت أدونه حول شخصيات متعددة. وكأنها تحب وتعشق لدرجات سحرية خارقة تغريني خلالها بعود المصباح

السحري كما في الحكايات. وكأنها تعشق التهام عالم الأرواح في جوف
ملكوتها الفاتن الذي يضيء كل حين.

اعتنِ بتلك المرأة يا صديقي العزيز ! فهي سرّ الآتِ !

فضاء كهف الحمام
رحلة في الذات والوجود



عبد المكي

بموازاة مع اشتغال حول "الجغرافية التخيلية"
و"التخييل الجغرافي" ومفهوم "الفضاء" وجدتني
اراجع نسا كتب سنة ٢٠١٠ حول (كهف الحمام)
بجبل زرهون

تري، ماذا ستكونه المحاولة؟

كهف الحمام

من أعالي جبل زرهون، تبدو قمم تلال عديدة متفرقة في احتضان السماء، منفتحة على سهل في اتجاه غربي لاستقبال الرياح التي غالبا ما تأتي محملة برطوبة وسحب ماطرة من جهة سهل خومان . أما الجهة الشرقية، فهي مولية ظهرها لسهل سايس، والذي رغم انبساطه وخصوبته، إلا أنه هو الآخر يعتمد على الممر الغربي الذي يخترقه من جهة وادي بوفكران، بين امتدادين لسلسلتين ، الأولى صغيرة الحجم بالمقارنة وهي جبال زرهون، من على شمال مدخل سهل سايس، والثانية كبيرة الحجم بالمقارنة كذلك وهي جبال الأطلس المتوسط ومقدمتها المنحدرة من الجهة الغربية الجنوبية.

إذا وقفت أمام مدخل مدينة مولاي إدريس زرهون، تأخذ مشاهد بصرك هذه المرتفعات، باب الرميثة حيث كان السوق القديم، وحيث ممر طريقي يوصل الى

محطة البث الاذاعي والتلفزي، وإلى الواجهة الخلفية لمنحدر الجبل هناك والمؤدية إلى قرية موساوة بلاد جبر العظام بالطريقة التقليدية الناجحة غالبا. ثم هناك جبل المصلى فوق خيبر، حيث الأفق الممتد إلى أعلاه يحجب ما وراءه طبعاً. إذ أنك لا ترى مسار قمة الجبل المنفتحة على حياة منبسطة أعلاه، كأنها حوض فاتح كفيه إلى الأعلى، ومجال تنفس الجبل وارتوائه...

من اليمين الى اليسار، تلاحظ انعراج السلسلة لترسم حدودها في انحدار يتكتل صخريا كأنه يرفض هذا الانبساط المفاجئ، فيعطي وقفة عمودية شامخة، كشيخ كبير يطل من أعلى بصر منتفخ تحسرا على الأفق الممتد غربا، وترقبا لما يخبئه الزمن والتاريخ، وكذلك ما كتبه القدر للطبيعة والخلائق والبشر... أشجار زيتون متفرقة على منحدرات الجهة اليسرى الصخرية، والتي تعلوها فوهة في الحائط الصخري

المتدحرج، كأنها ثقب أو هو كذلك... إنه كهف الحمام
أو (كاف حمام) كما تنطقه الساكنة .

يتعلق البصر مشدودا بالثقب الأسود الواشم لجدار
الصخور الجبلي. يخترق الثقب فضول المشاهد، يحدث
التوجس كما يُحدث الرغبة في التعرف عليه وزيارته
واكتشاف أسرارهِ والمجهول الذي خزنه والتاريخ الذي
سجله. إنه : كهف الحمام!

من يريد خوض التجربة للغوص في ذاكرته وعالمه؟
يحضر تاريخ الطبيعة ، كما يحضر تاريخ الثقافة
الشعبية والاجتماعية، ويتداخل الإثنان لاختراق هذا
الصمت المهول الذي يسكن كهف الحمام.

2

أن تتسلق الجبل لتصل الى باب المغارة، يحتاج منك جهدا متواصلا لأن الطريق متصاعد وأخذ في وقوفه كجدار مائل... من مدخل المدينة السفلي وأنت آت من منبسط سهل بورياح، ربما تختار الصعود من جهة جبل " الدكانة " المواجه لمدينة مولاي إدريس زرهون. يأخذك المشهد الغريب، فكأنك في رحلة لاكتشاف أسرار طبيعة غريبة. شكل من أشكال تعبيرها التي تمتلك مفاتيح سره. سأسميها " زهرة الصبار"، ما

دامت تأخذ شكل الزهرة في تشكلها وشكل النخل في تفتحه، وشكل النباتات الشوكية في آليات دفاعها عن مكوناتها.

جريدها أملس الملمس، سميك، حاد الأطراف متشكل بين طبقات ودرجات اخضرار من الانغلاق إلى الانفتاح، كأنها تهب عصارته لمولودها الذي يكون سهما خارجا من جوفها، يزداد طولاً حتى إنها يستعصي علينا الوصول الى ثمرات زهيرته العسلية التكوين، وزهراته الصفراء المظلمة لمنتوجه الفريد والحلو المذاق. تاج العروس، هي، باقة زهرية موهوبة إلى أعالي السماء وكل من يطل من أعاليها. معانقة تحتاج إلى الذي يدب ويسير في الأرض إلى أن يحلق عاليا هو الآخر. وتلك حكاية العنقوان مع النمو ومع تجارب الحياة والتأقلم مع الطبيعة والمجتمع والثقافة.

لا ننسى أن عمود (الصابرة) يستعمل حين يبسه
وتصلبه في بناء أسقف المنازل التقليدية وسقيفات
الزربية و"النوالة" وغيرها.

وتصعد الجبل حتى تصل إلى الطريق الأسمنتية
الواصلة بين الآتين من اتجاه زكوطة - المفترق الطرقي
بين وزان وسيدي قاسم ونزالة بني عمار من جهة فاس
- والآتين من مداخل جبال زرهون و أعاليه ومن منطقة
وحي خبير أو زرهون العلوي بوابة القمم والغابات
والقرى المتواجدة في بقاعه.

3

هو طريق إسمنتي لجبل الدكائنة إذًا. طريق سياحي بامتياز. تمر منه حافلات السياح من أجل التقاط صور بانورامية عامة لمدينة مولاي ادريس زر هون. وطريق عاطفي كذلك، يختزن مغامرات وذكريات بين الماضي والحاضر، لكل عاشق واعد فتاته، أو عاشقة عانقت فتاها. لكل مغامرات الحب والوصال وخرق جدار المنع والعرقلة التي وضعتها الثقافة الاجتماعية حاجزا

أمام التواصل والثقافة العاطفية الغريزية وحرية البوح وأقلمة النفس وخلق توازن لها مع متطلباتها في التفاعل مع الجنس الآخر.

الدكانة، مجال التحضير للامتحانات وقراءة القصص والروايات، والمنزه الطولي الذي يُستعمل للمشى ورياضة الجري... كل ذلك مرفوق بمشاهد متنوعة ورائعة لجماليات المدينة. فإذا كانت المدينة حية في أزقتها وبيوتها وشوارعها ، فإنها تكون للواقف أو السائر عبر طريق الدكانة، أطلالا في بعض الاحيان، حيث يفرغها من كل صخبها اليومي، لكي يعيشها داخل نفسه وصيرورة شخصيته الزمنية والثقافية. قد يبتسم وقد يتحسر، كما قد يأخذ حجرة صغيرة يرميها، موقعا حركة وصوتا وفعلا داخل الطبيعة، أو مدحرجا أخرى كبيرة مع المنحدر. ردود فعل لا تسلم منها حتى أغصان شجر الزيتون المنتشر على جنبات الطريق

وعلى جبل الدكانة الذي يرتبط اسمه بالجانب الشرقي من الجبل والمطل على المدينة الزرهونية.

قد يوقظك من هذا الهيام مع الطبيعة والسفر مع الذكريات الانتشار الكبير والممتد لمقبرة الدكانة ب"جنان ميناو" وغيره. من منا لا يتفكر البسمة الثقافية التي بصمها أحدنا بقوله: يا عباد الله، من عنده اب أو أم أو جد بالمقبرة، فليأخذه لمكان آخر. سأحرث الجنان هذه السنة. - وتلك حكاية أخرى سنفاك طلاسما بعد حين -

كم مرة اقمنا محاكمة من طرف واحد لوزارة السياحة وإدارة القطارات والحافلات بسبب الصورة المكبرة المأخوذة للمدينة والتي كتب أسفلها "مدينة شفشاون".

حينما كنا نساغر مع العائلة أو مع جمعيات التخيم، كنا نحتج إلى درجة الحاجة إلى البكاء، حين رؤية هذا الخطأ على الجداريات في مدن ومحطات متعددة للسفر. أهو خوف من زوال المدينة من الخريطة مع ابتعادنا عنها أم احتجاج عاطفي نوستالجي مرتبط بالسفر؟ والغريب أن الصورة استعملت لعقود ولم تحدث رجة تصحيح معلومات وغيرها.

ولم نصل بعد إلى موقع كهف الحمام. أهى الطريق التي تطول أم الرحلة النفسية والوجدانية والنوستالجية التي توقفنا في محطات متعددة ؟

4

في مواجهة القمة التي تحتضن في جوفها كهف الحمام، قبل أن تصل إليها لابد لك أن تنعرج بين ملتويات الطريق الإسمنتي. تُؤلي ظهرك لمنظر المدينة البانورامي، وتتوغل داخل الطبيعة. تطوي صفحة التفاعل مع المجتمع المدني وأطلال حياته، تعانق الطبيعة بأشكال وأحجام أحجارها وأشجارها وشعابها.

ها هو جدار التسلق للكهف. بعد بضعة أمتار من ولوجك الأرض المتربة وسط جنان الزيتون، ستضطر لاستعمال خطوات قفز وتثبيت في اتجاه صاعد إلى الكهف.

أستحضر روايتين، وتخونني الروايات الأخرى. لازلت في حاجة إلى إرواء هذا العطش المعرفي. لن يهدأ لي بال حتى أستطلع المعارف والحكايات المرتبطة بكهف الحمام. لن أكتفي بما عندي، فربما أقصر في خط هذا الكلام العاشق لمعانقة روح كهف الحمام وتاريخه الطبيعي والثقافي. بين الموضوعي والأسطوري ستكون رحلتي إذاً. ترى إلى أين ستوصلني؟ أخاف أن تصبح روحا تسكن كياني، فيضطر المجتمع إلى التخلص من اندهاشه وخوفه وجهله، فيقول: مسكين مسكون بسبب الكهف. كم من الأشخاص نسبت لهم هذه الحالة. ما له؟ ما به؟ يكون

الجواب: سكنه الجن في منبع الماء. ذهب ليلا إلى الوادي ، فأزعج الجن في مقامه... أو هي جنية تزوجته، لن تفارقه أبدا. تُرى ما المفقود العقل أم العشق ؟ الإشباع أم الحرمان؟ ترى ما الطارئ؟ غياب الارتواء والحق في رغبات الحياة إلى درجة رد قلق وتذمر فقدان إلى تدمير الذات، فيكون تدميرها بأحد مكوناتها... ولعل أهم هذه المكونات التي يظهر عليها التأثير بهذا الحال هو النفس. هو انعدام التوازن الداخلي بين العقل والوجدان والرغبات النفسية. استعمال الحواس والحركة. لكن ، ما دام منطويا، رادًا أزمته إلى دواخله، سنقول مسكون بالجن. لو أنه فجّر انفعاله وتوتره خارجيا، سنقول أحق مسه شيطان شرير... وكم من حالة ضياع في المجتمع بسبب هذا الجهل وهذا الإسقاط السهل لجعل حد لتماديه على أنفس الآخرين... كم ارتدعنا بهذا الخطاب. تم تخويفنا بالجن في الظلماء،

في مجاري المياه، في صب الماء الساخن في مجرى مياه مستعملة، في التصفير داخل المنزل... كم تعلق بأكتافنا هذا الخوف رافعا لأعصابنا كأسلاك وخيوط أراجوز، تجعلك في هستيريا الاستسلام والرغبة في البكاء والارتعاش والهرولة حيث لا تجد ركبتين للهرب !

أترى سأتخلص من كل هذا في صعودي للجبل وولوج الكهف؟ تستحضرني الزيارة التي قمنا بها نحن جماعة أصدقاء لموسم سيدي علي بن حمدوش، ونزولنا إلى حفرة الجنية لالة عيشة... كيف ترددت خطوات بعضنا خوفا من اقتحام دائرة الشوافات والممارسات السحرية والشعوذة بامتياز... وخصوصا أن لالة عيشة أكبر الجنيات تأثيرا في عقليات ونفسيات شخوص مجتمعنا، تستحق أن يجعلوا وزارة لالة عيشة الرادعة الطالبة للاستسلام والتسليم، لكي تشفع لنا في عالم الجن

والأمراض العقلية والنفسية، وفي عالم الأولياء، حيث هي خادمة سيدي علي بن حمدوش، وخادمة سيدي أحمد الدغوشي. وحتى إذا ذهبت إلى مدينتي الجديدة وأزمور، وجدتها خادمة للأولياء هناك وللبحر. فهي بحرية وبرية. طقوسها بدائية، ورقصاتها بعري هستيري وتخلص من نظام أخلاق ديني، وتسليم الرغبات والغرائز لأهل المكان. كل ما أمروا به منفذ، حلال. لا لوم ولا حساب عليه لا في الدنيا ولا في الآخرة. يدخل في أساليب العلاج وضروراته... والضرورات تبيح المحظورات كما في الشرع الديني. يمكننا بكل هذا، التفسير والجواب على سؤال: لماذا تلك الظواهر الغريبة في المواسم المرتبطة بهؤلاء الأولياء.

لماذا يحضرني كل هذا الزخم من التفكير؟ أتراني أتسلح بسلاح معرفي وطلاسمي لمواجهة فوهة المغارة أو الكهف؟ أتراني مسكون بخوف من كل هذا؟

مسألة طبيعية ما دمتُ قد تربيت على هذه الثقافة داخل مجتمعي، وكانت نسيجا متداخلا مع سلوكي وشخصيتي.

الشكر الكبير للمشاء الاستاذ العزيز سي Abdeslam Fakir على الصور الفوتوغرافية التي نشرناها مرفقة مع هذا المتن السردي

لنعد الآن إلى الروائيتين الحاضرتين في الذاكرة:

5

أتذكر فضاء الطفولة. جلساتي فوق سطح منزل جدي
وجدتي بحي بنحيشو، المطل من أعلى قمة التل السكني
المواجه لجبل الدكانة مباشرة. تقترب المسافة بيني

وبين طريق الدكانة، وكذا أشجار الزيتون والمقابر المنتشرة على امتداد الجهة السفلية منه. يبدو رأس الجبل وباب الفرجات التي كانت تخبئ لي غرائب التصورات. لا أرى ما وراء باب الفرجات إلا ما كانت الجدة تحكيه لنا من أحداث متعلقة بمرحلة الاستعمار، وكيف وضع المستعمر الفرنسي المدفع فوق قمة الجبل وفي ممر باب الفرجات بالذات، تهديدا لسكان ولمدينة مولاي ادريس زرهون، بعد أن اشتد عود المقاومة والاحتجاج وعمّ بلاد المغرب ككل.

كنت أرى المدفع وكأنه مختبئ وراء باب الفرجات. ربما يريد العودة للتهديد من جديد. كما أتخيل عسكر الفرنسيين - لا ليجو - (ليجيون)، مطلا علينا من أعلى سطح الغرفة الموجودة فوق سطح المنزل، آخذا خودة عسكري فرنسي بين يديه، ومهددا: من منكم أتى بهذه الى هنا؟ من قتل الفرنسي؟

تعاودني الحكايات بالسكون والإخراج من جديد، أو أنا أعود تجسيدها في نفسياتي واختبار مدى قدرتي على معايشة الحدث وتقمص شخصية البطل في كل رواية وحكاية.

كانت الإقامة في بيت الجدة ليلة أو ليلتين، مرتبطة بثقافة السماع للـ"حجايات" المتنوعة، والتي تسبر من أغوار التاريخ، ابتداء من ملحمة (سيف ذو يزن)، والتي كان يُتوجها مجيء خال أمي، أو أخ جدتي من أمي من مدينة مكناس، لكي يرويها لنا بتفاصيل رائعة ومقدمات وطرق ختم متسلسلة تشوقك للجزء الذي سيروى للغد. حتى إنك تفكر طول النهار في أحداث الجزء الذي سيروى هذه الليلة المنتظرة. أنت الطفل الصغير المدلل، والذي يجد مملكة رائعة في التنقل بين منازل الأقارب، وتقدم له شهيات محضرة، ويخرج عن النمط الرسمي الذي تفرضه تربيته ومراقبة الأبوين

اليومية... ولعلهما كانا يدركان حاجة الطفل لمثل هذا الاستثناء في الحرية المرتبطة بوقت النوم وحرية اللعب وجديد الأسئلة التي تغذي بها خيالك وتبني بها عالمك الطفولي والشخصي.

حينما أجلس قبالة جبل الدكانة، متكئا على السور فوق السطح، أتخيل الزيتون المجاورة أفقيا لباب الفرجات في شكل راس ذئب مرتقب بالغاب والخلاء، مفترس للمار من حوله. أسرح بعيني بين السماء وطول خط راس الجبل، أحولهما يمينا وشمالا، وكل مرة يثبت بصري أمام منظر كهف الحمام الشامخ وسط جداره الصخري من جهة اليسار من بصري وتأملي. ومع انحدار سفح الجبل على يساري دائما، وعلى يمين الكهف، تتدلى منازل متفرقة تحجب مع أفقها قرية فرطاسة، ثم يبدو لك منظر أطلال وليلي ، فالوادي، فسهل بورياح ووادي خومان، حتى الأفق الذي تغرب

فيه الشمس بحسب الفصول، كأنها لعبة مرآة يحركها صاحبها بحسب الاتجاهات التي يريد معها إحداث انعكاس ضوئي مختلف الاتجاهات يمنا وشمالا.

وتلك كانت روايتي الأولى حول كهف الحمام، والتي تلقيتها من جدتي. سحر الكلام يأخذك بصورة الرائعة، و يضعك في موضع متوازن بحسب ما هو مطلوب وبحسب ما أنت محتاج إليه من سؤالك ومن سماعك لمختلف الروايات. فما الذي ستحتاج إليه في سماعك لرواية من روايات كهف الحمام، في مرحلة عمرية بين السادسة والثانية عشرة من عمرك؟

كهف الحمام بين الأنس والوحشة

في ثقافتنا الزرهونية - ولا نخاف من الانتساب ، فهو ليس انتماء جغرافيا ضيقا، بقدر ما هو امتداد لنسيج هوياتي متجدد تاريخيا وثقافيا وإنسانيا، حيث يتشكل جبل زرهون من التكوين السوسيو ثقافي واللغوي الأمازيغي والعربي الإسلامي والإفريقي، من الغرباوي والصحراوي والفاصي والموريسكي.. ومع العولمة أصبح يتخذ أشكالا جديدة في التعايش وفي اليومي، انصهرت معه البنيات الاجتماعية والأسرية لعلاقات جديدة، ترى فيها تحولا وتطورا مدنيا وحياتيا نفعيا ومصلحيا جديدا - ، في ثقافتنا الزرهونية، لفظ الدكانة يحمل معاني عدة. ففي دربي الصغير الذي

أقطن فيه نجد الدكانة، حيزا من زاوية بني فيه درج
مثالث، يتخذ مكانا للاستراحة لمن أراد أن يجلس من
تعبٍ في انتظار فتح الباب المطرق، أو أخذ نفسٍ
خارج جدران المنزل، أو انتظار غرض من مطلوب
من داخله، سواء للقاطنين أو لعابري السبيل
والطالبين...

وحينما نتحدث عن جبل الدكانة، فلعل نفس الوظيفة
حاضرة ثقافيا وسلوكيا، راكمت معها الوظيفة، فأعطت
اللقب الذي لا نعلم له بداية تاريخية... فالعادة ولدت
التسمية وتآلفها الناس وغدوا يستعملونها دونما شعور
بغرابة أو اغتراب. فقد بُني صهريج ماء كبير في
زاوية من مفترق الطرق بين خمسة اتجاهات. الأول
هو المؤدي إلى طريق كهف الحمام الذي ننتقل معه من
الأنس الى الوحشة، والثاني يؤدي إلى أعلى، إلى
طريق وادي الميت، حيث ينبسط الجبل ليصبح مجالا

للفلاحة، ومجرى مياه عذبة وعيون صافية كعين سانش... وحيث ينبسط نسيج الجبل كذلك ليتفرق عبر قممه ومنحدراته في مختلف الاتجاهات على مقامات العيش لقرى متنوعة ومتعددة هي التشكيل المزرکش لساكنة جبل زرهون.. والثالث يأخذك إلى مسبح الحامة المعدني، و الذي بُني على الطريقة الرومانية بشكل مستدير وبصخور ضخمة على نفس شاکلة بناء مدينة ويلي الأثرية. إنما هنا الحياة لا زالت قائمة منذ زمن بنائه في القرن الثاني الميلادي تقريبا بحسب الروايات. أما الطريق الرابعة فهي المؤدية إلى "الوطاية" حيث الإعدادية الأولى في المدينة والتي تجاورها بنايات مدرسية ابتدائية متعددة.. أما الخامسة، فهي المنحدرة إلى السوق وإلى وسط المدينة الذي يحتوي حركتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، و الذي به يوجد ضريح المولى ادريس الأول.

في هذا المفترق من الطرق، بني اذا الصهريج، واتخذ شكل بناية بسطح، يستطيع الناس الصعود إليه والجلوس على جنباته حيث يعطي بانوراما ومنظرا عاما جميلا يمتزج في البناء المتنوع مع الطبيعة الخلابة المتعددة الأشكال بين غابة وجبال صخرية ومجاري مياه وشعاب وقمم مترامية... حتى الأطفال اتخذوا من الدكانة ملعبا لكرة القدم، فأصبح من بين فضاءاتهم الاضطرارية للعب في غياب بنيات تحتية رياضية خاصة بهم... وهكذا أصبح الممر بجانب الدكانة مؤديا الى الجبل المتخذ للنزهة كما للسفر عبر الطريق الاسمнти، خصوصا وأنه كان الطريق الأول الذي تلج منه إلى المدينة، حيث إن الطريق الجديد من ممر عين الرجال لم يكن قد عُبد بعد، كذا طريق باب الحجر، و"الله أعلم"... فكانت الطريق من الدكانة هي

الرسمية. و قد نجد صور الشريط السينمائي الذي أخرج سنة 1931، وأنجز سنة 1929 - 1930 تقريبا - تؤكد ما نلاحظه في الصور التاريخية المأخوذة وفي روايات الساكنة كذلك

، (... les cinq gentelmen maudits)

كانت الرحلة للبحث عن جذور التسمية، باعتبار أن نقطة بداية النزهة تكون بالمرور بجانب الصهريج أو خزان الماء الذي يحتوي على ماء عين خبير العذب. وتكون النزهة داخل مجال المؤلف، غير محجوبة عن الناظرين عموما، تستطيع النساء كما الفتیان والفتيات القيام بها دون شعور بتهديد أو خطر، حتى تصل إلى موقع وقوف الحافلات السياحية والسيارات من أجل التقاط صور للمنظر العام للمدينة.

وبعده يبدأ منعرج جديد، يغيب عن أنظار هذا المشاهد النصف دائري الذي يحتضنه جبل الدكانة... يؤدي المنعرج إلى بداية أخرى تنقلك من الشعور بالأنس إلى الشعور بالوحشة... فيضطرك أن تتسلح نفسياً بما تحتاج إليه لأجل التوغل بين منعرجات موحشة حتى في نباتاتها وتدحرج أحجارها وانفتاحها على قمم صخرية تحتوي على كهف شاهق العلو، إنه كهف الحمام الذي ينتظر روايتنا لكي نسجلها عنه، لكي ندلي بشهادتنا حول تاريخه الثقافي إلى جانب تاريخه الطبيعي.

وقبل هذا وذاك، لم تستطع نفسية الكاتب التخلص من حنين الأنس مع جبل الدكانة، و تريد العودة للكتابة عنه، لكن في إشارة وجيزة، يتخيل معها أن الفن هو بين الأنس والوحشة كذلك. يأخذك من المؤلف إلى الغرائبي الجميل. من الطبيعي إلى الما - فوق طبيعي،

من الإبداع الواقعي إلى إبداع آخر رمزي مكتوب ومرسوم ومسموع ومشاهد... ومصنوع كذلك. هذا الفن يدعو الرسامين، كما يدعو الفنانة الرائعة في الرسم (سلمى العلالى)، إلى جعل معرض خاص بهذا الامتداد، وجعل لوحات بحجم كبير على طول الطريق وبجوانبه بدرجة شموخ الأشجار وعراقتها وفيح ظلالها... فألوانها ستبعث حياة جديدة في هذا الفضاء الجبلي والسياحي والثقافي الطبيعي بامتياز. سنتخيل لوحات سورالية للفنانة، متخذة ألوانها المفضلة، ناسجة بين الارض و السماء، جاعلة أرضية لوحاتها فضاء سماويا ، أزرق شفافا، تنعكس عليه تشكلات الطبيعة والثقافة والمجتمع في الشكل السورالي الذي ستبدعه أناملها... هكذا يصبح الفرق بين السماء والأرض غير مرئي للعيان داخل اللوحات، كأنها سنتقلنا إلى تاريخ مرحلة الولادة الأولى للكون والحياة

حيث كانت السماء والأرض رتقا واحدا. ستغار الكتب
السموية، كما ستغار الأساطير المحكية والمدونة من
هذه اللوحات السورالية المهيبة إلى درجة الإعجاب
والانبهار. وسنتنظر هذا الإنجاز في الخيال المتصور
فنيا كما في الواقع المُتحدى عمليا⁹.

⁹ روابط تفاعلية: لوحات الفنانة سلمى العلالى في مهرجان ربيع الشعر مولاي

إدريس زرهون

<https://devenirdemain.over-blog.com/album-2076833.html>

رابط الفيلم السينمائي les cinq gentlemen maudits

<https://youtu.be/DUTTZI0XmLQ>

الحديث عن الوحشة في مفارقة مع الانس، هو حديث إذا عن عالم غير مألوف مع آخر مألوف مُطمئن، وعن عالم غرائبي يستجمع الخيال والخوف والأمل المفقود كما المأمول. هو عالم نسجه ذهن الإنسان فأصبح مكونا حياتيا لا تلاحظه في الواقع الموضوعي، بقدر ما يظهر في العالم التعبيري بثتى أشكاله.. ولذلك نجد الدراسات والبحوث تهتم به وتعطيه حيزا كبيرا من الدراسة والبحث - قد يعيشها الواحد منا في مكان جلوسه وخلوته.. كما قد يعيشها في ولوجه لمكان جديد وغريب عليه وغير مألوف. إنما هذه المرة، حينما تجد

نفسك أمام حائط حجري متشكل بمرتفعات متدرجة، يرمق وسطه ثقب كهف، يحتاج منك للتسلق واستعمال اطرافك الأربعة كأنك في رياضة التسلق الجبلي، وهي كذلك هنا، جهد رياضي يوصلك إلى مفترش المدخل الأمامي المنبسط نسبيا لكهف الحمام، والفوهة تصبح كبيرة للمغارة، تحول الكهف الآن إلى مغارة، ما دمت قد اصبحت واقفا أمامها، ووراءك فراغ تسلقته، فأصبحت منعزلا ومفصولا عن العالم الأرضي الذي جئت منه.

أنت في رحاب كهف الحمام، الشمس ووراءك بعد الظهر والكهف امامك. المدينة لا يبدو منها إلا الجزء الجنوب غربي لها من زاوية رؤيتك لها طبعاً، إذ هو الجزء الغربي من المدينة... ذلك الذي نسميه حينما نقف في "بانوراما" الدكانة السياحي: التيطانيك، تيمنا بالفيلم الكبير (تيطانيك). نتخيل هذا الجزء الذي له

نصف مدار واقف بمبانيه كومة سكنية، كطرف باخرة ضخمة تنتظر الانطلاق و من تحتها منحدرات العراسي و البساتين حتى أسفل الوادي والشعاب... هذا الاستمتاع بالتسميات وبهذه السوريات، في تقلص وأنت واقف الآن أمام كهف الحمام. إنك تعيش غرائبية حقيقية. تُرى هل تمتلك الطبيعة أسراراً عجائبية؟ هل تحضر الروايات التي تناقلتها ثقافتنا الاجتماعية في حضورك الزمكاني هنا امام كهف الحمام؟ أي استقبال لك سيكون؟ أبالكنوز المنسية أم بالرعب العجائبي الذي يخفيه ذهننا عن ذاكرة الكهف المغارة؟

تاتي أولى الروايات التي روتها لي جدتي في مقدمة المتنافسات حول الحضور الواعي في نفسي ونفسي. كنت سمعتها وأنا صغير، وعشت بوقعها بين السادسة

والثانية عشرة من عمري. لكنني الآن وقد تجاوزت في لحظة التذكر العشرين من عمري، ها هي تبزغ كشمس حارقة وهاجة لا ضوء و لا نفوذ لاهب إلا لها:

- يروى أنه مرةً من كل سنة، كان يخرج من جوف الغار ثعبان كبير، ينفث و يسوط بنار حارقة ثم يعود إلى جوف غاره. من سطح منزل جدتي المواجه جبلا لجبل، مع كهف الحمام، كنت أتأمل الحكاية وأجد الأمان ما دمت واقفا في جبل أهل بالسكان والمنازل. بيني وبين الحكاية في الجبل مسافة آمنة.

لكنني الآن واقف في مدخله... ايمكن للثعبان أن يخرج الآن في هذه اللحظة؟ أن يحاسبني أولا على عدم تصديقي وعدم احترامي للرواية؟ وأنا الذي كنت أحول حكايات جدتي إلى تساؤلات منطقية، تنسف منطق

الحكاية و الحجاية، وتحولها إلى مجرد اضغاث أحلام غير واقعية، متسلحا بالعقل في تحليل الرواية، وجاعلا مسافة بيني وبين هذا العالم الغرائبي العجيب... وطبعا هذا يثير غضب جدتي ويزعج أمنها الوجداني!

أتذكر فيلما وثائقيا أنجز في ثلاثينيات القرن العشرين حول جماعة سكانية يشبه القارة الهندية، تمارس طقوسا تعبدية وتقدم قرابين لثعبان كبير وضخم. موجود بمغارة في جوف الجبل.. كيف يستعد اهل القرية بتمرين فتاة شابة من أجل مواجهة الثعبان وإخضاعه في رقصة موت رهيبه تجعله يقبل معها القرابين المقدمة في خضوع، دليلا على تحقيق وأمل تحقيق المرجو من طقس القرابين، وعلى الوقاية من شر ما أقيم له الطقس التعبدي القرابيني... طقس بدائي

بامتياز، هو حقل للدراسة حول الديانات الأولى للإنسانية، و المرتبطة بالخوف من الطبيعة ومكوناتها الخلاقية وظواهرها التدميرية كما التي تهب الحياة فيها... وكيف يتحول ويتشكل الرعب اعتقادا وممارسة مستسلمة بالعقل لما ينجي من شر الخلائق والعجائب.

لم أكن أحب أن يحضرني هذا التفكير وأنا في إحدى الزيارات لكهف الحمام. فقد زاد في شعوري برعب داخلي نفسي، اقشعر معه الجلد واحتاج للتسلح بالعقل والمنطق الذي تشعب به حول إقصاء هذه الأفكار واعتبارها كونها مجرد أوهام. فقط تحتاج للحذر من حشرات أو افعى مارة أو نحل متخذ كهف الحمام سكنا وبيتا... لكن في نهاية المطاف هو تحدٍ للمفاجيء تحتاجه في مغارتك عند الوقوف أمام كهف الحمام.

وكل منا يطمئن الآخر:

- يا صاح، إن الحيوانات تخاف من الانسان، وحينما
تسمع حسه فإنها تفر وتهرب. طيب، ما دام الإنسان
سيد الموقف فأنا المنتصر نفسيا في هذه اللحظة..

- وما لك يا صاح؟ الموت وسط الجماعة نزاهة.

- نعم، ولكن من يأتي لنقلنا لندفن دفنا كريما؟ بعد فوات
الأوان؟

تتحول لحظة الخوف والتكهن والسرية من القدر
المرتبط بالكهف إلى لحظة تحدد وتحويل المناخ
والحضور إلى لحظة استمتاع ونزهة.. كيف يقدر
مزاج الإنسان على هذا التحول في التموضع النفسي

من الرعب إلى الاطمئنان؟ بسرعة السنوات الضوئية،
أحول حكاية جدتي الى وظيفتها التربوية، والخوف
على حفيدها من التفكير في مغامرة زيارة وتسلق
الكهف وهو لا زال صغير السن... أتعجب مع
الاستنتاج كيف لها أن تكون سريعة البديهة في اختيار
الجواب المناسب للحظة التربوية المناسبة... ترى لو
أنني سألتها الآن، ماذا ستقول؟:

- هذا ماحكوه لنا، لم نرَ شيئاً منه. إنما العياذ بالله من
كل شر (قل أعوذ برب الفلق...)!

8

من الغرائبي أن يتشظى خط الزمن في اللحظة الواحدة. مفارقات يعيشها الإنسان في كل حين. مما يجعل حياته غريبة عنه بنسب متفاوتة. يجعل حواسه لا تقيس مسافات ودرجات وطريقة توظيفها ووعيها وحسن الانتفاع بها في اللحظة الواحدة. قد يأخذ تنهيدة نَفَسٍ عميق، يجتر معها تفكير مرحلة زمنية غابرة ومتشعبة، أو شيء مرجوٍ في المستقبل، وربما منذ زمن، ولم

يتحقق بعد. شيءٌ قد يصبح شعورا بالحرمان ونقص شيء ما.

هذا التشظي ينجرح معه الوجود، فلا تراك مبتسما في لحظة ما. قسما وجهك انكمشت إلى درجة أخذت شكل ورقة شجرة خريفية يابسة، سهلة التفتت. شكل شخص بلغ من العمر عتيا، واقفا كسليمان عليه السلام متكئا على صولجانه، لا ندري إن كان حيا أو ميتا.

من شرفة كهف الحمام، إطلالة منظر طبيعي عام، جديد على البصر، أنت الذي تعيش بين الأنام، وبين الشوارع والأزقة، تنظر إلى شجرة زيتون فتجدها عالية الأغضان، وتتحول بالنظر إلى شجرة صفصاف فتراها من بعيد فارهة مخترقة كصاروخ أخضر جوف

السماء. لا تجد لك فرقا بينك و بين النملة أمام تسلقها عموديا، و معرفة الأسرار المختلفة فيها حتى قمتها. ربما أن الطيور المعششة والمزقزقة أو الزائرة، أفضل منك حالا أمامها، أعلم منك، وأنت أجهل بطبيعة الزاوية المتعالية التي تنظر بها إلى العالم.

قد تضيق بك الارض، وتضيق رؤيتك للسماء رمز التحليق والحرية والتحرر و الانعتاق من كل أشكال التكبير: هذا حرام، هذا منكر، هذا حشومة... وحينما ترفع عينيك إلى أعلى، تجدهما مؤطرتين بين جدارين من جدران زقاق أو عمارات ومنازل. حينئذ، تفكر في أحلام المتجول الوجداني les rêveries du promeneur solitaire (ج. ج. روسو)، ورومانسية الانغماس داخل الطبيعة و الأشجار

ومجاري المياه أو أمواج البحار . كأن الطبيعة ترمز إلى حريرتك، او هي حريرتك. وإلا لماذا هذا الانشراح حينما تطل على صفحة البحر المتماوجة او زربية العشب المخضر في البراري.

ها أنت الآن تطل من أعلى، تساويت في الشعور بالسمو والتحليق و امتلاك الرؤيا الأشمل مع العوسق أو صقر (بوعميرة)، ومع طائر الحمام الذي يقطن المكان، ويشرفه بالتسمية.

هل بلغت المطلق؟ هل حققت السعادة المثلى مع التلبية؟ هل شفيت وداويت جراح التشطي الذي تخلقه الحياة ككائن نفسي يتقاسمنا و يوزعنا إلى هنا و هناك، يتقاذفنا مع أمواج الوجود، ويرسل أمنياتنا كزبد إلى شاطئء بلا تحقيق - مرات ومرات - فتضيع منا

آمال السباحة والجهد في الوصول إلى شاطئ
خلاص، حتى إذا بلغت ضفافا، تراجعك بك التيارات،
لا ندري إلى أين؟ إلى صفحة ماء ناعمة هادئة صافية،
ينتعش معها الجسد بسنى شمس دافئة، أم إلى مجاري
مياه منحدره مع انجراف تيارات صخور و ارتطام
وتقاذف شلالات مخلصه للكون من زوائد الامور؟
تزيد الشظايا في الانكسار مع كثرة علامات الاستفهام.

وتعود من صمتك إلى محاوره صاحبك وصديقك في
الرحلة إلى كهف الحمام، والنزهة من على شرفته.
أتراه هو كذلك، كان في حالة تشظي زمني ونفسي
ووجودي؟

تحاوره ويحاورك:

- أين سرحت بنظرك؟

- أتأمل جبال زرهون من هذه الزاوية. كيف اختار الناس الاستقرار بها؟ لماذا تركوا منبس السهل وتعلقوا فوق هذه القمم الجبلية؟ ألن تكون الحياة في السهل أسهل؟

- أكيد. حتى إن المدينة كانت لتكون أفضل. ولكن ربما العامل أمني ودفاعي. أتخيل المدينة في شكلها القروسطي. رغم أنها لم تكن عاصمة كبيرة، ولكنها امتلكت جماليات المدينة العربية الإسلامية، بمساجدها وهندسة منازلها وساحاتها وثقافتها في العيش. أتصور أبوابها و أسوارها المحيطة بها. باب الحجر ، باب الزهر، باب القصب، باب العوينة، أو باب الجديد. وأسوارها التي تحتضن الولوج إليها من هذه الأبواب. كيف كانت تغلق ليلا وتفتح نهارا. مشهد سينمائي في

رفع ستاره على اخضرار الأفاق وبداية حركة العمل في الفلاحة والرعي والسفر ودخول المواكب بالبضائع والسلع، وبالاختبار وجديد الحياة في العالم الخارجي... لقد اشتغل جدي في مرحلة من عمره رجلَ ارساليات. كان مكلفا بحمل المرسول من وإلى، بين مولاي ادريس ومحطة قطار "عين كرمة مولاي إدريس، كما هي مرسومة لوحة المحطة فوق مدخلها.

- لا بد أن ذلك في مرحلة الخمسينيات، باعتبار تأسيس خط القطار ومروره هناك.

- احتمال أكيد. وربما نهاية الأربعينيات من القرن العشرين. تتذكر ما اطلعنا، عليه في الجامعة، حول تلك الوثيقة التي تسجل اعتراض شرفاء المدينة سنة 1948 على تفكير فرنسا في جعل محطة القطار وخطها بالمدينة، وكذلك رفض قاعة سينما بمدينة زرهون.

- نعم، هي التي استحضرتها في تقدير المرحلة التاريخية لنوعية الخدمات في البريد داخل حكايتك. فكرتني فيما قرأت للكاتب محمد سبيلا (المغرب في مواجهة الحداثة) وكيف كان بعض الفقهاء يفتي بتحريم خط الهاتف بدعوى فيه جنون و وسوسة شياطين... هههه

- هههه. ربما اختلط وتشنج الرفض لأشكال الحداثة برفض الاستعمار وتدنيسه لمقدسنا ورغبته في اخضاعنا وتنصيرنا. لا تنس تراكم اللاوعي بمجريات الحروب الصليبية وطرد المسلمين من إسبانيا، ومجيء عدد كبير منهم إلى بلاد المغرب العربي.

تخيل:

انفتاح باب الحجر صباحا، وخروج الناس والفارس
فوق فرسه بإرساليته، وانطلاقه حتى عين كرمة،
مرورا بالوادي، وبعين جمجمة، فقريّة بوعل، ثم
نزولا إلى عين كرمة...

- كأنك تتبع وتخط طريق الرحلة عبر الخط المعبد. ماذا لو أنه يجعلها باتجاه آخر مغاير؟ لا بد من تجربة الرحلة فوق فرس وخيل، والاجتهاد في طرق أخرى.

- سيكون المشهد رائعا كأنه من أفلام رعاة البقر الأمريكية..

- وهل سيحتاج إلى تسمية رعاة البقر؟ هل سيشرفنا هذا التشبيه بوظيفة رعاة البقر؟ أليست مهمة المَعْمَر الأروبي في القارة الأمريكية كانت معقدة بين المشروع الاستكشافي والاستعماري، بين الإباداة والتعمير، بين الرسالة الحضارية والوحشية في التقتيل؟

- صحيح. ربما ما يسحرنا هو ذلك التصوير الفني والإخراج الجمالي والتقني. سحر الفن إذا. هل تتذكر تلك الجريدة الليبية التي كانت بحجم المتر مربع تقريبا، ويدرهم واحد فقط كثمان للعدد الواحد.

- نعم. (... الخضراء) أظن.

- لا ، (الزحف الاخضر).

- آه ، أنت على صواب، ذاكرتك مثل ذاكرة الجدات،
قوية جدا. هاهاها -

- و أنت، ذاكرتك فيها الزهايمر وبوهزهاز ..
واهاهاهاهاهاهاها.

تبادلنا معركة تضارب. قبضات اليد على الذراع
والكتف لانك مع القهقهات والدموع التي انفجرت من
كثرة الضحك، كأن غدة الدموع محل متناقضات
ومتفجرات، تسيل للضحك وللحزن. بلهاء هذه الدموع.
غرائبي أمرها.

- أيام السوفيات، كان الخطاب الإعلامي ضد الإمبريالية وتاريخها قويا جدا. ومنه هذه الجريدة الخضراء... لكنه اليوم ضعف في المواجهة.

- الحرب الباردة وموازن القوى.. السباع فيما بينها تزار وتراجع. أما الآن، فنابها على فريسة، والآخر وعينها على الفريسة المقبلة. تجعل فريساتها في صف انتظار.

- كأن الدم الأحمر تحول من رمز السياسة إلى الافتراس.

- ولم لا تقول: كان للافتراس، ثم الثورة، ثم الافتراس من جديد. عادت حليلة الى عاداتها القديمة.

- من حليلة هذه بنت عمك؟ هاهاهاها.

انطلقت ضحكات بحجم السخرية و الاستهزاء المناسب
والمقدور عليه نفسيا.

- دعنا من مواضيع السياسة. نحن الآن في أحضان
الطبيعة. لننس هموم الدنيا. أنظر، للسبب، أنت الذي
شبّهت وظيفة جدك بثقافة الميركان.

لست أنا، أنت الذي استحضرت التشبيه.

- هاهاها ههههه... ها نحن سقطنا في تبادل تهمة نسيان.
زهايمر جديد.

وانطلق صراخ الغناء بما شاءت الاصوات: -

- واهــــــــــــــــاه... اياها يا حنيني...

- الزين والثبات آ بابا

- وياهايا با حنيني

- العقل والرزانة آبابا

- وياهايا با حنيني

- هادوك العيون آبابا

- وياهايا با هنيني

....- واهاه.. (جحظت عيناه إلى درجة اِتِّمَاع

وانعكاس سنى شمس الأصيل على البؤبؤتين).

- عنداك عينيك يخرجوا آ بو صيحة!

- أتمم يا ابا الفهامة: واهاه

بدأ التصفيق الثنائي بكامل صفحات اليدين.

- راه يحوم أهاه

- راه يحوم سيدي خليلي

علّق أحدنا: واسيدي الحنش هذا...

- انتشر الفرع المفتعل، و عاد تبادل الضربات
والعبارات...

- خسرت الطرح آ المسخوط.

- انتظر، هناك طرح آخر أفضل.

- ما هو؟

- الطبال والغياط. طرح حمادشة.

- شكون الطبال و شكون الغياط آ صاحبي؟

- وافيك الطبال و الغياط آ صاحبي. ذوك الشدوق راهم

يسوطوا مزيان كبروا غير بالاسفنج.. اتبعني في

الإيقاع. كفتُ وسط الصدر، و الكف الآخر أمام
الكتف... وسط الصدر للإيقاع المنفرد، وعلى الكتف
للإيقاع المتعدد والمتغير.

- كيف؟

- ضربة في الوسط وضربتان في الكتف. مالك جاي
من ألمانيا؟ كم ذهبنا حافيي القدمين مع الطائفة
الحموشية في الصغر.¹⁰

¹⁰روابط تفاعلية حمادشة

<https://youtu.be/Feu2MKGEHFw>

ناس العيون

https://youtu.be/8W_qqyTof1s

اخترق نغمنا الحمدوشي الذي دام دقائق، مشهد مرور حافلة سياحية أسفل في الطريق الاسمطي المؤدي الى الدكانة. بدت الحافلة صغيرة الحجم، لا يظهر منها بشكل تام سوى سطحها بأبراجه المكيفة الهواء، ونحن في حيوية حركة ومزاج.

- لن يقوموا بإصلاح هذه الطريق المحفرة والمنتشقة الجنبات إلا بعد انقلاب إحدى حافلات السياحة. يومها ستقوم القائمة والقيامة .

- سترى المروحيات محلقة، وربما الاعتقال كما اعتقلوا الساكنة يوم سُرقت باكوس إله الخمر من ويلي.

- أنت عرقلت سير الحافلة بحجارة وليس الطريق غير صالح.

- ها هي عقدة الذنب من جديد. نعيش أمراضا نفسية تكفي الأنظمة كسلطة للتحكم فينا. دائما إرجاع اللوم على ذواتنا وليس على الأسباب الموضوعية.

- قل لي: ما هي روايتك الثانية حول كهف الحمام؟ لا زلنا ننتظر.

- آه، هناك رواية (ابا سلام) ، أحد الاخوال.

- ماذا قال فيها؟

- تريدها مبسطة أو مركبة؟

- المهم، إحكِ الرواية، ومعها نرى درجتها وما ستضيفه من عجائبك. أعرف كرة الثلج التي تدرجها في

الكلام. عجيبة في تكاثر حجمها وتلونها بألوان غير
ثلجية تماما. هيا "قَطَّع من جنباتك" !

- يحكي (ابا سلام) عن الكهف قصصا غريبة. يقول
إنهم كانوا يأتون إلى جوفه لاستخلاص مادة الزئبق.
كانوا يبيعونه بثمن مرتفع آنذاك. وأن الكهف يوصل
إلى مناطق بعيدة ومدن أخرى. لكن فعل الهزات
المتكرر أغلق منافذ الطريق كما أغلق أماكن
استخلاص الزئبق.

- فيمَ كان استخدامهم للزئبق؟

- يستعمل في صنع الرصاص. كما يستعمل في صياغة
الذهب. يُحكى أن أحد المستخدمين عند صائغ ذهب قام
بنفض شظايا صغيرة من متبقيات خواتم قام بصقلها.
وما دامت قد نثرت الشظايا مع مجاري جوفية جافة،

قام الصائغ بصب مادة الزئبق مع ممر المجرى، فالتفت حولها تلك الشظايا من جديد.

- يبدو أن الكهف مليء بالأسرار والكنوز . حتى (ابا سلام) كان مغامرا على هذا الحساب !

- المسكين كان من ضحايا التاريخ. يعوض بالحكايات الشبه دونكيشوطية التي ربما يختلط فيها الواقعي بالعجائبي الغريب الموهم والموحي بالتعويض عن الحرمان ومما ضاع وضاع.

- وما له؟ هل اتهم بقتل كينيدي؟

- إذا كنت تريد سماع الحكاية برهن على نيتك. هذا تاريخنا المجتمعي، لا بد من مراجعته كل مرة. (ابا سلام) عايش أربعة أجيال تقريبا منذ بداية القرن العشرين حتى اقتراب نهايته. هذا المسح الاول.

المسح الثاني أنه عايش توغل المستعمر، ثم استيطانه،
ثم مقاومة ، ثم خروجه، ثم نتائجه...

المسح الثالث، شخصي ولعائلته. فالمشترك العام
تاريخيا، كان هو وأسرته ضحية له شخصيا. لذلك فهو
من ضحايا التاريخ.

أما كينيدي ديالك، فقد صوروا له شريطا سينمائيا أو
أكثر. أما شريط (ابا سلام) فيحتاج هو الآخر إلى
تصوير.

- طيب تابع يا ابا الحكايات. يبدو أن هذا الكهف يلهمك
الكثير.

- أتعلم رمزية الغار والفوهة والفم في التحليل النفسي،
إلى جانب بالوعات الفضاء وثقوبه السوداء،
وحصارات المياه اللولبية؟ كلها تغور شبقية. هههه.

- دعنا مع حكاية (ابا سلام) الآن. تابع المسح التاريخي

الذي بدأتها يا "كوستو" الكهوف. هههههه

- الخيط الرابط للحكاية، والشاهد المادي على وقوعها،

هو تلك الأوراق التي كان يأتي بها في ملف داخل غشاء

بلاستيكي معقود بحبل رقيق، كانت الأوراق متقادمة،

تثبت ملكيته هو وأسرته لأراضٍ فلاحية في سهل

الغرب. فأسرة (ابا سلام) غرباوية. وكم من الأسر في

المدينة هنا بمدينة مولاي إدريس غرباوية، لا تنس

هذا. وعندها نفس الشكوى والتظلم. حالات مشابهة

كثيرة موجودة إذا.

لما جاء الاستعمار ، صادر أراضيهم بدعوى

الاستصلاح والمصلحة العامة الفلاحية. ربما، ما

حورب من إقطاع في اوربا جاؤوا لمعاودته حنينا

كمعمرين بالمغرب. جعلوها شركات عامة أو

مؤسسات ساهرة على سياسة فلاحية بالمغرب. تجاورَ
الشعور بالاحتقار والذل مع الشعور بتدنيس الكفار
لبلاد المسلمين. المقدس والمدنس. أ خنوا رحلهم
وجاؤوا إلى بلاد الولي الصالح مولاي إدريس طالبين
حمايته وتدخل القضاء والقدر ببركته وشفاعته في هذا
المصاب النازل:

جننا مزاوكين في حماك آ مولاي ادريس !

مات آباؤهم وبقي جيل (ابا سلام) بين شق طريق
الحياة وبناء المستقبل الشخصي. تعلم دروب العيش في
حرف ومهن واعمال، ومنها البحث عن كنوز هذا
الجبل. كبر الأمل وتضخم ضخامة هذا الجبل مع حركة
المقاومة ورمزية رؤية الملك محمد الخامس في القمر.
فرح الجميع برؤية فجر الاستقلال، ولعل وجه القمر
فأل سطوع شمس فجر وحرية واسترجاع حق

ومحاربة ظلم تاريخي كبير وطويل. ظهر التعويض للمقاومة ولضحايا الاستعمار. استجمع (ابا سلام) الأمل هو وإخوته وأخواته من أجل استرجاع الحق الضائع. دفع الملفات، طال الانتظار، استغل وتحايل سماسرة الحال التوسط والنهب بنقود ارتشاء وحذقة. فجأة ظهرت تعاونيات وأسماء جديدة إدارية تدير آلاف الهكتارات. سرعان ما تحول الاستغلال إلى فائدة أسماء كبيرة ووازنة وبدرهم رمزي بلغة عصرنا. ومجرد ذكر إحدى هذه الأسماء يجعل نفسك تأمل بلوغ وجه القمر ولا بلوغ التنازل من طرف هذه الأسماء عما قبضته بأيديها. حتى نطقها على اللسان يكون بصوت خافض خافت. يكون طلب حساب يوم القيامة في الآخرة ولا طلب مقاضاة وطلب حقك من هذه الأسماء في الدنيا. هكذا تسمع التحسر في الدعاء كل يوم حينما تصلي بجانبهم في صف صلاة جماعية

بالمسجد. قد يتأخر (ابا سلام) في القيام من السجود،
انتظارا لجواب سماوي مع دعاء الصلاة...

تباطأ كل شيء، وبقيت الأوراق في خزانة داخل غشاء
معقود بحبل. تحالفت رطوبة الحيطان كما تحالفت
الأرضة مع قدر التاريخ ومستفيديه. كأن تلك الأرضة
مسخرة من طرف ناهبي الأراضي لمحو الأدلة
القانونية والمادية. في يوم من الأيام، فتحو الخزانة
الحائطية الباردة، وقع للأوراق ما وقع لصحيفة صلح
المسلمين مع كفار قريش. لم يبق منها إلا عبارة (بسم
الله الرحمن الرحيم)... رجأونا في الله، آخر رمق ونفس
يحافظ به المرء على قدرته في الاستمرار في العيش
وقبول الواقع (رجانا في الله).

- المعادلة معكوسة في التاريخ آ صاحبي.

- أكيد، طردت الذئب ، فانسلّ وتسلل الثعلب للاغتنام.

أعود من المحاوراة الإنسية الأنسية إلى مساءلات الذات من جديد. كيف تفرغ الروح من الكلام، وكيف تتشكل العوالم داخل هذه الذات؟ ذلك ما استحضرتة لحظة تحول بصري من لمح قرص شمس الأصيل الآخذ في الاستدارة المتوهجة بين اصفرار وتورد، ولمح الصفحة المتحولة من قرمزية الأشعة إلى سواد جوفي داخلي غابر وغريب غرائبية مستفزة للسؤال.

حيث يغيب المحاور الاجتماعي الحاضر في ذاتك ووعيك، وفي حلمك وخواطرك، تحضر الأسئلة الجديدة على الذات، والتي، لا، لم تفكر في طرحها من قبل.

إلى أي درجة تستطيع اختبارها؟ وما الذي تستطيع هي كذلك اختباره فيك؟ أنت الإنسان الطبيعي الملتف

بغرائز وميولات، المُرَاقِم لترسبات تاريخ الجنس البشري وتاريخ الجنس الحيواني والطبيعي الخلوي....

لماذا لَمَّا فرغتُ من قنينة المشروب الغازي التي حملتها معي في الحقبة المحمولة على كتفي، واستمتعت متلذذا بقطع الشكولاتة السوداء، وعلبة المملحات المفارقة في الذوق للسكريات، وضعتُ الزجاجاة الفارغة في مكان بارز عن مستوى الانبساط المحيط بها، وأخذت حجارة صغيرة، وبدأتُ ارشق القنينة الفارغة؟ سلوك بدائي نحوت نحوه، متصفا بالتكسير، لعبا وعنفا وتحقيقا. شعرت معه بالحاجة الى هذا التفريغ بالقوة، تحقيقا لشيء مكبوت داخلي . ما هو؟ لم أستطع اختبار وعيي بكامله في عملية ادراكه وتفسيره. إنما كان التكسير للمشروب الغازي التركيب، الغازي الترويج!

أثرى مع هذا التحول الضوئي الأصلي من النهار
المنقضي، في احتفالية الشمس، سيجود الكهف بأسراره
التي يخبئها؟ أثرى سيفاجئ هذا الحاضر في مقامه
بأهواله وساكنته العجيبة؟ ماذا ينتج عن عملية الاستيهام
هذه؟ قشعريرة وارتجاف أكيد. لكن كذلك أفكار غريبة
جديدة!

لم يعد محوري خارجيا إذا. أصبحت مواجهها لأسئلة
محددة وكبيرة في طرحها مع الذات ال(أنا):

هل سكن الإنسان البدائي بهذا الكهف؟

كم من سنة مرت على اتخاذه له موطننا طبيعيا؟ كيف
عاش مع هذا الفضاء؟

وما هي المدة التي قضاها به؟

هل هناك آثار دالة على مروره من هنا؟

أطل من أعلى شرفة الكهف، على منحدراته الصخرية
الممتدة امتداد منحدر الجبل. ألاحظ صفحات الحجارة
الضخمة المفصلة المقاس. ألاحظ أماكن مقطوعة
وأخرى ما زالت متجزئة من مكانها. أتذكر ما قاله لنا
الدليل والموظف السياحي بالموقع الأثري "المورو -

روماني" حول كيفية بناء مدينة ويلي، ونقلهم للحجارة الكبيرة من جبل زرهون، وبالخصوص من هذا الحائط المصفح الحجري للدكانة وكهف الحمام. ها هي آثار عمل قديم تعود إلى أكثر من ألفي سنة. أدلة وجود مقلع للحجارة واستعماله في بناء المدينة. يبقى تتبع طريقة نقل هذه الأحجار الكبيرة. أستحضر كذلك مقالع الرخام في مواقع من العالم، بين الماضي والحاضر. كلها خيوط للنسج والحبكة والجمع المخيط. أين هي آثار الإنسان البدائي هنا؟ صمت مطبق أطبق على سؤالي وعلى هدوء الطبيعة هنا في عالم كهف الحمام. أردته أن يتكلم. حومت بأصوات مختلفة غريبة غرائزية وطبيعية، لا رجع إلا للصدى.

استحضرتُ من جديد "أسطورة ليالات". بيَّنتُها في لمح استدارة مدخل الكهف، وقد اتخذت مسافة بيني وبين ظلامه الآخذ في الاكتساح الداخلي. هل يمكن أن تكون ليالات مختبئة هنا؟ هل تقبل استضافتي عندها، استضافة طبيعية كما الحياة الأولى؟

أخذت القلم والورقة من حقيبتني المحمولة. جرحت بها الوجود الطبيعي للأشياء. حاولت بها اختراق المجهول ونسج تصور خيالي للممكن، بما استطاعه عقلي. وإن كنت أعلم أنني بعيد المسافة عما وقع ويقع في كهف الحمام. بدأتُ على الأقل أستأنس بالغرائبني فيه ومعه. بعدتُ المسافة بين الخوف من المجهول واستقرار حال النفس والذات. استوى نبض دقات قلبي استواء السفينة على جبل الجودي. من هذا العلو أصبحتُ أشعر

بالأمان. سأحكي قصة ليالات. سأرافع لأجلها ما دمت
الآن في ضيافتها في كهف الحمام. أما "ليلي" ديارى
ودراستي وصحبتى وعشقى، فهي الآن بعيدة عن هذه
اللحظات التي توغلت في الزمن الماضي البدائي
وأخذتني في سفر من جديد.

فهل يكون السفر حلما؟ رحلة الذات والولادة الجديدة
في الحياة؟ تشظيا مخترقا بأجزائه الزمان والمكان،
ومخترقا دواخل نفسي وشخصيتي، ووجودي الكياني؟
لا جواب على شعور وواقع حال.

استحضر فضاء الكتابة السردية مع كهف الحمام
أسطورة ليلات¹¹ القابعة في وجدان الإنسان وذاكرته
التاريخية المنسية. وحيث ارتباط الكهف بأسرار الحياة
البدائية الأولى مع اتخاذه مأوى، بقيت روح الحكاية
بعقبها تجول في أجوائه الساحرة.

كما أن الأسطورة تستطيع أن تحترق وتوظف في
الدراسة والحكي والشعر والإبداع، كذلك هنا تفاعل

11

* ليلات في الاسطورة المغيبة عن الحكي الشعبي
المرأة الأنتى الأولى التي كانت قبل حواء.!!!!

الكهف مع الأسطورة فاستحضر قصة قصيرة كجنس أدبي سيخترق مجهول الحكاية ويؤولها بخيال وتخيل، ببنيات تأويل وتحليل، سيعطي حياة جديدة بدائية، لعلها بداية البدايات في "كهف الحمام"

(1) بدائية البدايات

انْقَضَتْ عَلَيْهِ مَشْتَهِيَةٌ فَانْقَضَتْ عَلَيْهَا الْحَوَاسِ
انْتَشَاءً. أَسْرَعَتْ خَارِجَ الْمَغَارَةِ بِخَطَوَاتِ قَفْزٍ بَيْنَ
الْبَرَارِيِّ. لَمَلَمَ أَشْيَاءَهُ وَتَفَاحَتَهُ. سَبَقَهَا مِنْ ذَا الْغَصَنِ إِلَى
فَوْقِ الصَّخُورِ.

تَلَا حَقًّا فِي مَشْهَدِ الْفَرْحِ. تَبَادَلَا هَدَايَا الثَّمَارِ،
وَمَدَاعِبَاتِ التَّرَاشِقِ. هَمَمَتْ أَحَاسِيسُ الْبُوحِ. فَجَاءَتْ
تِرَاءَى صَيْدِ هَذَا الصَّبْحِ. غَزَالٌ فِي التَّقَاطِ عَشْبِ. بَادِرٌ
إِلَى قَرْبَانَ الْعَشْقِ. دَمٌ أَحْمَرٌ، وَنَارٌ، وَنَهْرٌ شُرْبِ.

الحمام في حزن العش، التماسيح كما
السلحفاة، تخبىء بيضها من أجل الفقص، القردة
حاضنة لصغارها، واللبوة مرضعة بحليبها أشبالها.

أشار بأصبعه إلى ذا الحزن. فجأة ثار الهشيم على
النار. تترب اللحم بقذف الجوارح. بدأ التسلق بين
الصخور ووسط أدغال الأشجار.

غابت ليلات* بطيف جسدها، شعرا أسود مسدولا
رغم العشيبات والعيدان المتسلقة والعالقة بما تجدل
وانجدل. ظهر استقام على جنبات عمود فقري، لاح
ثائرا بين الكتفين. أسدلت عتمة أجمة الأشجار الملتفة
ستارها عن مشهد، لأول مرة ركزت فيه بؤبؤتي عينيه
على أشكالٍ و الوانٍ وأحوالٍ اختلافٍ بينه وبينها، وبين

اشكال طبيعة والخلائق. صغر كتفيها بمقارنته،
واستدارة ردفها المتدليين، ورطوبة ونعومة ممرات
فخذيها الخلفية.

كان آخر ما التقطه البصر قبل أن تقفل الغابة
الموغلة لوحتها، كأنها تبتلع لونا قمحيا مأخوذا بشعر
أسود. كل الحركات تحولت إلى نقطة غائبة آفة. غار
الكل في اللاشعور والذكرى المنسية مع هذا الانسداد
المشهدي. انطوى حنينه وأنينه وتنهده، وشوقه
وتوجهه.

يومها شاهد قامته وتفاحته على مرآة سطح الماء.
يومها انعكست صورتها مع صورته متموجة في غياب
متصاعد، كأنه هو الذي غاب، هو الذي انسدل. حتى
حركته رافقها طيفها، حتى خياله تلون بشعرها

ورائحتها. حتى تنهده البدائي الشرس، انجرح بأه
توهجها. هذا الحرمان بعد إشباع، هذه الرغبة في
المفقود، هيَّجَتْهُ، فتحول إلى أقصى درجات بدائياته.

خَلَصَ نفسه من الفُؤد بالعنف، في شكل صيده
وافتراسه، شكل صراخه وتبؤله، شكل جريه وتسلقه.
إلى أن وجدها من جديد. لكنه اقتادها بقوة المحروم،
بالحب العنيف المفقود، وبالغربة الجامحة.

بين تمنع وتدل وتذمر وغضب وامتناع، بين أنانيتين،
تحول وجودها إلى قوة إخضاع، وهي المشتاقة إلى
حرية استعلاء، وهو الراغب في فرض طبيعة
استقواء. يومها أصبح جنسهما في ممارسته ذكوريا في
القيام والانشاء. كلُّ "الإناث" ولودات. كلهن حاضنات.

كانت أجمة الغابة قد أقفلت ستارها فحجبت عن دواخله نورها القمحي، وطيفها الحي في فؤاده. ها هو ينتزع النقطة من دواخل جهازه البصري. كلما بلغ درجة الاستمتاع، أغمض بصره وفتحه على تلك النقطة القمحية المنتزعة من ظلماء الستار الشجري. يضع ورقة توت على مكنم اللذة الموقظة للمشاعر حتى يستريح ، وتضع ورقتها على مكنمها حتى تتفرغ لحضانتها وتمنع اقترابها. لذة بدائية ملبية للغرائز الحيوانية. كما يضع ستارا على باب مغارته حتى يشير إلى ملكيتهما الخاصة، حتى يمنع هجوم الحيوان غير الأليف.

تعلم اللطف بعد القسوة، والآه بعد النشوة، والابتسامة بعد الصرخة، والهجر بعد اللذة...

يوم أنجبت، اختلطت مشاعرهما بين ألم وفرح، بين خوف ورغبة. يوم حضنت، أصبح جزءاً من حليبها ورائحتها ودفئها، ودغدغتها وهددهتها. أعطتها الطبيعة الخصائص، فتعودت وألفت، وقبلت دور اللبوة والحمامة والقردة وباقي إناث الطبيعة. كان صيده وكلؤه لهما وهو ثالثهما. كان مأؤه سقاية مغارتهم. كانت حكايات يومه، سمرَ ليلهما، وكانت إعادة التمثيل لمشاهد اليومي الخارجي، وعجائب الخلق الجديد خارج المغارة، خارج الحضانة. أصبحت لها حضانتان: احتضان للمولود الجديد، واحتضان لفارس الحكايات والمغامرات. وتلك بداية البدايات.

* مرافعة ليلات *

رافعتُ ليلات عن نفسها، بهدوء وسكينة وضمور داخلي ونفسي. لم تُردِّ تأثيراً على نبضات قلبي وعلى تناغم الأنفاس والتوازن الذاتي الطبيعي لي. هي اختارت الأسئلة الودیعة إذا:

لم أردتَ جعلی متحولة من ليلات إلى حواء؟ أردتَ الاستبداد باختيارك التاريخي، وفرض أدوارك على جنسي. ها أنت قد تحدثتَ عن ليلاك التي تركتها في المدينة، والتي ستعود للبحث عنها داخل ثقافتك. وفرق

بين ليلاك وليلات. أنا اخترت تسميتي، وأنا أغيرها
كيف أشاء. حكمتك بالبدائية كذلك ناقص في حملته
الموضوعية. البدائية طبيعية صحية، وليست همجية
متخلفة جاهلة. البدائية سلوك قويم مع متطلبات الحياة
البسيطة. والبساطة عقدها التاريخ البشري بما فرضه
من تحولات مصالح أنانية وحروب تدميرية واستبداد
واستغلال واحتكار للرأي والمصلحة، وعمليات إقصاء
للآخرين.

قد يكون عندك حنين إلى الأناضول بعد الشعور بهذه
الوحشة. وقد عبرت عنه بين ثنايا كهف الحمام. ستعود
إلى مدينتك ومدنيتك التي حققت لك ما ترغب فيه،
ونظمت لك عيشك ورفاهيتك بالأدوار التي تناسبك.
ستلتقي ليلاك، ولكن لا تفرض عليّ تصورك في
كتاباتك.

إن ليلات هي التي أعجبها ما كتبتة يوما انتصارا
لحقها الطبيعي، يومها لم تفرض علي كما في هذه
القصة القبول بالأدوار التاريخية البشرية التقليدية.
أتذكر خواطرك في هذا الشأ ، و سأرقص لها وعلى
إيقاعها ونغماتها باحتفاليتي البدائية. لست من تبحث
عن استغلال لذة وانصراف ولا عن استحواذ وقيود
عهود بشرية. لي أدواري مع الطبيعة انتصر لها وأعود
اليها. لن تجدني في المكان والزمان المناسبين
لتاريخك. أنا موجودة الطبيعة، ونسمة الريح العابرة.
وتمايل الأشجار وحفيف أوراق الغصون.

كتبت، وقارنت وكان عندك حنين إلى حريتي التي
تفتقدها. مجاملة لثورتي التي تخاف منها في دواخلك
ربما. وإلا فلمَ هذا التردد من جانبك بين بدائيتي
ومدنيتك.

تذكّر :

إن الذكرى لا تنفك خارج طبيعتك.

وتذكر، ما كتبته يوماً أنت:

امن تذكر ذكراك من زمن ، عشقت الهوى بقبلة لهفٍ،
بفمك

دستُ عرف العشيرة، نفضتُ قيودي و احزمتي في
حوضك.

نلت السعادة وما سعادتني بدونك، رويت الحب، سقيتُ
ظماً بفضلك.

يا ليلات، ليلاتي هذه ليأتي لك. يا جسد الطبيعة، فوحي
بعطرك.

انت بهم شهوة في الظلام مقضية، طهي، نسل، من
حواء يفديك.

نظمت شعرا سرى من عاشق، في عروقي يجري
ليلات هوالك.

انا الطبيعة، انا قدر الوجود، بعدكم، قربكم حواء. انا
ليلات مؤلفك.

سار الدهر نسيانا لذكرى كهوف، وذكرى حبيبة. ليته
قبر طمر ذكراك. لكنه في الهوى، العاشق والطبيعة
سيان، معا في تناسل الذكرى والحياة لك. بركان تفجر
حما في دواخلي. بين ليلات وحواء، بالحب ما بدلك.

لا تلوموني في حيرتي في تناقضي، لا تعجب، ما
يجري هنا حالي حالك.

اتعلمين ان حواء سراي، شبخ صورتك رفيقي بك.
مغارتك حاملة لعطر، غابر في الزمن من جسدك. آه
ليلات قالها النسل عنك:

ما الحب إلا لأول حبيب، ليس بعدك.

تجسدي في كل انثى، فما تشبُّحك بمُشفي غليلي منك.
ضحكت للفتي الحمقاء، كيف طوعت الحروف لك.
ضحكت من أقلامي الزرقاء، كيف خطت هوسًا،
تراقصت معاني بك!؟!

12

المرافعة - الحوار

سألتني ليلات عن ليلاي التي أنست عشرتها في
تاريخي الإنساني:

- كيف أعيش بين هذا التوق المتناقض، بين ليلاي
وليلات؟

حاولت تفسير سؤالها بأنه ليس بحثاً عن جواب بقدر ما هو بحث لذاتي عن تفسير وتوازن وخلق وعي جديد، إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً:

- ها انت الآن في ضيافة كهف الحمام، خارج دائرة الزمن الثقافي والاجتماعي نسبياً. كيف تصف ليلاك في عالمك وداخل مدنيتك؟

كان السؤال فتحاً لبئر عميق. أنفاس وتنهيدات متراكمة، وأشواق منتظرة أو ضائعة. كانت لحظات مورقة مشعة كمصابيح تنير دواخلي في لحظات تعتمها. كما كانت لحظات موجعة انكوت بها أحاسيسي. هو خطو الإنسان في خط زمن الحياة. قد لا يستقيم، قد يكبو، قد يواكب... فلو أنه عاش على توقف ناظر إلى ما مضى من طريق الحياة لتعثر فيما هو آت.

لاحظت ليالات حفري بعود صلب لخطوط ورموز على
جنبات صفحة الحجارة التي أجلس عليها. لم يكن
إنجازا أو ترجمة لأحداث يوم من حياة. كان تصريفا
عصيبا لما لم أستطع بعدُ بوحه أو تحقيقه، أو إبعاده من
كياني كحسرات مضت. و ما مضى إلا جزء مني
مقتطع من عالمي:

- ليلاي مجزأة بين دروب عديدة. لا أجدها مكتملة في
زهرة واحدة. ليلاي ليست مادة فقط. ليلاي ابتسامات
متفرقة، وأصوات حنونة. هي عيون إذا التقت بعيوني
كانت كأشعة تغذية وجدانية، يحتاجها كل منا في يومه
ووجوده.

- ليلاي تواصل آدمي وتبادل تحية. هي حب متدرج
بين ليالي. كم أحتاجها فقط لتبادل أنس بين جنسين

ذكوري وأنثوي. كم أحتاجها وتحتاجني لتبادل أفكار
وتجريب طرق تأثير وتأثر نحاول من خلالها كسب
رهان جذب وامتلاك لمشاعر الآخر وسحره وفتنه حتى
يصبح من دائرة عشقنا وغرامنا، حتى نُؤلِّد معه أنا
أخرى خارج الذات.

- هي الحب إذا، حينما تكون ليلاي تفكر في طول زمن
النهار. بينما تهبُّ ريح مفاجئة، فتدوي بأصوات
مهيبه، فتثير خوفا على الآخر، فتزداد النبضات
ويحتاج كل منا إلى لفِّ الزمن والمكان لأجل ضم
الآخر وضمن وجوده على قيد الهناء والسكينة
والاطمئنان وفي حزن الأشواق والرغبة الجامحة
المعانقة، بدمع الفرح المختلط بالخوف الذي سامر
والذي ساير لحظات الابتعاد والتوجس من الغياب.

هذه صورة من ليلاتي مجزأة فوق نسيج حياتي
ومدنيتي.

+ ألا تشعر بأنك تتكلم من زاوية ابتغائك واشتهائك
وقطبيتك؟

ألا ترى بأنني ليلات حاضرة في ليلاك، باحثة عن
إرجاعك لطبيعة الحياة؟ محاولة تصحيح ما ضيعته
الانسانية من ليلات؟

نضالي سرمدي إذا من أجل تصحيح اعوجاج تاريخ
وتضميد جروح أنفاس.

+ لستُ الفناء ولا الأسطورة. أنا الحياة وأنا الرغبة
والاشتهاء. أنا كذلك الحرية والانطلاق للحياة. لكنني
لستُ أيضا فريستك ولا شهوتك في الانقضاء، وسيل

لعابك والسلام. لستُ أدوارك التاريخية التي أصبحت
سياسة رسمية باسم الدين والمؤسسة والتربية.

+ أنا زاوية خارج الإطار . أنا طبيعة خارج اللوحة
المرسومة. لم تستطع حواسك الاستمتاع بها ذوقا وفنا
وجمالا... أنا أسرار لن تكتشفها إلا بعد رجوعك
لليلات. أنظر إلى الخلائق! أنا نوع من المتزواج
بكرامة. يحتاج إلى إخلاص ووفاء، إلى صدق وصفاء.
+ أين وصلت من كل هذا في ليلات؟ وهل تحققه مع
ليلاك؟ أنا زاوية من روحك، التائهة في دواخل
وجدانك !

- التاريخ معقد ومتشابك في دواخلي. بين الطبيعة
والثقافة والاجتماع ، تشكلت شخصيتي فما عدتُ ما
تطلبينه مني. ولكنك تستطيعين استرداده بذكاء. أعلم

أن حضورك موجود في كل ليلاي، وفي كل حواء.
أعلم لحظات تمردك ورغبتك الجامحة في الانطلاق.
لا تنسي أن القيود التي تكبلك تكبلني، وأن الضيق الذي
يخنقك يخنقني، أنا سيان في ضياع الذات. فهل أنا ما
أردته في الحياة؟ هل أنا بطموحاتي التي آملتها منذ
صباي، منذ نعومة أظفري، منذ تفتح يرقتي وبراعم
مشاعري وإحساسي؟ إشكال في التجنيس بيني وبينك.
يحاول كل منا البحث عنه داخل مدنيتي، في اللباس
وفي اللعب، في الحركة والرقص والصوت والسلطة
والجنس كذلك. أنت ليلات، تركت هذا المحك، وهو
اختيارك لتبقي في صفاء طبيعتك. لكننا داخل المدينة
والمدينة، كمن القي به في تيار يم جارف ينعرج به
بين صخور ووديان. هو تيار التاريخ والحياة. من منا
الآخر ومن منا هو أنا أم أنت؟ لا تحديد و لا حدود
لجواب !

+ - مرافعتك جميلة، فهل تستطيع تجريب حياة الكهف من جديد؟ أم إنك ستخترق دائرتك بعد النزول من الكهف واختراق سديم حياتك المدنية، فتغيب معه رؤياك الطبيعية من جديد. هذه التي حاورتني وحاولت اكتشافي بها من جديد.

+ كم من مرة زرت كهف الحمام، وكم من مرة ترجيت بعد عودتك من نزهة طبيعية - وها هي النزهة دالة على أنك تقتطع من المدنية لزيارة مؤقتة للطبيعة - لو أن النفوس والطباع تبدلت، فوجدتها كيفما بدا لك، عيون مبتهجة بك، قلوب عاشقة لظلك، سلام وتسامح مصافح لصدرك. أحلام تتغذى بها من طبيعتي. وحينما تخترق أول زقاق و أول شارع، تجد صدمة الواقع

الذي تركته، فترجع نفسك وتعود لازمتك: الواقع لا يرتفع. لن أستطيع عيش خلود الحياة، أوج الطبيعة. لن أستطيع تحقيق ما غنته فيروز للشاعر جبران خليل جبران إلا في الفن والموسيقى والرقص واعتناق حلم الطبيعة. وكم مرة سافرت شذى وطربا:

أعطني الناي وغني فالغنى سر الخلود .

ليلات:

ارادوك اسطورة،

حكايتك مرفوضة.

ليلات انت منفية الوجود الغابر ليليات.

ارادوك وهما منسيا ، لكن في كل منا

ليلات.

في وحدانيتك

لا انت من اهل الجنة جنتك

ولا انت من اهل جهنم جهنمك

ليلات:

انت خارج اللعبة

سنجب ومنتاسل، ابقى خلف الستار داخل الأدغال

ليلات:

اكتشفنا النار والدخان والعيال

من يطبخ لنا، من يغسل صحنونا ويطهي الطيور

والأوعال

ليلات:

اخرجني من كهوفنا

مرحبا بك حواء.

سنشتق منك ما يلبي الغريزة والغريزة والغريزة،

اتقبلين؟

حواء

نُبدل بك ليلات،

ظريفة حبيبة خصبة

حواء

اعطيننا العنفوان وصهوة الجسد

امتطينا ظهرك

امتزجت الآهات مع ريح الشعاب وقطرات النسل
مع الأمطار الآتية مع الضباب
في هيجاني تحضرني تحسرنى حركة،
رشاقة طبيعة ابتسامه الطبيعة

ليلات

أين انت؟

ناديت الآفاق والجمال والهضاب

أين انت ليلاتي؟

شكأت عقدتي حاربت الجبهات

لطمتُ كفى لأجلك على جبهتي،

نعم حواء

لا ليالات

امتلكت عدتي وغريزتي وهبتها لغيرك عزيزتي

ليالتي

وتستمر أسطورت ليالتي... ليالتي.

لأجل ذكراك: مفكرتي وقصيدتي، ليالات.

...

ما يفترض أنه نهاية للسرد والحكي، وما هو بنهاية

...

اصبح عالم الطبيعة مكتسيا حلة ألوان آخذة في الدكن.
وأصبح للونين الوردى والقرمزي هالة احتفاء بأخر
النور الذي سينسدل بعده ظلام السكون. لا أتذكر كيف
وجدت نفسي بغتة ماشيا في الطريق الإسمنتي من
جديد، رافعا رأسي تجاه واجهة الجبل الصخري وثرغ
كهف الحمام.

كيف استطعت النزول من منحدره الوعر في التسلق،
فما بالك بالهبوط بين فتحات صخوره. بقيت الحوارات
مشتغلة في ذهني كما تبقى الآلات مشتغلة في معمل
مبرمج رغم خروج العمال والتقنيين منه. شعرت
بالاغتراب مع سياق هذه الرحلة داخل ذاتي، رغم أنني
شعرت كذلك بالنقيض، باكتشافات جديدة وعوالم فريدة
طرقتها في كهف الحمام.

كان أذان الصوامع متفاوتا حينما انتقلت من منحرجات الطريق وأشرفت على منظر المدينة وهي متنورة كثيرا جميلة فاتنة، وكامرأة معانقة للسماء بجسد مسترخ على الأرض ينتظر حلول الليل و إسدال الستائر لكي يختمر بالوجد والشوق والدعاء. كنتُ في لحظة من هذا التأمل كمن جاء من رحلة طويلة. ترى، هل بقيت المدينة بنفس ما تركتها عليه؟ أم أنها تغيرت وتبدلت؟

استأنست بهذه التساؤلات المغامرة في الذهن والوجدان. اتخذت جلسة بجانب الطريق على سور قصير مناسب للجلوس. أمامي احتفالية الأضواء والأطلال. نسيم بارد ومنعش يلم مسام الجسد فيحدث قشعريرة ناعمة تجعلك تحن ٥ الى استرخاء نوم ودفء

فراش. سنة الطبيعة في الليل والنهار. لم أجد من المارة
أحداً أو من المتنزهين شخصاً. ربما الكل أصبح داخل
المدينة في انسه وأنا لا زلت في وحشة المكان. شعور
بالاغتراب إذاً جعل مسافة الزمن خلال هذه الرحلة إلى
كهف الحمام كأنه استغرق سنوات وعقوداً من الزمن
طويلة. لمحت عيناى أطلال الصوامع العارضة إلى
السماء بمصابيحها الكاشفة لحجمها وهندستها
العمودية. استحضرت بين اغتراب الزمن وامتداد
المآذن، قصة أهل الكهف ونومهم العميق الذي كان
ليالي عندهم، وقرونا داخل الكهف والرواية. هل سأجد
نفس الناس في المدينة أم إنني سأخترق أجيالا بعدي؟
وماذا لو أنها لم ولن تتعرف علي؟ كيف أستطيع
التعايش ومواجهة المسألة؟

كم من مرة تجد سلوكا مفاجئا ومناقضا من أكبر المقربين لك. تلامس فيه الغدر والتحول المفاجيء والتنكر لعهود القيم الجامعة للعلاقة بينكما او بينكم. حينها تقول هل الزمن دوار بهذه السرعة. تلك الحالة التي استشعرتها هذا المساء: ماذا لو كان الزمن دوارا والمدينة دوارا كذلك والناس؟

لحظة مرت سيارة بسرعة متباطئة ومستمتعة بمنظر المدينة: "الثريا المسترخية فوق تلال متموجة". من نافذة السيارة الأمامية مرت تحية يد خارجها مع السلام والمباركة:

- تبارك الله على السي حسن. بالصحة الطبيعة والغروب.

- الله يبارك فيك آ السي عبده. بالصحة 'لمساريا'.

حينها استشعرت الرجوع من الاغتراب إلى الأنس
الآدمي المدني. كم منا يحتاج إلى تأكيد هذا الأنس ولو
بالمروور في زحام مروور وسماع الأصوات والحركات.

وفي المسير من جديد، وأنا مقترب من صهريج الماء
وبوابة الدخول إلى المدينة من جهة خبير والحي
الإداري، تغذيت بأطلال وطيف الأشجار العاكس للظل
العاتم وأشعة الأضواء المراقصة والذائبة في سواد
الليل. راقبت طيف المحاورين لي في كهف الحمام
والخلائق التي تركتها داخل جبل الدكانة.

وجبة "الكفتة المشوية" وجلسة المقهى بين عصابة
الاصدقاء تناديني. ترى متى سأعود لمثل هذه الرحلة

من جديد، لملاقة أهلها ومحاورتهم في الجديد ومن جديد؟!12!

في سيرة مدينة نسيج سرد وحياة مجتمع. تاريخ مشترك في تحقيق الجمال
رغم نسبية الواقع وتبدل الأحوال.
تخضر نصوص أساسية وأخرى ملحقه ومنضافة، ويبقى المتن مفتوحا على
الآتي طبعا.

١ / شارب الذهب

٢ / باب القصة

٣ / مقامات سيدي محمد بن قاسم

٤ / الطيف والمرآة

٥ / كهف الحمام

...

